



كتب إلكترونية
وحصريّة



أوراق عربية

مؤسسة

الأوراق

الثقافية

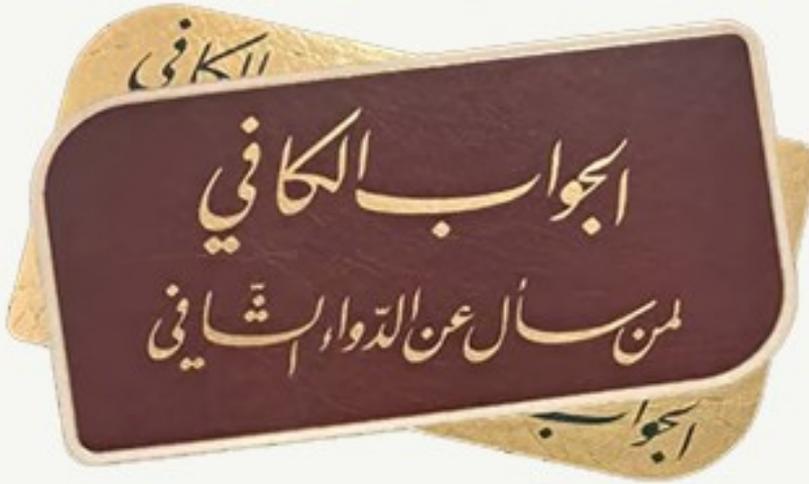
للنشر

الإلكتروني

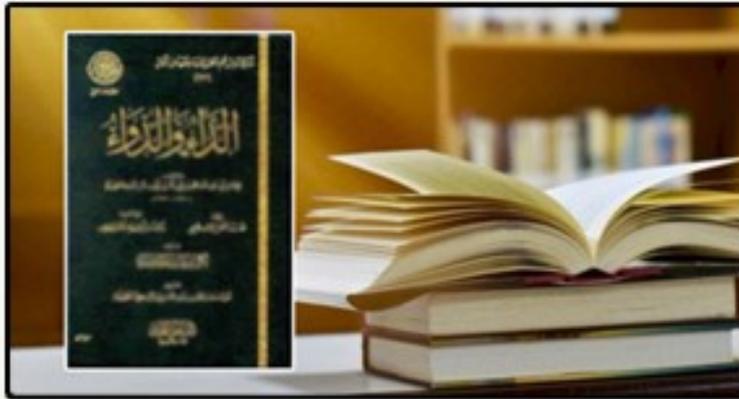
رؤية
VISION
2030

مؤسسة الأوراق العربية
Institution of Arabic Paper

aawraq.com



قرأه لكم واستخرج عصارة فوائده :
د. عبدالله الملاذي



١٤٤٥هـ

٢٠٢٤م



جميع الحقوق محفوظة

منصة أوراق عربية - www.aawraq.com

أحد مشاريع مؤسسة الأوراق الثقافية للنشر الإلكتروني .

ترخيص وزارة الإعلام رقم (١٤٩٨٣٧)

موقعها الجغرافي : جدة - المملكة العربية السعودية

هاتف: (٩٦٦٥٣٦٩٣١٥٥٦)

البريد الإلكتروني للمؤسسة والمنصة: tinfo@aawraq.com

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمنصة (أوراق عربية)

حقوق النشر الخاصة بالكتاب محفوظة للمؤلف

تنبيه:

الآراء المنشورة في الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ومنصة (أوراق عربية) لا تتحمل أي مسؤولية أدبية أو قانونية مترتبة عليها.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

مَا تَقُولُ السَّادَةُ الْعُلَمَاءُ، أُمَّةُ الدِّينِ - أَجْمَعِينَ - فِي رَجُلٍ اتَّبَعَ بَيْلِيَّةً وَعَلِمَ أَنَّهَا إِنِ اسْتَمَرَّتْ بِهِ أَفْسَدَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ، وَقَدْ اجْتَهَدَ فِي دَفْعِهَا عَنْ نَفْسِهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، فَمَا يَزِدُّهُ إِلَّا تَوَقُّدًا وَشِدَّةً، فَمَا الْحِيلَةُ فِي دَفْعِهَا؟ وَمَا الطَّرِيقُ إِلَى كَشْفِهَا؟ فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَعَانَ مُبْتَلَى، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، أَفْتُونَا مَا جُورِينَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

فَأَجَابَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُفْتِي الْمُسْلِمِينَ، شَمْسُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ أَيُّوبَ إِمَامَ الْمَدْرَسَةِ الْجُوزِيَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

الْحَمْدُ لِلَّهِ، أَمَا بَعْدُ: فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»^(١).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أَصَابَ دَوَاءٌ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ»^(٢).

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عِلْمُهُ مِنْ عِلْمِهِ وَجِهَلُهُ مِنْ جِهَلِهِ»^(٣)، وَفِي لَفْظٍ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، أَوْ دَوَاءً، إِلَّا دَاءً وَاحِدًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هُوَ؟ قَالَ: الْهَرَمُ» قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ^(٤).

(١) في كتاب الطب (٥٦٧٨).

(٢) في كتاب السلام (٢٢٠٤).

(٣) المسند ٤ / ٢٧٨ (١٨٤٥٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٣٨) وأبو داود (٢٠١٥) وابن ماجه (٣٤٣٦) وأحمد (١٨٤٥٤).

وَهَذَا يُعْمُ أَدْوَاءَ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالْبَدَنِ وَأَدْوِيَّتَيْهَا.

وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْجَهْلَ دَاءً، وَجَعَلَ دَوَاءَهُ سُؤَالَ الْعُلَمَاءِ، فَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مَنَا حَجْرٌ، فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيْمَمِ؟ قَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً، وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ، فَاعْتَسَلَ، فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ أُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ إِلَّا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَّمَمَ وَيَعْرِصَ - أَوْ يَعِصَبَ - عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلُ سَائِرَ جَسَدِهِ»^(١).

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْجَهْلَ دَاءٌ، وَأَنَّ شِفَاءَهُ السُّؤَالُ.

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ شِفَاءٌ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [سُورَةُ فَصَّلَتْ: ٤٤].

وَقَالَ: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٨٢]، وَ (مِنْ) هُنَا لِيَبَانَ الْجِنْسَ لَا لِلتَّبَعِيضِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ شِفَاءٌ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَهُوَ شِفَاءٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ وَالشُّكِّ وَالرَّيْبِ، فَلَمْ يُنَزَّلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ السَّمَاءِ شِفَاءً قَطُّ أَعْمَمٌ وَلَا أَنْفَعٌ وَلَا أَعْظَمٌ وَلَا أَشْجَعٌ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ مِنَ الْقُرْآنِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: «انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَاسْتَصَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلَدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة (٣٣٦). قال الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٤): «حديث حسن؛ إلا قوله:

"إنما كان... إلخ"؛ فإنه ضعيف؛ لأنه ليس له شاهد معتبر».

يَكُونُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُرْقِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ حَتَّى تَجْعَلُوا لِي جُعَلًا، فَصَاحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَاذْطَلَقَ يَتَقَلُّ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَاذْطَلَقَ يَمْشِي، وَمَا بِهِ قَلْبَةٌ، فَأَوْفَوْهُمْ جُعَلَهُمُ الَّذِي صَاحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْتَسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقِيَ: لَا نَفْعَ حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَانظُرْ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهُا رُقِيَّةٌ؟» ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْتَسِمُوا وَأَضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا»^(١).

فَقَدْ أَثَرَ هَذَا الدَّوَاءَ فِي هَذَا الدَّاءِ، وَأَزَالَهُ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ أَسْهَلُ دَوَاءٍ وَأَيْسَرُهُ، وَلَوْ أَحْسَنَ الْعَبْدُ التَّدَاوِيَّ بِالْفَاتِحَةِ، لَرَأَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا فِي الشِّفَاءِ.

وَمَكَثَتْ بِمَكَّةَ مُدَّةً يَعْتَرِبُنِي أَدْوَاءٌ وَلَا أَجِدُ طَبِيبًا وَلَا دَوَاءً، فَكُنْتُ أَعْلِجُ نَفْسِي بِالْفَاتِحَةِ، فَأَرَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا، فَكُنْتُ أَصِفُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشْتَكِي الْمَأْمُومًا، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْرَأُ سَرِيعًا.

وَلَكِنْ هَاهُنَا أَمْرٌ يَنْبَغِي التَّنَطُّنُ لَهُ، وَهُوَ أَنَّ الْأَذْكَارَ وَالْآيَاتِ وَالْأَدْعِيَةَ الَّتِي يُسْتَشْفَى بِهَا وَيُرْقَى بِهَا، هِيَ فِي نَفْسِهَا نَافِعَةٌ شَافِيَةٌ، وَلَكِنْ تَسْتَدْعِي قَبُولَ الْمُحِلِّ، وَقُوَّةَ هِمَّةِ الْفَاعِلِ وَتَأْثِيرَهُ، فَمَتَى تَخَلَّفَ الشِّفَاءُ كَانَ لِضَعْفِ تَأْثِيرِ الْفَاعِلِ، أَوْ لِعَدَمِ قَبُولِ الْمُتَفَعِّلِ، أَوْ لِمَانَعِ قُوِّيٍّ فِيهِ يَمْنَعُ أَنْ يَنْجَعَ فِيهِ الدَّوَاءُ، كَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَدْوِيَةِ وَالْأَدْوَاءِ الْحَسِّيَّةِ، فَإِنَّ عَدَمَ تَأْثِيرِهَا قَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ قَبُولِ الطَّبِيعَةِ لِذَلِكَ الدَّوَاءِ، وَقَدْ يَكُونُ لِمَانَعِ قُوِّيٍّ يَمْنَعُ مِنْ اقْتِضَائِهِ أَثَرَهُ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ إِذَا أَخَذَتْ الدَّوَاءَ بِقَبُولٍ تَامٍّ كَانَ انْتِفَاعُ الْبَدَنِ بِهِ

(١) أخرجه البخاري في الإجارة، باب ما يعطي في الرقية ... (٢٢٧٦) وغيره، ومسلم في السلام، باب جواز أخذ

الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار (٢٢٠١).

بِحَسْبِ ذَلِكَ الْقَبُولِ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا أَخَذَ الرُّقَى وَالتَّعَاوِيذَ بِقَبُولٍ تَامٍّ، وَكَانَ لِلرَّاقِي نَفْسٌ فَعَالَةٌ وَهَمَّةٌ مُؤَثَّرَةٌ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ.

وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي دَفْعِ الْمَكْرُوهِ، وَحُصُولِ الْمَطْلُوبِ، وَلَكِنْ قَدْ يَتَخَلَّفُ أَثَرُهُ عَنْهُ، إِمَّا لِضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ - بِأَنْ يَكُونَ دُعَاءً لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْعُدْوَانِ - وَإِمَّا لِضَعْفِ الْقَلْبِ وَعَدَمِ إِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ وَجَمْعِيَّتِهِ عَلَيْهِ وَقَتِ الدُّعَاءِ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْقَوْسِ الرَّخْوِ جَدًّا، فَإِنَّ السَّهْمَ يُخْرُجُ مِنْهُ خُرُوجًا ضَعِيفًا، وَإِمَّا لِحُصُولِ الْمَانِعِ مِنَ الْإِجَابَةِ: مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ، وَالظُّلْمِ، وَرَيْنِ الذُّنُوبِ عَلَى الْقُلُوبِ، وَاسْتِيْلَاءِ الْغَفْلَةِ وَالشَّهْوَةِ وَاللَّهْوِ، وَغَلَبَتِهَا عَلَيْهَا.

كَمَا فِي مُسْتَدْرِكِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»^(١) فَهَذَا دَوَاءٌ نَافِعٌ مُزِيلٌ لِلدَّاءِ، وَلَكِنَّ غَفْلَةَ الْقَلْبِ عَنِ اللَّهِ تُبْطِلُ قُوَّتَهُ.

وَكَذَلِكَ أَكْلُ الْحَرَامِ يُبْطِلُ قُوَّتَهُ وَيُضْعِفُهَا، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ١ / ٦٧٠ - ٦٧١ (١٨١٧) والترمذی (٣٤٧٩) وابن حبان في المجروحین (١) (٣٦٨) وابن عدي في الكامل (٤ / ٦٢) وغيرهم، من طريق صالح المري عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة، فذكره. قال الحاكم: "هذا حديث مستقيم الإسناد، تفرد به صالح المري، وهو أحد زهاد البصرة، ولم يخرجه". وتعقبه الذهبي بقوله: "صالح متروك". والحديث ضعفه الترمذی، وعده ابن عدي وابن حبان من منكرات صالح المري. وورد من حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد في المسند ٢ / ١٧٧ (٦٦٥٥) لكنه من طريق حسن بن موسى عن ابن لهيعة قال ابن المديني: "الحسن بن موسى إنما سمع من ابن لهيعة بأخرة...". وحسنه المنذري والهيثمي وكذلك الألباني انظر: الترغيب والترهيب (٢ / ٤٩١ - ٤٩٢) ومجمع الزوائد (١٠ / ١٤٨) ومسند الفاروق لابن كثير (٢ / ٦٤٩) وصحيح الترغيب (١٦٥٣).

فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وَقَالَ:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ
أَغْبَرًا، يُمَدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ
بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»^(١).

وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ: أَصَابَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَلَاءٌ، فَخَرَجُوا مَخْرَجًا، فَأَوْحَى
 اللَّهُ إِلَيْ نَبِيِّهِمْ أَنْ أَخْبِرْهُمْ: إِنَّكُمْ تَخْرُجُونَ إِلَى الصَّعِيدِ بِأَبْدَانٍ نَجِسَةٍ، وَتَرْفَعُونَ إِلَيَّ أَكْفًا قَدْ سَفَكْتُمْ بِهَا
 الدَّمَاءَ، وَمَلَأْتُمْ بِهَا بُيُوتَكُمْ مِنَ الْحَرَامِ، الْآنَ حِينَ اشْتَدَّ غَضَبِي عَلَيْكُمْ؟ وَلَنْ تَزِدُوا مِنِّي إِلَّا بُعْدًا.
 وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: يَكْفِي مِنَ الدُّعَاءِ مَعَ الْبِرِّ، مَا يَكْفِي الطَّعَامَ مِنَ الْمَلْحِ^(٢).

فَضْلٌ

وَالدُّعَاءُ مِنْ أَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ، وَهُوَ عَدُوُّ الْبَلَاءِ، يَدْفَعُهُ، وَيُعَالِجُهُ، وَيَمْنَعُ نَزْوَلَهُ، وَيَرْفَعُهُ، أَوْ يُخَفِّفُهُ إِذَا
 نَزَلَ، وَهُوَ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ.

كَمَا رَوَى الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الدُّعَاءُ
 سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(٣).

(١) صحيح مسلم كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧٨٨)، وابن المبارك في الزهد (٣١٩) وغيرهما.

(٣) المستدرک ١ / ٦٦٩ (١٨١٢). وأخرجه ابن عدي في الكامل (١٧٢ / ٦) والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٣)

وغيرهما. قال الحاكم: "هذا حديث صحيح، فإن محمد بن الحسن هذا هو التل أو هو صدوق في الكوفيين لكن

قال الألباني: «محمد بن الحسن الهمداني هذا ليس هو التل الصدوق كما قال الحاكم، وإنما هو محمد بن الحسن بن

وَلَهُ مَعَ الْبَلَاءِ ثَلَاثُ مَقَامَاتٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ أَقْوَى مِنَ الْبَلَاءِ فَيَدْفَعُهُ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ أضعَفَ مِنَ الْبَلَاءِ فَيَقْوَى عَلَيْهِ الْبَلَاءُ، فَيَصَابُ بِهِ الْعَبْدُ، وَلَكِنْ قَدْ يُخَفِّفُهُ، وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا.

الثَّالِثُ: أَنْ يَتَّقَا وَمَا وَيَمْنَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ.

وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُغْنِي حَذْرٌ مِنْ قَدْرِ، وَالِدُعَاءِ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ فَيَلْقَاهُ الدُّعَاءُ فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِالِدُّعَاءِ»^(٢).

أبي يزيد الهمداني الكذاب «ولهذا حكم عليه بالوضع، انظر: تهذيب الكمال (٧٦ / ٧٩ - ٧٩) والسلسلة الضعيفة للألباني (١٧٩)

(١) المستدرک / ١ / ٦٦٩ (١٨١٣). وأخرجه الطبراني في الدعاء (٣٣)، والبخاري في مسنده (زوائده: ٢١٦٥) وغيرهما. قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وتعقبه الذهبي بقوله: "ذكرنا مجمع على ضعفه" وقال الألباني في الضعيفة (٦٧٦٤): «ضعيف جدا».

(٢) المستدرک / ١ / ٦٧٠ (١٨١٥). وأخرجه الترمذي (٣٥٤٨) من طريق عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي مليكة عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر، فذكره. قال الترمذي: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي، وهو ضعيف في الحديث، ضعفه بعض أهل العلم من قبل حفظه". وقال الذهبي في التلخيص: "عبد الرحمن واه" بينما حسنه الألباني لغيره كما في صحيح الترغيب (١٦٣٤) وضعفه من مسند أبي هريرة وعبادة في السلسلة الضعيفة (٦١٦٢) و(٦٧٦٤).

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبُرُّ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْرُمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»^(١).

فَصَلِّ

وَمِنْ أَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ: الْإِلْحَاحُ فِي الدُّعَاءِ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَاجَهَ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»^(٢).

وَفِي صَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَعْجِزُوا فِي الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَهْلِكُ مَعَ الدُّعَاءِ أَحَدٌ»^(٣).

(١) المستدرک / ٦٧٠ / (١٨١٤). وأخرجه ابن ماجه (٤٠٢٢) وأحمد ٣٧ / ٦٨ (٢٢٣٨٦) وابن حبان (٨٧٢) والبعثي في شرح السنة ١٣ / ٦ (٣٤١٨) وغيرهم، من طريق الثوري عن عبد الله بن عيسى عن عبد الله بن أبي الجعد عن ثوبان، فذكره. قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه". قلت: ولم يتعقبه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٤).

(٢) (٣٨٢٧). وأخرجه الترمذي (٣٣٧٣) وأحمد ٢ / ٤٤٢ (٩٧٠١) والحاكم ١ / ٦٦٨ (١٨٠٧) وغيرهم، من طريق أبي المليح عن أبي صالح الخوزي عن أبي هريرة، فذكره. قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥١٣/٦٥٨).

(٣) المستدرک / ٦٧١ / (١٨١٨). وأخرجه ابن حبان (٨٧١) والعقيلي في الضعفاء (٣ / ١٨٨) وابن عدي في الكامل (١٣ / ٥) وغيرهم، من طريق عمر بن محمد بن صهبان الأسلمي عن ثابت عن أنس فذكره. صححه الحاكم قال الحافظ في اللسان (٦ / ١٤١): "صححه الحاكم فتساهل في ذلك"، وقال الألباني في الضعيفة (٨٤٣): «ضعيف جدا».

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُجِيبِينَ
فِي الدُّعَاءِ»^(١).

وَفِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ مَوْرُقٌ: مَا وَجَدْتُ لِلْمُؤْمِنِ مَثَلًا إِلَّا رَجُلًا فِي الْبَحْرِ
عَلَى خَشْيَةٍ، فَهُوَ يَدْعُو: يَا رَبِّ يَا رَبِّ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُنْجِيَهُ.

وَمِنَ الْأَقَاتِ الَّتِي تَمْنَعُ تَرْتُبُ أَثَرَ الدُّعَاءِ عَلَيْهِ: أَنْ يَسْتَعْجِلَ الْعَبْدُ، وَيَسْتَبْطِئَ الْإِجَابَةَ، فَيَسْتَحْسِرُ
وَيَدْعُ الدُّعَاءَ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ بَدَرَ بَدْرًا أَوْ غَرَسَ غَرْسًا، فَجَعَلَ يَتَعَاهَدُهُ وَيَسْقِيهِ، فَلَمَّا اسْتَبْطَأَ كَمَالَهُ
وَأَدْرَاكَهُ تَرَكَهُ وَأَهْمَلَهُ.

وَفِي الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ:
دَعْوَتْ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»^(٢).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجَلْ»
قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْتَعْجَالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرُ يُسْتَجَابْ لِي،
فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ»^(٣).

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٤ / ٤٥٢) والطبراني في الدعاء (٢٠) وابن عدي في الكامل (٧ / ١٦٤)، من طريق
بقية عن يوسف بن السفر عن الأوزاعي به، فذكره. ويوسف هذا متروك، قاله أبو زرعة والنسائي. وقال
البخاري: كان يكذب. وقال ابن عدي: "وهذه الأحاديث التي رواها يوسف عن الأوزاعي بواطيل كلها"، وقال
الألباني في الضعيفة (٦٣٧): «باطل».

(٢) كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (٦٣٤٠).

(٣) كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل (٢٧٣٥).

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ»
 قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَسْتَعْجِلُ؟ قَالَ: «يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي»^(١).

فَصْلٌ

وَإِذَا جَمَعَ مَعَ الدُّعَاءِ حُضُورَ الْقَلْبِ وَجَمْعِيَّتَهُ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى الْمَطْلُوبِ، وَصَادَفَ وَقْتًا مِنْ أَوْقَاتِ الإِجَابَةِ
 السَّيِّئَةِ، وَهِيَ:

الثُّلُثُ الأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ، وَعِنْدَ الأَذَانِ، وَبَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ، وَأَدْبَارُ الصَّلَوَاتِ المَكْتُوبَاتِ، وَعِنْدَ
 صُعودِ الإِمَامِ يَوْمَ الجُمُعَةِ عَلَى المِنْبَرِ حَتَّى تُقْضَى الصَّلَاةُ مِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ، وَآخِرُ سَاعَةِ بَعْدَ العَصْرِ.
 وَصَادَفَ خُشُوعًا فِي الْقَلْبِ، وَأُنْكَسَارًا بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ، وَذُلًّا لَهُ، وَتَضَرُّعًا، وَرِقَّةً.

وَاسْتَقْبَلَ الدَّاعِيَ القِبْلَةَ.

وَكَانَ عَلَى طَهَارَةٍ.

وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ.

وَبَدَأَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالشَّاءِ عَلَيْهِ.

(١) المسند ٣/ ١٩٣ (١٣٠٠٨، ١٣١٩٨). وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٨٦٥) والطبراني في الدعاء (٨١) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢١٤) وغيرهم، من طريق أبي هلال الراسبي عن قتادة عن أنس به فذكره. أبو هلال اسمه محمد بن سليم. في حفظه مقال، ويخالف أو يتفرد عن قتادة ولهذا قال ابن عدي بعد ما ساق لأبي هلال أحاديث: "وهذه الأحاديث لأبي هلال عن قتادة عن أنس كل ذلك أو عامتها غير محفوظة". وقد روي من وجهين عن أنس، ولا يثبت. انظر مسند البزار (٦٦٦٦) والحلية (٦/ ٣٠٩). بينا صححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٥٠).

ثُمَّ تَنَى بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

ثُمَّ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ حَاجَتِهِ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ.

ثُمَّ دَخَلَ عَلَى اللَّهِ، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَمَتَّقَهُ وَدَعَاهُ رَغْبَةً وَرَهْبَةً.

وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَتَوْحِيدِهِ.

وَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ دُعَائِهِ صِدْقَةً، فَإِنَّ هَذَا الدُّعَاءَ لَا يَكَادُ يُرَدُّ أَبَدًا، وَلَا سِيَّأُ إِنْ صَادَفَ الْأَدْعِيَةَ الَّتِي

أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا مَظْنَةٌ الْإِجَابَةِ، أَوْ أَنَّهَا مُنْضَمِّنَةٌ لِلْأَسْمِ الْأَعْظَمِ.

فَمِنْهَا مَا فِي الشُّنَنِ (وَفِي) صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: «لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِالْأَسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ

أُجِبَ» وَفِي لَفْظٍ: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِأَسْمِهِ الْأَعْظَمِ»^(١).

وَفِي الشُّنَنِ وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانٍ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا

وَرَجُلٌ يُصَلِّي، ثُمَّ دَعَا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٣، ١٤٩٤) والترمذي (٣٤٧٥) وابن ماجه (٣٨٥٧) وابن حبان (٨٩٢) وأحمد ٥ / ٣٥٠

(٢٢٩٦٥، ٢٢٩٥٢) من طريق مالك بن مغول عن ابن بريدة عن أبيه، فذكره، وصححه الألباني في صحيح أبي

داود (١٣٤١).

وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ دَعَا اللَّهُ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَحْبَبَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ»^(١)، أَخْرَجَ الْحَدِيثَيْنِ أَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ.

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ، مِنْ حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٦٣]، وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿الْم - اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ﴾»^(٢) قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَصَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ وَرَبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْأَطْوَابُ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٣) يَعْنِي: تَعَلَّقُوا بِهَا وَالزُّمُوا وَدَاوُوا عَلَيْهَا.

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَهَمَّهُ الْأَمْرُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فِي الدُّعَاءِ، قَالَ: يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ»^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (١٤٩٥) وَالنَّسَائِيُّ (١٣٠٠) وَابْنُ مَاجَهَ (٣٨٥٨) وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٥٤٤) وَابْنُ حِبَانَ (٨٩٣) وَأَحْمَدُ ٣/ ١٢٠، ١٥٨، ٢٦٥ (١٢٢٠٥، ١٢٦١١، ١٣٧٩٨) وَغَيْرِهِمْ، مِنْ طَرُقٍ كَثِيرَةٍ عَنْ أَنَسٍ فَذَكَرَهُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ (٣٤١١) وَصَحِيحَ أَبِي دَاوُدَ (١٣٤٢).

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٤٧٦) وَأَبُو دَاوُدَ (١٤٩٦) وَابْنُ مَاجَهَ (٣٨٥٥) وَأَحْمَدُ (٤٦١ / ٦) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الدُّعَاءِ (١١٣) وَالبَغْوِيُّ فِي شَرْحِ السَّنَةِ (٣٨ - ٣٩) وَغَيْرِهِمْ، مِنْ طَرِيقِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زِيَادٍ ثَنَا شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَسْمَاءَ، فَذَكَرْتَهُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ أَبِي دَاوُدَ (١٣٤٣).

(٣) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمَسْنَدِ ٤/ ١٧٧ (١٧٥٩٦) وَالْحَاكِمُ ١/ ٦٧٦ (١٨٣٦) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الدُّعَاءِ (٩٢) وَغَيْرِهِمْ، مِنْ حَدِيثِ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ. قَالَ الْحَاكِمُ: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ وَلَمْ يَخْرُجْ لَهُ". وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ (١٥٣٦).

(٤) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٤٣٦) وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي الضَّعِيفَةِ (٦٣٤٥): «ضَعِيفٌ جَدًّا».

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»^(١).

وَفِي صَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي ثَلَاثِ سُورٍ مِنَ الْقُرْآنِ: الْبَقْرَةِ، وَالْأَمْرَانِ، وَطَهَ، قَالَ الْقَاسِمُ: فَالْتَمَسْتُهَا فَإِذَا هِيَ آيَةُ ﴿الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ﴾»^(٢).

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ وَصَحِيحِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ، إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٨٧] إِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ»^(٣) قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَفِي مُسْتَدْرِكِ الْحَاكِمِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ أَمْرٌ مَهُمٌّ، فَدَعَا بِهِ يُفَرِّجَ اللَّهُ عَنْهُ؟ دُعَاءُ ذِي النُّونِ»^(٤).

وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «هَلْ أَدْلُكُمْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ؟ دُعَاءُ يُونُسَ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ كَانَ لِيُونُسَ خَاصَّةٌ؟ فَقَالَ: «أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) واستغربه، لكن صححه الألباني في الصحيحة (٣١٨٢) بشواهده.

(٢) المستدرک ١ / ٦٨٤ (١٨٦١). وأخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦) والطبراني في الكبير (٨ / ٢٨٢) وتام في فوائده (١٥٦٨ - الروض البسام) وغيرهم، من طريق القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة، فذكره وصححه الألباني في الصحيحة (٧٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) والحاكم ١ / ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ١٨٦٣، وأحمد ١ / ١٧٠ (١٤٦٢) والطبراني في الدعاء (١٢٤) وغيرهم، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٨٢٦).

(٤) المستدرک ١ / ٦٨٥ (١٨٦٤)، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٦٦٠).

وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٨٨] فَأَيُّهَا مُسْلِمٌ دَعَا بِهَا فِي مَرَضِهِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً فَهَاتِ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ أُعْطِيَ أَجْرَ شَهِيدٍ، وَإِنْ بَرِيَّ بَرِيٍّ مَغْفُورًا لَهُ»^(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(٢).

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ بِي كَرْبٌ أَنْ أَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٣).

وَفِي مُسْنَدِهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أُمَّتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِيْعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ

(١) ١ / ٦٨٥ (١٨٦٥). قال الألباني في الضعيفة (٥٠١٩): «ضعيف جدا».

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب الدعاء عند الكرب (٦٣٤٦)؛ ومسلم في الذكر والدعاء، باب دعاء الكرب (٢٧٣٠).

(٣) المسند ١ / ٩١، ٩٤ (٧٢٦، ٧٠١) وأخرجه ابن حبان (٨٦٥) والحاكم ١ / ٦٨٨ - ٦٨٩ (١٨٧٣، ١٨٧٤) وغيرهم. والحديث صححه ابن حبان والحاكم وابن حجر.

حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟
قَالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»^(١).

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا كَرَبَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، إِلَّا اسْتَعَاثَ بِالتَّسْبِيحِ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْمَجَابِينِ فِي الدُّعَاءِ^(٢) عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْأَنْصَارِ يُكْنَى أَبُو مُعَلَّقٍ وَكَانَ تَاجِرًا يَتَّجِرُ بِبَالٍ لَهُ وَلِغَيْرِهِ، يَضْرِبُ بِهِ فِي الْأَفَاقِ، وَكَانَ نَاسِكًا وَرِعًا، فَخَرَجَ مَرَّةً فَلَقِيَهُ لَصٌّ مُقَنَّعٌ فِي السَّلَاحِ، فَقَالَ لَهُ: ضَعْ مَا مَعَكَ فَإِنِّي قَاتِلُكَ، قَالَ: فَمَا تُرِيدُهُ مِنْ دَمِي؟ شَأْنُكَ بِالْمَالِ، قَالَ: أَمَّا الْمَالُ فِلي، وَلَسْتُ أُرِيدُ إِلَّا دَمَكَ، قَالَ: أَمَّا إِذَا أُبَيَّتْ فَذَرْنِي أَصْلِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، قَالَ صَلَّى مَا بَدَا لَكَ، فَتَوَضَّأْتُ ثُمَّ صَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، فَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ فِي آخِرِ سُجُودِهِ أَنْ قَالَ: يَا وَدُودِيَا وَدُودُ، يَا ذَا الْعَرْشِ الْمَجِيدِ، يَا فَعَالًا لِمَا تُرِيدُ، أَسْأَلُكَ بِعِزِّكَ الَّذِي لَا يِرَامُ، وَبِمُلْكِكَ الَّذِي لَا يُضَامُ، وَبِنُورِكَ الَّذِي مَلَأَ أَرْكَانَ عَرْشِكَ أَنْ تَكْفِينِي شَرَّ هَذَا اللَّصِّ، يَا مُغِيثُ أَغْنِنِي، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِذَا هُوَ بِفَارِسٍ قَدْ أَقْبَلَ بِيَدِهِ حَرْبَةً قَدْ وَضَعَهَا بَيْنَ أُذُنِي فَرَسِهِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ اللَّصُّ أَقْبَلَ نَحْوَهُ، فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: قُمْ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ يَا أَبِي أُمَّي؟ فَقَدْ أَغَاثَنِي اللَّهُ بِكَ الْيَوْمَ، فَقَالَ: أَنَا مَلِكٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، دَعَوْتَ بِدُعَائِكَ الْأَوَّلِ فَسَمِعْتُ لِأَبْوَابِ السَّمَاءِ قَعْقَعَةً، ثُمَّ دَعَوْتَ بِدُعَائِكَ الثَّانِي، فَسَمِعْتُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ ضَجَّةً، ثُمَّ دَعَوْتَ بِدُعَائِكَ الثَّلَاثِ، فَقِيلَ لِي: دُعَاءُ مَكْرُوبٍ فَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُؤَلِّينِي قَتْلَهُ، قَالَ الْحَسَنُ: فَمَنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، وَدَعَا بِهَذَا الدُّعَاءِ، اسْتَجِيبَ لَهُ، مَكْرُوبًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مَكْرُوبٍ.

(١) ١ / ٣٩١ (٣٧١٢). وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٩٧٩) والحاكم ١ / ٦٩٠ (١٨٧٧) والطبراني في الدعاء

(١٠٣٥) وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩).

(٢) برقم (٢٣)، قال الألباني في الضعيفة (٥٧٣٧): «موضوع».

فصل

وَكَثِيرًا مَا تَجِدُ أَدْعِيَّةَ دَعَا بِهَا قَوْمٌ فَاسْتَجِيبَ لَهُمْ، فَيَكُونُ قَدْ اقْتَرَنَ بِالِدُّعَاءِ صَرُورَةٌ صَاحِبِهِ وَإِقْبَالُهُ عَلَى اللَّهِ، أَوْ حَسَنَةٌ تَقَدَّمَتْ مِنْهُ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِجَابَةَ دَعْوَتِهِ شُكْرًا لِحَسَنَتِهِ، أَوْ صَادَفَ وَقْتَ إِجَابَتِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَأُجِيبَتْ دَعْوَتُهُ، فَيُظَنُّ الظَّانُّ أَنَّ السَّرَّ فِي لَفْظِ ذَلِكَ الدُّعَاءِ فَيَأْخُذُهُ مَجْرَدًا عَنْ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي قَارَنَتْهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّاعِي، وَهَذَا كَمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ رَجُلٌ دَوَاءً نَافِعًا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي اسْتِعْمَالُهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، فَانْتَفَعَ بِهِ، فَظَنَّ غَيْرُهُ أَنَّ اسْتِعْمَالَ هَذَا الدَّوَاءِ بِمَجْرَدِهِ كَافٍ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، كَانَ غَالِطًا، وَهَذَا مَوْضِعٌ يَغْلُطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

وَمِنْ هَذَا قَدْ يَتَّفِقُ دُعَاؤُهُ بِاضْطِرَارٍ عِنْدَ قَرْنٍ فَيَجَابُ، فَيُظَنُّ الْجَاهِلُ أَنَّ السَّرَّ لِلْقَرْنِ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ السَّرَّ لِلِاضْطِرَارِ وَصَدَقَ اللُّجْأُ إِلَى اللَّهِ، فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، كَانَ أَفْضَلَ وَأَحَبَّ إِلَى اللَّهِ.

فصل

وَالْأَدْعِيَّةُ وَالتَّعَوُّذَاتُ بِمَنْزِلَةِ السَّلَاحِ، وَالسَّلَاحُ بِضَارِيهِ، لَا بِحَدِّهِ فَقَطْ، فَمَتَى كَانَ السَّلَاحُ سِلَاحًا تَامًا لَا آفَةَ بِهِ، وَالسَّاعِدُ سَاعِدٌ قَوِيٌّ، وَالْمَانِعُ مَنُوقٌ؛ حَصَلَتْ بِهِ النِّكَايَةُ فِي الْعَدُوِّ، وَمَتَى تَخَلَّفَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ تَخَلَّفَ التَّأثيرُ، فَإِنْ كَانَ الدُّعَاءُ فِي نَفْسِهِ غَيْرَ صَالِحٍ، أَوْ الدَّاعِي لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ فِي الدُّعَاءِ، أَوْ كَانَ ثَمَّ مَانِعٌ مِنَ الْإِجَابَةِ، لَمْ يَحْصُلِ الْأثرُ.

فصل

وَهَاهُنَا سُؤَالٌ مَشْهُورٌ وَهُوَ: أَنَّ الْمُدْعُوَّ بِهِ إِنْ كَانَ قَدْ قَدَّرَ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ وُقُوعِهِ، دَعَا بِهِ الْعَبْدُ أَوْ لَمْ يَدْعُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَدَّرَ لَمْ يَقَعْ، سِوَاءِ سَأَلَهُ الْعَبْدُ أَوْ لَمْ يَسْأَلْهُ.

فَظَنَّتْ طَائِفَةٌ صِحَّةَ هَذَا السُّؤَالِ، فَتَرَكَتِ الدُّعَاءَ وَقَالَتْ: لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهُوَ لِأَمْرٍ مَعَ فَرْطِ جَهْلِهِمْ وَصَلَاهِهِمْ، مُتَنَاقِضُونَ فَإِنَّ طَرْدَ مَذْهَبِهِمْ يُوجِبُ تَعْطِيلَ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ فَيُقَالُ لِأَحَدِهِمْ: إِنْ كَانَ الشَّبَعُ وَالرِّيُّ قَدْ قَدَّرَا لَكَ فَلَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهَا، أَكَلْتَ أَوْ لَمْ تَأْكُلْ، وَإِنْ لَمْ يَقْدَرَا لَمْ يَقْعَا أَكَلْتَ أَوْ لَمْ تَأْكُلْ.

وَإِنْ كَانَ الْوَلَدُ قَدَّرَ لَكَ فَلَا بُدَّ مِنْهُ، وَطِئَتِ الزَّوْجَةُ أَوْ الْأَمَةُ أَوْ لَمْ تَطَّأْ، وَإِنْ لَمْ يَقْدَرْ لَمْ يَكُنْ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّرْوِيجِ وَالتَّسْرِي، وَهَلُمَّ جَرًّا.

فَهَلْ يَقُولُ هَذَا عَاقِلٌ أَوْ آدَمِيٌّ؟ بَلِ الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ مَفْطُورٌ عَلَى مُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي بِهَا قِوَامُهُ وَحَيَاتُهُ، فَالْحَيَوَانَاتُ أَعْقَلُ وَأَفْهَمُ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا.

وَتَكَاسَيْسَ بَعْضُهُمْ وَقَالَ: الْإِشْتِغَالُ بِالدُّعَاءِ مِنْ بَابِ التَّعَبُّدِ الْمُحْضِ يُثِيبُ اللَّهُ عَلَيْهِ الدَّاعِي، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي الْمَطْلُوبِ بِوَجْهِ مَا وَلَا فَرْقَ عِنْدَ هَذَا الْمُتَكَيِّسِ بَيْنَ الدُّعَاءِ وَالْإِمْسَاكِ عَنْهُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ فِي التَّأْثِيرِ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، وَازْتِبَاطِ الدُّعَاءِ عِنْدَهُمْ بِهِ كَارْتِبَاطِ السُّكُوتِ وَلَا فَرْقَ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى أَكْبَسُ مِنْ هَؤُلَاءِ: بَلِ الدُّعَاءُ عَلَامَةٌ مُجَرَّدَةٌ نَصَبَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَارَةً عَلَى فِضَاءِ الْحَاجَةِ، فَتَمَى وَفَّقَ الْعَبْدُ لِلدُّعَاءِ كَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً لَهُ وَأَمَارَةً عَلَى أَنَّ حَاجَتَهُ قَدْ انْقَضَتْ، وَهَذَا كَمَا إِذَا رَأَيْتَ غَيْمًا أَسْوَدَ بَارِدًا فِي زَمَنِ الشِّتَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ وَعَلَامَةٌ عَلَى أَنَّهُ يُمْطَرُ.

قَالُوا: وَهَكَذَا حُكْمُ الطَّاعَاتِ مَعَ الثَّوَابِ، وَالْكَفْرِ وَالْمَعْاصِي مَعَ الْعِقَابِ، هِيَ أَمَارَاتٌ مُحْضَةٌ لَوْ فُوعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ لَا أَنَّهَا أَسْبَابٌ لَهُ.

وَهَكَذَا عِنْدَهُمْ الْكَسْرُ مَعَ الْإِنْكَسَارِ، وَالْحَرْقُ مَعَ الْإِحْرَاقِ، وَالْإِزْهَاقُ مَعَ الْقَتْلِ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ سَبَبًا أَلْتَبَتَهُ، وَلَا اِزْتِبَاطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ، إِلَّا مُجَرَّدُ الْإِقْتِرَانِ الْعَادِيِّ، لَا التَّأْثِيرِ السَّبَبِيِّ

وَخَالَفُوا بِذَلِكَ الْحِسَّ وَالْعَقْلَ، وَالشَّرْعَ وَالْفِطْرَةَ، وَسَائِرَ طَوَائِفِ الْعُقَلَاءِ، بَلْ أَضْحَكُوا عَلَيْهِمْ الْعُقَلَاءَ.

وَلِلصَّوَابِ أَنْ هَاهُنَا قِسْمًا ثَالِثًا، غَيْرَ مَا ذَكَرَهُ السَّائِلُ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْمُقْدُورَ قُدِّرَ بِأَسْبَابٍ، وَمِنْ أَسْبَابِهِ الدُّعَاءُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ مُجَرَّدًا عَنْ سَبَبِهِ، وَلَكِنْ قُدِّرَ بِسَبَبِهِ، فَمَتَى أَتَى الْعَبْدُ بِالسَّبَبِ، وَقَعَ الْمُقْدُورُ، وَمَتَى لَمْ يَأْتِ بِالسَّبَبِ انْتَهَى الْمُقْدُورُ، وَهَذَا كَمَا قُدِّرَ الشَّبَعُ وَالرِّيُّ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَقُدِّرَ الْوَلَدُ بِالْوَطْءِ، وَقُدِّرَ حُصُولُ الزَّرْعِ بِالْبَذْرِ، وَقُدِّرَ خُرُوجُ نَفْسِ الْحَيَوَانِ بِذَبْحِهِ، وَكَذَلِكَ قُدِّرَ دُخُولُ الْجَنَّةِ بِالْأَعْمَالِ، وَدُخُولُ النَّارِ بِالْأَعْمَالِ، وَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الْحَقُّ، وَهَذَا الَّذِي حُرِمَهُ السَّائِلُ وَلَمْ يُوَفِّقْ لَهُ.

وَحَيْتُذِ فَالدُّعَاءُ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ، فَإِذَا قُدِّرَ وَقُوعُ الْمُدْعُوِّ بِهِ بِالدُّعَاءِ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُقَالَ: لَا فَائِدَةَ فِي الدُّعَاءِ، كَمَا لَا يُقَالَ: لَا فَائِدَةَ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَجَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالْأَعْمَالِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَسْبَابِ أَنْفَعَ مِنَ الدُّعَاءِ، وَلَا أَبْلَغَ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ.

وَلَمَّا كَانَ الصَّحَابَةُ أَعْلَمَ الْأُمَّةِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَأَفْقَهُهُمْ فِي دِينِهِ، كَانُوا أَقْوَمَ بِهَذَا السَّبَبِ وَشُرُوطِهِ وَأَدَابِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَنْصِرُ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَكَانَ أَعْظَمَ جُنْدِيهِ، وَكَانَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: لَسْتُمْ تُنْصِرُونَ بِكَثْرَةٍ، وَإِنَّمَا تُنْصِرُونَ مِنَ السَّمَاءِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَلَكِنْ هَمَّ الدُّعَاءِ، فَإِذَا أُلْهِمْتُمْ الدُّعَاءَ، فَإِنَّ الْإِجَابَةَ مَعَهُ، وَأَخَذَ الشَّاعِرُ هَذَا الْمَعْنَى فَنَظَّمَهُ فَقَالَ:

لَوْ لَمْ تُرْدِ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ... مِنْ جُودِ كَفَيْكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلْبَا

فَمَنْ أُلْهِمَ الدُّعَاءَ فَقَدْ أُرِيدَ بِهِ الْإِجَابَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: ٦٠] وَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:].

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبِ عَلَيْهِ»^(١).

وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ رِضَاءَهُ فِي سُؤَالِهِ وَطَاعَتِهِ، وَإِذَا رَضِيَ الرَّبُّ فَكُلُّ خَيْرٍ فِي رِضَاهُ، كَمَا أَنَّ كُلَّ بَلَاءٍ وَمُصِيبَةٍ فِي غَضَبِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ أَثْرًا «أَنَا اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، إِذَا رَضِيتُ بَارَكْتَ، وَلَيْسَ لِبَرَكَتِي مُتَمَهِّي وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ، وَلَعْنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَالِدِ»^(٢).

وَقَدْ دَلَّ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ وَالْفِطْرَةُ وَتَجَارِبُ الْأُمَّمِ - عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَمَلَلِهَا وَنَحْلِهَا - عَلَى أَنَّ التَّقَرُّبَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ، وَالْبِرَّ وَالْإِحْسَانَ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْجَالِيَةِ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَأَضْدَادَهَا مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ الْجَالِيَةِ لِكُلِّ شَرٍّ، فَمَا اسْتَجَلِبْتَ نِعْمَ اللَّهِ، وَاسْتَدْفَعْتَ نِقْمَتَهُ، بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ.

وَقَدْ رَتَّبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حُصُولَ الْخَيْرَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحُصُولَ الشُّرُورِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْأَعْمَالِ، تُرْتَّبُ الْجُزْءُ عَلَى الشَّرْطِ، وَالْمَعْلُولِ عَلَى الْعِلَّةِ، وَالْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ، وَهَذَا فِي الْقُرْآنِ يَزِيدُ عَلَى أَلْفِ مَوْضِعٍ.

فَتَارَةً يَرْتَّبُ الْحُكْمَ الْخَبْرِيَّ الْكَوْنِيَّ وَالْأَمْرَ الشَّرْعِيَّ عَلَى الْوَصْفِ الْمُنَاسِبِ لَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَتَوْا عَنْ مَا مَنُّوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ١٦٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ: ٥٥].

(١) تقدم.

(٢)

وَقَوْلِهِ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٨٣].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وَهَذَا كَثِيرٌ جَدًّا.

وَتَارَةً يُرْتَبُ عَلَيْهِ بِصِغَةِ الشَّرْطِ وَالْجِزَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٢٩].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [سورة الجن: ١٦].

وَنظَائِرِهِ.

وَتَارَةً يَأْتِي بِلَامِ التَّعْلِيلِ كَقَوْلِهِ: ﴿لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص: ٢٩].

وَقَوْلِهِ: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [سورة البقرة: ١٤٣].

وَتَارَةً يَأْتِي بِأَدَاةِ (كَي) الَّتِي لِلتَّعْلِيلِ كَقَوْلِهِ: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [سورة الحشر: ١٧].

[٧٧].

وَتَارَةً يَأْتِي بِبَاءِ السَّبَبِيَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٢].

وَقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: ١٠٥].

وَقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ:

[١١٢].

وَتَارَةً يَأْتِي بِالْمَفْعُولِ لِأَجَلِهِ ظَاهِرًا أَوْ مُحَدِّوْفًا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٨٢].

وَقَوْلِهِ نَعَلَى: ﴿أَنْ تَقُولُوا أَيُّومَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ١٧٢].

وَقَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَي طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٥٦]، أَيْ: كَرَاهَةً أَنْ تَقُولُوا.

وَتَارَةً يَأْتِي بِ(فَاءِ) السِّيَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهُمَا فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [سُورَةُ الشَّمْسِ: ١٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [سُورَةُ الْحَاقَّةِ: ١٠].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨].

وَتَارَةً يَأْتِي بِأَدَاةِ (لَمَّا) الدَّالَّةِ عَلَى الْجَزَاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [سُورَةُ الزُّحُرْفِ: ٥٥].
وَنَظَائِرُهُ.

وَتَارَةً يَأْتِي بِ(إِنَّ) وَمَا عَمِلَتْ فِيهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ:

[٩٠].

وَقَوْلِهِ فِي ضَوْءِ هَوْلَاءِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

وَتَارَةً يَأْتِي بِأَدَاةٍ (لَوْلَا)، الدَّالَّةِ عَلَى ارْتِبَاطِ مَا قَبْلَهَا بِمَا بَعْدَهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ
- لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سُورَةُ الصَّافَاتِ: ١٤٣ - ١٤٤].

وَتَارَةً يَأْتِي بِ(لَوْ) الدَّالَّةِ عَلَى الشَّرْطِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [سُورَةُ
النِّسَاءِ: ٦٦].

وَبِالْجُمْلَةِ فَالْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ صَرِيحٌ فِي تَرْتِيبِ الْجَزَاءِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْأَحْكَامِ الْكُونِيَّةِ
وَالْأَمْرِيَّةِ عَلَى الْأَسْبَابِ، بَلْ تَرْتِيبِ أَحْكَامِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَصَالِحِهَا وَمَفَاسِدِهَا عَلَى الْأَسْبَابِ
وَالْأَعْمَالِ.

وَمَنْ تَفَقَّهَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَتَأَمَّلَهَا حَقَّ التَّأَمُّلِ انْتَفَعَ بِهَا غَايَةَ النِّفَعِ، وَلَمْ يَتَّكِلْ عَلَى الْقَدْرِ جَهْلًا مِنْهُ،
وَعَجْزًا وَتَفَرِّيطًا وَإِضَاعَةً، فَيَكُونُ تَوَكُّلُهُ عَجْزًا، وَعَجْزُهُ تَوَكُّلًا، بَلِ الْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ الَّذِي يَرُدُّ الْقَدَرَ
بِالْقَدْرِ، وَيُدْفَعُ الْقَدَرَ بِالْقَدْرِ، وَيَعَارِضُ الْقَدَرَ بِالْقَدْرِ، بَلْ لَا يُمَكِّنُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَعِيشَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَإِنَّ
الْجُوعَ وَالْعَطْشَ وَالْبَرْدَ وَأَنْوَاعَ الْمَخَافِيفِ وَالْمَحَاضِيرِ هِيَ مِنَ الْقَدْرِ.

وَالْحَلُّقُ كُلُّهُمْ سَاهُونَ فِي دَفْعِ هَذَا الْقَدْرِ بِالْقَدْرِ، وَهَكَذَا مِنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَأَهْمَهُ رُشْدَهُ يَدْفَعُ قَدَرَ الْعُقُوبَةِ
الْأُخْرَوِيَّةِ بِقَدْرِ التَّوْبَةِ وَالْإِيْمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَهَذَا وَزَانُ الْقَدْرِ الْمُخَوِّفِ فِي الدُّنْيَا وَمَا يُضَادُّهُ سَوَاءً،
فَرُبُّ الدَّارَيْنِ وَاحِدٌ وَحِكْمَتُهُ وَاحِدَةٌ لَا يَنَاقِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَا يُبْطِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ
مِنْ أَشْرَفِ الْمَسَائِلِ لِمَنْ عَرَفَ قَدْرَهَا، وَرَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

لَكِنْ يَبْقَى عَلَيْهِ أَمْرَانِ بِهِمَا تَبْتَمُّ سَعَادَتُهُ وَفَلَاحُهُ.

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَعْرِفَ تَفَاصِيلَ أَسْبَابِ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ، وَيَكُونَ لَهُ بَصِيرَةٌ فِي ذَلِكَ بِمَا يُشَاهِدُهُ فِي الْعَالَمِ،
وَمَا جَرَّبَهُ فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَمَا سَمِعَهُ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

وَمَنْ أَنْفَعَ مَا فِي ذَلِكَ تُدَبَّرُ الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ كَفِيلٌ بِذَلِكَ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ، وَفِيهِ أَسْبَابُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ جَمِيعًا مُفَصَّلَةً مُبَيَّنَةً، ثُمَّ السُّنَّةُ، فَإِنَّهَا شَقِيقَةُ الْقُرْآنِ، وَهِيَ الْوَحْيُ الثَّانِي، وَمَنْ صَرَفَ إِلَيْهِمَا عِنَايَتَهُ اكْتَفَى بِهِمَا مَنْ غَيْرَهُمَا، وَهُمَا يُرِيَانِكَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَأَسْبَابَهُمَا، حَتَّى كَأَنَّكَ تُعَايِنُ ذَلِكَ عِيَانًا، وَبَعْدَ ذَلِكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَ الْأُمَّمِ، وَأَيَّامَ اللَّهِ فِي أَهْلِ طَاعَتِهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، طَابَقَ ذَلِكَ مَا عَلِمْتَهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَرَأَيْتَهُ بِتَفَاصِيلٍ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ، وَوَعَدَ بِهِ، وَعَلِمْتَ مِنْ آيَاتِهِ فِي الْأَفَاقِ مَا يُدَلِّكَ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَأَنَّ اللَّهَ يُنْجِزُ وَعْدَهُ لَا مَحَالَةَ، فَالتَّارِيخُ تَفْصِيلُ جُزْئِيَّاتِ مَا عَرَفْنَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ الْأَسْبَابِ الْكُلِّيَّةِ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

فصل

الأمر الثاني: أن يَحْذَرَ مُغَالَطَةَ نَفْسِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَسْبَابِ وَهَذَا مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ فَإِنَّ الْعَبْدَ يَعْرِفُ أَنَّ الْمُعْصِيَةَ وَالْغَفْلَةَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُضِرَّةِ لَهُ فِي دُنْيَاةٍ وَآخِرَتِهِ وَلَا بُدَّ، وَلَكِنْ تُغَالِطُهُ نَفْسُهُ بِالِاتِّكَالِ عَلَى عَفْوِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ تَارَةً، وَبِالتَّسْوِيفِ بِالتَّوْبَةِ وَالاِسْتِغْفَارِ بِاللِّسَانِ تَارَةً، وَيَفْعَلُ الْمُنْدُوبَاتِ تَارَةً، وَبِالْعِلْمِ تَارَةً، وَبِالِاجْتِنَاجِ بِالْقَدْرِ تَارَةً، وَبِالِاجْتِنَاجِ بِالْأَشْبَاهِ وَالنُّظَرَاءِ تَارَةً، وَبِالِاقْتِدَاءِ بِالْأَكْبَارِ تَارَةً أُخْرَى.

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّهُ لَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ثُمَّ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، زَالَ أَثَرُ الذَّنْبِ وَرَاحَ هَذَا بِهِدَا، وَقَالَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْمُتَسَبِّينَ إِلَى الْفَقْهِ: أَنَا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ ثُمَّ أَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ وَقَدْ غُفِرَ ذَلِكَ أَجْمَعُهُ كَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ حُطَّاتُهَا،

وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(١)، وَقَالَ لِي آخِرُ مَنْ أَهْلِ مَكَّةَ: نَحْنُ إِذَا فَعَلْنَا مَا فَعَلْنَا، اغْتَسَلْنَا وَطَافْنَا
بِالْبَيْتِ أُسْبُوعًا وَقَدْ مَحِي عَنْهُ ذَلِكَ.

وَقَالَ لِي آخِرُ: قَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فَأَغْفِرَ لِي،
فَغَفَرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا، فَأَغْفِرَ لِي، فَقَالَ اللَّهُ:
عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ عَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيُصْنَعْ مَا شَاءَ»^(٢)، وَقَالَ: أَنَا لَا أَشْكُ
أَنَّ لِي رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ.

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ قَدْ تَعَلَّقَ بِنُصُوصٍ مِنَ الرَّجَاءِ، وَاتَّكَلَّ عَلَيْهَا وَتَعَلَّقَ بِهَا بِكِلْتَا يَدَيْهِ وَإِذَا
عُوتِبَ عَلَى الْخَطَايَا وَالْإِنْمَاكِ فِيهَا، سَرَدَ لَكَ مَا يَحْفَظُهُ مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَنُصُوصِ الرَّجَاءِ،
وَلِلْجَهَالِ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ غَرَائِبٌ وَعَجَائِبُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ:

وَكَثُرَ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا... إِذَا كَانَ الْقُدُومُ عَلَى كَرِيمٍ

وَقَوْلِ الْآخِرِ: التَّزَهُ مِنَ الذُّنُوبِ جَهْلٌ بِسَعَةِ عَفْوِ اللَّهِ.

وَقَالَ الْآخِرُ: تَرَكَ الذُّنُوبَ جَرَاءَةً عَلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَاسْتِصْغَارًا.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ حَزْمٍ: رَأَيْتُ بَعْضَ هَوْلَاءٍ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعِصْمَةِ.

وَمِنْ هَوْلَاءِ الْمُغْرُورِينَ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِمَسْأَلَةِ الْجَبْرِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا فِعْلَ لَهُ الْبَتَّةَ وَلَا اخْتِيَارًا، وَإِنَّمَا هُوَ مَجْبُورٌ
عَلَى فِعْلِ الْمَعَاصِي.

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، باب فضل التسييح (٦٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل
والتسييح والدعاء (٢٦٩١) عن أبي هريرة.

وَمَنْ هُوَ لَاءٍ مَنْ يَغْتَرُّ بِمَسْأَلَةِ الْإِرْجَاءِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مُجَرَّدُ التَّصَدِيقِ، وَالْأَعْمَالُ لَيْسَتْ مِنَ الْإِيمَانِ،
وَأَنَّ إِيْمَانَ أَفْسَقِ النَّاسِ كَأَيِّمَانِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

وَمَنْ هُوَ لَاءٍ مَنْ يَغْتَرُّ بِمَحَبَّةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَشَائِخِ وَالصَّالِحِينَ، وَكَثْرَةَ التَّرَدُّدِ إِلَى قُبُورِهِمْ، وَالتَّضَرُّعِ
إِلَيْهِمْ، وَالِاسْتِشْفَاعِ بِهِمْ، وَالتَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ بِهِمْ، وَسُؤَالِهِ بِحَقَّتِهِمْ عَلَيْهِ، وَحُرْمَتِهِمْ عِنْدَهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرُّ بِأَبَائِهِ وَأَسْلَافِهِ، وَأَنَّ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَكَانَةً وَصَلَاحًا، فَلَا يَدْعُوهُ أَنْ يُخَلِّصُوهُ كَمَا يُشَاهِدُ
فِي حَضْرَةِ الْمُلُوكِ، فَإِنَّ الْمُلُوكَ تَهَبُّ لِحَوَاصِّهِمْ ذُنُوبَ آبَائِهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ، وَإِذَا وَقَعَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي أَمْرٍ مُفْطَعٍ
خَلَّصَهُ أَبُوهُ وَجَدُّهُ بِجَاهِهِ وَمَنْزِلَتِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرُّ بِأَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ عَدَائِهِ، وَعَدَائِهِ لَا يَزِيدُ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا، وَرَحْمَتُهُ لَهُ لَا تَنْقُصُ مِنْ مُلْكِهِ
شَيْئًا، فَيَقُولُ: أَنَا مُضْطَرٌّ إِلَى رَحْمَتِهِ، وَهُوَ أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ، وَلَوْ أَنَّ فَقِيرًا مَسْكِينًا مُضْطَرًّا إِلَى شَرِيَةِ مَاءٍ عِنْدَ
مَنْ فِي دَارِهِ شَطٌّ يُجْرِي لَمَّا مَنَعَهُ مِنْهَا فَاللَّهُ أَكْرَمُ وَأَوْسَعُ فَالْمَغْفِرَةُ لَا تَنْقُصُهُ شَيْئًا وَالْعُقُوبَةُ لَا تَزِيدُ فِي مُلْكِهِ
شَيْئًا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرُّ بِفَهْمِهِ فَاسِدٍ فَهَمَّهُ هُوَ وَأَضْرَابُهُ مِنْ نُصُوصِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ، فَاتَّكَلُوا عَلَيْهِ كَاتِّكَالِ
بَعْضِهِمْ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [سُورَةُ الضُّحَى: ٥٥].

قَالَ: وَهُوَ لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ، وَهَذَا مِنْ أَفْجِحِ الْجُهْلِ، وَأَيِّنِ الْكُذْبِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ
يَرْضَى بِمَا يَرْضَى بِهِ رَبُّهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُرْضِيهِ تَعْدِيبُ الظَّلْمَةِ وَالْفَسَقَةِ وَالْحَوْنَةِ وَالْمُصْرِينَ عَلَى الْكِبَائِرِ،
فَحَاشَا رَسُولَهُ أَنْ يَرْضَى بِمَا لَا يَرْضَى بِهِ رَبُّهُ.

وَكَاتِّكَالِ بَعْضِهِمْ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سُورَةُ الزَّمْرِ: ٥٣].

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَقْبَحِ الْجُهْلِ، فَإِنَّ الشَّرْكَ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الذُّنُوبِ وَأَسَاسُهَا، وَلَا خِلَافَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي حَقِّ التَّائِبِينَ، فَإِنَّهُ يَغْفِرُ ذَنْبَ كُلِّ تَائِبٍ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ، وَلَوْ كَانَتْ الْآيَةُ فِي حَقِّ غَيْرِ التَّائِبِينَ لَبَطَلَتْ نُصُوصُ الْوَعِيدِ كُلِّهَا، وَأَحَادِيثُ إِخْرَاجِ قَوْمٍ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ.

وَهَذَا إِنَّمَا أَتَى صَاحِبُهُ مِنْ قِلَّةِ عِلْمِهِ وَفَهْمِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هَاهُنَا عَمَمٌ وَأَطْلَقَ، فَعَلِمَ أَنَّهُ أَرَادَ التَّائِبِينَ، وَفِي سُورَةِ النَّسَاءِ خَصَّصَ وَقَيَّدَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: ٤٨]، فَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الشَّرْكَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَهُ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي حَقِّ التَّائِبِ لَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ الشَّرْكِ وَغَيْرِهِ.

وَكَاعْتِرَارِ بَعْضِ الْجُهَّالِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ: ٦٦] فَيَقُولُ: كَرَّمَهُ، وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ لَقَنَّ الْمُعْتَرَّ حُجَّتَهُ، وَهَذَا جَهْلٌ قَبِيحٌ، وَإِنَّمَا غَرَّهُ بِرَبِّهِ الْغُرُورُ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ، وَنَفْسُهُ الْأَمَارَةُ بِالسُّوءِ وَجَهْلُهُ وَهَوَاهُ، وَأَتَى سُبْحَانَهُ بِلَفْظِ الْكَرِيمِ وَهُوَ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الْمُطَاعُ، الَّذِي لَا يَنْبَغِي الْإِعْتِرَارُ بِهِ، وَلَا إِهْمَالُ حَقِّهِ، فَوَضَعَ هَذَا الْمُعْتَرُّ الْغُرُورَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَاعْتَرَّ بِمَنْ لَا يَنْبَغِي الْإِعْتِرَارُ بِهِ.

وَكَاعْتِرَارِ بَعْضِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي النَّارِ: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى - الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [سُورَةُ اللَّيْلِ: ١٥ - ١٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٤].

وَلَمْ يَدْرِ هَذَا الْمُعْتَرُّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلْقَوْنَ﴾ هِيَ نَارٌ مَخْصُوصَةٌ مِنْ جُمْلَةِ دَرَكَاتِ جَهَنَّمَ، وَلَوْ كَانَتْ جَمِيعَ جَهَنَّمَ فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ لَا يَدْخُلُهَا بَلْ قَالَ: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ صَلِّيْهَا، عَدَمُ دُخُولِهَا، فَإِنَّ الصَّلِيَّ أَحْصَى مِنَ الدُّخُولِ، وَنَفِيَّ الْأَخْصَّ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الْأَعْمِّ. ثُمَّ هَذَا الْمُعْتَرُّ لَوْ تَأَمَّلَ الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا؛ لَعَلِمَ أَنَّهُ غَيْرُ دَاخِلٍ فِيهَا، فَلَا يَكُونُ مَضْمُونًا لَهُ أَنْ يُجَنَّبَهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي النَّارِ: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، فَقَدْ قَالَ فِي الْجَنَّةِ: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٣٣] وَلَا يُنَافِي إِعْدَادُ النَّارِ لِلْكَافِرِينَ أَنْ يَدْخُلَهَا الْفَسَّاقُ وَالظَّالِمَةُ، وَلَا يُنَافِي إِعْدَادُ الْجَنَّةِ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَدْخُلَهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ.

وَكَاغْتِرَارِ بَعْضِهِمْ عَلَى صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَوْ يَوْمِ عَرَفَةَ، حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ: يَوْمَ عَاشُورَاءَ يُكَفِّرُ ذُنُوبَ الْعَامِ كُلِّهَا، وَيَبْقَى صَوْمُ عَرَفَةَ زِيَادَةً فِي الْأَجْرِ، وَلَمْ يَدْرِ هَذَا الْمُعْتَرِ، أَنَّ صَوْمَ رَمَضَانَ، وَالصَّلَوَاتِ الْحَمْسِ، أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ صِيَامِ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَيَوْمِ عَاشُورَاءَ، وَهِيَ إِنَّمَا تُكَفِّرُ مَا بَيْنَهُمَا إِذَا اجْتَنَبْتَ الْكِبَائِرَ. فَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ، وَالْجُمُعَةَ إِلَى الْجُمُعَةِ، لَا يَقْوَى عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ، إِلَّا مَعَ انْقِصَامِ تَرْكِ الْكِبَائِرِ إِلَيْهَا، فَيَقْوَى مَجْمُوعُ الْأَمْرَيْنِ عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ.

فَكَيْفَ يُكَفِّرُ صَوْمُ يَوْمِ تَطَوُّعٍ كُلِّ كَبِيرَةٍ عَمَلَهَا الْعَبْدُ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهَا، غَيْرُ تَائِبٍ مِنْهَا؟ هَذَا مُحَالٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ صَوْمُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَيَوْمِ عَاشُورَاءَ مُكَفِّرًا لِجَمِيعِ ذُنُوبِ الْعَامِ عَلَى عُمُومِهِ، وَيَكُونُ مِنْ نُصُوصِ الْوَعْدِ الَّتِي لَهَا شُرُوطٌ وَمَوَانِعٌ، وَيَكُونُ إِضْرَارُهُ عَلَى الْكِبَائِرِ مَانِعًا مِنَ التَّكْفِيرِ، فَإِذَا لَمْ يُصَرَّ عَلَى الْكِبَائِرِ لِتَسَاعُدِ الصَّوْمِ وَعَدَمِ الْإِضْرَارِ، وَتَعَاوُنِهِمَا عَلَى عُمُومِ التَّكْفِيرِ، كَمَا كَانَ رَمَضَانَ وَالصَّلَوَاتُ الْحَمْسُ مَعَ اجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ مُتَسَاعِدَيْنِ مُتَعَاوِنَيْنِ عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ مَعَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ قَالَ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: ٣١].

فَعَلِمَ أَنَّ جَعْلَ الشَّيْءِ سَبَبًا لِلتَّكْفِيرِ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَتَسَاعَدَ هُوَ وَسَبَبٌ آخَرٌ عَلَى التَّكْفِيرِ، وَيَكُونُ التَّكْفِيرُ مَعَ اجْتِمَاعِ السَّبَبَيْنِ أَقْوَى وَأَتَمُّ مِنْهُ مَعَ أَنْفِرَادِ أَحَدِهِمَا، وَكَلَّمَا قَوِيَتْ أَسْبَابُ التَّكْفِيرِ كَانَ أَقْوَى وَأَتَمُّ وَأَشْمَلٌ.

وَكَاتَّكَالٍ بَعْضِهِمْ عَلَى قَوْلِهِ ﷺ حَاكِيًا عَنْ رَبِّهِ: «أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِ بِي، فَلِي ظَنُّ بِي مَا شَاءَ»^(١)
يَعْنِي مَا كَانَ فِي ظَنِّهِ فَإِنِّي فَاعِلُهُ بِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الإِحْسَانِ، فَإِنَّ المُحْسِنَ حَسَنُ
الظَّنِّ بِرَبِّهِ أَنْ يُجَازِيَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ وَلَا يُخْلِفَ وَعْدَهُ، وَيَقْبَلُ تَوْبَتَهُ.

وَأَمَّا المُسِيءُ المُصِرُّ عَلَى الكِبَائِرِ وَالظُّلْمِ وَالمُخَالَفَاتِ فَإِنَّ وَخَشَةَ المُعَاصِي وَالظُّلْمِ وَالحُرَامِ تَمَنُّعُهُ مِنْ
حُسْنِ الظَّنِّ بِرَبِّهِ، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي الشَّاهِدِ، فَإِنَّ العَبْدَ الأَبْقَ الحَارِجَ عَنِ طَاعَةِ سَيِّدِهِ لَا يُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِ،
وَلَا يُجَامِعُ وَخَشَةَ الإِسَاءَةِ إِحْسَانَ الظَّنِّ أَبَدًا، فَإِنَّ المُسِيءَ مُسْتَوْحِشٌ بِقَدْرِ إِسَاءَتِهِ، وَأَحْسَنُ النَّاسِ ظَنًّا
بِرَبِّهِ أَطْوَعُهُمْ لَهُ.

كَمَا قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: إِنَّ المُؤْمِنَ أَحْسَنَ الظَّنِّ بِرَبِّهِ فَأَحْسَنَ العَمَلِ وَإِنَّ الفَاجِرَ أَسَاءَ الظَّنِّ بِرَبِّهِ
فَأَسَاءَ العَمَلِ.

وَكَيْفَ يَكُونُ مُحْسِنُ الظَّنِّ بِرَبِّهِ مَنْ هُوَ شَارِدٌ عَنْهُ، حَالٌ مُرْتَجِلٌ فِي مَسَاحِطِهِ وَمَا يُغْضِبُهُ، مُتَعَرِّضٌ
لِلْعَيْتَةِ قَدْ هَانَ حَقُّهُ وَأَمْرُهُ عَلَيْهِ فَاضَاعَهُ، وَهَانَ نَهْيُهُ عَلَيْهِ فَارْتَكَبَهُ وَأَصْرَّ عَلَيْهِ؟ وَكَيْفَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ
مَنْ بَارَزَهُ بِالمُحَارَبَةِ، وَعَادَى أَوْلِيَاءَهُ، وَوَالَى أَعْدَاءَهُ، وَجَحَدَ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَأَسَاءَ الظَّنَّ بِهَا وَصَفَ بِهِ
نَفْسَهُ، وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ وَظَنَّ بِجَهْلِهِ أَنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ ضَلَالٌ وَكُفْرٌ؟ وَكَيْفَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ مَنْ
يُظُنُّ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَأْمُرُ وَلَا يَنْهَى وَلَا يَرْضَى وَلَا يُغْضِبُ؟

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩١ (١٦٠١٦) وابن المبارك في "الزهد" (٩٠٩) وابن حبان (٦٣٣، ٦٤١) والحاكم ٤/ ٢٦٨
(٧٦٠٣) وغيرهم، من طريق حبان أبي النضر الشامي عن واثلة، فذكره، وفيه قصة. والحديث صححه ابن حبان،
وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وقال الذهبي: "صحيح على شرط مسلم" و صححه
الألباني في الصحيحة (١٦٦٣).

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّ مَنْ شَكَّ فِي تَعَلُّقِ سَمْعِهِ بِنِعْضِ الْجُرِّيَّاتِ، وَهُوَ السَّرُّ مِنَ الْقَوْلِ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سُورَةُ فُصِّلَتْ: ٢٣].

فَهُوَ لِأَنَّ مَا ظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا يَعْمَلُونَ، كَانَ هَذَا إِسَاءَةً لظَنِّهِمْ بِرَبِّهِمْ، فَأَرَادَهُمْ ذَلِكَ الظَّنُّ، وَهَذَا شَأْنٌ كُلُّ مَنْ جَحَدَ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَنُعُوتِ جَلَالِهِ، وَوَصَفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ، فَإِذَا ظَنَّ هَذَا أَنَّهُ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ كَانَ هَذَا غُرُورًا وَخَدَاعًا مِنْ نَفْسِهِ، وَتَسْوِيلًا مِنَ الشَّيْطَانِ، لَا إِحْسَانَ ظَنَّ بِرَبِّهِ.

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْمَوْضِعَ، وَتَأَمَّلْ شِدَّةَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَكَيْفَ يَجْمَعُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ تَيْقَنَهُ بِأَنَّهُ مُلَاقٍ لِلَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ وَيَرَى مَكَانَهُ، وَيَعْلَمُ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَنَّهُ مُوقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمَسْئُولٌ عَنْ كُلِّ مَا عَمِلَ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَسَاحِطِهِ مُضَيِّعٌ لِأَمْرِهِ، مُعْطَلٌ لِحُقُوقِهِ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِ، وَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ خَدَعِ النُّفُوسِ، وَغُرُورِ الْأَمَانِيِّ؟

وَقَدْ قَالَ أَبُو أَمَامَةَ بْنُ سَهْلٍ بْنُ حُنَيْفٍ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ «لَوْ رَأَيْتُمَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضٍ لَهُ، وَكَانَتْ عِنْدِي سِتَّةُ دَنَانِيرَ، أَوْ سَبْعَةٌ، فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَفْرِقَهَا، قَالَتْ: فَشَغَلَنِي وَجَعُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى عَافَاهُ اللَّهُ، ثُمَّ سَأَلَنِي عَنْهَا فَقَالَ: مَا فَعَلْتِ؟ أَكُنْتِ فَرَّقْتِ السِّتَّةَ الدَّنَانِيرَ؟ فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَقَدْ شَغَلَنِي وَجَعُكَ، قَالَتْ فَدَعَا بِهَا، فَوَضَعَهَا فِي كَفِّهِ، فَقَالَ: «مَا ظَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَدِيَهُ عِنْدَهُ؟» وَفِي لَفْظٍ: «مَا ظَنَّ مُحَمَّدٌ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَدِيَهُ عِنْدَهُ»^(١).

(١) أخرجه أحمد ٦/ ١٠٤ (٢٤٧٣٣) وابن حبان (٣٢١٣) من طريق موسى بن جبير عن أبي أمامة بن سهل. فذكره. قلت: هذا سند ضعيف، فيه موسى بن جبير قال ابن حبان في الثقات: "كان يخطئ ويخالف". وقال ابن القطان: "لا يعرف حاله". ورواه محمد بن عمرو وأبو حازم عن أبي سلمة عن عائشة فذكرته باللفظ الآخر الذي ذكره المؤلف. أخرجه أحمد (٢٤٢٢٢، ٢٤٥٦٠) وابن حبان (٣٢١٢، ٧١٥) وغيرهما. والحديث سنده صحيح، وقد صححه ابن حبان، وانظر الصحيحة للألباني (١٠١٤) و(٢٦٥٣).

فيا لله ما ظنُّ أصحابِ الكبائرِ والظَّلمةِ باللهِ إذا لقَّوهُ ومظلَمِ العبادِ عندهم؟ فإن كان يَنفَعُهُم قَوْلُهُمْ: حَسَنًا ظَنُّونا بِكَ، إِنَّكَ لَنْ تُعَذِّبَ ظالِمًا وَلَا فاسِقًا، فليَصنعِ العبدُ ما شاء، وليَرَ تَكِبَ كُلِّ ما نهَاهُ اللهُ عَنْهُ، وليُحسِنِ ظَنَّهُ باللهِ، فإنَّ النَّارَ لَا تَمْسُهُ، فَسَبِّحَانَ اللهُ! ما يُلْبِغُ العُرُورُ بِالْعَبْدِ، وَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّفَكَا إِلَهَةً دُونَ اللهِ تَرِيدُونَ - فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سُورَةُ الصَّافَاتِ: ٨٦ - ٨٧]، أَي ما ظَنُّكُمْ أَنْ يَفْعَلَ بِكُمْ إِذَا لَقِيتُمُوهُ وَقَدْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْمَوْضِعَ حَقَّ التَّأَمُّلِ عَلِمَ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ هُوَ حُسْنُ الْعَمَلِ نَفْسُهُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَحْمِلُهُ عَلَى حُسْنِ الْعَمَلِ ظَنُّهُ بِرَبِّهِ أَنْ يُجَازِيَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ وَيُثَبِّتَهُ عَلَيْهَا وَيَقْبَلَهَا مِنْهُ، فَالَّذِي حَمَلَهُ عَلَى الْعَمَلِ حُسْنُ الظَّنِّ، فَكُلَّمَا حَسَّنَ ظَنَّهُ حَسَّنَ عَمَلَهُ، وَإِلَّا فَحَسَّنَ الظَّنَّ مَعَ اتِّبَاعِ الْهَوَى عَجْزٌ، كَمَا فِي حَدِيثِ التِّرْمِذِيِّ وَالْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَّتْ عَلَى اللهِ».

وَبِالْجُمْلَةِ فَحُسْنُ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ انْعِقَادِ أَسْبَابِ النِّجَاةِ، وَأَمَّا مَعَ انْعِقَادِ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ فَلَا يَتَأَتَّى إِحْسَانُ الظَّنِّ.

الْفَرْقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْعُرُورِ

فَإِنْ قِيلَ: بَلْ يَتَأَتَّى ذَلِكَ، وَيَكُونُ مُسْتَنَّدُ حُسْنِ الظَّنِّ سَعَةَ مَغْفِرَةِ اللهِ، وَرَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ وَجُودِهِ، وَأَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وَأَنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ الْعُقُوبَةُ، وَلَا يَضُرُّهُ الْعَفْوُ.

قِيلَ: الْأَمْرُ هَكَذَا، وَاللَّهُ فَوْقَ ذَلِكَ وَأَجَلُّ وَأَكْرَمُ وَأَجُودُ وَأَرْحَمُ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَضَعُ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ اللَّائِقِ بِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْحِكْمَةِ، وَالْعِزَّةِ وَالْإِتْقَامِ، وَشِدَّةِ الْبَطْشِ، وَعُقُوبَةٍ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ، فَلَوْ كَانَ مُعَوَّلٌ حُسْنِ الظَّنِّ عَلَى مُجَرَّدِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ لَأَشْتَرَكَ فِي ذَلِكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَوَلِيُّهُ وَعَدُوُّهُ، فَمَا يَنْفَعُ الْمُجْرِمَ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ وَقَدْ بَاءَ بِسُخْطِهِ وَغَضَبِهِ، وَتَعَرَّضَ لِلْعَيْتَةِ،

وَوَقَعَ فِي مَحَارِمِهِ، وَأَنْتَهَكَ حُرْمَاتِهِ، بَلْ حُسْنُ الظَّنِّ يَنْفَعُ مَنْ تَابَ وَنَدِمَ وَأَقْلَعَ، وَبَدَّلَ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ، وَاسْتَقْبَلَ بِقِيَّةِ عُمَرِهِ بِالْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ، ثُمَّ أَحْسَنَ الظَّنَّ، فَهَذَا هُوَ حُسْنُ ظَنٍّ، وَالْأَوَّلُ عُرُورٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَلَا تَسْتَطِلْ هَذَا الْفَضْلَ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ شَدِيدَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ يُفَرِّقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَبَيْنَ الْعُرُورِ بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] فَجَعَلَ هُوَ لِأَهْلِ الرَّجَاءِ، لَا الْبَطَالِينَ وَالْفَاسِقِينَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة النحل: ١١٠] فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ بَعْدَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ فَعَلَهَا، فَالْعَالَمُ يَضَعُ الرَّجَاءَ مَوَاضِعَهُ وَالْجَاهِلُ الْمُغْتَرُّ يَضَعُهُ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهِ.

فَضْلٌ

وَكَثِيرٌ مِنَ الْجُهَّالِ اعْتَمَدُوا عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ، وَضَيَعُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَنَسُوا أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّ بِأَسْهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ، وَمَنْ اعْتَمَدَ عَلَى الْعَفْوِ مَعَ الْإِضْرَارِ عَلَى الذَّنْبِ فَهُوَ كَالْمُعَانِدِ.

قَالَ مَعْرُوفٌ: رَجَاؤُكَ لِرَحْمَةِ مَنْ لَا تُطِيعُهُ مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْحُمُقِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَنْ قَطَعَ عُضْوًا مِنْكَ فِي الدُّنْيَا بِسَرِقَةٍ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمٍ، لَا تَأْمَنُ أَنْ تَكُونَ عُقُوبَتُهُ فِي الْأَخِرَةِ عَلَى نَحْوِ هَذَا.

وَقِيلَ لِلْحَسَنِ: تَرَاكَ طَوِيلَ الْبُكَاءِ، فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ يَطْرَحَنِي فِي النَّارِ وَلَا يُبَالِي.

وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ قَوْمًا أَهْتَهُمْ أَمَانِي الْمَغْفِرَةَ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ تَوْبَةٍ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: لِأَنِّي أَحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي، وَكَذَبَ، لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ لَأَحْسَنَ الْعَمَلَ.

وَسَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ كَيْفَ نَصْنَعُ بِمَجَالَسَةِ أَقْوَامٍ يُخَوِّفُونَا حَتَّى تَكَادَ قُلُوبُنَا تَطِيرُ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُخَوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أَمْنَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُؤْمِنُونَكَ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْمَخَافُ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيُدْوِرُ فِي النَّارِ كَمَا يُدْوِرُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَطُوفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ: مَا أَصَابَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ أَمْرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»^(١).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبَيْعِ فَقَالَ: «أَفْ لَكَ» فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُرِيدُنِي، قَالَ: «لَا، وَلَكِنَّ هَذَا قَبْرُ فُلَانٍ، بَعَثْتُهُ سَاعِيًّا إِلَى آلِ فُلَانٍ، فَعَلَّ نَمْرَةً فُدِرَّعَ الْآنَ مِثْلَهَا مِنْ نَارٍ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله (٢٩٨٩).

(٢) المسند ٦/ ٣٩٢ (٢٧١٩٢). وأخرجه النسائي (٨٦٢، ٨٦٣) وابن خزيمة (٢٧٣٧) والطبراني في الكبير ١/ ٣٢٣ (٩٦٢) وغيرهم، من طريق ابن جريج حدثني منبوذ - رجل من آل رافع - عن الفضل بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبي رافع، فذكره، قال الأرنؤوط في تحقيق المسند: «إسناده ضعيف، لجهالة حال منبوذ، فقد تفرد بالرواية عنه اثنان، ولم يؤثر توثيقه عن أحد، ثم إن في سماع الفضل بن عبيد الله بن أبي رافع عن جده أبي رافع نظراً، فقد جعله الحافظ في "التقريب" من الطبقة السابعة، وهي طبقة كبار أتباع التابعين، وليس لهم رواية عن الصحابة».

وَفِي مُسْنَدِهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِعَلِيٍّ قَوْمٌ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضٍ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ، قَالُوا: حُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسُونَ أَنْفُسَهُمْ»^(١).

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نَحَاسٍ يَحْمِشُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ، وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»^(٢).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ، ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ»^(٣).

(١) المسند ٣/ ١٢٠ (١٢٢١١). وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٨١٩) ووكيعة في الزهد (٢٩٧) والبغوي في شرح السنة (٤١٥٩) وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩١).

(٢) المسند ٣/ ٢٢٤ (١٣٣٤٠). وأخرجه أبو داود (٤٨٧٨، ٤٨٧٩) والطبراني في الأوسط (٨) وابن أبي الدنيا في الصمت (١٦٥)، والضياء في المختارة (٢٢٨٥، ٢٢٨٦) وغيرهم، من طريق صفوان بن عمرو عن راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير عن أنس، فذكره، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٣٣).

(٣) المسند ٣/ ١١٢ (١٢١٠٧). وأخرجه الترمذي (٢١٤٠) وأبو يعلى (٣٦٨٧) والحاكم ١/ ٧٠٧ (١٩٢٧) والضياء في المختارة (٢٢٢٢، ٢٢٢٤) وغيرهم، من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس فذكره. والحديث صححه الترمذي والحاكم والضياء، والألباني في صحيح الترغيب (٦٨٣/ ٥٢٨).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِجَبْرِيلَ: «مَا لِي لَمْ أَرِ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟ قَالَ: مَا ضَحِكَ مُنْذُ خَلِقَتِ النَّارُ»^(١).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»^(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَيَّ رُءُوسَنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُوْدٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَحُنُوطٌ مِنْ حُنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: اخْرُجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحُنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِنْ مَسِكٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيُصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُولُونَ: رُوحُ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ

(١) (المسند ٣ / ٢٢٤ (١٣٣٤٣)). وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٥ / ٩)، من طريق إسماعيل بن عياش عن عمارة بن غزبية أنه سمع حميد بن عبيد مولى بني المعلی عن ثابت عن أنس، فذكره، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٤٥٤).

(٢) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار... (٢٨٠٧).

بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيَفْتَحُ لَهُ، فَيُشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُتَمَّيَّ بِه
إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ،
وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَقَالَ: فَنُعَادُ رُوحَهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَجْلِسَانِهِ،
فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا
الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عَلِمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ
اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوا لَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبُسُوهُ مِنَ
الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيْبِهَا، وَيُنْفَسِحُ لَهُ فِي قَبْرِه مَدَّ بَصَرِهِ، قَالَ: وَيَأْتِيهِ
رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يُسْرُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ
تُوَعِّدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ فَوْجُوهَكَ الْوَجْهُ الَّذِي يُجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: رَبِّ
أَقِمِ السَّاعَةَ رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ
الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ
الْبَصَرِ، ثُمَّ يُجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتَهَا النَّفْسُ الْحَبِيْثَةُ، أَخْرُجِي إِلَى سَخَطِ
مِنِ اللَّهِ وَغَضَبِ، قَالَ: فَتَغْرُقُ فِي جَسَدِهِ فَيَتَزَعُّهَا، كَمَا يُتَزَعُّ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا
أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُونَهَا فِي تَلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جِيْفَةٍ
وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَضَعُدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ
الْحَبِيْثَةُ. فَيَقُولُونَ: رُوحُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، بِأَفْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُ فَلَا يَفْتَحُ لَهُ،
ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْحِيَاطِ﴾
[الْأَعْرَافِ: ٤٠] فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرُحُ رُوحَهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ:
﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيْقٍ﴾ [سُورَةُ
الْحَجِّ: ٣١] فَنُعَادُ رُوحَهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا

أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَأَفْرَشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُتَبِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْحَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ^(١).

وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ أَيْضًا «ثُمَّ يُقَيِّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمَّ أَبْكَمَ، فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضَرَبَ بِهَا جَبَلًا كَانَ تُرَابًا، ثُمَّ يَعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، قَالَ الْبَرَاءُ: ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ وَيُمَدُّ لَهُ مِنْ فِرَاشِ النَّارِ»^(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ بَصُرَ بِجَمَاعَةٍ، فَقَالَ: «عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟» قِيلَ: عَلَى قَبْرِ يَحْفَرُونَ، فَفَزِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَدَرَ بَيْنَ يَدَيْ أَصْحَابِهِ مُسْرِعًا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى

(١) المسند ٤ / ٢٨٧ (١٨٥٣٤). وأخرجه أبو داود (٣٢١٢، ٤٧٥٣) وهناد في الزهد (٣٣٩) والطبري في التهذيب (٧١٨، ٧٢٠، ٧٢١) والحاكم ١ / ٩٢ (١٠٧) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (٢٠، ٢١) وغيرهم، من طرق عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب فذكره. ورواه عمرو بن قيس عن المنهال بن عمرو به أخرجه ابن ماجه (١٥٤٩). ورواه عيسى بن المسيب عن عدي بن ثابت عن البراء. أخرجه الطبري في التهذيب (مسند عمر - ٧٢٣). والحديث صححه جماعة منهم أبو عوانة، وابن خزيمة، وابن منده، والحاكم، والبيهقي، وحسنه المنذري، وصححه المؤلف. انظر الروح (ص ٩١) وأحكام الجنائز للألباني (١٠٨).

(٢) المسند ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦ (١٨٦١٤).

القبر، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَاسْتَقْبَلْتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ مَا يَصْنَعُ، فَبَكَى حَتَّى بَلَ الثَّرَى مِنْ دُمُوعِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «أَيُّ إِخْوَانِي، لِمِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ فَأَعِدُوا»^(١).

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ بَرِيدَةَ قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ مَا فَنَادَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَنْذِرُونَ مَا مِثْلِي وَمِثْلِكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلِكُمْ مِثْلُ قَوْمٍ خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ فَبَعَثُوا رِجَالًا يَتَرَاءَى لَهُمْ، فَأَبْصَرَ الْعَدُوَّ، فَأَقْبَلَ لِيُنْذِرَهُمْ، وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَهُ الْعَدُوُّ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ، فَأَهْوَى بِثَوْبِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ أُتَيْتُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ أُتَيْتُمْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»^(٢).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَإِنَّ عَلَى اللَّهِ عَهْدًا لِمَنْ شَرِبَ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ» قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْحَبَالِ؟ قَالَ: «عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ أَوْ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ»^(٣).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرَى مَا لَا تَرُونَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، لَوْ تَعْلَمُونَ

(١) المسند ٤ / ٢٩٤ (١٨٦٠١). وأخرجه ابن ماجه (٤١٩٥) والبخاري في تاريخه الكبير (١ / ٢٢٩) وغيرهم، من طريق عبد الله بن واقد عن محمد بن مالك عن البراء بن عازب فذكره، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٥١).
(٢) المسند ٥ / ٣٤٨ (٢٢٩٤٨). وأخرجه الراهمهرمي في أمثال الحديث (٧) وأبو الشيخ الأصبهاني في الأمثال (٢٥٣) من طريق بشير بن المهاجر الغنوي عن عبد الله بن بريده عن أبيه فذكره، صححه الأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٣) صحيح مسلم كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر... (٢٠٠٢).

مَا أَعْلَمُ، لَصَحِحَّتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَدَنْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْقُرْشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ»^(١) قَالَ أَبُو ذَرٍّ: وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْصَدُ.

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَنَازَةٍ فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ قَعَدَ عَلَي سَاقِيهِ، فَجَعَلَ يُرَدِّدُ بَصْرَهُ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «يُضْغَطُ الْمُؤْمِنُ فِيهِ ضَنْغَطَةٌ تَزُولُ مِنْهَا حَمَائِلُهُ وَيُمْلَأُ عَلَى الْكَافِرِ نَارًا، وَالْحَمَائِلُ عُرُوقُ الْأَنْثَيْنِ»^(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ حِينَ تُوِّفِيَ، فَلَمَّا صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَسُويَ عَلَيْهِ، سَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَبَّحْنَا طَوِيلًا، ثُمَّ كَبَّرَ، فَكَبَّرْنَا، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ سَبَّحْتَ، ثُمَّ كَبَّرْتَ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ تَضَاقَقَ عَلَي هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى قَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ»^(٣).

(١) المسند ٥ / ١٧٣ (٢١٥١٦). وأخرجه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) والحاكم ٢ / ٥٥٤ (٣٨٨٣) والبخاري ١٧٣٠ (٢١٥١٦). وأخرجه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) والحاكم ٢ / ٥٥٤ (٣٨٨٣) والبخاري ١٧٣٠ (٢١٥١٦). وأخرجه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) والحاكم ٢ / ٥٥٤ (٣٨٨٣) والبخاري ١٧٣٠ (٢١٥١٦).

(٢) ٥ / ٤٠٧ (٢٣٤٥٧). وأخرجه تمام في فوائده (الروض البسام - ٥١٨) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (١١٢) وابن الجوزي في الموضوعات (٢ / ٤٠٦) من طريق محمد بن جابر عن عمرو بن مرة عن أبي البخري عن حذيفة ذكره. قال ابن الجوزي: "هذا حديث لا يصح. قال يحيى: محمد بن جابر ليس بشيء. وقال أحمد: لا يحدث عنه إلا من هو شر منه". وقال ابن رجب الحنبلي: "محمد بن جابر هو الياامي ضعيف. وأبو البخري لم يدرك حذيفة". وضعفه كذلك الحافظ العراقي وابن حجر والهيتمي. راجع الروض البسام (٢ / ١٢٥).

(٣) ٣ / ٣٦٠ (١٤٥٠٥) و(١٤٨٧٣). وأخرجه الطبراني ٦ / ١٣ (٥٣٤٦) والبخاري في تاريخه (١ / ١٤٨) مختصرًا، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (١١٠) وغيرهم من طريق محمد بن إسحاق حدثني معاذ بن رفاعه عن محمود بن عبد الرحمن بن عمرو بن الجموح عن جابر فذكره. صححه لغيره الشيخ شعيب في تحقيق المسند.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ، وَاحْتَمَلَهَا الرَّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدَّمُونِي قَدَّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ لَصَعِقَ»^(١).

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَدْنُو الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ مِيلٍ، وَيُزَادُ فِي حَرِّهَا كَذَا وَكَذَا، تَغْلِي مِنْهَا الرُّءُوسُ كَمَا تَغْلِي الْقُدُورُ، يَعْرِقُونَ فِيهَا عَلَى قَدْرِ حَطَايَاهُمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى كَعْبِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى سَاقِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى وَسْطِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْحِمُهُ الْعِرْقُ»^(٢).

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدِ التَّقَمَ الْقُرْنُ؟ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَسْمَعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ: قُولُوا: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا»^(٣).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ يَرْفَعُهُ: «مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوْ اخْتَالَ فِي مِشِيَّتِهِ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ»^(٤).

(١) كتاب الجنائز، باب حمل الرجال الجنائز دون النساء (١٣١٤).

(٢) المسند ٥ / ٢٥٤ (٢٢١٨٦). وأخرجه الطبراني في الكبير ٨ / ٢٢٢ (٧٧٧٩)، من طريق معاوية بن صالح عن القاسم بن عبد الرحمن الدمشقي عن أبي أمامة فذكره. صححه عبدالحق في أحكامه (٤ / ٢٩٢) وقال ابن القطان في بيانه (٤ / ٦٤٤): «حسن لا صحيح».

(٣) المسند ١ / ٣٢٦ (٣٠٠٨) وإسناده ضعيف لكن حسنه لغيره الأرنؤوط في تحقيق المسند.

(٤) المسند ٢ / ١١٨ (٥٩٩٥). وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٩) والحاكم ١ / ١٢٨ (٢٠١) والمزي في تهذيب الكمال (٣٢ / ٥٣٩، ٥٤٠) وغيرهم، من طريق يونس بن القاسم الحنفي عن عكرمة بن خالد قال:

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمَصُورِينَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»^(١).

وَفِيهَا أَيْضًا عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وَفِيهَا أَيْضًا عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، جِيءَ بِالْمُوتِ حَتَّى يُوقَفَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذَبِّحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، فَيَزِدَادُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزِدَادُ أَهْلَ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ»^(٣).

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ اشْتَرَى ثَوْبًا بِعَشْرَةِ دَرَاهِمٍ فِيهَا دِرْهَمٌ حَرَامٌ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً مَا دَامَ عَلَيْهِ» ثُمَّ أَدْخَلَ إِصْبَعِيهِ فِي أُذُنَيْهِ ثُمَّ قَالَ صُمَمًا إِنَّ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُهُ^(٤).

سمعت ابن عمر، فذكره. قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه". وصححه الألباني في الصحيحة (٥٤٣).

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء (٢١٠٥)، وفي مواضع أخرى. وأخرجه

مسلم في اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان (٢١٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي (١٣٧٩)، وفي مواضع أخرى. وأخرجه

مسلم في كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٨٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٨)، ومسلم في كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون

(٢٨٥٠).

(٤) (٥) ٩٨ / ٢ (٥٧٣٢). وأخرجه عبد بن حميد في المسند (المنتخب - ٨٤٩) من طريق هاشم عن ابن عمر، فذكره.

وهاشم هذا هو الأوقص - كما جاء مصرحاً به في بعض الطرق - ضعيف جداً. انظر لسان الميزان (٨ / ٣١٥)

وَفِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسُئِلَهَا، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ طِينَةَ الْحَبَالِ» قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْحَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «عَصَاةُ أَهْلِ جَهَنَّمَ»^(١).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ مَرْفُوعًا «مَنْ شَرِبَ الْخُمْرَ مَرَّةً لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ لَهُ صَلَاةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَا أُدْرِي فِي الثَّلَاثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ قَالَ: فَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدْعَةِ الْحَبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ مُدْمِنًا لِلْخُمْرِ سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ نَهْرِ الْغُوطَةِ» قِيلَ: وَمَا نَهْرُ الْغُوطَةِ؟ قَالَ: «نَهْرٌ يَجْرِي مِنْ فُرُوجِ الْمُومَسَاتِ، يُؤْذِي أَهْلَ النَّارِ رِيحُ فُرُوجِهِنَّ»^(٣).

وقد وقع في الحديث اضطراب كثير. قال الخلال: قال أبو طالب: سألت أبا عبد الله (الإمام أحمد) عن هذا الحديث، فقال: "ليس بشيء، ليس له إسناد". والحديث ضعفه ابن حبان والبيهقي والذهبي والألباني في الضعيفة (٨٤٤). انظر: نصب الراية (٢/ ٣٢٥)، وتحقيق المسند (١٠/ ٢٥ - ٢٦).

(١) المسند / ١٧٨ (٦٦٥٩). وأخرجه الحاكم ٤ / ١٦٢ (٧٢٣٣) والبيهقي (٨ / ٢٨٧) من طريق عمرو بن الحارث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فذكره. قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" قال الذهبي معقباً عليه: "سمعه ابن وهب عنه، وهو غريب جداً".

(٢) ٢ / ١٧٦ (٦٦٤٤). وأخرجه ابن ماجه (٣٣٧٧) وابن حبان في صحيحه (٥٣٥٧)، من طريق الأوزاعي عن ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن الديلمي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، فذكره مطولاً. وسنده صحيح. والحديث صححه ابن حبان. وانظر الصحيحة للألباني (٧٠٩).

(٣) ٤ / ٣٩٩ (١٩٥٦٩). وأخرجه ابن حبان (٥٣٤٦) والحاكم ٤ / ١٦٣ (٧٢٣٤) وأبو يعلى (٧٢٤٨) وغيرهم، قال الألباني في الضعيفة (١٤٦٣): «ضعيف».

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَأَمَّا عَرَضَاتَانِ فَحِدَالٌ وَمَعَادِيرٌ، وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي، فَأَخِذْ بِيَمِينِهِ، أَوْ أَخِذْ بِشِمَالِهِ»^(١).

وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ: فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكَنَّهُ، وَضَرَبَ لَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَثَلًا، كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعَ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا وَأَجْجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَدَّفُوا فِيهَا»^(٢).

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ، اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَعَلَى حَافَتَيْهِ كَاللَّيْلِ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ الْمُوثِقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ الْمُجْرَدُلُ، ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْحَمَ مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُوهُمْ قَدْ امْتَحَشُوا فَيَصَبُّ عَلَيْهِمْ مِنْ مَاءٍ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَسْبُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ فِي حِمِيلِ السَّبِيلِ»^(٣).

(١) ٤ / ٤١٤ (١٩٧١٥). وأخرجه ابن ماجه (٤٢٧٧)، من طريق وكيع عن علي بن علي بن رفاعه عن الحسن عن أبي موسى فذكره، ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي والأرناؤوط في تحقيق المسند.

(٢) ٤٠٢ / ٤٠٣ - (٣٨١٨). وأخرجه الطيالسي في مسنده (٤٠٠) والطبراني ١٥ / ٢٦١ (١٠٥٠٠) وأبو الشيخ في الأمثال (٣١٩) وغيرهم، من طريق عمران القطان عن قتادة عن عبد ربه عن أبي عياض عن ابن مسعود فذكره. قال الألباني في صحيح الترغيب (٢٤٧٠): «صحيح لغيره».

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الصراط جسر جهنم (٦٥٧٣) ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى قُتِلْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنْ قَاتَلْتَ لِيقَالَ: هُوَ جَرِيٌّ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيقَالَ، هُوَ عَالِمٌ، فَقَدْ قِيلَ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيقَالَ: هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ» وَفِي لَفْظٍ «فَهُؤُلَاءِ أَوَّلَ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ يَقُولُ: كَمَا أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ الْأَنْبِيَاءُ فَشَرُّ النَّاسِ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ يَوْمَهُمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَخَيْرُ النَّاسِ بَعْدَهُمُ الْعُلَمَاءُ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّادِقُونَ، وَالْمُخْلِصُونَ، وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ يَوْمَهُمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لِأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ فِي مَالٍ أَوْ عَرَضٍ فَلْيَأْتِهِ، فَلْيَسْتَحِلِّهَا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ وَلَيْسَ عِنْدَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَأَعْطَاهَا هَذَا، وَإِلَّا أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ هَذَا فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طَرِحَ فِي النَّارِ»^(٢).

(١) صحيح مسلم كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥).

(٢) كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة ... (٢٤٤٩).

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ حُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ»^(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقَدُ بِنُورِ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ، قَالَ: «فَإِنَّهَا قَدْ فَضَّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»^(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ مُعَاذٍ قَالَ: أَوْصَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُتِلْتَ أَوْ حُرِّقْتَ، وَلَا تَعْتَنَّ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أَمَرَكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَلَا تَتْرُكَنَّ صَلَاةَ مَكْتُوبَةٍ مُتَعَمِّدًا، فَإِنْ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ مَكْتُوبَةٍ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرَّتْ مِنْهُ دِمَةٌ لِلَّهِ، وَلَا تَشْرَبَنَّ حَمْرًا، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ، وَإِيَّاكَ وَالْمَعْصِيَةَ، فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ نُحْلٌ سَخَطَ اللَّهُ»^(٣).

وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ أَضْعَافُ أَضْعَافٍ مَا ذَكَرْنَا، فَلَا يَنْبَغِي لِمَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ أَنْ يَتَعَامَى عَنْهَا، وَيُرْسِلَ نَفْسَهُ فِي الْمَعَاصِي، وَيَتَعَلَّقَ بِحُسْنِ الرَّجَاءِ وَحُسْنِ الظَّنِّ.

(١) بهذا اللفظ أخرجه البخاري من حديث ابن عمر في المظالم، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض (٢٤٥٤)، وفي بدء الخلق (٣١٩٦). أما حديث أبي هريرة، فأخرجه مسلم في المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (١٦١١) بلفظ «طوقه الله إلى سبع أرضين».

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة النار (٣٢٦٥)، ومسلم في كتاب الجنة، باب شدة حر نار جهنم ... (٢٨٤٣).

(٣) ٢٣٨ / ٥ (٢٢٠٧٥) من طريق صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن معاذ فذكره. وصححه الألباني في الإرواء (٢٠٢٦).

قَالَ أَبُو الْوَفَاءِ بْنُ عَقِيلٍ: أَخَذَرُهُ وَلَا تَعْتَرِّ بِهِ، فَإِنَّهُ قَطَعَ الْيَدَ فِي ثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ، وَجَلَدَ الْحَدَّ فِي مِثْلِ رَأْسِ الْإِبْرَةِ مِنَ الْخُمْرِ، وَقَدْ دَخَلَتِ الْمُرَاةُ النَّارَ فِي هِرَّةٍ، وَاشْتَعَلَتِ الشَّمْلَةُ نَارًا عَلَى مَنْ غَلَّهَا وَقَدْ قُتِلَ شَهِيدًا.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مَيْسَرَةَ عَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ يَرْفَعُهُ قَالَ: «دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فِي دُبَابٍ، وَدَخَلَ رَجُلٌ النَّارَ فِي دُبَابٍ» قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنْمٌ لَا يُجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرَّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، فَقَالَ لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ، قَالُوا قَرِّبْ وَلَوْ دُبَابًا، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْعَبْدُ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أْبَعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(١).

وَرَبَّمَا أَتَكَلَّ بَعْضُ الْمُغْتَرِّينَ عَلَى مَا يَرَى مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَأَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِهِ، وَيَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ لَهُ، وَأَنَّهُ يُعْطِيهِ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنَ الْعُرُورِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عَيَّالَانَ حَدَّثَنَا رَشِيدُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ حَرْمَلَةَ بْنِ عِمْرَانَ التَّجِيبِيِّ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِهَا أُوتُوا أَخَذْنَا مِنْهُمُ بَعْتَةً فِإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ٤٤]»^(٢).

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يَتَابِعُ عَلَيْكَ نِعْمَهُ وَأَنْتَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ فَاحْذَرُهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ يَسْتَدْرِجُكَ بِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٨٤)، ولا يصح رفعه وإنما هو موقوف، انظر الضعيفة للألباني (٥٨٢٩).

(٢) أخرجه أحمد ٤ / ١٤٥ (١٧٣١١) وصححه الألباني في الصحيحة (٤١٣).

بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَّكِنُونَ *
وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿سُورَةُ الزُّخْرُفِ: ٣٣ - ٣٥﴾.

وَقَدْ رَدَّ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ يَظُنُّ هَذَا الظَّنَّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ
رَبِّي أَكْرَمَنِي * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا ﴿سُورَةُ الْفَجْرِ: ١٥ - ١٧﴾
أَي لَيْسَ كُلُّ مَنْ نَعَّمْتَهُ وَوَسَّعْتَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ أَكُونَ قَدْ أَكْرَمْتَهُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ابْتَلَيْتَهُ وَصَيَّبْتَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ
أَكُونَ قَدْ أَهَنْتَهُ، بَلْ أُبْتَلَى هَذَا بِالنَّعْمِ، وَأُكْرِمُ هَذَا بِالْإِتْلَاءِ.

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ
يُحِبُّ»^(١).

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: رَبٌّ مُسْتَدْرَجٌ يَنْعَمُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَرَبٌّ مَغْرُورٌ بَسْتَرِ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ
لَا يَعْلَمُ، وَرَبٌّ مَفْتُونٌ بِنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ.

فَصْلٌ

وَأَعْظَمُ الْخَلْقِ عُرُورًا مَنْ اغْتَرَّ بِالدُّنْيَا وَعَاجَلَهَا، فَاتَّوَلَّى عَلَى الْآخِرَةِ، وَرَضِيَ بِهَا مِنَ الْآخِرَةِ، حَتَّى
يَقُولَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ: الدُّنْيَا نَقْدٌ، وَالْآخِرَةُ نَسِيئَةٌ، وَالنَّقْدُ أَحْسَنُ مِنَ النَّسِيئَةِ.

وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: ذَرَّةٌ مَنقُودَةٌ، وَلَا ذَرَّةٌ مَوْعُودَةٌ.

وَيَقُولُ آخَرٌ مِنْهُمْ: لَدَاتُ الدُّنْيَا مُتَيَقِّنَةٌ، وَلَدَاتُ الْآخِرَةِ مَشْكُوكٌ فِيهَا، وَلَا أَدْعُ الْيَقِينَ بِالشَّكِّ.

(١) ليس في الترمذي وأخرجه أحمد ١ / ٣٨٧ (٣٦٧٢) وغيره بلفظ أطول وضح منه هذا القدر، انظر الصحيحة
للألباني (٢٧١٤).

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ تَلْيِسِ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلِهِ، وَالْبَهَائِمُ الْعُجْمُ أَعْقَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَإِنَّ الْبَهِيمَةَ إِذَا خَافَتْ مَضْرَّةَ شَيْءٍ لَمْ تُقَدِّمِ عَلَيْهِ وَلَوْ ضُرِبَتْ، وَهَؤُلَاءِ يُقَدِّمُ أَحَدُهُمْ عَلَى مَا فِيهِ عَطْبُهُ، وَهُوَ يَبِينُ مُصَدِّقٌ وَمُكَدِّبٌ.

فَهَذَا الضَّرْبُ إِنْ آمَنَ أَحَدُهُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِقَائِهِ وَالْجَزَاءِ، فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ حَسْرَةً، لِأَنَّهُ أَقْدَمَ عَلَى عِلْمٍ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَبْعَدُ لَهُ.
وَقَوْلُ هَذَا الْقَائِلِ: النَّقْدُ خَيْرٌ مِنَ النَّسِيئَةِ.

جَوَابُهُ أَنَّهُ إِذَا تَسَاوَى النَّقْدُ وَالنَّسِيئَةُ فَالنَّقْدُ خَيْرٌ، وَإِنْ تَفَاوَتَا وَكَانَتِ النَّسِيئَةُ أَكْبَرَ وَأَفْضَلَ فَهِيَ خَيْرٌ، فَكَيْفَ وَالدُّنْيَا كُلُّهَا مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى آخِرِهَا كَنَفْسٍ وَاحِدٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْآخِرَةِ؟

كَمَا فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يُدْخَلُ أَحَدُكُمْ إِبْصَعُهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمِ يَرْجِعُ؟»^(١).

فَإِثَارُ هَذَا النَّقْدِ عَلَى هَذِهِ النَّسِيئَةِ، مِنْ أَعْظَمِ الْغَبَنِ وَأَفْبَحِ الْجُهْلِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا نِسْبَةَ الدُّنْيَا بِمَجْمُوعِهَا إِلَى الْآخِرَةِ، فَمَا مَقْدَارُ عُمُرِ الْإِنْسَانِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ، فَأَيُّهَا أَوْلَى بِالْعَاقِلِ؟ إِثَارُ الْعَاجِلِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ، وَحِرْمَانُ الْخَيْرِ الدَّائِمِ فِي الْآخِرَةِ، أَمْ تَرَكَ شَيْءٌ حَقِيرٍ صَغِيرٍ مُنْقَطِعٍ عَنْ قُرْبٍ، لِيَأْخُذَ مَا لَا قِيمَةَ لَهُ وَلَا خَطَرَ لَهُ، وَلَا نِهَآيَةَ لِعَدَدِهِ، وَلَا غَايَةَ لِأَمْدِهِ؟

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٨) وأحمد ٤ / ٢٢٩ (١٨٠٠٨). والترمذي (٢٣٢٢) ولفظ مسلم: "والله ما

الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم".

وَأَمَّا قَوْلُ الْآخِرِ: لَا أَتْرُكُ مُتَيْقِنًا لِمَشْكُوكٍ فِيهِ، فَيُقَالُ لَهُ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَى شَكٍّ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ وَوَعْدِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ، أَوْ تَكُونَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى الْيَقِينِ فَمَا تَرَكْتَ إِلَّا ذَرَّةً عَاجِلَةً مُنْقَطِعَةً فَإِنَّهُ عَنِ قُرْبٍ، لِأَنَّهُ مُتَيْقِنٌ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا انْقِطَاعَ لَهُ.

وَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَكٍّ فَرَأَجِعْ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى الدَّالَّةَ عَلَى وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ، وَتَجَرُّدِ وَقَمِّ لِهِنَّ نَاطِرًا أَوْ مُنَاطِرًا، حَتَّى يَتَيَّنَ لَكَ أَنْ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنِ اللَّهِ فَهِيَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَنَّ خَالِقَ هَذَا الْعَالَمِ وَرَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَعَالَى وَيَتَقَدَّسُ وَيَتَنَزَّهُ عَنِ خِلَافِ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ رُسُلُهُ عَنْهُ، وَمَنْ نَسَبَهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ شَتَمَهُ وَكَذَّبَهُ، وَأَنْكَرَ رُبُوبِيَّتَهُ وَمُلْكَهُ، إِذْ مِنَ الْمَحَالِ الْمُمْتَنِعِ عِنْدَ كُلِّ ذِي فِطْرَةٍ سَلِيمَةٍ، أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ الْحَقُّ عَاجِزًا أَوْ جَاهِلًا، لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا يَأْمُرُ وَلَا يَنْهَى، وَلَا يُشِيبُ وَلَا يُعَاقِبُ، وَلَا يُعْزُ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُبْذِلُ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُرْسِلُ رُسُلَهُ إِلَى أَطْرَافِ مَمْلَكَتِهِ وَنَوَاحِيهَا، وَلَا يَعْتَبِي بِأَحْوَالِ رَعِيَّتِهِ، بَلْ يَرْكُضُهُمْ سُدًى وَيُجَلِّبُهُمْ هَمَلًا، وَهَذَا يَقْدَحُ فِي مُلْكِ أَحَادِ مُلُوكِ الْبَشَرِ وَلَا يَلِيقُ بِهِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ نَسْبُهُ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ إِلَيْهِ؟

وَإِذَا تَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ حَالَهُ مِنْ مَبْدَأِ كَوْنِهِ نُطْفَةً إِلَى حِينِ كَمَالِهِ وَاسْتَوَائِهِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مَنْ عُنِيَ بِهِ هَذِهِ الْعِنَايَةُ، وَنَقَلَهُ إِلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ، وَصَرَّفَهُ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ، لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُهْمَلَهُ وَيَشْرُكُهُ سُدًى، لَا يَأْمُرُهُ وَلَا يَنْهَاهُ وَلَا يَعْرِفُهُ بِحُقُوقِهِ عَلَيْهِ، وَلَا يُشِيبُهُ وَلَا يُعَاقِبُهُ، وَلَوْ تَأَمَّلَ الْعَبْدُ حَقَّ التَّامُّلِ لَكَانَ كُلُّ مَا يُبْصِرُهُ وَمَا لَا يُبْصِرُهُ دَلِيلًا لَهُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا وَجْهَ الْإِسْتِدْلَالِ بِذَلِكَ فِي كِتَابِ إِيْمَانِ الْقُرْآنِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ - وَمَا لَا تُبْصِرُونَ - إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [سُورَةُ الْحَاقَّةِ: ٣٨ - ٤٠].

وَذَكَرْنَا طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ٢١].

وَأَنَّ الْإِنْسَانَ دَلِيلُ نَفْسِهِ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَإِثْبَاتِ صِفَاتِ كَمَالِهِ.
فَقَدْ بَانَ أَنَّ الْمُضَيِّعَ مَعْرُورٌ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ: تَقْدِيرِ نَصْدِيقِهِ وَيَقِينِهِ، وَتَقْدِيرِ تَكْذِيبِهِ وَشَكِّهِ.

كَيْفَ يَجْتَمِعُ الْيَقِينُ بِالْمَعَادِ، وَالتَّخَلُّفُ عَنِ الْعَمَلِ؟

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَجْتَمِعُ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ بِالْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَيَتَخَلَّفُ الْعَمَلُ؟
وَهَلْ فِي الطَّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ عَدَا إِلَى بَيْنِ يَدَيْ بَعْضِ الْمُلُوكِ لِيُعَاقِبَهُ أَشَدَّ عُقُوبَةٍ، أَوْ
يُكْرِمَهُ أَوْ كَرَامَةٍ، وَيَبْتَئُ سَاهِيًا غَافِلًا لَا يَتَذَكَّرُ مَوْقِفَهُ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ، وَلَا يَسْتَعِدُّ لَهُ، وَلَا يَأْخُذُ لَهُ أَهْبَتَهُ.
قِيلَ: هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ سُؤَالَ صَحِيحٍ وَارِدٌ عَلَى أَكْثَرِ هَذَا الْخَلْقِ، فَاجْتِمَاعُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ مِنْ أَعْجَبِ
الْأَشْيَاءِ وَهَذَا التَّخَلُّفُ لَهُ عِدَّةُ سَبَابٍ:

أَحَدُهَا: ضَعْفُ الْعِلْمِ، وَنُقْصَانُ الْيَقِينِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَتَفَاوَتُ، فَقَوْلُهُ مِنْ أَفْسَدِ الْأَقْوَالِ
وَأَبْطَلِهَا.

وَقَدْ سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ إِحْيَاءَ الْمُوتَى عَيْنَانًا بَعْدَ عِلْمِهِ بِقُدْرَةِ الرَّبِّ عَلَى ذَلِكَ، لِيَزِدَّادَ
طُمَأْنِينَةً، وَيَصِيرَ الْمَعْلُومَ غَيْبًا شَهَادَةً.

وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمَعَانِيَةِ»^(١).

فَإِذَا اجْتَمَعَ إِلَى ضَعْفِ الْعِلْمِ عَدَمُ اسْتِحْضَارِهِ، أَوْ غَيْبَتُهُ عَنِ الْقَلْبِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَوْقَاتِهِ أَوْ أَكْثَرِهَا
لَا شَتِغَالَهُ بِمَا يُضَادُّهُ، وَانْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ تَقَاضِي الطَّبَعِ، وَغَلَبَاتُ الْهَوَى، وَاسْتِيْلَاءُ الشَّهْوَةِ، وَتَسْوِيلُ
النَّفْسِ، وَغُرُورُ الشَّيْطَانِ، وَاسْتِبْطَاءُ الْوَعْدِ، وَطَوْلُ الْأَمَلِ، وَرَقْدَةُ الْعَفْلَةِ، وَحُبُّ الْعَاجِلَةِ، وَرُخْصُ

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٢، ٢٤٤٧). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٤).

التَّأْوِيلِ وَالْفُ عَوَائِدِ، فَهُنَاكَ لَا يُمَسِّكُ الْإِيْمَانَ إِلَّا الَّذِي يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَبِهَذَا السَّبَبِ يَتَفَاوَتُ النَّاسُ فِي الْإِيْمَانِ وَالْأَعْمَالِ، حَتَّى يَتَّهَيَّ إِلَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْقَلْبِ.

وَجَمَاعُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ يَرْجِعُ إِلَى ضَعْفِ الْبَصِيرَةِ وَالصَّبْرِ، وَهَذَا مَدَحَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً فِي الدِّينِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْهُمْ أئِمَّةٌ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجْدَةَ: ٢٤].

فَصُلِّ

وَقَدْ تَبَيَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْعُرُورِ، وَأَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ إِنْ حَمَلَ عَلَى الْعَمَلِ، وَحَثَّ عَلَيْهِ، وَسَاقَ إِلَيْهِ، فَهُوَ صَحِيحٌ، وَإِنْ دَعَا إِلَى الْبَطَالَةِ وَالْإِنْمَهَاكِ فِي الْمَعَاصِي فَهُوَ عُرُورٌ، وَحُسْنُ الظَّنِّ هُوَ الرَّجَاءُ، فَمَنْ كَانَ رَجَاؤُهُ هَادِيًا لَهُ إِلَى الطَّاعَةِ، زَاجِرًا لَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَهُوَ رَجَاءٌ صَحِيحٌ، وَمَنْ كَانَتْ بَطَالَتُهُ رَجَاءً، وَرَجَاؤُهُ بَطَالَةً وَتَفْرِيطًا، فَهُوَ الْمَغْرُورُ.

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ يُؤْمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ مِنْ مَغْلِبِهَا مَا يَنْفَعُهُ فَاهْمَلَهَا وَلَمْ يَبْدُرْهَا وَلَمْ يَحْرُثْهَا، وَحُسْنَ ظَنِّهِ بِأَنَّهُ يَأْتِي مِنْ مَغْلِبِهَا مَا يَأْتِي مِنْ حَرْثٍ وَبَدْرٍ وَسَقَى وَتَعَاهَدَ الْأَرْضَ لَعَدَهُ النَّاسُ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ.

وَكَذَلِكَ لَوْ حَسَنَ ظَنُّهُ وَقَوِيَ رَجَاؤُهُ بِأَنَّ يَجِيئُهُ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ جَمَاعٍ أَوْ يَصِيرَ أَعْلَمَ أَهْلِ زَمَانِهِ مِنْ غَيْرِ طَلَبِ الْعِلْمِ، وَحِرْصِ تَامِّ عَلَيْهِ، وَأَمثالُ ذَلِكَ.

فَكَذَلِكَ مَنْ حَسَنَ ظَنُّهُ وَقَوِيَ رَجَاؤُهُ فِي الْفُوزِ بِالذَّرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، مِنْ غَيْرِ طَاعَةٍ وَلَا تَقَرُّبٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَمثالِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَيَا اللَّهُ التَّوْفِيقُ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢١٨].

فَتَأْمَلُ كَيْفَ جَعَلَ رَجَاءَهُمْ إِيْتَابَهُمْ بِهَذِهِ الطَّاعَاتِ؟

وَقَالَ الْمُعْتَرُونَ: إِنَّ الْمُفَرِّطِينَ الْمُضِيِّعِينَ حُقُوقَ اللَّهِ الْمُعْطَلِينَ لِأُؤْمَرِهِ، الْبَاطِنِينَ عَلَى عِبَادِهِ، الْمُتَجَرِّبِينَ عَلَى مُحَارِمِهِ، أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الرَّجَاءَ وَحُسْنَ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْإِثْبَانِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَةُ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ وَثَوَابِهِ وَكَرَامَتِهِ، فَيَأْتِي الْعَبْدُ بِهَا ثُمَّ يُحْسِنُ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَيَرْجُوهُ أَنْ لَا يَكِلَهُ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَجْعَلَهَا مُوَصَّلَةً لِي مَا يَنْفَعُهُ، وَيُضْرَفَ مَا يُعَارِضُهَا وَيُبْطِلُ أَثَرَهَا.

فَصَلِّ

وَمَا يَبْغِي أَنْ مَنْ رَجَا شَيْئًا اسْتَلْزَمَ رَجَاؤُهُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: مَحَبَّةُ مَا يَرْجُوهُ.

الثَّانِي: خَوْفُهُ مِنْ فَوَاتِهِ.

الثَّالِثُ: سَعْيُهُ فِي تَحْصِيلِهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ.

وَأَمَّا رَجَاءُ لَا يُقَارِنُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْأَمَانِيِّ، وَالرَّجَاءُ شَيْءٌ وَالْأَمَانِيُّ شَيْءٌ آخَرُ، فَكُلُّ رَاجٍ خَائِفٌ، وَالسَّائِرُ عَلَى الطَّرِيقِ إِذَا خَافَ أَسْرَعَ السَّيْرَ مَخَافَةَ الْفَوَاتِ.

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»^(١).

وَهُوَ سُبْحَانَهُ كَمَا جَعَلَ الرَّجَاءَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَكَذَلِكَ جَعَلَ الْخَوْفَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَعَلِمَ أَنَّ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ النَّافِعَ مَا اقْتَرَنَ بِهِ الْعَمَلُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ٥٧ - ٦١].

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقُلْتُ: أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْحَمْرَ، وَيَزْنُونَ، وَيَسْرِقُونَ، فَقَالَ: «لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَخَافُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ»^(٢) وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَصَفَ أَهْلَ السَّعَادَةِ بِالْإِحْسَانِ مَعَ الْخَوْفِ، وَوَصَفَ الْأَشْقِيَاءَ بِالْإِسَاءَةِ مَعَ الْأَمْنِ. مَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ الصَّحَابَةِ وَجَدَهُمْ فِي غَايَةِ الْعَمَلِ مَعَ غَايَةِ الْخَوْفِ، وَنَحْنُ جَمِيعًا بَيْنَ التَّقْصِيرِ، بَلِ التَّفْرِيطِ وَالْأَمْنِ، فَهَذَا الصِّدِّيقُ يَقُولُ: وَدِدْتُ أَنِّي شَعْرَةٌ فِي جَنْبِ عَيْدِ مُؤْمِنٍ، ذَكَرَهُ أَحْمَدُ عَنْهُ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) وصححه الألباني (٢٣٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٧٥) وابن ماجه (٤١٩) وأحمد / ٦ / ١٥٩ (٢٥٢٦٣) وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٧٥). وأخرجه ابن ماجه (٤١٩) وأحمد / ٦ / ١٥٩ (٢٥٢٦٣) والطبري (٢٦ / ١٨) والحاكم / ٢ / ٤٢٧ (٣٤٨٦) وغيرهم.

وَذَكَرَ عَنْهُ أَيضًا أَنَّهُ كَانَ يَمْسِكُ بِلِسَانِهِ وَيَقُولُ: هَذَا الَّذِي أوردني الموارِد، وَكَانَ يَبْكِي كَثِيرًا، وَيَقُولُ:
أَبْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا.

وَكَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ كَأَنَّهُ عُوذٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

وَأَتَى بِطَائِرٍ فَقَلَبَهُ ثُمَّ قَالَ: مَا صَيْدَ مِنْ صَيْدٍ، وَلَا قَطَعْتَ شَجْرَةً مِنْ شَجَرَةٍ، إِلَّا بِمَا صَيَّعْتَ مِنَ
التَّسْبِيحِ، فَلَمَّا احْتَضَرَ، قَالَ لِعَائِشَةَ: يَا بِنْتِي، إِنِّي أَصَبْتُ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْعِبَاءَةَ وَهَذِهِ الْحِلَابَ وَهَذَا
العَبْدَ، فَأَسْرَعِي بِهِ إِلَيَّ ابْنِ الحَطَّابِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ هَذِهِ الشَّجْرَةَ تُؤْكَلُ وَتُعْصَدُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: لَيْتَنِي خُضِرْتُ تَأْكُلُنِي الدَّوَابُّ.

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ الحَطَّابِ قَرَأَ سُورَةَ الطُّورِ إِلَى أَنْ بَلَغَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [سُورَةُ الطُّورِ: ٧٧]
فَبَكَى وَاشْتَدَّ بَكَؤُهُ حَتَّى مَرَضَ وَعَادُوهُ.

وَقَالَ لِابْنِهِ وَهُوَ فِي المَوْتِ: وَيْحَكَ ضَعَّ حَدِّي عَلَى الأَرْضِ عَسَاهُ أَنْ يَرَحِمَنِي، ثُمَّ قَالَ: وَيْلُ أُمِّي، إِنَّ
لَمْ يَغْفِرْ لِي (ثَلَاثًا)، ثُمَّ فَضِي.

وَكَانَ يَمُرُّ بِالآيَةِ فِي وَرْدِهِ بِاللَّيْلِ فَتُخِيفُهُ، فَيَقِي فِي البَيْتِ أَيَّامًا يُعَادُ، يُحَسِبُونَهُ مَرِيضًا، وَكَانَ فِي وَجْهِهِ
حَطَّانٌ أَسْوَدَانِ مِنَ البُكَاءِ.

وَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، مَضَرَ اللَّهُ بِكَ الأَمْصَارَ، وَفَتَحَ بِكَ الفُتُوحَ، وَفَعَلَ، فَقَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي أَنجُو لَأ
أَجْرَ وَلَا وَزَرَ.

وَهَذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى القَبْرِ يَبْكِي حَتَّى تُبَلَّ لِحْيَتُهُ، وَقَالَ: لَوْ أَنَّنِي بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ
لَأَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِمَا يُؤْمَرُ بِي، لَأَخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيَّتِهِمَا أَصِيرُ.

وَهَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَبُكَاءُهُ وَخَوْفُهُ، وَكَانَ يَشْتَدُّ خَوْفُهُ مِنْ اثْنَتَيْنِ: طُولِ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعِ الْهُوَى، قَالَ: فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيَنْسِي الْآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهُوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ مُدْبِرَةً، وَالْآخِرَةَ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ.

وَهَذَا أَبُو الدَّرْدَاءِ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ أَشَدَّ مَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُقَالَ لِي: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، قَدْ عَلِمْتَ، فَكَيْفَ عَمِلْتَ فِيهَا عَلِمْتَ؟ وَكَانَ يَقُولُ: لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَنْتُمْ لِأَقْوَنَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَمَا أَكَلْتُمْ طَعَامًا عَلَى شَهْوَةٍ، وَلَا شَرِبْتُمْ شَرَابًا عَلَى شَهْوَةٍ، وَلَا دَخَلْتُمْ بَيْتًا تَسْتَظِلُّونَ فِيهِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَضْرِبُونَ صُدُورَكُمْ، وَتَبْكُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَوِ دِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ ثُمَّ تُؤْكَلُ.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَسْفَلَ عَيْنَيْهِ مِثْلَ الشَّرَاكِ الْبَالِي مِنَ الدَّمُوعِ.

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ، وَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أُخْلَقْ وَعُرِضْتُ عَلَيْهِ النَّفَقَةُ، فَقَالَ: مَا عِنْدَنَا عَنزٌ نَحْلِبُهَا وَحُمْرٌ نَنْقُلُ عَلَيْهَا، وَمُحَرَّرٌ يُجِدُّنَا، وَفَضْلٌ عَبَاءَةٍ، وَإِنِّي أَخَافُ الْحِسَابَ فِيهَا.

وَقَرَأَ تَيْمِيمُ الدَّارِيُّ لَيْلَةَ سُورَةِ الْجَانَّةِ، فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [سُورَةُ الْجَانَّةِ: ٢١] جَعَلَ يَرُدُّهَا وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَامِرُ بْنُ الْجَرَّاحِ: وَدِدْتُ أَنِّي كَبِشٌ فَدَبَحَنِي أَهْلِي، وَأَكَلُوا الْحَمِيَّ وَحَسُوا مَرَقِي. وَهَذَا بَابٌ يَطُولُ تَتَبَعُهُ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُجْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَذْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

وَيَذْكَرُ عَنِ الْحَسَنِ: مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِحَدِيثِهِ: أَنْشُدَكَ اللَّهَ هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَعْنِي فِي الْمُنَافِقِينَ، فَيَقُولُ: لَا، وَلَا أَزْكِي بَعْدَكَ أَحَدًا.

فَسَمِعْتُ شَيْخَنَا يَقُولُ: لَيْسَ مَرَادُهُ لَا أُبْرِيءُ غَيْرِكَ مِنَ النِّفَاقِ، بَلِ الْمُرَادُ لَا أَفْتَحُ عَلَى نَفْسِي هَذَا الْبَابَ، فَكُلُّ مَنْ سَأَلَنِي هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَازَكَّيْهِ.

قُلْتُ: وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لِلَّذِي سَأَلَهُ أَنْ يَدْعُو لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةٌ»^(١)، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ عَكَاشَةٌ وَحْدَهُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِمَّنْ عَدَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ لَوْ دَعَا لِقَامِ آخَرٍ وَآخَرَ وَأَنْفَتَحَ الْبَابَ، وَرَبَّاهَا قَامَ مَنْ لَمْ يَسْتَحِقَّ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ، فَكَانَ الْإِمْسَاكُ أَوْلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَصْلٌ

فَلنَرْجِعْ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ دَوَاءِ الدَّاءِ الَّذِي إِنْ اسْتَمَرَ أَفْسَدَ دُنْيَا الْعَبْدِ وَآخِرَتَهُ.

فَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ، أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِي تَضُرُّ وَلَا بَدَّ، وَأَنَّ ضَرَرَهَا فِي الْقَلْبِ كَضَرَرِ السُّمُومِ فِي الْأَبْدَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهَا فِي الضَّرَرِ، وَهَلْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرٌّ وَدَاءٌ إِلَّا سَبَبُهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي،

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤٢)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل

على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢١٦) من حديث أبي هريرة.

فَمَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبْوِينَ مِنَ الْجَنَّةِ، دَارِ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ وَالْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ إِلَى دَارِ الْأَلَامِ وَالْأَحْزَانِ وَالْمُصَائِبِ؟

وَمَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ، وَمَسَخَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ فَجَعَلَ صُورَتَهُ أَقْبَحَ صُورَةٍ وَأَشْنَعَهَا، وَبَاطِنَهُ أَقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأَشْنَعَ، وَبَدَّلَ بِالْقُرْبِ بُعْدًا، وَبِالرَّحْمَةِ لَعْنَةً، وَبِالْجَمَالِ قُبْحًا، وَبِالْجَنَّةِ نَارًا تَلْطَى، وَبِالْإِيمَانِ كُفْرًا، وَبِإِمْوَالِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ أَعْظَمَ عِدَاوَةٍ وَمُشَاقَّةٍ، وَبِزَجْلِ التَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّهْلِيلِ زَجَلَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَالْكَذِبِ وَالزُّورِ وَالْفُحْشِ، وَبِلبَاسِ الْإِيمَانِ لِبَاسِ الْكُفْرِ وَالنَّفْسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، فَهَانَ عَلَى اللَّهِ غَايَةَ الْهَوَانِ، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ غَايَةَ السُّقُوطِ، وَحَلَّ عَلَيْهِ غَضَبُ الرَّبِّ تَعَالَى فَأَهْوَاهُ، وَمَقَّتَهُ أَكْبَرَ الْمَقْتِ فَأَزْدَاهُ، فَصَارَ قَوَادِمًا لِكُلِّ فَاسِقٍ وَمُجْرِمٍ، رَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالْقِيَادَةِ بَعْدَ تِلْكَ الْعِبَادَةِ وَالسِّيَادَةِ، فَعِيَاذًا بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِكَ وَارْتِكَابِ نَهْيِكَ.

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ حَتَّى عَلَا الْمَاءُ فَوْقَ رَأْسِ الْجِبَالِ؟ وَمَا الَّذِي سَلَطَ الرِّيحَ الْعَقِيمَ عَلَى قَوْمٍ عَادٍ حَتَّى أَلْقَتْهُمْ مَوْتَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَّةٍ، وَدَمَّرَتْ مَا مَرَّ عَلَيْهِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَحُرُوثِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَدَوَابِّهِمْ، حَتَّى صَارُوا عِبْرَةً لِلْأُمَّمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ حَتَّى قَطَعَتْ قُلُوبَهُمْ فِي أَجْوَافِهِمْ وَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟ وَمَا الَّذِي رَفَعَ قُرَى اللُّوطِيَّةِ حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نَبِيحَ كِلَابِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ أَتْبَعَهُمْ حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَمْطَرَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا لَمْ يَجْمَعُهُ عَلَى أُمَّةٍ غَيْرِهِمْ، وَلَا إِخْوَانِهِمْ أَمْثَالُهَا، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِيَعِيدٍ؟

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ شُعَيْبٍ سَحَابَ الْعَذَابِ كَالظَّلْلِ، فَلَمَّا صَارَ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ نَارًا تَلْطَى؟

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ نَقَلْتَ أَرْوَاحَهُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ، فَلَا جَسَادٌ لِلْغَرَقِ،
وَالْأَرْوَاحُ لِلْحَرَقِ؟

وَمَا الَّذِي خَسَفَ بِقَارُونَ وَدَارِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ؟

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، وَدَمَّرَهَا تَدْمِيرًا؟

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ قَوْمَ صَاحِبِ يَسَ بِالصَّيْحَةِ حَتَّىٰ خَمَدُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟

وَمَا الَّذِي بَعَثَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمًا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَقَتَلُوا الرِّجَالَ،
وَسَبُّوا الذَّرِّيَّةَ وَالنِّسَاءَ، وَأَحْرَقُوا الدِّيَارَ، وَنَهَبُوا الْأَمْوَالَ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ عَلَيْهِمْ مَرَّةً ثَانِيَةً فَأَهْلَكُوا مَا قَدَرُوا
عَلَيْهِ وَتَبَّرُوا مَا عَلَوْا تَبِيرًا؟

وَمَا الَّذِي سَلَطَ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ، مَرَّةً بِالْقَتْلِ وَالسَّبِيِّ وَخَرَابِ الْبِلَادِ، وَمَرَّةً بِجَوْرِ الْمُلُوكِ،
وَمَرَّةً بِمَسْخِهِمْ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ، وَآخِرُ ذَلِكَ أَقْسَمَ الرَّبُّ: ﴿لَيُعَذِّبَنَّ عَلَيْهِمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ١٦٧].

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عُمَرَ وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ
نُفَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ قُبْرُصُ فُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا، فَبَكَى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، فَرَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ جَالِسًا
وَخَدَهُ يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا جُبَيْرُ،
مَا أَهْوَنُ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ، بَيْنَمَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ هُمْ الْمُلْكُ، تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ فَصَارُوا إِلَىٰ
مَا تَرَى.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ: أَبَانَا شُعْبَةُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يَعْدُرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»^(١).

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَا فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ أَنْاسٌ صَاحِحُونَ؟ قَالَ: «بَلَى» قُلْتُ: كَيْفَ يُضْنَعُ بِأَوْلِيكَ؟ قَالَ: «يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ»^(٢).

وَفِي مَرَايِلِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَحْتَ يَدِ اللَّهِ وَفِي كَفِّهِ مَا لَمْ يُرَالَى قُرَاؤُهَا أُمَّرَاءُهَا، وَمَا لَمْ يُرَكَّ صَلْحَاؤُهَا فُجَارُهَا، وَمَا لَمْ يَمِنْ خِيَارُهَا أَشْرَارُهَا، فَإِذَا هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ رَفَعَ اللَّهُ يَدَهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ سَلَطَ عَلَيْهِمْ جَبَابِرْتَهُمْ فَسَأَمُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالْفَاقَةِ وَالْفَقْرِ»^(٣).

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْرُمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»^(٤). وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُنْفٍ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قَلَّةِ بَنِي يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غَنَاءٌ كَغَنَاءِ

(١) فِي مُسْنَدِهِ (١٣٢). وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٣٤٧) وَأَحْمَدُ ٤ / ٢٦٠ (١٨٢٨٩) وَغَيْرُهُمَا وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ (٥٢٣١).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٦ / ٣٠٤ (٢٦٥٩٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ (١٣٧٢).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي الزَّهْدِ (٨٢١) وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي الْعُقُوبَاتِ (٤) وَأَبُو عَمْرٍو الدَّانِي فِي السَّنَنِ الْوَارِدَةِ فِي الْفَتَنِ وَغَوَائِلِهَا (٣٣١) وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ إِلَى الْحَسَنِ.

(٤) مَضَى.

السَّيْلِ، تُنَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ» قَالُوا وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ»^(١).

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نَحَاسٍ يُخْمِسُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»^(٢).

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُخْرَجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يُخْتَلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، وَيَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسْوِكَ الضَّانِّ مِنَ اللَّيْنِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذَّئَابِ، يَقُولُ اللَّهُ: أَبِي يَغْتَرُونَ؟ وَعَلِيٌّ يَجْتَرُونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ، لَا بَعَثَنَّ عَلَى أَوْلِيكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ فِيهِمْ حَيْرَانًا»^(٣).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ يَوْمِيذٍ عَامِرَةٌ، وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، عُلْمًا وَهُمْ شَرٌّ مِنْ تَحْتِ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْهُمْ خَرَجَتِ الْفِتْنَةُ وَفِيهِمْ تَعُودٌ.

وَذَكَرَ مِنْ حَدِيثِ سَمَّاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: إِذَا ظَهَرَ الزَّيْنُ وَالرَّبَابُ فِي قَرْيَةٍ أَذِنَ اللَّهُ بِهَلَاكِهَا.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥ / ٢٧٨ (٢٢٣٩٧). وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥٨).

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٠٤) وهو ضعيف جدا كما قال الشيخ علي حسن عبد الحميد في تحقيق هداية الرواة لابن حجر (٥٢٥٢).

وَفِي مَرَايِلِ الْحَسَنِ: «إِذَا أَظْهَرَ النَّاسُ الْعِلْمَ، وَضَيَّعُوا الْعَمَلَ، وَتَحَابَّوْا بِالْأَلْسِنِ، وَتَبَاغَضُوا بِالْقُلُوبِ، وَتَقَاطَعُوا بِالْأَرْحَامِ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ»^(١).

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: كُنْتُ عَاشِرَ عَشْرَةِ رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسُ خِصَالٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: مَا ظَهَرَتْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ حَتَّى أَعْلَنُوا بِهَا إِلَّا ابْتُلُوا بِالطَّوَاعِينِ وَالْأَوْجَاعِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَا نَقَصَ قَوْمٌ الْمَكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا ابْتُلُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ، وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ فَلَوْ لَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا، وَلَا خَفَرَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَعْمَلْ أَيْمَتُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ»^(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ مَرْةٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، كَانَ إِذَا عَمِلَ الْعَامِلُ فِيهِمْ بِالْخَطِيئَةِ جَاءَهُ النَّاهِي تَعْدِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْعَدِ جَالَسَهُ وَوَاكَلَهُ وَشَارَبَهُ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى خَطِيئَةٍ بِالْأَمْسِ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٠) وهو مرسل ضعيف الإسناد.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩) بإسناد ضعيف لكن صححه الألباني في الصحيحة (١٠٦) بمجموع طرقه.

يَدِ السَّفِينَةِ، وَلِتَأْطُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لِيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لِيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»^(١).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَمْرٍو الصَّنَعَائِيِّ قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ لِي يُوشِعَ بِنِ نُونٍ: إِنِّي مُهْلِكٌ مِنْ قَوْمِكَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ، وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ شَرَارِهِمْ، قَالَ: يَا رَبِّ، هُوَ لَاءِ الْأَشْرَارِ، فَمَا بَالُ الْأَخْيَارِ؟ قَالَ: لَمْ يَعْضُبُوا لِعَضْبِي، وَكَانُوا يُؤَاكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُونَهُمْ.

وَذَكَرَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ مَلَكَ إِلَى قَرْيَةٍ، أَنْ دَمَّرَهَا بِمَنْ فِيهَا، فَوَجَدَا رَجُلًا قَاتِمًا يُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ، فَقَالَا: يَا رَبِّ، إِنَّ فِيهَا عَبْدَكَ فَلَانًا يُصَلِّي، فَقَالَ اللَّهُ: دَمَّرَهَا وَدَمَّرَاهُ مَعَهُمْ، فَإِنَّهُ مَا تَمَعَّرَ وَجْهَهُ فِي قَطْرٍ.

وَذَكَرَ الْحَمِيدِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: قَالَ: حَدَّثَنِي سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ مِسْعَرٍ: «أَنَّ مَلَكًا أَمَرَ أَنْ يُخَسِفَ بَقَرْيَةٍ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّ فِيهَا فَلَانًا الْعَابِدَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ يَهْ فَابْدَأْ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرَ وَجْهَهُ فِي سَاعَةٍ قَطْرٍ».

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنْبِهٍ قَالَ: لَمَّا أَصَابَ دَاوُدُ الْخَطِيئَةَ قَالَ: يَا رَبِّ اغْفِرْ لِي: قَالَ قَدْ غَفَرْتُ لَكَ، وَالزَّمْتُ عَارَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ يَا رَبِّ، كَيْفَ وَأَنْتَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، أَنَا أَعْمَلُ الْخَطِيئَةَ وَتُلْزِمُ عَارَهَا غَيْرِي، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، إِنَّكَ لَمَّا عَمِلْتَ الْخَطِيئَةَ لَمْ يَعْجَلُوا عَلَيْكَ بِالْإِنْكَارِ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، هُوَ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ حَدِّثِينَا عَنِ الزَّلْزَلَةِ، فَقَالَتْ: إِذَا اسْتَبَاحُوا الزَّنَا، وَشَرِبُوا الْحَمْرَ، وَصَرَبُوا بِالْمَعَازِفِ، غَارَ اللَّهُ فِي سَمَائِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ تَزْلُزِي بِهِمْ، فَإِنْ تَابُوا وَنَزَعُوا، وَإِلَّا هَدَمَهَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَعْدَابًا لَهُمْ؟

(١) أخرجه أحمد ١ / ٣٩١ (٣٧١٣) وأبو داود (٤٣٣٦ و٤٣٣٧) و الترمذي (٣٠٤٧) وابن ماجه (٤٠٠٦) من

طرق وإسناده ضعيف لانقطاعه، انظر الضعيفة للألباني (١١٠٥).

قالت: بلى، موعظة ورحمة للمؤمنين، ونكالا وعذابا وسخطا على الكافرين، فقال أنس: ما سمعت حديثا بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحا به مني بهذا الحديث.

وذكر ابن أبي الدنيا حديثا مرسلا: إن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله ﷺ فوضع يده عليها ثم قال: «اسكني، فإنه لم يأن لك بعد»، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: «إن ربكم ليستعيبكم فأعيبوه»^(١)، ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال، يا أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا عن شيء أحدثتموه، والذي نفسي بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبدا.

وفي مناقب عمر لابن أبي الدنيا «أن الأرض تزلزلت على عهد عمر، فصرَب يده عليها، وقال: ما لك؟ ما لك؟ أما إنها لو كانت القيامة حدثت أخبارها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق»^(٢).

وذكر الإمام أحمد عن صفيّة، قالت: زلزلت المدينة على عهد عمر، فقال: يا أيها الناس ما هذا؟ وما أسرع ما أحدثتم، لئن عادت لا أساكنكم فيها.

وقال كعب: إنما زلزلت الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي فترعد فرقا من الرب ﷻ أن يطلع عليها.

(١) العقوبات (١٨). وهو حديث مرسل كما قال المؤلف والسيوطي. وروي عن شهر بن حوشب مرسلا مختصرا عند ابن أبي شيبة ٢/ ٢٢٢ (٨٣٣٤). قال الحافظ ابن حجر: «هذا مرسل ضعيف». قال ابن عبد البر: «لم يأت عن النبي ﷺ من وجه صحيح أن الزلزلة كانت في عصره، ولا صحت عنه فيها سنة».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٩). وسنده ضعيف جدا. فيه سعد بن طريف الإسكاف، متروك الحديث.

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْأَمْصَارِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ هَذَا الرَّجْفَ شَيْءٌ يُعَاتِبُ اللَّهُ بِهِ الْعِبَادَ، وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْأَمْصَارِ أَنْ يُخْرِجُوا فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا فِي شَهْرِ كَذَا وَكَذَا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَتَصَدَّقْ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [سُورَةُ الْأَعْلَى: ١٤ - ١٥].

وَقُولُوا كَمَا قَالَ آدَمُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٢٣].

وَقُولُوا كَمَا قَالَ نُوحٌ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ٤٧].

وَقُولُوا كَمَا قَالَ يُوسُفُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٨٧].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالْدِينَارِ وَالْدِرْهَمِ، وَتَبَايَعُوا بِالْعَيْنَةِ، وَتَبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَلَاءً لَا يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ»^(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا أَحَدٌ أَحَقَّ بِدِينَارِهِ وَدِرْهَمِهِ مِنْ أَحِيهِ الْمُسْلِمِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالْدِينَارِ وَالْدِرْهَمِ، وَتَبَايَعُوا بِالْعَيْنَةِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَخَذُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ بَلَاءً، فَلَا يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ»^(٢).

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٨ (٤٨٢٥) وأبو داود (٣٤٦٢) من طرق ضعيفة، لكن صححه بمجموعها الشيخ

الألباني في الصحيحة (١١).

(٢) العقوبات (٢٤ و٣١٧).

وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ الْفِتْنَةَ وَاللَّهَ مَا هِيَ إِلَّا عُقُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ.

وَنَظَرَ بَعْضُ أَنْبِيَاءِ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَى مَا يَصْنَعُ بِهِمْ بُخْتَنَصْرُ، فَقَالَ: بَمَا كَسَبْتَ أَيْدِينَا سَلَطْتَ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَعْرِفُكَ وَلَا يَرْحَمُنَا.

وَقَالَ بُخْتَنَصْرُ لِدَانِيَالٍ: مَا الَّذِي سَلَطَنِي عَلَى قَوْمِكَ؟ قَالَ: عِظْمُ خَطِيئَتِكَ وَظُلْمُ قَوْمِي أَنْفُسُهُمْ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَحَدِيثَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ نِقْمَةً أَمَاتَ الْأَطْفَالَ، وَأَغْقَمَ أَرْحَامَ النِّسَاءِ، فَتَنَزَّلُ النِّقْمَةُ، وَلَيْسَ فِيهِمْ مَرْحُومٌ»^(١).

وَذَكَرَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: قَرَأْتُ فِي الْحِكْمَةِ: يَقُولُ اللَّهُ: أَنَا اللَّهُ مَالِكُ الْمُلُوكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدَيَّ، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ رَحْمَةً، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نِقْمَةً، فَلَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ، وَلَكِنْ تَوَبُّوا إِلَيَّ أَعْطِفُهُمْ عَلَيْكُمْ.

وَفِي مَرَايِلِ الْحَسَنِ: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ خَيْرًا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَى حُلَمَائِهِمْ، وَفِيَّاهُمْ عِنْدَ سَمَحَائِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَرًّا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَى سُفَهَائِهِمْ، وَفِيَّاهُمْ عِنْدَ بُخَلَائِهِمْ.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ أَنْتَ فِي السَّمَاءِ وَنَحْنُ فِي الْأَرْضِ، فَمَا عَلَامَةُ غَضَبِكَ مِنْ رِضَاكَ؟ قَالَ: إِذَا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ خِيَارَكُمْ فَهُوَ مِنْ عَلَامَةِ رِضَائِي عَنْكُمْ، وَإِذَا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ شَرَارَكُمْ فَهُوَ مِنْ عَلَامَةِ سُخْطِي عَلَيْكُمْ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَى بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ: إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي.

(١) العقوبات (٢٦) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٥٤٤).

وَذَكَرَ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ بَرَفِعِهِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ أُمَّرَاءَ كَذِبَةً، وَوُزَرَاءَ فَجْرَةً، وَأَعْوَانًا حَوَنَةً، وَعُرَفَاءَ ظَلَمَةً، وَقُرَاءَ فَسَقَةً، سَيِّئُهُمْ سَيِّئُ الرُّهْبَانِ، وَقُلُوبُهُمْ أَنْتُنُ مِنَ الْجَيْفِ، أَهْوَأُوهُمْ مُخْتَلَفَةً، فَيَفْتَحُ اللَّهُ لَهُمْ فِتْنَةً غِبْرَاءَ مُظْلَمَةً فَيَتَهَالَكُونَ فِيهَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَنْتَقِضَنَّ الْإِسْلَامُ عُرْوَةَ عُرْوَةٍ، حَتَّى لَا يُقَالَ: اللَّهُ اللَّهُ، لِتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَسْلُطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَشْرَارَكُمْ، فَيَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ، لِتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَبْعَثَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ لَا يَرْحَمُ صَغِيرَكُمْ، وَلَا يُوقِّرُ كَبِيرَكُمْ»^(١).

وَفِي مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا طَفَّفَ قَوْمٌ كَيْلًا، وَلَا بَحَسُوا مِيزَانًا، إِلَّا مَنَعَهُمُ اللَّهُ الْقَطْرَ، وَمَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الزُّنَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَمَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الرِّبَا إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجُنُونَ، وَلَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الْقَتْلُ - يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا - إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ عَدُوَّهُمْ، وَلَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ عَمَلٌ قَوْمٍ لَوْطٍ إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الْحُسْفُ، وَمَا تَرَكَ قَوْمٌ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ

(١) في العقوبات (٣٤) من طريق كوثر بن حكيم عن نافع عن ابن عمر. قال الإمام أحمد: "كوثر أحاديثه بواطيل، ليس بشيء". وقال البخاري: "كوثر عن نافع منكر الحديث". وقال النسائي: "متروك الحديث". وقال ابن عدي: "... وعامة ما يرويه غير محفوظ". الكامل (٦ / ٧٦ - ٧٨).

وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا لَمْ تُرْفَعْ أَعْمَالُهُمْ وَلَمْ يُسْمَعْ دُعَاؤُهُمْ»^(١) وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْعَثِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَعِيدِ بِهِ^(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفْسُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ أَنْ قَدْ حَفَزَهُ شَيْءٌ، فَمَا تَكَلَّمْتُ حَتَّى تَوَضَّأَ، وَخَرَجَ، فَلَصِقْتُ بِالْحِجْرَةِ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ: فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكُمْ: مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي فَلَا أُجِيبُكُمْ، وَتَسْتَنْصِرُونِي فَلَا أَنْصُرُكُمْ، وَتَسْأَلُونِي فَلَا أُعْطِيكُمْ»^(٣).

وَقَالَ الْعُمَرِيُّ الزَّاهِدُ: إِنَّ مِنْ غَفَلَتِكَ عَنْ نَفْسِكَ، وَإِعْرَاضِكَ عَنِ اللَّهِ أَنْ تَرَى مَا يُسْخِطُ اللَّهَ فَتَجَاوِزُهُ، وَلَا تَأْمُرُ فِيهِ، وَلَا تَنْهَى عَنْهُ، خَوْفًا مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

وَقَالَ: مَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَخَافَةً مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، نُزِعَتْ مِنْهُ الطَّاعَةُ، وَكَلِمَةُ أَمْرٍ وَكَلِمَةُ أَوْ بَعْضِ مَوَالِيهِ لَا سِتْخَفَ بِحَقِّهِ.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٠ / ٤٥ (١٠٩٩٢) من طريق إسحاق بن عبد الله بن كيسان حدثني أبي عن الضحاک بن مزاحم عن مجاهد وطاوس عن ابن عباس فذكر نحوه. قلت: هذا حديث منكر. قال البخاري في تاريخه (٥ / ١٧٨) في ترجمة عبد الله بن كيسان: "وله ابن يسمى إسحاق، منكر ليس من أهل الحديث". وقال ابن حبان في الثقات في ترجمة عبد الله: "يتقى حديثه من رواية ابنه عنه". انظر لسان الميزان (٢ / ٦٣).

(٢) العقوبات (٣٥).

(٣) مسند أحمد ٦ / ١٥٩ (٢٥٢٥٥). وأخرجه ابن ماجه (٤٠٠٤) وإسحاق في مسنده (٨٦٤) وابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٦) وابن حبان (٢٩٠) والبخاري (٣٣٠٤، ٣٣٠٥) كما في كشف الأستار وغيرهم، من طريق عمرو بن عثمان بن هانئ عن عاصم بن عمر بن عثمان عن عروة به، فذكره، وضعفه الألباني كما في التعليق على صحيح ابن حبان (٢٩٠).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتْلُونَ هَذِهِ آيَةً، وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١٠٥]، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ - وَفِي لَفْظٍ: إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»^(١).

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا خَفِيتِ الْخَطِيئَةَ لَمْ تُضُرِّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا ظَهَرَتْ فَلَمْ تُغَيِّرْ، ضَرَبَتِ الْعَامَّةَ»^(٢).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: تَوَشَّكُ الْقُرَى أَنْ تَحْرَبَ وَهِيَ عَامِرَةٌ، قِيلَ: وَكَيْفَ تَحْرَبُ وَهِيَ عَامِرَةٌ؟ قَالَ: إِذَا عَلَا فُجَارُهَا أَبْرَارُهَا، وَسَادَ الْقَبِيلَةَ مُنَافِقُوهَا.

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ حَسَّانِ بْنِ عَطِيَّةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «سَيَظْهَرُ شِرَارُ أُمَّتِي عَلَى خِيَارِهَا، حَتَّى يَسْتَحْفِيَ الْمُؤْمِنُ فِيهِمْ كَمَا يَسْتَحْفِي الْمُنَافِقُ فِيْنَا الْيَوْمِ»^(٣).

(١) أخرجه أحمد ١/٧٠٢، (١٦٠١، ٢٩، ٣٥، ٣٥). وأخرجه أبو داود (٤٣٣٨) والترمذي (٢١٦٨، ٣٠٥٧) وابن ماجه (٤٠٠٥) وابن حبان (٣٠٤) وغيرهم. وسنده صحيح، والحديث صححه الترمذي وابن حبان والنووي وغيرهم. وقد اختلف في رفعه ووقفه، ورفع صحیح. انظر علل الدارقطني (١/ ٢٤٩ - ٢٥٣) وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٦٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٠) والطبراني في الأوسط (٤٧٧٠)، من طريق مروان بن سالم الغفاري عن الأوزاعي به، فذكره، قال الألباني في الضعيفة (١٦١٢): «موضوع».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٥) وأبو عمرو والداني في السنن الواردة في الفتن (٤٠١). وضعفه الألباني في الضعيفة (٦٧٥٩).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَرْفَعُهُ قَالَ: «يَأْتِي زَمَانٌ يَدُوبُ فِيهِ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ كَمَا يَدُوبُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ» قِيلَ: مِمَّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مِمَّا يَرَى مِنَ الْمُنْكَرِ لَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهُ»^(١).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، وَهُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مَنْ يَعْملُهُ، فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ إِلَّا أَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(٢).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيُدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: بَلَى، كُنْتُ أَمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَأُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»^(٣).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: كَانَ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَغْشَى مَنْزِلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، فَيَعْظُمُهُمْ وَيَذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، فَرَأَى بَعْضَ بَنِيهِ يَوْمًا يَغْمِزُ النِّسَاءَ، فَقَالَ: مَهَلًا يَا بَنِيَّ، مَهَلًا يَا بَنِيَّ

(١) العقوبات (٤٦) وفي الأمر بالمعروف (٢٥، ٩٦) من طريق جعفر بن سليمان الضبعي عن أشرس أبي شيبان عن عطاء الخراساني عن ابن عباس فذكره. ورواه أسد بن موسى عن أشرس عن عطاء الخراساني أن رسول الله ﷺ قال، فذكره. أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (٢٧٣). قلت: طريق أسد أشبه بالصواب؛ لأن جعفر بن سليمان شك فقال: "أحسبه عن ابن عباس". والحديث معضل ضعيف الإسناد، أشرس فيه جهالة.

(٢) المسند ٤ / ٣٦٤ (١٩٢٣٠). وأخرجه أبو داود (٤٣٣٩) وابن ماجه (٤٠٠٩) والطيالسي (٦٩٨) والطبراني ٢ / ٣٣١ - ٣٣٢ (٢٣٨٥ - ٢٣٨٠) وابن حبان (٣٠٠، ٣٠٢) وغيرهم، من طريق شعبة وإسرائيل ويونس ومعمار وأبي الأحوص، وغيرهم، كلهم عن أبي إسحاق عن عبيد الله بن جرير عن أبيه جرير، فذكره. وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٣٣٥٣).

(٣) تقدّم.

فَسَقَطَ مِنْ سَرِيرِهِ، فَانْقَطَعَ نُخَاعُهُ، وَأَسْقَطَتِ امْرَأَتُهُ، وَقُتِلَ بَنُوهُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْ نَبِيِّهِمْ: أَنْ أَخْبِرْ فُلَانًا الْخَبَرَ: أَنِّي لَا أُخْرِجُ مِنْ صُلْبِكَ صِدِّيقًا أَبَدًا، مَا كَانَ غَضْبِكَ لِي إِلَّا أَنْ قُلْتَ: مَهَلًا يَا بَنِيَّ.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكَنَّهُ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لِهِنَّ مَثَلًا، كَمَثَلِ الْقَوْمِ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعَ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، وَأَجْبُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَدَّفُوا فِيهَا»^(١).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالَهَا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، وَإِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَوْبِقَاتِ»^(٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عَذَّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ سَجَّتِهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتِ النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا سَقَّتْهَا، وَلَا تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(٣).

وَفِي الْحَلِيَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ عَنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ تَرَكَتُ بَنُو إِسْرَائِيلَ دِينَهُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أُمِرُوا بِشَيْءٍ تَرَكَوهُ، وَإِذَا نُهِوا عَنْ شَيْءٍ رَكِبُوهُ، حَتَّى أَنْسَلَخُوا مِنْ دِينِهِمْ كَمَا يَنْسَلِخُ الرَّجُلُ مِنْ قَمِيصِهِ.

وَمِنْ هَاهُنَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْقُبُلَةَ بَرِيدُ الْجَمَاعِ، وَالْغِنَاءُ بَرِيدُ الزُّنَا، وَالنَّظْرُ بَرِيدُ الْعِشْقِ، وَالْمَرُضُ بَرِيدُ الْمَوْتِ.

(١) تقدّم.

(٢) كتاب الرقاق، باب ما يتقى من محقرات الذنوب (٦٤٩٢).

(٣) تقدّم.

وَفِي الْحِلْيَةِ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: يَا صَاحِبَ الذَّنْبِ لَا تَأْمَنْ سُوءَ عَاقِبَتِهِ، وَلَمَّا يَتَّبِعُ الذَّنْبَ
أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا عَمِلْتَهُ، قَلَّةَ حَيَاتِكَ مِمَّنْ عَلَى الْيَمِينِ وَعَلَى الشَّمَالِ - وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ - أَعْظَمُ مِنَ
الذَّنْبِ، وَضَحِكُكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ، وَفَرَحُكَ بِالذَّنْبِ إِذَا ظَفَرْتَ بِهِ
أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ، وَحُزْنُكَ عَلَى الذَّنْبِ إِذَا فَاتَكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ، وَخَوْفُكَ مِنَ الرِّيحِ إِذَا حَرَّكَتْ سِتْرَ
بَابِكَ وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ وَلَا يَضْطَرِبُ فُؤَادُكَ مِنْ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ، وَيُحْكَ هَلْ تَدْرِي مَا
كَانَ ذَنْبُ أَيُّوبَ فَاثْتَلَاهُ بِالْبَلَاءِ فِي جَسَدِهِ وَذَهَابِ مَالِهِ؟ اسْتَعَاثَ بِهِ مَسْكِينٌ عَلَى ظَالِمٍ يَدْرُؤُهُ عَنْهُ، فَلَمْ
يُعْنَهُ، وَلَمْ يَنْهَ الظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ، فَاثْتَلَاهُ اللَّهُ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ قَالَ: سَمِعْتُ الْأَوْزَاعِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ: لَا تَنْظُرْ
إِلَى صِغَرِ الْخَطِيئَةِ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى مَنْ عَصَيْتَ.

وَقَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ: بِقَدْرِ مَا يَصْغُرُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ يَعْظُمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَبِقَدْرِ مَا يَعْظُمُ عِنْدَكَ يَصْغُرُ
عِنْدَ اللَّهِ.

وَقِيلَ: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى، يَا مُوسَى إِنَّ أَوَّلَ مَنْ مَاتَ مِنْ خَلْقِي إِبْلِيسُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ
عَصَانِي، وَإِنَّمَا أَعَدُّ مَنْ عَصَانِي مِنَ الْأَمْوَاتِ.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ
الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى
تَعْلُوَ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ:
١٤]»^(١)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٩٧ (٧٩٥٢) والترمذي (٣٣٣٤) وابن ماجه (٤٢٤٤) وابن حبان (٩٣٠) والحاكم
٢/ ٥٦٢ و (٣٩٠٨) وغيرهم. والحديث صححه الترمذي وابن حبان والحاكم وغيرهم.

وَقَالَ حُدَيْفَةُ: إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ حَتَّى يَصِيرَ قَلْبُهُ كَالشَّاهِ الرَّبْدَاءِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ صَالِحٍ عَنِ ابْنِ شَهَابٍ حَدَّثَنِي عُمَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ هَذَا الْأَمْرِ مَا لَمْ تَعْصُوا اللَّهَ، فَإِذَا عَصَيْتُمُوهُ بَعَثَ عَلَيْكُمْ مَنْ يَلْحَاكُمُ كَمَا يُلْحَى هَذَا الْقَضِيبُ بِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ، ثُمَّ لَحَا قَضِيبُهُ فَإِذَا هُوَ أَيْضٌ يَصِلُ»^(١).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ وَهْبٍ أَنَّ الرَّبَّ قَالَ فِي بَعْضِ مَا يَقُولُ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ: إِنِّي إِذَا أَطَعْتُ رَضِيتُ، وَإِذَا رَضِيتُ بَارَكْتُ، وَلَيْسَ لِبِرْكَتِي نِهَايَةٌ، وَإِذَا عَصَيْتُ غَضِبْتُ، وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ، وَلَعْنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ.

وَلِلْمَعَاصِي مِنَ الْأَثَارِ الْقَيْحَةِ الْمَذْمُومَةِ، الْمُضْرَّةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

فَمِنْهَا: حَرْمَانُ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، وَالْمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ ذَلِكَ النُّورَ. وَمَا جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ وُفُورِ فُطَيْتِهِ، وَتَوَقَّدَ ذَكَائِهِ، وَكَمَالَ فَهْمِهِ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئُهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ:

(١) المسند ١ / ٤٥٨ (٤٣٨٠). وأخرجه أبو يعلى ٨ / ٤٣٨ (٥٠٢٤) والشاشي (٨٦٩). قال الحافظ في الفتح (١٣) / (١١٦): "رجاله ثقات، إلا أنه من رواية عميد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عم أبيه: عبد الله بن مسعود، ولم يدركه... "بينما صححه الألباني في الصحيحة (١٥٥٢) ولعله وهم لأنه ضعف السند بالانقطاع في مواضع أخرى.

شَكَوْتُ إِلَى وَكَيْعِ سُوءِ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ ... وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِي

وَمِنْهَا: حَرَمَانُ الرِّزْقِ، وَفِي الْمُسْنَدِ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيئُهُ» وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَكَمَا أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ مَجْلِبَةٌ لِلرِّزْقِ فَتَرَكَ التَّقْوَى مَجْلِبَةٌ لِلْفَقْرِ، فَمَا اسْتَجَلِبَ رِزْقَ اللَّهِ بِمِثْلِ تَرْكِ الْمَعَاصِي.

وَمِنْهَا: وَحْشَةٌ يَجِدُهَا الْعَاصِي فِي قَلْبِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا تُؤَازِمُهَا وَلَا تُفَارِقُهَا لَذَّةٌ أَصْلًا، وَلَوْ اجْتَمَعَتْ لَهُ لَذَاتُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَمْ تَفِ بِتِلْكَ الْوَحْشَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَحْسُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةٌ، وَمَا جُرِحَ بِمَيِّتٍ إِيْلَامٌ، فَلَوْ لَمْ تُتْرَكِ الذُّنُوبُ إِلَّا حَذَرًا مِنْ وُقُوعِ تِلْكَ الْوَحْشَةِ، لَكَانَ الْعَاقِلُ حَرِيًّا بِتَرْكِهَا.

وَشَكَرَ رَجُلٌ لِي بَعْضِ الْعَارِفِينَ وَحْشَةً يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ فَقَالَ لَهُ:

إِذَا كُنْتَ قَدْ أَوْحَشْتَكَ الذُّنُوبُ ... فَدَعَهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنَسِ

وَكَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ أَمْرٌ مِنْ وَحْشَةِ الذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ، فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَمِنْهَا: الْوَحْشَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَلَا سِيَّأَ أَهْلِ الْخَيْرِ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ يَجِدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ تِلْكَ الْوَحْشَةُ بَعُدَ مِنْهُمْ وَمِنْ مَجَالَسَتِهِمْ، وَحُرِمَ بَرَكَةَ الْإِنْتِفَاعِ بِهِمْ، وَقَرَّبَ مِنْ حَزْبِ الشَّيْطَانِ، بِقَدْرِ مَا بَعُدَ مِنْ حَزْبِ الرَّحْمَنِ، وَتَقْوَى هَذِهِ الْوَحْشَةُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ، فَتَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ وَوَلَدِهِ وَأَقَارِبِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فَتَرَاهُ مُسْتَوْحِشًا مِنْ نَفْسِهِ.

وَذَكَرَ أَيْضًا عَنْ وَكَيْعِ حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا عَنْ عَامِرٍ قَالَ: كَتَبْتُ عَائِشَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا

عَمِلَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَدَّ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ دَائِمًا.

ذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: لِيَحْذَرَ امْرُؤٌ أَنْ تَلْعَنَهُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مِمَّ هَذَا؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ يَحْلُو بِمَعَاصِي اللَّهِ فَيَلْقِي اللَّهُ بَغْضَهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ.

وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: أَنَّهُ لَمَّا رَكِبَهُ الدِّينُ اعْتَمَّ لِدَلِكِ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذَا الْعَمَّ بِذَنْبٍ أَصَبْتُهُ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وَهَاهُنَا نَكْتَةٌ دَقِيقَةٌ يَغْلُطُ فِيهَا النَّاسُ فِي أَمْرِ الذَّنْبِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ تَأْثِيرَهُ فِي الْحَالِ، وَقَدْ تَأَخَّرَ تَأْثِيرُهُ فَيُنْسَى، وَيَظُنُّ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَا يُعْبَرُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا لَمْ يُعْبَرْ حَائِطٌ فِي وُقُوعِهِ... فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْوُقُوعِ عُبَارٌ

وَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا أَهْلَكَتْ هَذِهِ النُّكْتَةُ مِنَ الْخَلْقِ؟ وَكَمْ أَزَالَتْ عُبَارَ نِعْمَةٍ؟ وَكَمْ جَلَبَتْ مِنْ نِقْمَةٍ؟ وَمَا أَكْثَرَ الْمُغْتَرِّينَ بِهَا الْعُلَمَاءَ وَالْفُضَلَاءَ، فَضَلًّا عَنِ الْجَهَالِ، وَلَمْ يَعْلَمْ الْمُغْتَرُّ أَنَّ الذَّنْبَ يَنْقُصُ وَكَلَّوْهُ بَعْدَ حِينٍ، كَمَا يَنْقُصُ السُّمُّ، وَكَمَا يَنْقُصُ الْجُرْحُ الْمُنْدَمِلُ عَلَى الْغِشِّ وَالِدَّغْلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: اعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، وَعَدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتَى، وَاعْلَمُوا أَنَّ قَلِيلًا يُغْنِيكُمْ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِيكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْبِرَّ لَا يَبْلَى، وَأَنَّ الْإِثْمَ لَا يُنْسَى.

وَنَظَرَ بَعْضُ الْعُبَادِ إِلَى صَبِيٍّ، فَتَأَمَّلَ مَحَاسِنَهُ، فَأُتِيَ فِي مَنْامِهِ وَقِيلَ لَهُ: لَتَجِدَنَّ غَيْبًا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

هَذَا مَعَ أَنَّ لِلذَّنْبِ نَقْدًا مُعْجَلًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السَّرِّ فَيُصْبِحُ وَعَلَيْهِ مَذَلَّتُهُ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذِ الرَّازِيِّ عَجِبْتُ مِنْ ذِي عَقْلٍ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ لَا تُشِمْتْ بِي الْأَعْدَاءَ، ثُمَّ هُوَ يُشِمْتُ بِنَفْسِهِ كُلَّ عَدُوٍّ لَهُ، قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ يَعِصِي اللَّهُ وَيَشِمْتُ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ كُلَّ عَدُوٍّ.

وَقَالَ ذُو النُّونِ: مَنْ خَانَ اللَّهَ فِي السِّرِّ هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُ فِي الْعَلَانِيَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنِّي لَأَعْصِي اللَّهَ فَأَرَى ذَلِكَ فِي خُلُقِي دَائِبِي، وَأَمْرَاتِي.

وَمِنْهَا: تَعْسِيرُ أُمُورِهِ عَلَيْهِ، فَلَا يَتَوَجَّهُ لِأَمْرِ إِلَّا يَجِدُهُ مُغْلَقًا دُونَهُ أَوْ مُتَعَسِّرًا عَلَيْهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنْ تَلَقَّى اللَّهَ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، فَمَنْ عَطَلَ التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا، وَيَا اللَّهَ الْعَجَبُ! كَيْفَ يَجِدُ الْعَبْدُ أَبْوَابَ الْخَيْرِ وَالْمَصَالِحِ مَسْدُودَةً عَنْهُ وَطُرُقَهَا مُعَسَّرَةً عَلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أُتِيَ؟

وَمِنْهَا: ظُلْمَةٌ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ حَقِيقَةً يَحْسُ بِهَا كَمَا يَحْسُ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ إِذَا أَذْهَمَ، فَتَصِيرُ ظُلْمَةٌ الْمُعْصِيَةِ لِقَلْبِهِ كَالظُّلْمَةِ الْحَسِّيَّةِ لِبَصَرِهِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ نُورٌ، وَالْمَعْصِيَةَ ظُلْمَةٌ، وَكَلَّمَا قَوَّيْتَ الظُّلْمَةَ أَزْدَدْتَ حَيْرَتَهُ، حَتَّى يَقَعَ فِي الْبِدْعِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْأُمُورِ الْمُهْلِكَةِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، كَأَعْمَى أُخْرِجَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَمْشِي وَحْدَهُ، وَتَقْوَى هَذِهِ الظُّلْمَةُ حَتَّى تَظْهَرَ فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ تَقْوَى حَتَّى تَعْلُوَ الْوَجْهَ، وَتَصِيرُ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ حَتَّى يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلْسَيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَبْرِ وَالْقَلْبِ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبَعْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ.

وَمِنْهَا أَنَّ الْمُعَاصِيَ تُوهِنُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، أَمَّا وَهْنُهَا لِلْقَلْبِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ، بَلْ لَا تَزَالُ تُوهِنُهُ حَتَّى تُزِيلَ حَيَاتَهُ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَأَمَّا وَهْنُهَا لِلْبَدَنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ قُوَّتُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَكَلَّمَا قَوَّى قَلْبَهُ قَوَّى بَدَنَهُ، وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَإِنَّهُ - وَإِنْ كَانَ قَوِيَّ الْبَدَنِ - فَهُوَ أضعفُ شَيْءٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ، فَتُخُونُهُ قُوَّتُهُ عِنْدَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ فَتَأْمَلُ قُوَّةَ أَبْدَانِ فَارِسَ وَالرُّومِ، كَيْفَ خَانَتْهُمْ، أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، وَقَهَرَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِقُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ؟

وَمِنْهَا: حِرْمَانُ الطَّاعَةِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلذَّنْبِ عُقُوبَةٌ إِلَّا أَنْ يَصُدَّ عَنْ طَاعَةٍ تَكُونُ بَدَلَهُ، وَيَقْطَعَ طَرِيقَ طَاعَةٍ أُخْرَى، فَيَنْقَطِعَ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَرِيقُ ثَالِثَةٍ، ثُمَّ رَابِعَةٍ، وَهَلُمَّ جَرًّا، فَيَنْقَطِعَ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَهَذَا كَرَجُلٍ أَكَلَ أَكْلَةً أَوْجَبَتْ لَهُ مَرَضَةً طَوِيلَةً مَنَعَتْهُ مِنْ عِدَّةِ أَكْلَاتٍ أَطْيَبَ مِنْهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمُعَاصِي تُقْصِرُ الْعُمَرَ وَتَمَحُقُ بَرَكَتَهُ وَلَا بَدَّ، فَإِنَّ الْبِرَّ كَمَا يَزِيدُ فِي الْعُمَرِ، فَالْفُجُورُ يَقْصِرُ الْعُمَرَ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: نُقْصَانُ عُمَرِ الْعَاصِي هُوَ ذَهَابُ بَرَكَتِهِ عُمَرِهِ وَمَحْقُهَا عَلَيْهِ، وَهَذَا حَقٌّ، وَهُوَ بَعْضُ تَأْثِيرِ الْمُعَاصِي.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ تُنْقِصُهُ حَقِيقَةً، كَمَا تُنْقِصُ الرِّزْقَ، فَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْبَرَكَتِ فِي الرِّزْقِ أَسْبَابًا كَثِيرَةً تُكَثِّرُهُ وَتَزِيدُهُ، وَلِلْبَرَكَتِ فِي الْعُمَرِ أَسْبَابًا تُكَثِّرُهُ وَتَزِيدُهُ.

قَالُوا وَلَا تُنَمِّعُ زِيَادَةُ الْعُمَرِ بِأَسْبَابٍ كَمَا يُنْقِصُ بِأَسْبَابٍ، فَالْأَرْزَاقُ وَالْأَجَالُ، وَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ، وَالصِّحَّةُ وَالْمَرَضُ، وَالغِنَى وَالْفَقْرُ، وَإِنْ كَانَتْ بِقِضَاءِ الرَّبِّ، فَهُوَ يَقْضِي مَا يَشَاءُ بِأَسْبَابٍ جَعَلَهَا مُوجِبَةً لِمُسَبِّبَاتِهَا مُقْتَضِيَةً لَهَا.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: تَأْثِيرُ الْمُعَاصِي فِي مَحْقِ الْعُمَرِ إِنَّمَا هُوَ بِأَنَّ حَقِيقَةَ الْحَيَاةِ هِيَ حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَهَذَا جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْكَافِرَ مَيِّتًا غَيْرَ حَيٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ٢١].

فَالْحَيَاةُ فِي الْحَقِيقَةِ حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَعُمُرُ الْإِنْسَانِ مُدَّةُ حَيَاتِهِ فَلَيْسَ عُمُرُهُ إِلَّا أَوْقَاتُ حَيَاتِهِ بِاللَّهِ، فَبِتِلْكَ سَاعَاتُ عُمَرِهِ، فَالْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَالطَّاعَةُ تَزِيدُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ عُمَرِهِ، وَلَا عُمَرَ لَهُ سِوَاهَا.

وَبِالْجُمْلَةِ، فَالْعَبْدُ إِذَا أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ وَاشْتَغَلَ بِالْمَعَاصِي ضَاعَتْ عَلَيْهِ أَيَّامُ حَيَاتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي يَجِدُ
غَبَّ إِضَاعَتِهَا يَوْمَ يَقُولُ: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [سُورَةُ الْفَجْرِ: ٢٤].

فَلَا يُجْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ تَطَلُّعٌ إِلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ أَوْ لَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَلُّعٌ
إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ ضَاعَ عَلَيْهِ عُمُرُهُ كُلُّهُ، وَذَهَبَتْ حَيَاتُهُ بِاطِّلًا، وَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَلُّعٌ إِلَى ذَلِكَ طَالَتْ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ
بِسَبَبِ الْعَوَاتِقِ، وَتَعَسَّرَتْ عَلَيْهِ أَسْبَابُ الْخَيْرِ بِحَسَبِ اسْتِعْغَالِهِ بِأَضْدَادِهَا، وَذَلِكَ نُقْصَانُ حَقِيقَتِي مِنْ
عُمُرِهِ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ عُمَرَ الْإِنْسَانِ مُدَّةُ حَيَاتِهِ وَلَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِإِقْبَالِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَالتَّعَمُّقُ بِحُبِّهِ وَذِكْرِهِ، وَإِيثَارِ
مَرْضَاتِهِ.

فَصْلٌ

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَعَاصِي تَزْرَعُ أَمْثَالَهَا، وَتَوْلِدُ بَعْضَهَا بَعْضًا، حَتَّى يَعْزَّ عَلَى الْعَبْدِ مُفَارَقَتُهَا وَالخُرُوجُ مِنْهَا،
كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا، وَإِنْ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، فَالْعَبْدُ
إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً قَالَتْ أُخْرَى إِلَى جَنْبِهَا: اْعْمَلْنِي أَيْضًا، فَإِذَا عَمِلَهَا، قَالَتْ الثَّالِثَةُ كَذَلِكَ وَهَلُمَّ جَرًّا،
فَتَضَاعَفُ الرَّبْحُ، وَتَزِيدُ الْحَسَنَاتُ.

وَكَذَلِكَ كَانَتْ السَّيِّئَاتُ أَيْضًا، حَتَّى تَصِيرَ الطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي هَيْئَاتٍ رَاسِخَةً، وَصِفَاتٍ لَازِمَةً،
وَمَلَكَاتٍ ثَابِتَةً، فَلَوْ عَطَلَ الْمُحْسِنُ الطَّاعَةَ لَضَاعَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاعَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ،
وَأَحْسَسَ مِنْ نَفْسِهِ بَأَنَّهُ كَالْحَوْتِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، فَتَسْكُنُ نَفْسُهُ، وَتَقَرَّ عَيْنُهُ.

وَلَوْ عَطَّلَ الْمُجْرِمُ الْمُعْصِيَةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الطَّاعَةِ؛ لَصَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَضَاقَ صَدْرُهُ، وَأَعْيَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهُ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُسَّاقِ لَيُوقِعُ الْمُعْصِيَةَ مِنْ غَيْرِ لَذَّةٍ يَجِدُهَا، وَلَا دَاعِيَةٍ إِلَيْهَا، إِلَّا بِمَا يَجِدُ مِنَ الْأَلَمِ بِمُفَارَقَتِهَا.

كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ شَيْخُ الْقَوْمِ الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ حَيْثُ يَقُولُ:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ... وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وَقَالَ الْآخَرُ:

فَكَانَتْ دَوَائِي وَهِيَ دَائِي بِعَيْنِهِ... كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ

وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يُعَانِي الطَّاعَةَ وَيَأْلُفُهَا وَيُحِبُّهَا وَيُؤَثِّرُهَا حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ تُوزُّهُ إِلَيْهَا أَزًّا، وَتُحَرِّضُهُ عَلَيْهَا، وَتُرْعِجُهُ عَنْ فِرَاشِهِ وَمَجْلِسِهِ إِلَيْهَا.

وَلَا يَزَالُ يَأْلُفُ الْمَعَاصِيَّ وَيُحِبُّهَا وَيُؤَثِّرُهَا، حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ إِلَيْهِ الشَّيَاطِينَ، فَتُوزُّهُ إِلَيْهَا أَزًّا.

فَالأَوَّلُ قَوِيٌّ جَنَدَ الطَّاعَةَ بِالْمَدَدِ، فَكَانُوا مِنْ أَكْبَرِ أَعْوَانِهِ، وَهَذَا قَوِيٌّ جَنَدَ الْمُعْصِيَةَ بِالْمَدَدِ فَكَانُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ.

فَصَلُّ

وَمِنْهَا: - وَهُوَ مِنْ أَحْوَفِهَا عَلَى الْعَبْدِ - أَنَّهَا تُضْعِفُ الْقَلْبَ عَنْ إِرَادَتِهِ، فَتَقْوِي إِرَادَةَ الْمُعْصِيَةِ، وَتُضْعِفُ إِرَادَةَ التَّوْبَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا، إِلَى أَنْ تَسْلَخَ مِنْ قَلْبِهِ إِرَادَةَ التَّوْبَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَوْ مَاتَ نِصْفُهُ لَمَاتَ إِلَى اللَّهِ، فَيَأْتِي بِالِاسْتِغْفَارِ وَتَوْبَةِ الْكَذَّابِينَ بِاللِّسَانِ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، وَقَلْبُهُ مَعْقُودٌ بِالْمُعْصِيَةِ، مُصَرٌّ عَلَيْهَا، عَازِمٌ عَلَى مُوَافَعَتِهَا مَتَى أَمَكَّنَهُ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَمْرَاضِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى الْهَلَاكِ

فَصَلُّ

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يَنْسَلِخُ مِنَ الْقَلْبِ اسْتِغْبَاحُهَا، فَتَصِيرُ لَهُ عَادَةٌ، فَلَا يَسْتَقْبِحُ مِنْ نَفْسِهِ رُؤْيَا النَّاسِ لَهُ، وَلَا كَلَامَهُمْ فِيهِ.

وَهَذَا عِنْدَ أَرْبَابِ الْفُسُوقِ هُوَ غَايَةُ التَّهْتِكِ وَتَمَامُ اللَّذَّةِ، حَتَّى يَفْتَخِرَ أَحَدُهُمْ بِالْمَعْصِيَةِ، وَيُحَدِّثُ بِهَا مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ عَمِلَهَا، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ كَذَا وَكَذَا.

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ لَا يُعَافُونَ، وَتُسَدُّ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ التَّوْبَةِ، وَتُعَلِّقُ عَنْهُمْ أَبْوَابُهَا فِي الْعَالِبِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَانِي إِلَّا الْمَجَاهِرُونَ، وَإِنَّ مِنَ الْإِجْهَارِ أَنْ يَسْتُرَ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ ثُمَّ يُصْبِحُ يَفْضَحُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، فَهَتَكَ نَفْسَهُ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ»^(١).

وَمِنْهَا أَنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي فَهِيَ مِيرَاثٌ عَنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَّمِ الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ.
فَاللُّوطِيَّةُ: مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ.

وَأَخَذُ الْحَقُّ بِالزَّائِدِ وَدَفَعَهُ بِالنَّاقِصِ، مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ.

وَالْعُلُوفُ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ.

وَالتَّكْبَرُ وَالتَّجَبُّرُ مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمِ هُودٍ.

فَالْعَاصِي لَا يَسُ ثِيَابَ بَعْضِ هَذِهِ الْأُمَّمِ، وَهُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ.

وَقَدَّرَ وَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيٍِّّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ: لَا يَدْخُلُوا مَدَاخِلَ أَعْدَائِي، وَلَا يَلْبَسُوا مَلَابِسَ أَعْدَائِي وَلَا يَرْكَبُوا مَرَاقِبَ أَعْدَائِي، وَلَا يَطْعَمُوا مَطَاعِمَ أَعْدَائِي، فَيَكُونُوا أَعْدَائِي كَمَا هُمْ أَعْدَائِي.

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه (٦٩٠٦)؛ ومسلم في الزهد، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه (٢٩٩٠).

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١).

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمُعْصِيَةَ سَبَبٌ لِهَوَانِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ وَسُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِهِ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هَانُوا عَلَيْهِ فَعَصَوْهُ، وَلَوْ عَزُّوا عَلَيْهِ لَعَصَمَهُمْ، وَإِذَا هَانَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ لَمْ يُكْرَمْهُ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [سُورَةُ الْحَجِّ: ١٨] وَإِنْ عَظَّمَهُمُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِمْ أَوْ خَوْفًا مِنْ شَرِّهِمْ، فَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ أَحَقَرُ شَيْءٍ وَأَهْوَنُهُ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ يَرْتَكِبُ الذَّنْبَ حَتَّى يَهُونَ عَلَيْهِ وَيَصْغُرَ فِي قَلْبِهِ، وَذَلِكَ عِلْمٌ بِالْمَلَاكِ، فَإِنَّ الذَّنْبَ كُلَّمَا صَغُرَ فِي عَيْنِ الْعَبْدِ عَظُمَ عِنْدَ اللَّهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا فَطَارَ.

فَصْلٌ

(١) أخرجه أحمد ٢ / ٩٢، ٥٠١١٥، ٥٦٦٧. وأخرجه أبو داود (٤٠٣١) مقتصرًا على ذكر التشبه فقط، صححه

جماعة، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية والذهبي والعراقي وابن حجر والألباني في الإرواء (١٢٦٩).

وَمِنْهَا: أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ يَعُودُ عَلَيْهِ شَوْمُ ذَنْبِهِ، فَيَحْتَرِقُ هُوَ وَغَيْرُهُ بِشَوْمِ الذُّنُوبِ وَالظُّلْمِ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنَّ الْحُبَارَى لَتَمُوتَ فِي وَكْرِهَا مِنْ ظُلْمِ الظَّالِمِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ الْبَهَائِمَ تَلْعَنُ عَصَاةَ بَنِي آدَمَ إِذَا اشْتَدَّتِ السَّنَةُ، وَأَمْسَكَ المَطَرُ، وَتَقُولُ: هَذَا بِشَوْمِ مَعْصِيَةِ ابْنِ آدَمَ.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ذَوَابُّ الأَرْضِ وَهَوَامُّهَا حَتَّى الحَنَافِسُ وَالْعَقَارِبُ، يَقُولُونَ: مُنِعْنَا القَطْرَ بِذُنُوبِ بَنِي آدَمَ.

فَلَا يَكْفِيهِ عِقَابُ ذَنْبِهِ، حَتَّى يَلْعَنَهُ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ.

فَصَلِّ

وَمِنْهَا: أَنَّ المَعْصِيَةَ تُورِثُ الذُّلَّ وَلَا بُدَّ؛ فَإِنَّ العِزَّ كُلَّ العِزِّ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [سُورَةُ فَاطِمَةَ: ١٠] أَيُّ فَيَطْلُبُهَا بِطَاعَةِ اللهِ، فَإِنَّهُ لَا يَجِدُهَا إِلَّا فِي طَاعَةِ اللهِ.

وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ بَعْضِ السَّلَفِ: اللَّهُمَّ اعْزِنِي بِطَاعَتِكَ وَلَا تُذَلِّنِي بِمَعْصِيَتِكَ.

قَالَ الحُسَيْنُ البَصْرِيُّ: إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقَطَقَتْ بِهِمُ البَعَالُ، وَهَمَلَجَتْ بِهِمُ البَرَادِينُ، إِنَّ ذُلَّ المَعْصِيَةِ لَا يُفَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَيْ اللهُ إِلَّا أَنْ يُذَلَّ مَنْ عَصَاهُ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تَمِيتُ القُلُوبَ... وَقَدْ يورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

وَتَرَكْتُ الذُّنُوبَ حَيَاةَ القُلُوبِ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ... وَأَخْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانِيهَا

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمُعَاصِي تَفْسِدُ الْعَقْلَ، فَإِنَّ لِلْعَقْلِ نُورًا، وَالْمُعْصِيَةَ تُطْفِئُ نُورَ الْعَقْلِ وَلَا بُدَّ، وَإِذَا طَفِيَ نُورُهُ ضَعُفَ وَتَقَصَّ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا عَصَى اللَّهُ أَحَدٌ حَتَّى يَغِيبَ عَقْلُهُ، وَهَذَا ظَاهِرٌ، فَإِنَّهُ لَوْ حَصَرَ عَقْلَهُ لَحَجَزَهُ عَنِ الْمُعْصِيَةِ وَهُوَ فِي قَبْضَةِ الرَّبِّ تَعَالَى، أَوْ تَحْتَ قَهْرِهِ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، وَفِي دَارِهِ عَلَى بَسَاطِهِ وَمَلَائِكَتُهُ شُهُودٌ عَلَيْهِ نَاطِرُونَ إِلَيْهِ، وَوَاعِظُ الْقُرْآنِ يَنْهَاهُ، وَوَاعِظُ الْمَوْتِ يَنْهَاهُ، وَوَاعِظُ النَّارِ يَنْهَاهُ، وَالَّذِي يُفَوِّتُهُ بِالْمُعْصِيَةِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَضْعَافٌ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ السُّرُورِ وَاللَّذَّةِ بِهَا، فَهَلْ يُقَدِّمُ عَلَى الْإِسْتِهَانَةِ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَالْإِسْتِخْفَافِ بِهِ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ؟

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّ الدُّنُوبَ إِذَا تَكَاثَرَتْ طُبِعَ عَلَى قَلْبِ صَاحِبِهَا، فَكَانَ مِنَ الْعَافِينَ.

كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُطَفِّينَ: ١٤]، قَالَ: هُوَ الدَّنْبُ بَعْدَ الدَّنْبِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: هُوَ الدَّنْبُ عَلَى الدَّنْبِ، حَتَّى يُعْمِيَ الْقَلْبَ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: لَمَّا كَثُرَتْ ذُنُوبُهُمْ وَمَعَاصِيهِمْ أَحَاطَتْ بِقُلُوبِهِمْ.

وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ الْقَلْبَ يَصْدَأُ مِنَ الْمُعْصِيَةِ، فَإِذَا زَادَتْ غَلَبَ الصَّدَأُ حَتَّى يَصِيرَ رَانًا، ثُمَّ يَغْلِبُ حَتَّى يَصِيرَ طَبَعًا وَقُفْلًا وَخَتْمًا، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ فِي غِشَاوَةٍ وَغِلَافٍ، فَإِذَا حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ بَعْدَ الْهُدَى وَالْبَصِيرَةِ انْعَكَسَ فَصَارَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، فَحَيْثُ يَتَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ وَيَسُوقُهُ حَيْثُ أَرَادَ.

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: أَنَّ الذُّنُوبَ تُدْخِلُ الْعَبْدَ تَحْتَ لَعْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ لَعَنَ عَلَى مَعَاصِي وَالتِّي غَيْرُهَا أَكْبَرُ مِنْهَا، فَهِيَ أَوْلَى بِدُخُولِ فَاعِلِهَا تَحْتَ اللَّعْنَةِ.

فَلَعَنَ الْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَالْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالنَّامِصَةَ وَالْمُتَنَمِّصَةَ، وَالْوَاشِرَةَ وَالْمُسْتَوْشِرَةَ. وَلَعَنَ أَكَلَ الرَّبَا وَمُؤْكَلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَهُ. وَلَعَنَ الْمُحَلَّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ.

وَلَعَنَ السَّارِقَ.

وَلَعَنَ شَارِبَ الْخَمْرِ وَسَاقِيهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا، وَبَائِعَهَا وَمُشْتَرِيهَا، وَأَكَلَ ثَمَنِهَا وَحَامِلَهَا وَالْمُحْمُولَةَ إِلَيْهِ.

وَلَعَنَ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ وَهِيَ أَعْلَامُهَا وَحُدُودُهَا.

وَلَعَنَ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ.

وَلَعَنَ مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا يَرْمِيهِ بِسَهْمٍ.

وَلَعَنَ الْمُخْتَبِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالْمُتَرَجِّلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ.

وَلَعَنَ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ.

وَلَعَنَ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدَثًا.

وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ.

وَلَعَنَ مَنْ عَمَلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ.

وَلَعَنَ مَنْ سَبَّ أَبَاهُ وَأُمَّهُ.

وَلَعَنَ مَنْ كَمِهَ أَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ.

وَلَعَنَ مَنْ أَتَى بِهِمَةً.

وَلَعَنَ مَنْ وَسَمَ دَابَّةً فِي وَجْهِهَا.

وَلَعَنَ مَنْ ضَارَّ مُسْلِمًا أَوْ مَكَرَّ بِهِ.

وَلَعَنَ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ وَالتَّخْذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالشُّرُجَ.

وَلَعَنَ مَنْ أَفْسَدَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا، أَوْ مَمْلُوكًا عَلَى سَيِّدِهِ.

وَلَعَنَ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا.

وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ بَاتَتْ مُهَاجِرَةً لِنَفْرَاشِ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ.

وَلَعَنَ مَنْ انْتَسَبَ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ.

وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ.

وَلَعَنَ مَنْ سَبَّ الصَّحَابَةَ.

وَقَدْ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ وَقَطَعَ رَحْمَهُ، وَأَذَاهُ وَأَذَى رَسُولِهِ ﷺ.

وَلَعَنَ مَنْ كَتَمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَاهْتَدَى.

وَلَعَنَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ بِالْفَاحِشَةِ.

وَلَعَنَ مَنْ جَعَلَ سَبِيلَ الْكَافِرِ أَهْدَى مِنْ سَبِيلِ الْمُسْلِمِ.

وَلَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ.

وَلَعَنَ الرَّائِي وَالْمُرْتَشِي وَالرَّائِشَ، وَهُوَ: الْوَاسِطَةُ فِي الرِّشْوَةِ.

وَلَعَنَ عَلَى أَشْيَاءٍ أُخْرَى غَيْرِ هَذِهِ.

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلٍ ذَلِكَ إِلَّا رِضَاءٌ فَاعِلِهِ بَأَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَلْعَنُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَلَائِكَتُهُ لَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُو إِلَيْ تَرْكِهِ.

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: حَرْمَانُ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَعْوَةِ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: ٧-٩].

فَهَذَا دُعَاءُ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ التَّائِبِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الَّذِينَ لَا سَبِيلَ لَهُمْ غَيْرُهُمَا، فَلَا يَطْمَعُ غَيْرُهُمَا هَوْلًا بِإِجَابَةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، إِذْ لَمْ يَتَّصِفْ بِصِفَاتِ الْمَدْعُوِّ لَهُ بِهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الْمُعَاصِي مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكْثُرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا؟» فَيَقْصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْصَّ، وَأَنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ عَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا أَنْبَعَا لِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: أَنْطَلِقْ وَإِنِّي أَنْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَتَلَعُّ

رَأْسُهُ فَيَتَدَهَّدُهُ الْحَجْرُ هَاهُنَا فَيَقَعُ الْحَجْرُ، فَيَأْخُذُهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يُصْبِحَ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقِ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأْتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقْفَاهُ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِكُلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شَقِيٍّ وَجْهِهِ وَيُشْرِ شُرَّ شِدْقِهِ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْأَخْرَى، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا يَفْرَعُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يُصْبِحَ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَا؟ فَقَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقِ.

فَانْطَلَقْنَا فَأْتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُورِ، وَإِذَا فِيهِ لَعَطٌ وَأَصْوَاتٌ، قَالَ: فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاءٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ هَبٌّ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ صَوَّضُوا، فَقَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُوَ لَآءٍ؟ قَالَ: فَقَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقِ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأْتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، فَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْبَحَ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ فَيَفْعَرُ لَهُ فَاهُ فَيَلْقِمُهُ حَجْرًا، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ، فَيَفْعَرُ لَهُ فَاهُ فَيَلْقِمُهُ حَجْرًا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقِ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأْتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرَّةِ، أَوْ كَأَكْرَهٍ مَا أَنْتَ رَاءِ رَجُلًا مَرَأَى، وَإِذَا هُوَ عِنْدَهُ نَارٌ يُحْتَمِئُهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَ: قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقِ.

فَانْطَلَقْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نُوْرِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَانِي الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ، لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طَوِيلًا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ، قَالَ: قُلْتُ: مَا هَذَا؟ وَمَا هُوَ لَآءٍ؟ قَالَ: قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقِ.

فَانطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرِ دَوْحَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَلَا أَحْسَنَ، قَالَ: قَالَا لِي: ازِقْ فِيهَا، فَارْتَقَيْنَا فِيهَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبْنٍ ذَهَبٍ، وَلَبْنٍ فِضَّةٍ، قَالَ: فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَمْتَحْنَا، فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ، شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَيْتَ، وَشَطْرٌ مِنْهُمْ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَأَيْتَ، قَالَ: قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَتَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، قَالَ: وَإِذَا مَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمُحَضُّ فِي الْبِيضِ، فَذْهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا، قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، قَالَ: قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّةٌ عَدْنٍ وَهَذَا ذَاكَ مَنْزِلُكَ. قَالَ: فَسَمَّا بَصْرِي صُعْدًا، فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَايَةِ الْبَيْضَاءِ، قَالَ: قَالَا لِي: هَذَا مَنْزِلُكَ، قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ، فَذَرَانِي فَأَدْخُلْهُ، قَالَا: أَمَا الْآنَ فَلَا، وَأَنْتَ دَاخِلُهُ.

قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي رَأَيْتُ مِنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ قَالَ: قَالَا لِي: أَمَا إِنَّا سُنْحَبْرُكَ. أَمَا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُنَلِّغُ رَأْسَهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ.

وَأَمَا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشْرِشُرُ شِدْقَهُ إِلَى فَقَاهُ، وَمَنْخَرُهُ إِلَى فَقَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى فَقَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو إِلَى بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكُذْبَةَ تَبْلُغُ الْأَفَاقَ.

وَأَمَا الرَّجُلُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاءُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُورِ، فَإِنَّهُمْ الزَّانَةُ وَالزَّوَانِي.

وَأَمَا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهْرِ وَيُلْقِمُ الْحِجَارَةَ، فَإِنَّهُ أَكَلَ الرَّبَا.

وَأَمَا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمُنْظَرِ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحْتُثُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنٌ جَهَنَّمَ.

وَأَمَا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ، فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ.

وَأَمَا الْوُلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ - وَفِي رِوَايَةِ الْبَرْقَانِيِّ: وُلِدَ عَلَى الْفِطْرَةِ - فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ.

وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرَ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرَ مِنْهُمْ قَبِيحٌ، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا نَجَّوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ»^(١).

فَصْلٌ

وَمِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي: أَنَّهَا تُحْدِثُ فِي الْأَرْضِ أَنْوَاعًا مِنَ الْفَسَادِ فِي الْمِيَاهِ وَالْهَوَاءِ، وَالزَّرْعِ، وَالثَّمَارِ، وَالْمَسَاكِينِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا أَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سُورَةُ الرُّومِ: ٤١].

قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا وَبِيَ الظُّلْمُ سَعَى بِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ فَيَحْبِسُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْقَطْرَ، فَيَهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا أَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سُورَةُ الرُّومِ: ٤١].

ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِحَرْكُمُ هَذَا، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءٍ جَارٍ فَهُوَ بِحَرْ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ لَكُمْ: بِحَرْكُمُ هَذَا، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَا الْبَرُّ فَأَهْلُ الْعَمُودِ، وَأَمَا الْبَحْرُ فَأَهْلُ الْقَرَى وَالرِّيفِ، قُلْتُ: وَقَدْ سَمَى اللَّهُ تَعَالَى الْمَاءَ الْعَذْبَ بَحْرًا، فَقَالَ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ: ١٢].

وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ بَحْرٌ حُلُوٌّ وَاقِفٌ، وَإِنَّمَا هِيَ الْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ، وَالْبَحْرُ الْمَالِحُ هُوَ السَّاكِنُ، فَسَمَى الْقُرَى الَّتِي عَلَيْهَا الْمِيَاهُ الْجَارِيَةُ بِاسْمِ تِلْكَ الْمِيَاهِ.

(١) صحيح البخاري كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٧٠٤٧).

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قَالَ: الذُّنُوبُ.

قُلْتُ: أَرَادَ أَنَّ الذُّنُوبَ سَبَبُ الْفَسَادِ الَّذِي ظَهَرَ، وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ الْفَسَادَ الَّذِي ظَهَرَ هُوَ الذُّنُوبُ نَفْسَهَا فَتَكُونُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ لَامَ الْعَاقِبَةِ وَالتَّعْلِيلِ، وَعَلَى الْأَوَّلِ فَالْمُرَادُ بِالْفَسَادِ: النَّقْصُ وَالشَّرُّ وَالْآلَامُ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ مَعَاصِي الْعِبَادِ، فَكُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُمْ عُقُوبَةً، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُلَّمَا أَحْدَثْتُمْ ذَنْبًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ سُلْطَانِهِ عُقُوبَةً.

وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْفَسَادَ الْمُرَادَ بِهِ الذُّنُوبَ وَمُوجِبَاتُهَا، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ فَهَذَا حَالُنَا، وَإِنَّمَا أَذَاقْنَا الشَّيْءَ الْيَسِيرَ مِنْ أَعْمَالِنَا، وَلَوْ أَذَاقْنَا كُلَّ أَعْمَالِنَا لَمَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِنَا مِنْ دَابَّةٍ.

وَمِنْ تَأْثِيرِ مَعَاصِي اللَّهِ فِي الْأَرْضِ مَا يَحِلُّ بِهَا مِنَ الْحَسْفِ وَالزَّلَازِلِ، وَيَمَحُوقُ بَرَكَاتِهَا، وَقَدْ مَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى دِيَارِ ثَمُودَ، فَمَنَعَهُمْ مِنْ دُخُولِ دِيَارِهِمْ إِلَّا وَهُمْ بَاكُونَ، وَمَنْ شَرِبَ مِيَاهِهِمْ، وَمَنْ الْإِسْتِسْقَاءَ مِنْ آبَارِهِمْ، حَتَّى أَمَرَ أَنْ لَا يُعْلَفَ الْعَجِينُ الَّذِي عُجِنَ بِمِيَاهِهِمْ لِلنَّوَاضِحِ، لِتَأْثِيرِ سُؤْمِ الْمُعْصِيَةِ فِي الْمَاءِ، وَكَذَلِكَ سُؤْمُ تَأْثِيرِ الذُّنُوبِ فِي نَقْصِ الثَّمَارِ وَمَا تَرَى بِهِ مِنَ الْآفَاتِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ فِي ضَمَنِ حَدِيثٍ قَالَ: وَجَدْتُ فِي خَزَائِنِ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةَ، حِنْطَةً، الْحَبَّةُ بِقَدْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ، وَهِيَ فِي صُرَّةٍ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: كَانَ هَذَا يَنْبُتُ فِي زَمَنِ مِنَ الْعَدْلِ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ أَحْدَثَهَا اللَّهُ بِمَا أَحْدَثَ الْعِبَادُ مِنَ الذُّنُوبِ.

وَأَخْبَرَنِي جَمَاعَةٌ مِنْ شُبُوحِ الصَّحْرَاءِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْهَدُونَ الثَّمَارَ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ الْآنَ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ الَّتِي تُصِيبُهَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا، وَإِنَّمَا حَدَّثَتْ مِنْ قُرْبٍ.

وَأَمَّا تَأْيِيرُ الذُّنُوبِ فِي الصُّورِ وَالْخَلْقِ، فَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطَوَّلَهُ فِي السَّمَاءِ سِتُونَ ذِرَاعًا، وَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ»^(١).

فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنَ الظُّلْمَةِ وَالْحَوْنَةِ وَالْفَجْرَةِ، يُخْرِجُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا لُ الْأَرْضِ قِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا، وَيَقْتُلُ الْمَسِيحَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَيُقِيمُ الدِّينَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَرَكَاتِهَا، وَتَعُودُ كَمَا كَانَتْ، حَتَّى إِنَّ الْعِصَابَةَ مِنَ النَّاسِ لَيَأْكُلُونَ الرَّمَانَةَ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِخْفِهَا، وَيَكُونُ الْعُنُقُودُ مِنَ الْعِنَبِ وَقُرْبَعِيرٍ، وَلَبَنُ اللَّقْحَةِ الْوَاحِدَةِ لَتَكْفِي الْفِتَامَ مِنَ النَّاسِ، وَهَذِهِ لِأَنَّ الْأَرْضَ لَمَّا طَهَّرْتَ مِنَ الْمَعَاصِي ظَهَرَتْ فِيهَا آثَارُ الْبَرَكَاتِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي مَحَقَّتْهَا الذُّنُوبُ وَالْكَفْرُ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ بَقِيَتْ آثَارُهَا سَارِيَةً فِي الْأَرْضِ تَطْلُبُ مَا يُشَاكِلُهَا مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ آثَارُ تِلْكَ الْجَرَائِمِ الَّتِي عُدَّتْ بِهَا الْأُمَّمُ، فَهَذِهِ الْآثَارُ فِي الْأَرْضِ مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْعُقُوبَاتِ، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْمَعَاصِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْجَرَائِمِ، فَتَنَاسَبَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَحُكْمُهُ الْكَوْنِيُّ أَوْلًا وَآخِرًا، وَكَانَ الْعَظِيمُ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِلْعَظِيمِ مِنَ الْجِنَايَةِ، وَالْأَخْفُ لِلْأَخْفِ، وَهَكَذَا يُحْكَمُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ فِي دَارِ الْبَرْزَخِ وَدَارِ الْجَزَاءِ.

وَتَأَمَّلْ مُقَارَنَةَ الشَّيْطَانِ وَمَحَلَّهُ وَدَارَهُ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَارَنَ الْعَبْدَ وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ نُزِعَتْ الْبَرَكَاتُ مِنْ عُمُرِهِ، وَعَمَلِهِ، وَقَوْلِهِ، وَرِزْقِهِ، وَلَمَّا أَثَرَتْ طَاعَتُهُ فِي الْأَرْضِ مَا أَثَرَتْ، وَنُزِعَتْ الْبَرَكَاتُ مِنْ كُلِّ مَحَلٍّ ظَهَرَتْ فِيهِ طَاعَتُهُ، وَكَذَلِكَ مَسْكَنُهُ لَمَّا كَانَ الْجَحِيمَ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنَ الرُّوحِ وَالرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَاتِ.

فَصَلِّ

(١) وهو في الصحيحين، أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته (٣٣٢٦)، ومسلم، كتاب

الجنة، باب يدخل الجنة أفوام (٢٨٤١).

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ: أَنَّهَا تُطْفِئُ مِنَ الْقَلْبِ نَارَ الْغَيْرَةِ الَّتِي هِيَ لِحْيَاتِهِ وَصَلَاحِهِ كَأَحْرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ لِحْيَاةِ جَمِيعِ الْبَدَنِ، فَالْغَيْرَةُ حَرَارَتُهُ وَنَارُهُ الَّتِي تُخْرِجُ مَا فِيهِ مِنَ الْحُبِّ وَالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ، كَمَا يُخْرِجُ الْكَبِيرُ حُبَّ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ، وَأَشْرَفُ النَّاسِ وَأَعْلَاهُمْ هِمَّةٌ أَشَدَّهُمْ غَيْرَةً عَلَى نَفْسِهِ وَخَاصَّتِهِ وَعُمُومِ النَّاسِ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَغْيَرَ الْخَلْقِ عَلَى الْأُمَّةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَشَدُّ غَيْرَةً مِنْهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي»^(١).

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَةِ الْكُسُوفِ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزِنِي عَبْدُهُ أَوْ تَزِنِي أُمَّتُهُ»^(٢).

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُدْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرَّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمُدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَتْنِي عَلَى نَفْسِي»^(٣).

فَجَمَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيْنَ الْغَيْرَةِ الَّتِي أَصْلُهَا كَرَاهَةُ الْقَبَاحِ وَيُغْضِبُهَا، وَيَبِينُ حَبِيَّةَ الْعُدْرِ الَّتِي يُوجِبُ كَمَالَ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةَ وَالْإِحْسَانَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ - مَعَ شِدَّةِ غَيْرَتِهِ - مُحِبٌّ أَنْ يَعْتَذَرَ إِلَيْهِ عَبْدُهُ، وَيَقْبَلَ عُذْرَهُ

(١) أخرجه البخاري في الحدود، باب من رأى مع امرأته رجلاً فقتله (٦٨٤٦)؛ ومسلم في كتاب اللعان (١٤٩٩) وسعد هو سعد بن عبادة.

(٢) أخرجه البخاري في الكسوف، باب الصدقة في الكسوف (١٠٤٤)؛ ومسلم في الكسوف، باب صلاة الكسوف (٩٠١) عن عائشة.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ (٤٦٣٤)؛ ومسلم في التوبة، باب غيرة الله تعالى (٢٧٦٠) عن ابن مسعود.

مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ عَيْدَهُ بِأَرْتِكَابِ مَا يَغَارُ مِنْ أَرْتِكَابِهِ حَتَّى يَعْذُرَ إِلَيْهِمْ، وَلَا أَجَلَ ذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ إِعْذَارًا وَإِنْذَارًا، وَهَذَا غَايَةُ الْمَجْدِ وَالْإِحْسَانِ، وَنَهَايَةُ الْكَمَالِ.

فَإِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ تَشْتَدُّ غَيْرَتُهُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ حَمَلَهُ شِدَّةُ الْغَيْرَةِ عَلَى سُرْعَةِ الْإِيْقَاعِ وَالْعُقُوبَةِ مِنْ غَيْرِ إِعْذَارٍ مِنْهُ، وَمَنْ غَيْرِ قَبُولِ لِعُذْرٍ مِنْ اعْتَذَرِ إِلَيْهِ، بَلْ يَكُونُ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عُذْرٌ وَلَا تَدَعُهُ شِدَّةُ الْغَيْرَةِ أَنْ يَقْبَلَ عُذْرَهُ، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَقْبَلُ الْمَعَاذِيرَ يَحْمِلُهُ عَلَى قَبُولِهَا قَلَّةُ الْغَيْرَةِ حَتَّى يَتَوَسَّعَ فِي طُرُقِ الْمَعَاذِيرِ، وَيَرَى عُذْرًا مَا لَيْسَ بِعُذْرٍ، حَتَّى يَعْتَدِرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِالْقَدْرِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا غَيْرٌ مَمْدُوحٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّهَا اللَّهُ، وَمِنْهَا مَا يَبْغِضُهَا اللَّهُ، فَالَّتِي يَبْغِضُهَا اللَّهُ الْغَيْرَةُ مِنْ غَيْرِ رِيَّةٍ» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ (١).

وَإِنَّمَا الْمَمْدُوحُ اقْتِرَانُ الْغَيْرَةِ بِالْعُذْرِ، فَيَعَارُ فِي مَحَلِّ الْغَيْرَةِ، وَيَعْذُرُ فِي مَوْضِعِ الْعُذْرِ، وَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ الْمَمْدُوحُ حَقًّا.

وَلَمَّا جَمَعَ سُبْحَانَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ كُلَّهَا كَانَ أَحَقَّ بِالْمَدْحِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَا يَبْلُغُ أَحَدٌ أَنْ يَمْدَحَهُ كَمَا يَبْغِي لَهُ، بَلْ هُوَ كَمَا مَدَحَ نَفْسَهُ وَأَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، فَالْغَيْرُورُ قَدْ وَافَقَ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَمَنْ وَافَقَ اللَّهَ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ قَادَتُهُ تِلْكَ الصِّفَةُ إِلَيْهِ بِزَمَامِهِ، وَأَدْخَلَتْهُ عَلَى رَبِّهِ، وَأَدْنَتْهُ مِنْهُ، وَقَرَّبَتْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَصَيَّرَتْهُ مَحْبُوبًا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ رَحِيمٌ يُحِبُّ الرَّحَمَاءَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكُرَمَاءَ، عَلِيمٌ يُحِبُّ الْعُلَمَاءَ، قَوِيٌّ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْقَوِيَّ، وَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، حَتَّى يُحِبُّ أَهْلَ الْحَيَاءِ، جَمِيلٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْجَمَالِ، وَتَرْتُّبٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْوَتْرِ.

(١) أخرجه أحمد ٤ / ١٥٤ (١٧٣٩٨) وحسنه بشواهده الألباني في الإرواء (١٩٩٩).

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعْاصِي إِلَّا أَنَّهُ تُوَجَّبُ لِصَاحِبِهَا ضِدَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَتَمَنُّعُهُ مِنَ الْإِتِّصَافِ بِهَا لَكَفَى بِهَا عُقُوبَةً، فَإِنَّ الْخَطْرَةَ تَنْقَلِبُ وَسُوسَةً، وَالْوَسْوَسَةَ تَصِيرُ إِرَادَةً، وَالْإِرَادَةَ تَقْوَى فَتَصِيرُ عَزِيمَةً، ثُمَّ تَصِيرُ فِعْلًا، ثُمَّ تَصِيرُ صِفَةً لِأَزْمَةٍ وَهَيْئَةٍ ثَابِتَةٍ رَاسِخَةٍ، وَحِينَئِذٍ يَتَعَدَّرُ الْخُرُوجُ مِنْهَا كَمَا يَتَعَدَّرُ الْخُرُوجُ مِنْ صِفَاتِهِ الْقَائِمَةِ بِهِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ كَلَّمَا اشْتَدَّتْ مُلَابَسَتُهُ لِلذُّنُوبِ أَخْرَجَتْ مِنْ قَلْبِهِ الْغَيْرَةَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعُجُومِ النَّاسِ، وَقَدْ تَضَعُفُ فِي الْقَلْبِ جِدًّا حَتَّى لَا يَسْتَتَبِحَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقَبِيحَ لَا مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ فَقَدْ دَخَلَ فِي بَابِ الْهَلَاكِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى عَدَمِ الْإِسْتِقْبَاحِ، بَلْ يُحَسِّنُ الْفَوَاحِشَ وَالظُّلْمَ لِغَيْرِهِ، وَيُزَيِّنُهُ لَهُ، وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ، وَيُحِبُّهُ عَلَيْهِ، وَيَسْعَى لَهُ فِي تَحْصِيلِهِ، وَهَذَا كَانَ الدِّيُوثُ أَخْبَثَ خَلْقِ اللَّهِ، وَالْجَنَّةُ حَرَامٌ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مُحَلَّلُ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ لِغَيْرِهِ وَمُزَيِّنُهُ لَهُ، فَانظُرْ مَا الَّذِي حَمَلَتْ عَلَيْهِ قَلَّةُ الْغَيْرَةِ.

وَهَذَا يُدَلِّكُ عَلَى أَنَّ أَصْلَ الدِّينِ الْغَيْرَةَ، وَمَنْ لَا غَيْرَةَ لَهُ لَا دِينَ لَهُ، فَالْغَيْرَةُ تَحْمِي الْقَلْبَ فَتَحْمِي لَهُ الْجَوَارِحَ، فَتَدْفَعُ السُّوءَ وَالْفَوَاحِشَ، وَعَدَمُ الْغَيْرَةِ تُمِيتُ الْقَلْبَ، فَتَمُوتُ لَهُ الْجَوَارِحُ؛ فَلَا يَبْقَى عِنْدَهَا دَفْعُ الْبُتَّةِ.

وَمَثَلُ الْغَيْرَةِ فِي الْقَلْبِ مَثَلُ الْقُوَّةِ الَّتِي تَدْفَعُ الْمَرَضَ وَتُقَاوِمُهُ، فَإِذَا ذَهَبَتِ الْقُوَّةُ وَجَدَ الدَّاءُ الْمُحَلَّلَ قَابِلًا، وَلَمْ يَجِدْ دَافِعًا، فَتَمَكَّنَ، فَكَانَ الْهَلَاكُ، وَمِثْلُهَا مَثَلُ صَيَّاصِي الْجَامُوسِ الَّتِي تَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ، فَإِذَا تَكَسَّرَتْ طَمِعَ فِيهَا عَدُوُّهُ.

فَصَلِّ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: ذَهَابُ الْحَيَاءِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ الْقَلْبِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَذَهَابُهُ ذَهَابُ الْخَيْرِ أَجْمَعِهِ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ»^(١).

وَقَالَ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»^(٢) وَفِيهِ تَفْسِيرَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَلَى التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، وَالْمَعْنَى مَنْ لَمْ يَسْتَحِ فَإِنَّهُ يَصْنَعُ مَا شَاءَ مِنَ الْقَبَائِحِ، إِذِ الْحَامِلُ عَلَى تَرْكِهَا الْحَيَاءُ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ حَيَاءٌ يَرُدُّعُهُ عَنِ الْقَبَائِحِ، فَإِنَّهُ يُوَاقِعُهَا، وَهَذَا تَفْسِيرُ أَبِي عُبَيْدَةَ. وَالثَّانِي: أَنَّ الْفِعْلَ إِذَا لَمْ تَسْتَحِ مِنْهُ مِنَ اللَّهِ فَافْعَلْهُ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَنْبَغِي تَرْكُهُ هُوَ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ مِنَ اللَّهِ، وَهَذَا تَفْسِيرُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ هَانِيءٍ.

فَعَلَى الْأَوَّلِ: يَكُونُ تَهْدِيدًا، كَقَوْلِهِ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [سُورَةُ فَصَّلَتْ: ٤٠]. وَعَلَى الثَّانِي: يَكُونُ إِذْنًا وَإِبَاحَةً.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى حَمْلِهِ عَلَى الْمَعْنَيْنِ؟

قُلْتُ: لَا، وَلَا عَلَى قَوْلٍ مَنْ يَحْمِلُ الْمَشْتَرَكَ عَلَى جَمِيعِ مَعَانِيهِ، لِمَا بَيَّنَّ الْإِبَاحَةَ وَالتَّهْدِيدَ مِنَ الْمُنَافَاةِ، وَلَكِنَّ اعْتِبَارَ أَحَدِ الْمَعْنَيْنِ يُوجِبُ اعْتِبَارَ الْأُخْرَى.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ تُضَعِفُ الْحَيَاءَ مِنَ الْعَبْدِ، حَتَّى رُبَّمَا انْسَلَخَ مِنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، حَتَّى إِنَّهُ رَبَّمَا لَا يَتَأَثَّرُ بِعِلْمِ النَّاسِ بِسُوءِ حَالِهِ وَلَا بِاطْلَاعِهِمْ عَلَيْهِ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُخْبِرُ عَنْ حَالِهِ وَقُبْحِ مَا يَفْعَلُ، وَالْحَامِلُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ انْسِلَاخُهُ مِنَ الْحَيَاءِ، وَإِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ لَمْ يَبْقَ فِي صَلَاحِهِ مَطْمَعٌ:

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٨٣، ٣٤٨٤) من حديث أبي مسعود.

وَإِذَا رَأَى إِبْلِيسَ طَلَعَةً وَجْهَهُ ... حَيًّا وَقَالَ: فَدَيْتُ مَنْ لَا يُفْلِحُ

وَالْحَيَاءُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَيَاةِ، وَالْعَيْثُ يُسَمَّى حَيًّا - بِالْقَصْرِ - لِأَنَّ بِهِ حَيَاةَ الْأَرْضِ وَالنَّبَاتِ وَالذَّوَابِّ، وَكَذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالْحَيَاءِ حَيَاةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ لَا حَيَاءَ فِيهِ فَهُوَ مَيِّتٌ فِي الدُّنْيَا شَقِيٌّ فِي الْآخِرَةِ، وَبَيْنَ الذُّنُوبِ وَبَيْنَ قَلْبِ الْحَيَاءِ وَعَدَمِ الْغَيْبَةِ تَلَازُمٌ مِنَ الطَّرْفَيْنِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَسْتَدْعِي الْآخَرَ وَيَطْلُبُهُ حَيْثُ مَا وَجَدَ، وَمَنْ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ، اسْتَحَى اللَّهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ لَمْ يَسْتَحِ اللَّهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ: أَنَّهَا تُضْعِفُ فِي الْقَلْبِ تَعْظِيمَ الرَّبِّ ﷻ، وَتُضْعِفُ وَقَارَهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ وَلَا بُدَّ، شَاءَ أَمْ أَبِي، وَلَوْ تَمَكَّنَ وَقَارَ اللَّهُ وَعَظَمْتُهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ لَمَا تَجَرَّأَ عَلَى مَعَاصِيهِ، وَرَبِّمَا اغْتَرَّ الْمُغْتَرُّ، وَقَالَ: إِنَّمَا يَحْمِلُنِي عَلَى الْمَعَاصِي حُسْنُ الرَّجَاءِ، وَطَمَعِي فِي عَفْوِهِ، لَا ضَعْفُ عَظَمَتِهِ فِي قَلْبِي، وَهَذَا مِنْ مَعَالِطَةِ النَّفْسِ؛ فَإِنَّ عَظَمَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَجَلَالَهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ تَقْتَضِي تَعْظِيمَ حُرْمَاتِهِ، وَتَعْظِيمَ حُرْمَاتِهِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الذُّنُوبِ، وَالْمُتَجَرِّثُونَ عَلَى مَعَاصِيهِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَكَيْفَ يَقْدِرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ، أَوْ يُعَظِّمُهُ وَيُكَبِّرُهُ، وَيَرْجُو وَقَارَهُ وَيُجِلُّهُ، مَنْ يَهُونُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ؟ هَذَا مِنْ أَحْمَلِ الْمَحَالِ، وَأَيِّنِ الْبَاطِلِ، وَكَفَى بِالْعَاصِي عُقُوبَةً أَنْ يَضْمَحِلَّ مِنْ قَلْبِهِ تَعْظِيمُ اللَّهِ ﷻ، وَتَعْظِيمُ حُرْمَاتِهِ، وَيَهُونُ عَلَيْهِ حَقُّهُ.

وَمِنْ بَعْضِ عُقُوبَةِ هَذَا: أَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ مَهَابَتَهُ مِنْ قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَيَهُونُ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَخْفُونَ بِهِ، كَمَا هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَاسْتَخَفَّ بِهِ، فَعَلَى قَدْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ يُجِبُهُ النَّاسُ، وَعَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنَ اللَّهِ يَخَافُهُ الْخَلْقُ، وَعَلَى قَدْرِ تَعْظِيمِهِ لِلَّهِ وَحُرْمَاتِهِ يُعَظِّمُهُ النَّاسُ، وَكَيْفَ يَتَّبِعُكَ عَبْدٌ حُرْمَاتِ اللَّهِ، وَيَطْمَعُ أَنْ لَا يَسْتَهَكَ

النَّاسُ حُرْمَاتِهِ أَمْ كَيْفَ يَهُونُ عَلَيْهِ حَقُّ اللَّهِ وَلَا يَهُونُهُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ؟ أَمْ كَيْفَ يَسْتَخِفُّ بِمَعَاصِي اللَّهِ وَلَا يَسْتَخِفُّ بِهِ الْخَلْقُ؟

وَقَدْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى هَذَا فِي كِتَابِهِ عِنْدَ ذِكْرِ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ، وَأَنَّهُ أَرْكَسَ أَرْبَابَهَا بِمَا كَسَبُوا، وَغَطَّى عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَطَبَعَ عَلَيْهَا بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّهُ نَسِيَهُمْ كَمَا نَسُوهُ، وَأَهَانَهُمْ كَمَا أَهَانُوا دِينَهُ، وَضَيَّعَهُمْ كَمَا ضَيَّعُوا أَمْرَهُ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ سُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ: ﴿وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [سُورَةُ الْحُجِّجِ: ١٨] فَإِنَّهُمْ لَمَّا هَانَ عَلَيْهِمُ السُّجُودُ لَهُ وَاسْتَخَفُّوا بِهِ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ أَهَانَهُمُ اللَّهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ مُكْرِمٍ بَعْدَ أَنْ أَهَانَهُمُ اللَّهُ، وَمَنْ ذَا يُكْرِمُ مَنْ أَهَانَهُ اللَّهُ؟ أَوْ يَهِنُ مَنْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ؟

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَسْتَدْعِي نِسْيَانَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ، وَتَرْكَهُ وَتَخْلِيَتَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَشَيْطَانِهِ، وَهُنَالِكَ الْهَلَاكُ الَّذِي لَا يُرْجَى مَعَهُ نَجَاةٌ، قَالَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿[سُورَةُ الْحُشْرِ: ١٨ - ١٩].

فَأَمَرَ بِتَقْوَاهُ وَنَهَى أَنْ يَتَشَبَّهُ عِبَادُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَنْ نَسِيَهُ بِتَرْكِ تَقْوَاهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ عَاقِبَ مَنْ تَرَكَ التَّقْوَى بِأَنْ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ، أَيَّ أَنْسَاهُ مَصَالِحَهَا، وَمَا يُنْجِيهَا مِنْ عَذَابِهِ، وَمَا يُوجِبُ لَهُ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ، وَكَمَالَ لَدَّتِهَا وَسُرُورِهَا وَنَعِيمِهَا، فَأَنْسَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ جَزَاءً لِمَا نَسِيَهُ مِنْ عَظَمَتِهِ وَخَوْفِهِ، وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ، فَتَرَى الْعَاصِيَ مُهْمِلًا لِمَصَالِحِ نَفْسِهِ مُضَيِّعًا لَهَا، قَدْ أَغْفَلَ اللَّهُ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا، قَدْ انْفَرَطَتْ عَلَيْهِ مَصَالِحُ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَقَدْ فَرَطَ فِي سَعَادَتِهِ الْأَبَدِيَّةِ، وَاسْتَبَدَلَ بِهَا أَدْنَى مَا يَكُونُ مِنْ لَذَّةٍ، إِنَّمَا هِيَ سَحَابَةٌ صَيْفٍ، أَوْ خِيَالٌ طَيْفٍ كَمَا قِيلَ:

أَحْلَامٌ نَوْمٍ أَوْ كَظَلٌّ زَائِلٍ... إِنَّ اللَّيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُجْدِعُ

وَأَعْظَمَ الْعُقُوبَاتِ نِسْيَانُ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ، وَإِهْمَالُهُ لَهَا، وَإِضَاعَتُهُ حَظَّهَا وَنَصِيحَتَهَا مِنَ اللَّهِ، وَيَبْعَثُ ذَلِكَ بِالْغَيْبِ وَالْهُوَانِ وَأَبْحَسِ الثَّمَنِ، فَضَيِّعَ مَنْ لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ، وَلَا عِوَضَ لَهُ مِنْهُ، وَاسْتَبَدَلَ بِهِ مَنْ عَنْهُ كُلُّ الْغِنَى أَوْ مِنْهُ كُلُّ الْعِوَضِ:

مَنْ كُلُّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعَتْهُ عِوَضٌ ... وَمَا مِنَ اللَّهِ إِنْ ضَيَّعَتْ مِنْ عِوَضٍ

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُعَوِّضُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا سِوَاهُ وَلَا يُعَوِّضُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَيُغْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْءٌ، وَيُجِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُجِيرُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَيَمْنَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يَمْنَعُ مِنْهُ شَيْءٌ، كَيْفَ يَسْتَعِينِي الْعَبْدُ عَنْ طَاعَةِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ؟ وَكَيْفَ يَنْسَى ذِكْرَهُ وَيُضَيِّعُ أَمْرَهُ حَتَّى يُنْسِيَهُ نَفْسَهُ، فَيُخَسِرُهَا وَيَظْلِمُهَا أَعْظَمَ الظُّلْمِ؟ فَمَا ظَلَمَ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَلَكِنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَمَا ظَلَمَهُ رَبُّهُ وَلَكِنْ هُوَ الَّذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ.

فَضْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهُا تُخْرِجُ الْعَبْدَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِحْسَانِ وَتَمْنَعُهُ مِنْ ثَوَابِ الْمُحْسِنِينَ، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ إِذَا بَاسَرَ الْقَلْبَ مَنَعَهُ عَنِ الْمَعَاصِي، فَإِنَّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ إِلَّا لِاسْتِيْلَاءِ ذِكْرِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ عَلَى قَلْبِهِ، بِحَيْثُ يَصِيرُ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهُ، وَذَلِكَ سَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِرَادَةِ الْمَعْصِيَةِ، فَضَلًّا عَنْ مُوَاقَعَتِهَا، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِحْسَانِ، فَاتَتْهُ صُحْبَةُ رُفَقَتِهِ الْخَاصَّةِ، وَعَيْشُهُمْ الْهَيِّئُ، وَنَعِيمُهُمُ التَّامُّ، فَإِنَّ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا أَقْرَهُ فِي دَائِرَةِ عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ عَصَاهُ بِالْمَعَاصِي الَّتِي تُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ الْإِيْمَانِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَتَّهَبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ إِلَيْهِ فِيهَا النَّاسُ أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَتَّهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَإِيَّاكُمْ أَيَّاكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ»^(١).

(١) أخرجه البخاري في المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه (٢٤٧٥)، ومسلم في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان

بالمعاصي (٥٧) واللفظ له.

فَصْلٌ

وَمَنْ فَاتَهُ رُقُوتُ الْمُؤْمِنِينَ، وَحُسْنُ دِفَاعِ اللَّهِ عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، وَفَاتَهُ كُلَّ خَيْرٍ رَبَّهِ
اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَهُوَ نَحْوُ مِائَةِ خَصْلَةٍ، كُلُّ خَصْلَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

فَمِنْهَا: الْأَجْرُ الْعَظِيمُ: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: ١٤٦].

وَمِنْهَا: الدَّفْعُ عَنْهُمْ سُرُورَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سُورَةُ الْحُجِّ: ٣٨].

وَمِنْهَا: اسْتِغْفَارُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ لَهُمْ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: ٧].

وَمِنْهَا: مَوَالَاةُ اللَّهِ لَهُمْ، وَلَا يَذُلُّ مَنْ وَالَاهُ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ:

٢٥٧].

وَمِنْهَا: أَمْرُهُ مَلَائِكَتُهُ بِشَيْئِهِمْ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سُورَةُ

الْأَنْفَالِ: ١٢].

وَمِنْهَا: أَنَّ لَهُمُ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَالْمَغْفِرَةَ وَالرِّزْقَ الْكَرِيمَ.

وَمِنْهَا: الْعِزَّةُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ: ٨].

وَمِنْهَا: مَعِيَّةُ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ١٩].

وَمِنْهَا: الرَّفْعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

[سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ: ١١].

وَمِنْهَا: إِعْطَاؤُهُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَإِعْطَاؤُهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ وَمَغْفِرَةً ذُنُوبِهِمْ.

وَمِنْهَا: الْوُدُّ الَّذِي يُجْعَلُهُ سُبْحَانَهُ هُمْ، وَهُوَ أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُمْ إِلَى مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.
وَمِنْهَا: أَمَانُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ يَوْمَ يَشْتَدُّ الْخَوْفُ: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ٤٨].

وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ الْمُتَعَمِّمُونَ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أَمَرْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَهْدِينَا إِلَى صِرَاطِهِمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا هُوَ هُدًى لَهُمْ وَشِفَاءٌ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سُورَةُ فَصَّلَتْ: ٤٤].

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْإِيمَانَ سَبَبٌ جَالِبٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَكُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبَبُهُ الْإِيمَانُ، وَكُلُّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبَبُهُ عَدَمُ الْإِيمَانِ، فَكَيْفَ يَهُونُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَرْتَكِبَ شَيْئًا يُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ، وَيَحْوُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَلَكِنْ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ اسْتَمَرَّ عَلَى الذُّنُوبِ وَأَصْرَّ عَلَيْهَا خِيفَ عَلَيْهِ أَنْ يَرِينَ عَلَى قَلْبِهِ، فَيُخْرِجُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَمِنْ هَاهُنَا اشْتَدَّ خَوْفُ السَّلَفِ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: أَنْتُمْ تَخَافُونَ الذُّنُوبَ، وَأَنَا أَخَافُ الْكُفْرَ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَتِهَا: أَنَّهَا تُضْعِفُ سَيْرَ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ وَالِدَّارِ الْآخِرَةِ، أَوْ تَعُوقُهُ أَوْ تُوقِفُهُ وَتَقَطِّعُهُ عَنِ السَّيْرِ، فَلَا تَدْعُهُ يَحْتَطِئُ إِلَى اللَّهِ خُطْوَةً، هَذَا إِنْ لَمْ تَرُدَّهُ عَنْ وُجْهِتِهِ إِلَى وَرَائِهِ، فَالذَّنْبُ يَحْجِبُ الْوَاصِلَ، وَيَقْطَعُ السَّائِرَ، وَيَنْكَسُ الطَّالِبَ، وَالْقَلْبُ إِنَّمَا يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ بِقُوَّتِهِ، فَإِذَا مَرَّصَ بِالذُّنُوبِ ضَعُفَتْ تِلْكَ الْقُوَّةُ الَّتِي تُسِيرُهُ، فَإِنْ زَالَتْ بِالْكُلِّيَّةِ انْقَطَعَ عَنِ اللَّهِ انْقِطَاعًا يَبْعُدُ تَدَارُكُهُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَالذَّنْبُ إِمَّا يَمِيتُ الْقَلْبَ، أَوْ يَمْرِضُهُ مَرَضًا مَخَوِّفًا، أَوْ يُضْعِفُ قُوَّتَهُ وَلَا بُدَّ، حَتَّى يَنْتَهِيَ ضَعْفُهُ إِلَى الْأَشْيَاءِ الشَّرَائِعِ الَّتِي اسْتَعَاذَ مِنْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ: الْهَمُّ، وَالْحَزَنُ، وَالْعَجْزُ، وَالْكَسَلُ، وَالْجُبْنُ، وَالْبُخْلُ، وَضَلَعُ الدِّينِ، وَغَلَبَةُ الرِّجَالِ، وَكُلُّ اثْنَيْنِ مِنْهَا قَرِينَانِ.

فَالْهَمُّ وَالْحَزَنُ قَرِينَانِ: فَإِنَّ الْمَكْرُوهَ الْوَارِدَ عَلَى الْقَلْبِ إِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مُسْتَقْبَلٍ يَتَوَقَّعُهُ أَحَدُ الْهَمِّ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مَاضٍ قَدْ وَقَعَ أَحَدُ الْحَزَنِ.

وَالْعَجْزُ وَالْكَسَلُ قَرِينَانِ: فَإِنَّ تَخَلَّفَ الْعَبْدُ عَنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ، إِنْ كَانَ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ فَهُوَ الْعَجْزُ، وَإِنْ كَانَ لِعَدَمِ إِرَادَتِهِ فَهُوَ الْكَسَلُ.

وَالْجُبْنُ وَالْبُخْلُ قَرِينَانِ: فَإِنَّ عَدَمَ النَّفْعِ مِنْهُ إِنْ كَانَ بِيَدَيْهِ فَهُوَ الْجُبْنُ، وَإِنْ كَانَ بِإِلَهِ فَهُوَ الْبُخْلُ.

وَضَلَعُ الدِّينِ وَقَهْرُ الرِّجَالِ قَرِينَانِ: فَإِنَّ اسْتِعْلَاءَ الْغَيْرِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ بِحَقِّ فَهُوَ مِنْ ضَلَعِ الدِّينِ، وَإِنْ كَانَ بِبَاطِلٍ فَهُوَ مِنْ قَهْرِ الرِّجَالِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِيَةِ لِهَذِهِ الشَّرَائِعِ، كَمَا أَنَّهَا مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِيَةِ لِجَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَهَاتَةِ الْأَعْدَاءِ، وَمِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الْجَالِيَةِ لِزَوَالِ نِعَمِ اللَّهِ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِهِ إِلَى نِقْمَتِهِ وَتَجَلُّبِ جَمِيعِ سُخْطِهِ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ: أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ، وَتُجَلِّدُ النِّقْمَ، فَمَا زَالَتْ عَنِ الْعَبْدِ نِعْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا حَلَّتْ بِهِ نِقْمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: مَا نَزَلَ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا رُفِعَ إِلَّا بِتَوْبَةٍ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [سُورَةُ الشُّورَى:

[٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ٥٣].

فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ نِعْمَهُ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى أَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ مَا بِنَفْسِهِ، فَيُغَيِّرُ طَاعَةَ اللَّهِ بِمَعْصِيَتِهِ، وَشُكْرَهُ بِكُفْرِهِ، وَأَسْبَابَ رِضَاهُ بِأَسْبَابِ سُخْطِهِ، فَإِذَا غَيَّرَ غَيْرَ عَلَيْهِ، جَزَاءً وَفَاقًا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ.

فَإِنَّ غَيْرَ الْمُعْصِيَةِ بِالطَّاعَةِ، غَيْرَ اللَّهِ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ بِالْعَافِيَةِ، وَالذَّلُّ بِالْعِزِّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [سُورَةُ الرَّعْدِ: ١١].

وَفِي بَعْضِ الْأَثَارِ الْإِلَهِيَّةِ، عَنِ الرَّبِّ أَنَّهُ قَالَ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِي عَلَى مَا أَحَبُّ، ثُمَّ يَتَّقِلُ عَنْهُ إِلَى مَا أَكْرَهُ، إِلَّا انْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يُحِبُّ إِلَيَّ مَا يَكْرَهُ، وَلَا يَكُونُ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِي عَلَى مَا أَكْرَهُ، فَيَتَّقِلُ عَنْهُ إِلَى مَا أَحَبُّ، إِلَّا انْتَقَلْتُ لَهُ مِمَّا يَكْرَهُ إِلَيَّ مَا يُحِبُّ».

وَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ الذُّنُوبَ تُزِيلُ النِّعْمَ

وَحُطَّهَا بِطَاعَةِ رَبِّ الْعِبَادِ ... دِقْرُبُ الْعِبَادِ سَرِيعُ النَّقْمِ

وَأَيُّكَ وَالظُّلْمَ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ ... تَ فَظَلْمُ الْعِبَادِ شَدِيدُ الْوَحْمِ

وَسَافِرٍ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الْوَرَى ... لِتَبْصُرَ آثَارَ مَنْ قَدْ ظَلَمَ

فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ بَعْدَهُمْ ... شُهُودٌ عَلَيْهِمْ وَلَا تَسْتَهْمُ

وَمَا كَانَ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ أَضُّ ... رَّ مِنْ الظُّلْمِ وَهُوَ الَّذِي قَدْ قَصَمَ
فَكَمَّ تَرَكُوا مِنْ جَنَانٍ وَمِنْ ... قُصُورٍ وَأُخْرَى عَلَيْهِمْ أَطْمَ
صَلُّوا بِالْجَحِيمِ وَفَاتَ النَّعِي ... مُ وَكَانَ الَّذِي نَاهُمْ كَاخْلُمُ

فَصُلِّ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا مَا يُلْقِيهِ اللَّهُ مِنَ الرَّعْبِ وَالْخَوْفِ فِي قَلْبِ الْعَاصِي، فَلَا تَرَاهُ إِلَّا خَائِفًا مَرْعُوبًا.
فَإِنَّ الطَّاعَةَ حِصْنُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ، مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْأَمِينِينَ مِنْ عُقُوبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ خَرَجَ
عَنْهُ أَحَاطَتْ بِهِ الْمَخَافَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ انْقَلَبَتِ الْمَخَافَةُ فِي حَقِّهِ أَمَانًا، وَمَنْ عَصَاهُ
انْقَلَبَتْ مَأْمَنُهُ مَخَافًا، فَلَا تَجِدُ الْعَاصِيَّ إِلَّا وَقَلْبُهُ كَأَنَّهُ بَيْنَ جَنَاحِي طَائِرٍ، إِنْ حَرَّكَتِ الرِّيحُ الْبَابَ قَالَ:
جَاءَ الطَّلَبُ، وَإِنْ سَمِعَ وَقَعَ قَدَمٍ خَافَ أَنْ يَكُونَ نَذِيرًا بِالْعَطَبِ، يَحْسَبُ أَنْ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِ، وَكُلَّ
مَكْرُوهٍ قَاصِدٌ إِلَيْهِ، فَمَنْ خَافَ اللَّهَ آمَنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ أَخَافَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ:

بَدَأَ فَضَى اللَّهُ بَيْنَ الْخَلْقِ مَدْ خُلِقُوا ... أَنْ الْمَخَافَةَ وَالْأَجْرَامَ فِي قَرْنٍ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهُمْ تَوَقَّعُوا الْوَحْشَةَ الْعَظِيمَةَ فِي الْقَلْبِ فَيَجِدُ الْمُنْذِبُ نَفْسَهُ مُسْتَوْحِشًا، قَدْ وَقَعَتْ
الْوَحْشَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَبَيْنَ الْخَلْقِ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، وَكَلَّمَا كَثُرَتِ الذُّنُوبُ اشْتَدَّتِ الْوَحْشَةُ، وَأَمْرُ الْعَيْشِ
عَيْشُ الْمُسْتَوْحِشِينَ الْخَائِفِينَ، وَأَطْيَبُ الْعَيْشِ عَيْشُ الْمُسْتَأْنِسِينَ، فَلَوْ نَظَرَ الْعَاقِلُ وَوَاظَنَ لَذَّةَ الْمَعْصِيَةِ وَمَا
تَوَقَّعَهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالْوَحْشَةِ، لَعَلِمَ سُوءَ حَالِهِ، وَعَظِيمَ غَيْبِهِ، إِذْ بَاعَ أَنْسَ الطَّاعَةَ وَأَمْنَهَا وَحَلَاوَتَهَا
بِوَحْشَةِ الْمَعْصِيَةِ وَمَا تَوَجَّهَ مِنَ الْخَوْفِ وَالضَّرَرِ الدَّاعِي لَهُ.

كَمَا قِيلَ:

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ ... فَدَعَهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسْ

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الطَّاعَةَ تُوجِبُ الْقُرْبَ مِنَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، فَكَلَّمَا اشْتَدَّ الْقُرْبُ قَوِيَ الْأَنْسُ،
وَالْمُعْصِيَةُ تُوجِبُ الْبُعْدَ مِنَ الرَّبِّ، وَكَلَّمَا زَادَ الْبُعْدُ قَوِيَتْ الْوَحْشَةُ.

وَلِهَذَا يُجِدُ الْعَبْدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ لِلْبُعْدِ الَّذِي بَيْنَهُمَا، وَإِنْ كَانَ مُلَابِسًا لَهُ، قَرِيبًا مِنْهُ، وَيَجِدُ أَنْسًا
قَوِيًّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُحِبُّ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا عَنْهُ.

وَالْوَحْشَةُ سَبَبُ الْحِجَابِ، وَكَلَّمَا غَلِظَ الْحِجَابُ زَادَتْ الْوَحْشَةُ، فَالْغَفْلَةُ تُوجِبُ الْوَحْشَةَ، وَأَشَدُّ
مِنْهَا وَحْشَةُ الْمُعْصِيَةِ، وَأَشَدُّ مِنْهَا وَحْشَةُ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ، وَلَا تَجِدُ أَحَدًا مُلَابِسًا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا وَيَعْلُوهُ
مِنَ الْوَحْشَةِ بِحَسَبِ مَا لَابَسَهُ مِنْهُ، فَتَعْلُو الْوَحْشَةَ وَجْهَهُ وَقَلْبُهُ فَيَسْتَوْحِشُ وَيَسْتَوْحِشُ مِنْهُ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَصْرِفُ الْقَلْبَ عَنْ صِحَّتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ إِلَى مَرَضِهِ وَأَنْجِرَافِهِ، فَلَا يَزَالُ مَرِيضًا
مَعْلُومًا لَا يَتَنَفَّحُ بِالْأَعْدِيَةِ الَّتِي بِهَا حَيَاتُهُ وَصَلَاتُهُ، فَإِنَّ تَأْثِيرَ الذُّنُوبِ فِي الْقُلُوبِ كَتَأْثِيرِ الْأَمْرَاضِ فِي
الْأَبْدَانِ، بَلِ الذُّنُوبُ أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَدَاوُهَا، وَلَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا تَرْكُهَا.

وَقَدْ أَجْمَعَ السَّائِرُونَ إِلَى اللَّهِ أَنَّ الْقُلُوبَ لَا تُعْطَى مِنْهَا حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَوْلَاهَا، وَلَا تَصِلَ إِلَى مَوْلَاهَا
حَتَّى تَكُونَ صَاحِبَةً سَلِيمَةً، وَلَا تَكُونَ صَاحِبَةً سَلِيمَةً حَتَّى يَنْقَلِبَ دَاوُهَا، فَيَصِيرَ نَفْسَ دَوَائِهَا، وَلَا
يَصِحُّ لَهَا ذَلِكَ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، فَهَوَاهَا مَرَضُهَا، وَشَفَاؤُهَا مُخَالَفَتُهُ، فَإِنْ اسْتَحْكَمَ الْمَرِيضُ قَتْلَ أَوْ كَادَ.

وَكَأَنَّ مَنْ نَهَى نَفْسَهُ عَنِ الْهَوَى كَانَتْ الْجَنَّةُ مَأْوَاهُ، فَكَذَا يَكُونُ قَلْبُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي جَنَّةٍ عَاجِلَةٍ، لَا
يُشْبِهُ نَعِيمَ أَهْلِهَا نَعِيمًا الْبَتَّةَ، بَلِ التَّفَاوُتُ الَّذِي بَيْنَ النَّعِيمَيْنِ، كَالْتَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُصَدَّقُ بِهِ إِلَّا مَنْ بَاشَرَ قَلْبَهُ هَذَا وَهَذَا.

وَلَا تَحْسَبُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿[سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ: ١٣ - ١٤] مَقْصُورٌ عَلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَجَحِيمِهَا فَقَطُّ بَلْ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةَ كَذَلِكَ - أَعْنِي دَارَ الدُّنْيَا، وَدَارَ الْبَرْزَخِ، وَدَارَ الْقَرَارِ - فَهَؤُلَاءِ فِي نَعِيمٍ، وَهَؤُلَاءِ فِي جَحِيمٍ، وَهَلِ النَّعِيمُ إِلَّا نَعِيمُ الْقَلْبِ؟ وَهَلِ الْعَذَابُ إِلَّا عَذَابُ الْقَلْبِ؟ وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْخَوْفِ وَالْهَمِّ وَالْحُزْنِ، وَضِيقِ الصَّدْرِ، وَإِعْرَاضِهِ عَنِ اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتَعَلُّقِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَانْقِطَاعِهِ عَنِ اللَّهِ، بِكُلِّ وَادٍ مِنْهُ شُعْبَةٌ؟ وَكُلُّ شَيْءٍ تَعَلَّقَ بِهِ وَأَحَبَّهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَسُومُهُ سُوءَ الْعَذَابِ.

فَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عَذَّبَ بِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَهُوَ يُعَذَّبُ بِهِ قَبْلَ حُصُولِهِ حَتَّى يَحْصُلَ، فَإِذَا حَصَلَ عَذَّبَ بِهِ حَالَ حُصُولِهِ بِالْخَوْفِ مِنْ سَلْبِهِ وَفَوَاتِهِ، وَالتَّنْغِصِ وَالتَّنْكِيدِ عَلَيْهِ، وَأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الْمَعَارِضَاتِ، فَإِذَا سَلِبُهُ اشْتَدَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الدَّارِ.

وَأَمَّا فِي الْبَرْزَخِ: فَعَذَابٌ يُقَارِنُهُ أَلَمُ الْفِرَاقِ الَّذِي لَا يَرْجُو عَوْدَةً وَأَلَمُ فَوَاتِ مَا فَاتَهُ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ بِاشْتِغَالِهِ بِضِدِّهِ، وَأَلَمُ الْحِجَابِ عَنِ اللَّهِ، وَأَلَمُ الْحُسْرَةِ الَّتِي تَقْطَعُ الْأَكْبَادَ، فَالْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالْحُزْنُ تَعْمَلُ فِي نَفْسِهِمْ نَظِيرَ مَا يَعْمَلُ الْهُوَامُّ وَالذِّيدَانُ فِي أَبْدَانِهِمْ، بَلْ عَمَلُهَا فِي النَّفْسِ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ، حَتَّى يَرُدَّهَا اللَّهُ إِلَى أَجْسَادِهَا، فَحَيْثُ يَنْتَقِلُ الْعَذَابُ إِلَى نَوْعٍ هُوَ أَذْهَى وَأَمْرٌ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ نَعِيمٍ مَنْ يَرُقُّصُ قَلْبُهُ طَرَبًا وَفَرَحًا وَأَنْسًا بِرَبِّهِ، وَاشْتِيَاقًا إِلَيْهِ، وَارْتِيَا حُبِّهِ، وَطُمَأْنِينَةً بِذِكْرِهِ؟ حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ فِي حَالِ نَزْعِهِ: وَاطْرَبَاهُ.

وَيَقُولُ الْآخَرُ: مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا، خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا لِدَيْدَ الْعَيْشِ فِيهَا، وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا.

وَيَقُولُ الْآخَرُ: لَوْ عَلِمَ الْمَلُوكُ وَأَبْنَاؤُ الْمَلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ.

وَيَقُولُ الْآخَرُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

فِيَا مَنْ بَاعَ حَظَّهُ الْغَالِي بِأَبْخَسِ الثَّمَنِ، وَعُغِبَ كُلُّ الْغُبْنِ فِي هَذَا الْعَقْدِ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ قَدْ غُبِنَ، إِذَا لَمْ
يَكُنْ لَكَ خِبْرَةٌ بِقِيَمَةِ السَّلْعَةِ فَسَلِّ الْمُقَوِّمِينَ، فَيَا عَجَبًا مِنْ بَضَاعَةٍ مَعَكَ اللَّهُ مُشْتَرِيهَا وَتَمَنُّهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى،
وَالسَّفِيرُ الَّذِي جَرَى عَلَى يَدِهِ عَقْدُ التَّبَايُعِ وَضَمِنَ الثَّمَنَ عَنِ الْمُشْتَرِي هُوَ الرَّسُولُ ﷺ، وَقَدْ بَعَثَهَا بِغَايَةِ
الهُوَانِ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلٌ عَبْدٌ بِنَفْسِهِ... فَمَنْ ذَا لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يُكْرِمُ

﴿وَمَنْ يُبَيِّنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ الْحَجِّ: ١٨].

فَصَّلْ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ، وَتَطْمِسُ نُورَهُ، وَتَسُدُّ طُرُقَ الْعِلْمِ، وَتَحْجُبُ مَوَادَّ الْهُدَايَةِ.
وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ لِلشَّافِعِيِّ لَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ وَرَأَى تِلْكَ الْمُخَايِلَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا،
فَلَا تُطْفِئُهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ.

وَلَا يَزَالُ هَذَا النُّورُ يَضْعُفُ وَيُضْمَحِلُّ، وَظِلَامُ الْمَعْصِيَةِ يَقْوَى حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ فِي مِثْلِ اللَّيْلِ
الْبَهِيمِ، فَكَمْ مِنْ مُهْلِكٍ يَسْقُطُ فِيهِ وَلَا يُبْصِرُ، كَأَعْمَى خَرَجَ بِاللَّيْلِ فِي طَرِيقِ ذَاتِ مَهَالِكٍ وَمَعَاطِبٍ، فَيَا
عِزَّةَ السَّلَامَةِ وَيَا سُرْعَةَ الْعَطْبِ، ثُمَّ تَقْوَى تِلْكَ الظُّلُمَاتُ، وَتَفِيضُ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى الْجَوَارِحِ، فَيَغْشَى
الْوَجْهَ مِنْهَا سَوَادٌ، بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَتَزَايِدِهَا، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ ظَهَرَتْ فِي الْبَرْزَخِ، فَاثْمَلًا الْقَبْرُ ظُلْمَةً،
كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مُتَمَلِّئَةٌ عَلَى أَهْلِهَا ظُلْمَةً، وَإِنَّ اللَّهَ يُنَوِّرُهَا بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ»^(١).

(١) صحيح مسلم (٩٥٦).

فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَحُشِرَ الْعِبَادُ، عَلَتِ الظُّلْمَةُ الْوُجُوهَ عَلُّوا ظَاهِرًا يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، حَتَّى يَصِيرَ
الْوَجْهَ أَسْوَدَ مِثْلِ الْحُمَمَةِ، فَإِلَها مِنْ عُقُوبَةٍ لَا تُوزَنُ لِدَاتِ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِها مِنْ أَوْلِها إِلَى آخِرِها، فَكَيْفَ
يَقْسِطُ الْعَبْدُ الْمُنْغَصِ الْمُنْكَدِ الْمُتَعَبِ فِي زَمَنِ إِنَّمَا هُوَ سَاعَةٌ مِنْ حُلْمٍ؟ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِها: أَنَّها تُصَغِّرُ النَّفْسَ، وَتَقْمَعُها، وَتُدَسِّسِها، وَتَحْقِرُها، حَتَّى تَكُونَ أَصْغَرَ كُلِّ شَيْءٍ
وَآخَقَرُها، كَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ تُنْمِيها وَتُرَكِّبُها وَتَكَبِّرُها، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّاهَا﴾ [سُورَةُ الشَّمْسِ: ٩ - ١٠]، وَالْمَعْنَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَبَّرَها وَأَعْلَاهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَأَظْهَرَها، وَقَدْ
خَسِرَ مَنْ أَخْفَاهَا وَحَقَّرَها وَصَغَّرَها بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وَأَصْلُ التَّدْسِيسِ: الْإِخْفَاءُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ٥٩].

فَالْعَاصِي يَدُسُّ نَفْسَهُ فِي الْمَعْصِيَةِ، وَيُخْفِي مَكَانَها، يَتَوَارَى مِنَ الْخَلْقِ مِنْ سُوءِ مَا يَأْتِي بِهِ، وَقَدْ انْقَمَعَ
عِنْدَ نَفْسِهِ، وَانْقَمَعَ عِنْدَ اللَّهِ، وَانْقَمَعَ عِنْدَ الْخَلْقِ، فَالطَّاعَةُ وَالْبِرُّ تَكَبِّرُ النَّفْسَ وَتُعِزُّها وَتُعْلِيها، حَتَّى تَصِيرَ
أَشْرَفَ شَيْءٍ وَأَكْبَرَهُ، وَأَزْكَاهُ وَأَعْلَاهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ أَذْلُ شَيْءٍ وَأَخَقَرُهُ وَأَصْغَرُهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهَذَا الذُّلُّ
حَصَلَ لَهَا هَذَا الْعِزُّ وَالشَّرْفُ وَالنُّمُو، فَمَا أَصْغَرَ النَّفْسَ مِثْلَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَمَا كَبَّرَها وَشَرَّفَها وَرَفَعَهَا
مِثْلَ طَاعَةِ اللَّهِ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِها: أَنَّ الْعَاصِيَ دَائِمًا فِي أَسْرِ شَيْطَانِهِ، وَسِجْنِ شَهَوَاتِهِ، وَفِيودِ هَوَاهُ، فَهُوَ أَسِيرٌ مَسْجُونٌ
مُقَيَّدٌ، وَلَا أَسِيرٌ أَسْوَأَ حَالًا مِنْ أَسِيرٍ أَسْرَهُ أَعْدَى عَدُوُّ لَهُ، وَلَا سِجْنٌ أَضْيَقُ مِنْ سِجْنِ الْهَوَى، وَلَا قَيْدٌ

أَصْعَبُ مِنْ قَيْدِ الشَّهْوَةِ، فَكَيْفَ يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ قَلْبٌ مَأْسُورٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ؟ وَكَيْفَ يُحْطُو خُطْوَةً وَاحِدَةً؟

وَإِذَا قِيدَ الْقَلْبُ طَرَقَتْهُ الْأَفَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِحَسَبِ قِيُودِهِ، وَمِثْلُ الْقَلْبِ مِثْلُ الطَّائِرِ، كُلَّمَا عَلَا بَعْدَ عَنِ الْأَفَاتِ، وَكُلَّمَا نَزَلَ اسْتَوْحَشْتَهُ الْأَفَاتُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «الشَّيْطَانُ ذَنْبُ الْإِنْسَانِ»^(١).

وَكَمَّا أَنَّ الشَّاةَ الَّتِي لَا حَافِظَ لَهَا وَهِيَ بَيْنَ الذَّنَابِ سَرِيعَةُ الْعَطَبِ، فَكَذَا الْعَبْدُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ حَافِظٌ مِنَ اللَّهِ فَذَنْبُهُ مُفْتَرِسُهُ وَلَا بُدَّ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْهِ حَافِظٌ مِنَ اللَّهِ بِالتَّقْوَى، فَهِيَ وَقَايَةُ وَجْهَتُهُ، حَصِينَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَنْبِهِ، كَمَا هِيَ وَقَايَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُقُوبَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الشَّاةُ أَقْرَبَ مِنَ الرَّاعِي كَانَتْ أَسْلَمَ مِنَ الذَّنْبِ، وَكُلَّمَا بَعُدَتْ عَنِ الرَّاعِي كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْهَلَاكِ، فَأَسْلَمَ مَا تَكُونُ الشَّاةُ إِذَا قَرُبَتْ مِنَ الرَّاعِي، وَإِنَّمَا يَأْخُذُ الذَّنْبُ الْقَاصِيَةَ مِنَ الْغَنَمِ، وَهِيَ أَبْعَدُ مِنَ الرَّاعِي.

وَأَصْلُ هَذَا كُلُّهُ: أَنَّ الْقَلْبَ كُلَّمَا كَانَ أَبْعَدَ مِنَ اللَّهِ كَانَتْ الْأَفَاتُ إِلَيْهِ أَسْرَعَ، وَكُلَّمَا قَرَّبَ مِنَ اللَّهِ بَعُدَتْ عَنْهُ الْأَفَاتُ.

وَالْبُعْدُ مِنَ اللَّهِ مَرَاتِبٌ، بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، فَالْغَفْلَةُ تَبْعِدُ الْقَلْبَ عَنِ اللَّهِ، وَبَعْدُ الْمُعْصِيَةِ أَعْظَمُ مِنْ بَعْدِ الْغَفْلَةِ، وَبَعْدُ الْبِدْعَةِ أَعْظَمُ مِنْ بَعْدِ الْمُعْصِيَةِ، وَبَعْدُ النِّفَاقِ وَالشَّرْكِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

فَصَلُّ

(١) أخرجه أحمد ٥ / ٢٣٣ (٢٢٠٢٩) والطبراني ٢٠ / ١٦٤ - ١٦٥ (٣٤٤، ٣٤٥) والشاشي في مسنده (١٣٨٧) وأبو نعيم في الحلية (٢ / ٢٤٧) وغيرهم، من طريق قتادة حدثنا العلاء بن زياد عن معاذ مرفوعاً، وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٠١٦).

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: سُقُوطُ الْجَاهِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْكَرَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ، فَإِنَّ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاهُمْ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَطْوَعُهُمْ لَهُ، وَعَلَى قَدْرِ طَاعَةِ الْعَبْدِ تَكُونُ لَهُ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ، فَإِذَا عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ سَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ، فَأَسْقَطَهُ مِنْ قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِذَا لَمْ يَبْقَ لَهُ جَاهٌ عِنْدَ الْخَلْقِ وَهَانَ عَلَيْهِمْ عَامَلُوهُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، فَعَاشَ بَيْنَهُمْ أَسْوَأَ عَيْشٍ خَامِلَ الذِّكْرِ، سَاقِطَ الْقَدْرِ، زَرِيَّ الْحَالِ، لَا حُرْمَةَ لَهُ وَلَا فَرَحَ لَهُ وَلَا سُرُورَ، فَإِنَّ حُمُولَ الذِّكْرِ وَسُقُوطَ الْقَدْرِ وَالْجَاهِ مَعَهُ كُلُّ غَمٍّ وَهَمٍّ وَحَزْنٍ، وَلَا سُرُورَ مَعَهُ وَلَا فَرَحَ، وَأَيْنَ هَذَا الْأَمُّ مِنْ لَذَّةِ الْمُعْصِيَةِ لَوْ لَا سُكْرُ الشَّهْوَةِ؟

وَمَنْ أَعْظَمَ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ: أَنْ يَرَفَعَ لَهُ يَنَ الْعَالَمِينَ ذِكْرَهُ، وَيُعْلِي قَدْرَهُ، وَهَذَا خَصَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ - إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ﴾ [سُورَةُ ص ٤٥ - ٤٦].

أَيُّ: خَصَّصْنَاهُمْ بِخِصِّيصةٍ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ الَّذِي يُذَكَّرُونَ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَهُوَ لِسَانُ الصِّدْقِ الَّذِي سَأَلَهُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [سُورَةُ الشُّعْرَاءِ: ٨٤].
وَقَالَ عَنْهُ وَعَنْ بَنِيهِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٥٠].
وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [سُورَةُ الشَّرْحِ: ٤].

فَاتَّبَعَ الرُّسُلَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مِيرَاثِهِمْ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَمُتَابِعَتِهِمْ، وَكُلُّ مَنْ خَالَفَهُمْ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مُخَالَفَتِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ.

فَصَلِّ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّمَا تَسْلُبُ صَاحِبَهَا أَسْمَاءَ الْمُدْحِ وَالشَّرَفِ، وَتَكْسُوهُ أَسْمَاءَ الذَّمِّ وَالصَّغَارِ، فَتَسْلُبُهُ اسْمَ الْمُؤْمِنِ، وَالْبَرِّ، وَالْمُحْسِنِ، وَالْمُتَّقِي، وَالْمُطِيعِ، وَالْمُنِيبِ، وَالْوَلِيِّ، وَالْوَرَعِ، وَالصَّالِحِ، وَالْعَابِدِ، وَالْحَائِفِ، وَالْأَوَّابِ، وَالطَّيِّبِ، وَالْمَرْضِيَّ وَنَحْوَهَا.

وَتَكْسُوهُ اسْمَ الْفَاجِرِ، وَالْعَاصِي، وَالْمُخَالَفِ، وَالْمُسِيءِ، وَالْمُفْسِدِ، وَالْحَيْثِ، وَالْمُسْخُوطِ، وَالزَّانِي، وَالسَّارِقِ، وَالْقَاتِلِ، وَالْكَاذِبِ، وَالْحَائِنِ، وَاللُّوْطِيِّ، وَقَاطِعِ الرَّحِمِ، وَالْعَادِرِ وَأَمْثَلَهَا.

فَهَذِهِ أَسْمَاءُ الْفُسُوقِ وَ ﴿بَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [سُورَةُ الْحُجُرَاتِ: ١١] الَّذِي يُوجِبُ غَضَبَ الدِّيَانِ، وَدُخُولَ النَّيْرَانِ، وَعَيْشَ الْخِزْيِ وَالْهُوَانِ.

وَتِلْكَ أَسْمَاءٌ تُوجِبُ رِضَاءَ الرَّحْمَنِ، وَدُخُولَ الْجَنَانِ، وَتُوجِبُ شَرَفَ الْمُسَمَّى بِهَا عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْإِنْسَانِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عُقُوبَةِ الْمُعْصِيَةِ إِلَّا اسْتِحْقَاقُ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ وَمُوجِبَاتِهَا لَكَانَ فِي الْعَقْلِ نَاهٍ عَنْهَا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ثَوَابِ الطَّاعَةِ إِلَّا الْفَوْزُ بِتِلْكَ الْأَسْمَاءِ وَمُوجِبَاتِهَا لَكَانَ فِي الْعَقْلِ أَمْرٌ بِهَا، وَلَكِنْ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى اللَّهُ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، وَلَا مُقَرَّبَ لِمَا بَاعَدَ، وَلَا مُبْعَدَ لِمَنْ قَرَّبَ، ﴿وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ الْحَجِّ: ١٨].

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّمَا تُؤَثِّرُ بِالْخَاصَّةِ فِي نُقْصَانِ الْعَقْلِ، فَلَا تَجِدُ عَاقِلَيْنِ أَحَدُهُمَا مُطِيعٌ لِلَّهِ وَالْآخَرُ عَاصٍ، إِلَّا وَعَقْلُ الْمُطِيعِ مِنْهَا أَوْفَرُ وَأَكْمَلُ، وَفِكْرُهُ أَصَحُّ، وَرَأْيُهُ أَسَدُّ، وَالصَّوَابُ قَرِينُهُ.

وَلِهَذَا تَجِدُ خِطَابَ الْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ مَعَ أَوْلِي الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٩٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١٠٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٦٩]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَكَيفَ يَكُونُ عَاقِلًا وَافِرَ الْعَقْلِ مَنْ يَعِصِي مَنْ هُوَ فِي قَبْضَتِهِ وَفِي دَارِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ وَيَشَاهِدُهُ
فِي عِصِيهِ وَهُوَ بَعِينُهُ غَيْرُ مُتَوَارٍ عَنْهُ، وَيَسْتَعِينُ بِنِعْمِهِ عَلَى مَسَاحِطِهِ، وَيَسْتَدْعِي كُلَّ وَقْتٍ غَضَبَهُ عَلَيْهِ،
وَلَعْنَتَهُ لَهُ، وَإِبْعَادَهُ مِنْ قُرْبِهِ، وَطَرْدَهُ عَنْ بَابِهِ، وَإِعْرَاضَهُ عَنْهُ، وَخِذْلَانَهُ لَهُ، وَالتَّخْلِيَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ
وَعَدُوِّهِ، وَسُقُوطَهُ مِنْ عَيْنِهِ، وَحِرْمَانَهُ رُوحِ رِضَاهُ

وَحُبِّهِ، وَقِرَّةَ الْعَيْنِ بِقُرْبِهِ، وَالْفُوزَ بِجَوَارِهِ، وَالنَّظَرَ إِلَى وَجْهِهِ فِي زُمرَةٍ أَوْلِيَانِهِ، إِلَى أضعافِ أضعافِ
ذَلِكَ مِنْ كَرَامَتِهِ أَهْلَ الطَّاعَةِ، وَأضعافِ أضعافِ ذَلِكَ مِنْ عُقُوبَةِ أَهْلِ الْمُعْصِيَةِ.

فَأَيُّ عَقْلِ لِمَنْ أَثَرَ لَذَّةَ سَاعَةٍ أَوْ يَوْمٍ أَوْ دَهْرٍ، ثُمَّ تَنْقِضِي كَأَنَّهَا حُلْمٌ لَمْ يَكُنْ، عَلَى هَذَا النَّعِيمِ الْمُقِيمِ،
وَالْفُوزِ الْعَظِيمِ؟ بَلْ هُوَ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَوْلَا الْعَقْلُ الَّذِي تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ
الْمُجَانِينَ، بَلْ قَدْ يَكُونُ الْمُجَانِينُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ وَأَسْلَمَ عَاقِبَةً، فَهَذَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَأَمَّا تَأْثِيرُهَا فِي نُقْصَانِ الْعَقْلِ الْمَعِيشِ، فَلَوْلَا الْإِشْتِرَاكُ فِي هَذَا النُّقْصَانِ، لَطَهَّرَ لِطَبِيعِنَا نُقْصَانَ عَقْلِ
عَاصِينَا، وَلَكِنَّ الْجَائِحَةَ عَامَّةً، وَالْجُنُونَ فُنُونَ.

وَيَا عَجَبًا لَوْ صَحَّتِ الْعُقُولُ لَعَلِمَتْ أَنَّ طَرِيقَ مَحْصِلِ اللَّذَّةِ وَالْفَرَحَةِ وَالسُّرُورِ وَطِيبِ الْعَيْشِ، إِنَّمَا
هُوَ فِي رِضَاءِ مَنْ النَّعِيمُ كُلُّهُ فِي رِضَاهُ، وَالْأَلَمُ وَالْعَذَابُ كُلُّهُ فِي سُخْطِهِ وَغَضَبِهِ، فَفِي رِضَاهُ قِرَّةُ الْعُيُونِ،
وَسُرُورُ النُّفُوسِ، وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ، وَطِيبُ الْحَيَاةِ، وَلَذَّةُ الْعَيْشِ، وَأَطْيَبُ النَّعِيمِ، وَمِمَّا لَوْ
وُزِنَ مِنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ بِنِعْمِ الدُّنْيَا لَمْ يَفِ بِهِ، بَلْ إِذَا حَصَلَ لِلْقَلْبِ مِنْ ذَلِكَ أَيْسَرُ نَصِيبٍ لَمْ يَرْضَ بِالدُّنْيَا
وَمَا فِيهَا عَوْضًا مِنْهُ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ يَتَنَعَّمُ بِنِصْبِهِ مِنَ الدُّنْيَا أَعْظَمَ مِنْ تَنَعُّمِ الْمُتَرَفِّينَ فِيهَا، وَلَا يَشُوبُ تَنَعُّمَهُ
بِذَلِكَ الْحُظُّ الْيَسِيرُ مَا يَشُوبُ تَنَعُّمِ الْمُتَرَفِّينَ مِنَ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ وَالْأَحْزَانِ الْمُعَارِضَاتِ، بَلْ قَدْ حَصَلَ
لَهُ عَلَى النَّعِيمَيْنِ وَهُوَ يَنْتَظِرُ نِعِيمَيْنِ آخَرَيْنِ أَعْظَمَ مِنْهُمَا، وَمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ مِنَ الْأَلَامِ، فَلَا مَرَّ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: ١٠٤].

فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا أَنْقَصَ عَقْلَ مَنْ بَاعَ الدَّرَّ بِالْبَعْرِ، وَالْمَسْكَ بِالرَّجِيعِ، وَمُرَافَقَةَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، بِمُرَافَقَةِ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا.

فصل

وَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُوجِبُ الْقَطِيعَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَإِذَا وَقَعَتِ الْقَطِيعَةُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ، فَأَيُّ فَلَاحٍ، وَأَيُّ رَجَاءٍ، وَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنْ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ، وَقَطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلِيِّهِ وَمَوْلَاهُ الَّذِي لَا غِنَى عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا بَدَلَ لَهُ مِنْهُ، وَلَا عَوْضَ لَهُ عَنْهُ، وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ، وَوَصَلَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَى عَدُوِّ لَهُ: فَتَوْلَاهُ عَدُوَّهُ وَتَحَلَّى عَنْهُ وَوَلِيَهُ؟ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا فِي هَذَا الْإِنْقِطَاعِ وَالِاتِّصَالِ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَلَامِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: رَأَيْتُ الْعَبْدَ مُلْقَى بَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ تَوَلَّاهُ الشَّيْطَانُ، وَإِنْ تَوَلَّاهُ اللَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٥٠].

يَقُولُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ: أَنَا أَكْرَمْتُ أَبَاكُمْ، وَرَفَعْتُ قَدْرَهُ، وَفَضَّلْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَأَمَرْتُ مَلَائِكَتِي كُلَّهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ، تَكْرِيمًا لَهُ وَتَشْرِيفًا، فَأَطَاعُونِي، وَأَبَى عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ، فَعَصَى أَمْرِي، وَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِي، فَكَيْفَ يَحْسُنُ بِكُمْ بَعْدَ هَذَا أَنْ تَتَّخِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، فَتَطِيعُونَهُ فِي مَعْصِيَتِي، وَتُوَالُونَهُ فِي خِلَافِ مَرْضَاتِي وَهُمْ أَعْدَى عَدُوِّ لَكُمْ؟ فَوَالَيْتُمْ عَدُوِّي وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِمُعَادَاتِهِ، وَمَنْ وَلَى أَعْدَاءَ الْمَلِكِ،

كَانَ هُوَ وَأَعْدَاؤُهُ عِنْدَهُ سَوَاءً، فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ وَالطَّاعَةَ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِمُعَادَاةِ أَعْدَاءِ الْمُطَاعِ وَمُؤَالَاةِ أَوْلِيَائِهِ، وَأَمَّا أَنْ تُوَالِيَ أَعْدَاءَ الْمَلِكِ ثُمَّ تَدْعِي أَنَّكَ مُوَالٍ لَهُ، فَهَذَا مُحَالٌ.

هَذَا لَوْ لَمْ يَكُنْ عَدُوًّا لِلْمَلِكِ عَدُوًّا لَكُمْ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ عَدُوًّا كُمْ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَالْعَدَاوَةُ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ مِنَ الْعَدَاوَةِ الَّتِي بَيْنَ الشَّاةِ وَبَيْنَ الذَّنْبِ؟ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يُوَالِيَ عَدُوَّهُ عَدُوًّا وَلِيِّهِ وَمُؤَالَاهُ الَّذِي لَا مَوْلَى لَهُ سِوَاهُ، وَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى قُبْحِ هَذِهِ الْمُؤَالَاةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٥٠]، كَمَا نَبَّهَ عَلَى قُبْحِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٥٠]، فَتَبَيَّنَ أَنَّ عَدَاوَتَهُ لِرَبِّهِ وَعَدَاوَتَهُ لَنَا، كُلُّ مِنْهُمَا سَبَبٌ يَدْعُو إِلَى مُعَادَاتِهِ، فَمَا هَذِهِ الْمُؤَالَاةُ؟ وَمَا هَذَا الْإِسْتِبْدَالُ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا.

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ تَحْتَ هَذَا الْخُطَابِ نَوْعٌ مِنَ الْعِتَابِ لَطِيفٌ عَجِيبٌ وَهُوَ أَنِّي عَادَيْتُ إِبْلِيسَ إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لِأَيِّكُمْ آدَمَ مَعَ مَلَائِكَتِي فَكَانَتْ مُعَادَاتُهُ لِأَجْلِكُمْ، ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ هَذِهِ الْمُعَادَاةِ أَنْ عَقَدْتُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ عَقْدَ الْمُصَالِحَةِ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَمَحُّقُ بَرَكَةَ الْعُمُرِ، وَبَرَكَةَ الرِّزْقِ، وَبَرَكَةَ الْعِلْمِ، وَبَرَكَةَ الْعَمَلِ، وَبَرَكَةَ الطَّاعَةِ. وَبِالْجُمْلَةِ أَنَّهَا تَمَحُّقُ بَرَكَةَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَلَا تَجِدُ أَقْلَ بَرَكَةٍ فِي عُمُرِهِ وَدِينِهِ وَدُنْيَاهُ مِمَّنْ عَصَى اللَّهَ، وَمَا مُحِقَّتِ الْبَرَكَةُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا بِمَعَاصِي الْخَلْقِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٩٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا - لِنَفْسِهِمْ فِيهِ﴾ [الْحَجِّ: ١٦] -

[١٧]

وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَى وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشُّكِّ وَالسُّخْطِ»^(١).

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْأَثَرُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الرَّهْدِ: «أَنَا اللَّهُ، إِذَا رَضِيتُ بَارَكْتُ، وَلَيْسَ لِبِرْكَتِي مُتَّهَمٌ، وَإِذَا غَضِبْتُ لَعَنْتُ، وَلَعْنَتِي تُدْرِكُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ».

وَلَيْسَتْ سَعَةُ الرِّزْقِ وَالْعَمَلِ بِكَثْرَتِهِ، وَلَا طُولُ الْعُمُرِ بِكَثْرَةِ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، وَلَكِنَّ سَعَةَ الرِّزْقِ وَطُولَ الْعُمُرِ بِالْبِرَّةِ فِيهِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ عُمَرَ الْعَبْدَ هُوَ مُدَّةُ حَيَاتِهِ، وَلَا حَيَاةَ لَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ وَاشْتَغَلَ بغيره، بَلْ حَيَاةُ الْبَهَائِمِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِهِ، فَإِنَّ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ بِحَيَاةِ قَلْبِهِ وَرُوحِهِ، وَلَا حَيَاةَ لِقَلْبِهِ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ فَاطِرِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَعِبَادَتِهِ وَحُدِّهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالطَّمَأْنِينَةَ بِذِكْرِهِ، وَالْأُنْسَ بِقُرْبِهِ، وَمَنْ فَقَدَ هَذِهِ الْحَيَاةَ فَقَدَ الْحَيْرَ كُلَّهُ، وَلَوْ تَعَرَّضَ عَنْهَا بِمَا تَعَوَّضَ مِمَّا فِي الدُّنْيَا، بَلْ لَيْسَتْ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا عَوْضًا عَنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَمَنْ كُلَّ شَيْءٍ يَفُوتُ الْعَبْدَ عَوْضًا، وَإِذَا فَاتَهُ اللَّهُ لَمْ يَعْوِضْ عَنْهُ شَيْءٌ الْبَتَّةَ.

وَكَيفَ يَعْوِضُ الْفَقِيرُ بِالذَّاتِ عَنِ الْغَنِيِّ بِالذَّاتِ، وَالْعَاجِزُ بِالذَّاتِ عَنِ الْقَادِرِ بِالذَّاتِ، وَالْمَيِّتُ عَنِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْمَخْلُوقُ عَنِ الْخَالِقِ، وَمَنْ لَا وُجُودَ لَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ مِنْ ذَاتِهِ الْبَتَّةَ عَمَّنْ غِنَاهُ

(١) صححه الألباني في الصحيحة (٢٨٦٦) إلا قوله: «وَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَى وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشُّكِّ وَالسُّخْطِ» أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥١٤) وهو موضوع كما قال في ضعيف الترغيب (١٠٦٤).

وَحَيَاتُهُ وَكَمَالُهُ وَوُجُودُهُ وَرَحْمَتُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ؟ وَكَيْفَ يُعَوِّضُ مَنْ لَا يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ عَمَّنْ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَإِنَّمَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ اللَّهِ سَبَبًا لِمَحَقِّ بَرَكَاتِ الرِّزْقِ وَالْأَجَلِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ مُوَكَّلًا بِهَا وَبِأَصْحَابِهَا، فَسُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ، وَحَوَالَتُهُ عَلَى هَذَا الدِّيْوَانِ وَأَهْلِيهِ وَأَصْحَابِيهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِهِ الشَّيْطَانُ وَيُقَارِنُهُ، فَبَرَكَتُهُ مَحْجُوفَةٌ، وَهَذَا شُرْعٌ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللَّبْسِ وَالرُّكُوبِ وَالْجَمَاعِ لِمَا فِي مُقَارِنَةِ اسْمِ اللَّهِ مِنَ الْبَرَكَاتِ، وَذَكَرَ اسْمَهُ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ فَتَحْصُلُ الْبَرَكَاتُ وَلَا مُعَارِضَ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَا يَكُونُ لِلَّهِ فَبَرَكَتُهُ مَنزُوعَةٌ، فَإِنَّ الرَّبَّ هُوَ الَّذِي يُبَارِكُ وَحْدَهُ، وَالْبَرَكَاتُ كُلُّهَا مِنْهُ، وَكُلُّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مُبَارَكٌ، فَكَلَامُهُ مُبَارَكٌ، وَرَسُولُهُ مُبَارَكٌ، وَعَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ النَّافِعُ لِخَلْقِهِ مُبَارَكٌ، وَبَيْتُهُ الْحَرَامُ مُبَارَكٌ، وَكِنَانَتُهُ مِنْ أَرْضِهِ، وَهِيَ الشَّامُ أَرْضُ الْبَرَكَاتِ، وَصَفَهَا بِالْبَرَكَاتِ فِي سِتِّ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ، فَلَا مُبَارَكٌ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ، وَلَا مُبَارَكٌ إِلَّا مَا نُسِبَ إِلَيْهِ، أَعْنِي إِلَى الْوَهْيِيَّةِ وَحَيَّتِهِ وَرِضَاهُ، وَإِلَّا فَالْكُونُ كُلُّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى رَبُّوبِيَّتِهِ وَخَلْقِهِ، وَكُلُّ مَا بَاعَدَهُ مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ فَلَا بَرَكَاتٍ فِيهِ، وَلَا خَيْرٍ فِيهِ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْهُ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ فَفِيهِ مِنَ الْبَرَكَاتِ عَلَى حَسَبِ قُرْبِهِ مِنْهُ.

وَضِدُّ الْبَرَكَاتِ اللَّعْنَةُ؛ فَأَرْضٌ لَعْنَهَا اللَّهُ أَوْ شَخْصٌ لَعْنَهُ اللَّهُ أَوْ عَمَلٌ لَعْنَهُ اللَّهُ أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ، وَكُلَّمَا اتَّصَلَ بِذَلِكَ وَازْتَبَطَ بِهِ وَكَانَ مِنْهُ بِسَبِيلٍ فَلَا بَرَكَاتٍ فِيهِ الْبَتَّةَ.

وَقَدْ لَعَنَ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ وَجَعَلَهُ أَبْعَدَ خَلْقِهِ مِنْهُ، فَكُلُّ مَا كَانَ جِهَتُهُ فَلَهُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ وَاتِّصَالِهِ بِهِ، فَمِنْ هَاهُنَا كَانَ لِلْمَعَاصِيِ أَعْظَمُ تَأْثِيرٍ فِي مَحَقِّ بَرَكَاتِ الْعُمُرِ وَالرِّزْقِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَكُلُّ وَقْتٍ عَصَيْتَ اللَّهُ فِيهِ، أَوْ مَالٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ، أَوْ بَدَنٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ فَهُوَ عَلَى صَاحِبِهِ لَيْسَ لَهُ، فَالْيَسَّ لَهُ مِنْ عُمُرِهِ وَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ وَجَاهِهِ وَعِلْمِهِ وَعَمَلِهِ إِلَّا مَا أَطَاعَ اللَّهُ بِهِ.

وَلِهَذَا مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعِيشُ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِائَةَ سَنَةٍ أَوْ نَحْوَهَا، وَيَكُونُ عُمُرُهُ لَا يَبْلُغُ عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا، كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَمْلِكُ الْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَيَكُونُ مَالُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَبْلُغُ أَلْفَ دِرْهَمٍ أَوْ نَحْوَهَا، وَهَكَذَا الْجَاهُ وَالْعِلْمُ.

وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»^(١).

وَفِي آخَرٍ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ»^(٢) فَهَذَا هُوَ الَّذِي فِيهِ الْبَرَكَةُ خَاصَّةً، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَجْعَلُ صَاحِبَهَا مِنَ السَّفَلَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُهَيِّئًا لِأَنْ يَكُونَ مِنَ الْعَالِيَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ قِسْمَيْنِ: عَلِيَّةً، وَسَفَلَةً، وَجَعَلَ عَلِيَّيْنِ مُسْتَقَرَّ الْعَالِيَةِ، وَأَسْفَلَ سَافِلِينَ مُسْتَقَرَّ السَّفَلَةِ، وَجَعَلَ أَهْلَ طَاعَتِهِ الْأَعْلَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَهْلَ مَعْصِيَتِهِ الْأَسْفَلِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا جَعَلَ أَهْلَ طَاعَتِهِ أَكْرَمَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَأَهْلَ مَعْصِيَتِهِ أَهْوَنَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ الْعِزَّةَ لِهَؤُلَاءِ، وَالذُّلَّةَ وَالصَّغَارَ لِهَؤُلَاءِ، كَمَا فِي

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢). وأخرجه ابن ماجه (٤١١٢) والعقيلي في الضعفاء (٣٢٦ / ٢) والبيهقي في الشعب (١٧٠٨) وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٩٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٥٧ / ٣) والخليلي في الإرشاد (٧١١ / ٢) والرافعي في أخبار قزوين (٢٧٤ / ٢) و (٣ / ١٤١) و (٤ / ١٣٥) وغيرهم، من طريق عبد الله بن الجراح القهستاني عن أبي عامر عبد الملك بن عمرو العقدي عن الثوري عن ابن المنكدر عن جابر مرفوعاً. ورواه يحيى القطان عن الثوري عن محمد بن المنكدر عن النبي ﷺ مرسلًا. أخرجه أحمد في الزهد (١٥٤) وأبو داود في المراسيل (٥٥٢). وهذا هو الصواب أنه مرسل كما رجح ذلك أبو حاتم الرازي والدارقطني وابن الجوزي.

مُسْنَدُ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَيَّ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي»^(١).

فَكُلَّمَا عَمِلَ الْعَبْدُ مَعْصِيَةً نَزَلَ إِلَى أَسْفَلَ، دَرَجَةً، وَلَا يَزَالُ فِي نُزُولٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْأَسْفَلِينَ، وَكُلَّمَا عَمِلَ طَاعَةً ارْتَفَعَ بِهَا دَرَجَةً، وَلَا يَزَالُ فِي ارْتِفَاعٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْأَعْلَى.

وَقَدْ يَجْتَمِعُ لِلْعَبْدِ فِي أَيَّامِ حَيَاتِهِ الصُّعُودُ مِنْ وَجْهِ، وَالتُّزُولُ مِنْ وَجْهِ، وَأَيُّهُمَا كَانَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ، فَلَيْسَ مَنْ صَعِدَ مِائَةَ دَرَجَةٍ وَنَزَلَ دَرَجَةً وَاحِدَةً، كَمَنْ كَانَ بِالْعَكْسِ.

وَلَكِنْ يُعْرَضُ هَاهُنَا لِلنُّفُوسِ غَلْطٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَنْزِلُ نُزُولًا بَعِيدًا أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَلَا يَفِي صُعُودُهُ أَلْفَ دَرَجَةٍ بِهَذَا التُّزُولِ الْوَاحِدِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَأَلًا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(٢).

فَأَيُّ صُعُودٍ يُوزَنُ هَذِهِ التَّرْلَةُ؟ وَالتُّزُولُ أَمْرٌ لَا زِمَ لِللِّسَانِ، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى غَفْلَةٍ، فَهَذَا مَتَى اسْتَيْقَظَ مِنْ غَفْلَتِهِ عَادَ إِلَى دَرَجَتِهِ، أَوْ إِلَى أَرْفَعٍ مِنْهَا بِحَسَبِ يَقْظَتِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى مَبَاحٍ لَا يَنْوِي بِهِ الْإِسْتِعَانَةَ عَلَى الطَّاعَةِ، فَهَذَا مَتَى رَجَعَ إِلَى الطَّاعَةِ فَقَدْ يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ، وَقَدْ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا، وَقَدْ يَرْتَفِعُ عَنْهَا، فَإِنَّهُ قَدْ يَعُودُ أَعْلَى هِمَّةً مِمَّا كَانَ، وَقَدْ يَكُونُ أَوْضَعُ هِمَّةً، وَقَدْ تَعُودُ هِمَّتُهُ كَمَا كَانَتْ.

(١) تقدم.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب حفظ اللسان (٦٤٧٧)؛ ومسلم في الزهد، باب حفظ اللسان (٢٩٨٨).

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى مَعْصِيَةٍ، إِمَّا صَغِيرَةً أَوْ كَبِيرَةً، فَهَذَا يَخْتَاجُ فِي عَوْدِهِ إِلَى دَرَجَتِهِ إِلَى تَوْبَةٍ نَصُوحٍ، وَإِنَايَةٍ صَادِقَةٍ.

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ يَعُودُ بَعْدَ التَّوْبَةِ إِلَى دَرَجَتِهِ الَّتِي كَانَ فِيهَا، بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَمْحُو أَثَرَ الذَّنْبِ، وَتَجْعَلُ وُجُودَهُ كَعَدَمِهِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، أَوْ لَا يَعُودُ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَأْثِيرُهَا فِي إِسْقَاطِ الْعُقُوبَةِ، وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الَّتِي فَاتَتْهُ فَإِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا.

قَالُوا: وَتَقْرِيرُ ذَلِكَ: أَنَّهُ كَانَ مُسْتَعِدًّا بِاشْتِغَالِهِ بِالطَّاعَةِ فِي الزَّمَنِ الَّذِي عَصَى فِيهِ لَصُعُودِ آخَرَ وَارْتِقَاءِ تَحْمِلُهُ أَعْمَالُهُ السَّالِفَةَ، بِمَنْزِلَةِ كَسْبِ الرَّجُلِ كُلِّ يَوْمٍ بِجُمْلَةِ مَالِهِ الَّذِي يَمْلِكُهُ، وَكُلَّمَا تَضَاعَفَ الْمَالُ تَضَاعَفَ الرَّيْحُ، فَقَدَّرَ رَاحَ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ الْمَعْصِيَةِ ارْتِفَاعُ وَرَيْحُ تَحْمِلُهُ أَعْمَالُهُ، فَإِذَا اسْتَأْنَفَ الْعَمَلَ اسْتَأْنَفَ صُعُودًا مِنْ نُزُولٍ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ صَاعِدًا مِنْ أَسْفَلٍ إِلَى أَعْلَى، وَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ عَظِيمٌ.

قَالُوا: وَمِثْلُ ذَلِكَ رَجُلَانِ يَرْتَقِيَانِ فِي سُلَمَيْنِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا، وَهُمَا سَوَاءٌ، فَنَزَلَ أَحَدُهُمَا إِلَى أَسْفَلٍ، وَكَلِمَةُ دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الصُّعُودَ، فَإِنَّ الَّذِي لَمْ يَنْزَلْ يَعْلُو عَلَيْهِ وَلَا يَبُدُّ.

وَحَكَمَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ حُكْمًا مَقْبُولًا فَقَالَ:

التَّحْقِيقُ أَنَّ مِنَ التَّائِبِينَ مَنْ يَعُودُ إِلَى أَرْفَعِ مِنْ دَرَجَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَى مِثْلِ دَرَجَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَى دَرَجَتِهِ.

قُلْتُ: وَهَذَا بِحَسَبِ قُوَّةِ التَّوْبَةِ وَكَمَالِهَا، وَمَا أَحَدَثَهُ الْمَعْصِيَةُ لِلْعَبْدِ مِنَ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْإِنَابَةِ، وَالْحَذَرِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ، وَالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، فَقَدْ تَقَوَّى هَذِهِ الْأُمُورَ، حَتَّى يَعُودَ التَّائِبُ إِلَى أَرْفَعِ مِنْ دَرَجَتِهِ، وَيَصِيرَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ، فَهَذَا قَدْ تَكُونُ الْخَطِيئَةُ فِي حَقِّهِ رَحْمَةً، فَإِنَّهَا نَفَتْ عَنْهُ دَاءَ الْعُجْبِ، وَخَلَصَتْهُ مِنْ ثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ وَإِدْلَالِهِ بِأَعْمَالِهِ، وَوَضَعَتْ خَدَّ ضَرَاعَتِهِ وَذَلَّهُ وَأَنْكَسَرَهُ عَلَى عَتَبَةِ

بَابِ سَيِّدِهِ وَمَوْلَاهُ، وَعَرَفْتَهُ قَدْرَهُ، وَأَشْهَدْتَهُ فِقْرَهُ وَصُرَّ وَرْتَهُ إِلَى حِفْظِ مَوْلَاهُ لَهُ، وَإِلَى عَفْوِهِ عَنْهُ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُ، وَأَخْرَجْتَ مِنْ قَلْبِهِ صَوْلَةَ الطَّاعَةِ، وَكَسَرْتَ أَنْفَهُ مِنْ أَنْ يَشْمَخَ بِهَا أَوْ يَتَكَبَّرَ بِهَا، أَوْ يَرَى نَفْسَهُ بِهَا خَيْرًا مِنْ غَيْرِهِ، وَأَوْقَفْتَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ مَوْقِفَ الْخَطَّائِينَ الْمُنْذِينَ، نَاكِسَ الرَّأْسِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، مُسْتَحْيَا خَائِفًا مِنْهُ وَجَلًّا، مُحْتَقِرًا لِمَطَاعَتِهِ مُسْتَعْظِمًا لِمَعْصِيَتِهِ، عَرَفَ نَفْسَهُ بِالنَّقْصِ وَالذَّمِّ. وَرَبُّهُ مُنْفَرِدٌ بِالْكَمَالِ وَالْحَمْدِ وَالْوَفَاءِ كَمَا قِيلَ:

اسْتَأْتَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْحَمْدِ... دِوَانِ الْمَلَامَةِ الرَّجُلَا

فَأَيُّ نِعْمَةٍ وَصَلَتْ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ اسْتَكْتَرَهَا عَلَى نَفْسِهِ وَرَأَى نَفْسَهُ دُونَهَا وَلَمْ يَرَهَا أَهْلًا، وَأَيُّ نِقْمَةٍ أَوْ بَلِيَّةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ رَأَى نَفْسَهُ أَهْلًا لِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا، وَرَأَى مَوْلَاهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، إِذْ لَمْ يُعَاقِبْهُ عَلَى قَدْرِ جُرْمِهِ وَلَا شَطْرِهِ، وَلَا أَذْنَى جُزْءٍ مِنْهُ.

فَإِنَّ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ لَا تَحْمِلُهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ، فَضْلًا عَنْ هَذَا الْعَبْدِ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ، فَإِنَّ الذَّنْبَ وَإِنْ صَغُرَ، فَإِنَّ مُقَابَلَةَ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمَ مِنْهُ، الْكَبِيرِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَكْبَرَ مِنْهُ، الْجَلِيلِ الَّذِي لَا أَجَلَ مِنْهُ وَلَا أَجْمَلَ، الْمُنْعَمِ بِجَمِيعِ أَصْنَافِ النِّعَمِ دَقِيقًا وَجُلًّا - مِنْ أَقْبَحِ الْأُمُورِ وَأَفْظَعِهَا وَأَشْنَعِهَا، فَإِنَّ مُقَابَلَةَ الْعُظْمَاءِ وَالْأَجَلَاءِ وَسَادَاتِ النَّاسِ بِمِثْلِ ذَلِكَ يَسْتَقْبِحُهُ كُلُّ أَحَدٍ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ. وَأَزْدُلُ النَّاسِ وَأَسْقَطُهُمْ مُرُوءَةً مَنْ قَابَلَهُمْ بِالرِّذَائِلِ، فَكَيْفَ بَعْظِيمِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَلِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَهُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ وَلَوْ لَا أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وَمَغْفِرَتُهُ سَبَقَتْ عُقُوبَتَهُ، وَإِلَّا لَتَدَكَّدَكَتِ الْأَرْضُ بِمَنْ قَابَلَهُ بِمَا لَا يَلِيْقُ مُقَابَلَتَهُ بِهِ، وَلَوْ لَا حِلْمُهُ وَمَغْفِرَتُهُ لَزُلْزَلَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ مِنْ مَعْاصِي الْعِبَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ: ٤١].

فَتَأْمَلْ خَتَمَ هَذِهِ الْآيَةِ بِأَسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَهُمَا: " الْحَلِيمُ، وَالْغَفُورُ " كَيْفَ تَجِدُ تَحْتَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا حِلْمُهُ عَنِ الْجَنَّةِ وَمَغْفِرَتُهُ لِلْعَصَاةِ لَمَا اسْتَقَرَّتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ كُفْرِ بَعْضِ عِبَادِهِ أَنَّهُ: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٩٠].

وَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْأَبْوِينَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ اِزْتِكَابَهُ وَخَالَفًا فِيهِ نَهْيَهُ، وَلَعَنَ إِبْلِيسَ وَطَرَدَهُ وَأَخْرَجَهُ مِنْ مَلَكَوَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ اِزْتِكَابَهُ وَخَالَفَ فِيهِ أَمْرَهُ، وَنَحْنُ مَعَاشِرُ الْحَمَقَى كَمَا قِيلَ:

نَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَنَرْتَجِي ... دَرَجَ الْجِنَانِ لِذِي النَّعِيمِ الْحَالِدِ

وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَخْرَجَ الْأَبْوِينَ مِنْ ... مَلَكَوَتِهِ الْأَعْلَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَكُونُ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ وَأَرْفَعَ دَرَجَتَهُ، وَقَدْ تَضَعِفُ الْخَطِيئَةُ هِمَّتَهُ وَتُوَهِّنُ عَزْمَهُ، وَتَمْرُضُ قَلْبَهُ، فَلَا يَقْوَى دَوَاءُ التَّوْبَةِ عَلَى إِعَادَتِهِ إِلَى الصَّحَّةِ الْأُولَى، فَلَا يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ، وَقَدْ يَزُولُ الْمَرُضُ بِحَيْثُ تَعُودُ الصَّحَّةُ كَمَا كَانَتْ وَيَعُودُ إِلَى مِثْلِ عَمَلِهِ، فَيَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ.

هَذَا كُلُّهُ إِذَا كَانَ نَزُولُهُ إِلَى مَعْصِيَةٍ، فَإِنْ كَانَ نَزُولُهُ إِلَى أَمْرٍ يَقْدَحُ فِي أَصْلِ إِيْمَانِهِ، مِثْلَ الشُّكُوكِ وَالرَّيْبِ وَالنِّفَاقِ، فَذَلِكَ نَزُولٌ لَا يُرْجَى لِصَاحِبِهِ صُعودًا إِلَّا بِتَجْدِيدِ إِسْلَامِهِ.

فَصَلِّ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهُا تُجْرِي عَلَى الْعَبْدِ مَا لَمْ يَكُنْ يُجْتَرِي عَلَيْهِ مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَتَجْتَرِي عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ بِالْأَدَى وَالْإِغْوَاءِ وَالْوَسْوَسَةِ وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّحْزِينِ، وَإِنْ سَأَهُ مَا بِهِ مَصْلَحَتُهُ فِي ذِكْرِهِ، وَمَضَّرَتْهُ فِي نِسْيَانِهِ، فَتَجْتَرِي عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ حَتَّى تُؤْزَهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ أَزًّا.

وَتَجْتَرِي عَلَيْهِ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَذَى فِي غَيْبِهِ وَحُضُورِهِ، وَتَجْتَرِي عَلَيْهِ أَهْلُهُ
وَخَدَمُهُ وَأَوْلَادُهُ وَجِيرَانُهُ حَتَّى الْحَيَّوَانِ الْبَهِيمِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنِّي لَأَعْصِي اللَّهَ فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ امْرَأَتِي وَدَائِبَتِي.

وَكَذَلِكَ يَجْتَرِي عَلَيْهِ أَوْلِيَاءُ الْأَمْرِ بِالْعُقُوبَةِ النَّبِيِّ إِنْ عَدَلُوا فِيهَا أَقَامُوا عَلَيْهِ حُدُودَ اللَّهِ، وَتَجْتَرِي عَلَيْهِ
نَفْسُهُ فَتَنَاسَدُ عَلَيْهِ وَتَضَعُبُ عَلَيْهِ، فَلَوْ أَرَادَهَا لِحَيْرٍ لَمْ تُطَاوِعْهُ وَلَمْ تَتَقَدَّ لَهُ، وَتَسُوقُهُ إِلَى مَا فِيهِ هَلَاكُهُ، شَاءَ
أُمُّ أَبِي.

وَذَلِكَ لِأَنَّ الطَّاعَةَ حِصْنُ الرَّبِّ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْأَمِينِينَ، فَإِذَا فَارَقَ الْحِصْنَ اجْتَرَأَ عَلَيْهِ
قُطَاعُ الطَّرِيقِ وَعَيْرُهُمْ، وَعَلَى حَسَبِ اجْتِرَائِهِ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ يَكُونُ اجْتِرَاءُ هَذِهِ الْأَفَاتِ وَالنُّفُوسِ
عَلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ يُرَدُّ عَنْهُ. فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهُ وَطَاعَتَهُ وَالصَّدَقَةَ وَإِرْشَادَ الْجَاهِلِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ
عَنِ الْمُنْكَرِ - وَقَايَةَ تَرْدُّ عَنِ الْعَبْدِ، بِمَنْزِلَةِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَرُدُّ الْمَرَضَ وَتَقَاوِمُهُ، فَإِذَا سَقَطَتِ الْقُوَّةُ غَلَبَ وَارِدُ
الْمَرَضِ فَكَانَ الْهَلَاكُ، فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ شَيْءٍ يُرَدُّ عَنْهُ، فَإِنْ مُوجِبَ السَّيِّئَاتِ وَالْحَسَنَاتِ تَتَدَافَعُ وَيَكُونُ
الْحُكْمُ لِلْغَالِبِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَكُلَّمَا قَوِيَ جَانِبُ الْحَسَنَاتِ كَانَ الرَّدُّ أَقْوَى كَمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ
آمَنُوا، وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، فَبِحَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ يَكُونُ الدَّفْعُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهُمْ يُخُونُ الْعَبْدَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ لِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كُلُّ أَحَدٍ يُجْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا
يُضُرُّهُ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَعْلَمُ النَّاسِ أَعْرَفُهُمْ بِذَلِكَ عَلَى التَّفْصِيلِ، وَأَقْوَاهُمْ وَأَكْيَسُهُمْ مَنْ قَوِيَ عَلَى
نَفْسِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَاسْتَعْمَلَهَا فِيمَا يَنْفَعُهُ وَكَفَّهَا عَمَّا يَضُرُّهُ، وَفِي ذَلِكَ تَفَاوُتُ مَعَارِفُ النَّاسِ وَهَمْمُهُمْ
وَمَنَازِلُهُمْ، فَأَعْرَفُهُمْ مَنْ كَانَ عَارِفًا بِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَأَرَشَدُهُمْ مَنْ آثَرَ هَذِهِ عَلَى هَذِهِ، كَمَا أَنَّ
أَسْفَهَهُمْ مَنْ عَكَسَ الْأَمْرَ.

وَالْمَعَاصِي تُخُونُ الْعَبْدَ أَخْوَجَ مَا كَانَ لِي نَفْسِهِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْعِلْمِ، وَإِيثارِ الْحُظِّ الْأَشْرَفِ الْعَالِي
الدَّائِمِ عَلَى الْحُظِّ الْحَسِيسِ الْأَدْنَى الْمُنْقَطِعِ، فَتَحْجِبُهُ الذُّنُوبُ عَنْ كَمَالِ هَذَا الْعِلْمِ، وَعَنْ الْإِشْتِعَالِ بِهَا هُوَ
أَوْلَى بِهِ، وَأَنْفَعُ لَهُ فِي الدَّارَيْنِ.

فَإِذَا وَقَعَ مَكْرُوهٌ وَاحْتِاجٌ إِلَى التَّخْلُصِ مِنْهُ، خَانَهُ قَلْبُهُ وَنَفْسُهُ وَجَوَارِحُهُ، وَكَانَ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ مَعَهُ
سَيْفٌ قَدْ غَشِيَهُ الصَّدَأُ وَلَزِمَ قَرَابَهُ، بِحَيْثُ لَا يَنْجَذِبُ مَعَ صَاحِبِهِ إِذَا جَذَبَهُ، فَعَرَّضَ لَهُ عَدُوٌّ يَرِيدُ قَتْلَهُ،
فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى قَائِمِ سَيْفِهِ وَاجْتَهَدَ لِيُخْرِجَهُ، فَلَمْ يُخْرِجْ مَعَهُ، فَدَهَمَهُ الْعَدُوُّ وَظَفَرَ بِهِ.

كَذَلِكَ الْقَلْبُ يَصُدُّ بِالذُّنُوبِ وَيَصِيرُ مُتَخَنًا بِالْمَرَضِ، فَإِذَا احتِاجَ إِلَى مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ لَمْ يَجِدْ مَعَهُ مِنْهُ
شَيْئًا، وَالْعَبْدُ إِنَّمَا يُجَارِبُ وَيُصَاوِلُ وَيُقَدِّمُ بِقَلْبِهِ، وَالْجَوَارِحُ تَبِعُ لِلْقَلْبِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ مَلِكِهَا قُوَّةٌ يَدْفَعُ
بِهَا، فَمَا الظَّنُّ بِهَا؟

وَكَذَلِكَ النَّفْسُ فَإِنَّهَا تَحْبُثُ بِالشَّهَوَاتِ وَالْمَعَاصِي وَتَضْعُفُ، أَعْنِي النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ، وَإِنْ كَانَتْ
الْأَمَارَةُ تَقْوَى وَتَتَأَسَّدُ، وَكَلَّمَا قَوِيَتْ هَذِهِ ضَعُفَتْ تِلْكَ، فَيَبْقَى الْحُكْمُ وَالتَّصَرُّفُ لِلْأَمَارَةِ.

وَرُبَّمَا مَاتَتْ نَفْسُ الْمُطْمَئِنَّةِ مَوْتًا لَا يُرْتَجَى مَعَهُ حَيَاةٌ يَنْتَفِعُ بِهَا، بَلْ حَيَاتُهُ حَيَاةٌ يُدْرِكُ بِهَا الْأَلَمَ فَقَطُّ.
وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَقَعَ فِي شِدَّةٍ أَوْ كُرْبَةٍ أَوْ بِلِيَّةٍ خَانَهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ وَجَوَارِحُهُ عَمَّا هُوَ أَنْفَعُ شَيْءٍ لَهُ،
فَلَا يَنْجَذِبُ قَلْبُهُ لِلتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِنِّيَّةِ إِلَيْهِ وَالْجَمْعِيَّةِ عَلَيْهِ وَالتَّضَرُّعِ وَالتَّذَلُّلِ وَالْإِنْكَسَارِ بَيْنَ
يَدَيْهِ، وَلَا يُطَاوِعُهُ لِسَانُهُ لِذِكْرِهِ، وَإِنْ ذَكَرَهُ بِلِسَانِهِ لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، فَيَنْحَبِسُ الْقَلْبُ عَلَى اللِّسَانِ
بِحَيْثُ يُؤَثِّرُ الذِّكْرُ، وَلَا يَنْحَبِسُ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ عَلَى الذِّكْرِ، بَلْ إِنْ ذَكَرَ أَوْ دَعَا ذَكَرَ بِقَلْبٍ لَاهِ سَاهٍ غَافِلٍ،
وَلَوْ أَرَادَ مِنْ جَوَارِحِهِ أَنْ تُعِينَهُ بِطَاعَةٍ تَدْفَعُ عَنْهُ لَمْ تَنْقُدْ لَهُ وَلَمْ تُطَاوِعْهُ.

وَهَذَا كُلُّهُ أَثَرُ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي كَمَنْ لَهُ جُنْدٌ يَدْفَعُ عَنْهُ الْأَعْدَاءَ، فَأَهْمَلُ جُنْدَهُ، وَضَيَّعَهُمْ، وَأَضْعَفَهُمْ، وَقَطَعَ أَعْبَارَهُمْ، ثُمَّ أَرَادَ مِنْهُمْ عِنْدَ هُجُومِ الْعَدُوِّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَفْرِغُوا وَسْعَهُمْ فِي الدَّفْعِ عَنْهُ بِغَيْرِ قُوَّةٍ.

هَذَا، وَثُمَّ أَمَرَ أَخَوْفُ مِنْ ذَلِكَ وَأَدَهَى مِنْهُ وَأَمَّرُ، وَهُوَ أَنْ يُخَوِّنَهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ وَالِإِتِّقَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَرُبَّمَا تَعَدَّرَ عَلَيْهِ النَّطْقُ بِالشَّهَادَةِ، كَمَا شَاهَدَ النَّاسُ كَثِيرًا مِنَ الْمُحْتَضِرِينَ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ، حَتَّى قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: آه آه، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: شَاهُ رُخْ، غَلَبَتْكَ. ثُمَّ قَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ:

يَا رَبِّ قَائِلَةٌ يَوْمًا وَقَدْ تَعَبْتُ ... أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَامٍ مُنْجَابٍ ثُمَّ قَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَجَعَلَ يَهْدِي بِالْغِنَاءِ وَيَقُولُ: تَاتِنَا تِنْتِنَا. حَتَّى قَضَى

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَمَا يَنْفَعُنِي مَا تَقُولُ وَلَمْ أَدْعُ مَعْصِيَةَ إِلَّا رَكِبْتُهَا؟ ثُمَّ قَضَى وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَمَا يُغْنِي عَنِّي، وَمَا أَعْرِفُ أَنِّي صَلَّيْتُ لِلَّهِ صَلَاةً؟ ثُمَّ قَضَى وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: هُوَ كَافِرٌ بِمَا تَقُولُ. وَقَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَهَا لِسَانِي يُمَسِّكُ عَنْهَا.

وَأَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَ بَعْضَ الشَّحَّادِينَ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ: اللَّهُ، فَلَسَّ اللَّهُ. حَتَّى قَضَى.

وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ التُّجَّارِ عَنْ قِرَائَةِ لَهُ أَنَّهُ احْتَضَرَ وَهُوَ عِنْدَهُ، وَجَعَلُوا يُلَقِّنُونَهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهُوَ

يَقُولُ: هَذِهِ الْقِطْعَةُ رَخِيصَةٌ، هَذَا مُشْتَرٍ جَيِّدٌ، هَذِهِ كَذَا. حَتَّى قَضَى.

وَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ شَاهَدَ النَّاسُ مِنْ هَذَا عِبْرًا؟ وَالَّذِي يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْمُحْضَرِّينَ أَعْظَمُ
وَأَعْظَمُ.

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ فِي حَالِ حُضُورِ ذَهْنِهِ وَقُوَّتِهِ وَكَمَالِ إِدْرَاكِهِ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ، وَاسْتَعْمَلَهُ فِيمَا يَرِيدُهُ
مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَقَدْ أَغْفَلَ قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَطَّلَ لِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِهِ وَجَوَارِحَهُ عَنْ طَاعَتِهِ،
فَكَيْفَ الظَّنُّ بِهِ عِنْدَ سُقُوطِ قُوَّاهُ وَاسْتِعْغَالِ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ أَلَمِ التَّرَعِّعِ؟

وَجَمَعَ الشَّيْطَانُ لَهُ كُلَّ قُوَّتِهِ وَهَمَّتِهِ، وَحَشَدَ عَلَيْهِ بِجَمِيعِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِيَنَالَ مِنْهُ فُرْصَتَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ آخِرُ
الْعَمَلِ، فَأَقْوَى مَا يَكُونُ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَأَضْعَفُ مَا يَكُونُ هُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ، فَمَنْ تَرَى
يَسْلَمُ عَلَى ذَلِكَ؟ فَهَنَّاكَ ﴿يَسَّبُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ
الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ٢٧].

فَكَيْفَ يُوقَفُ بِحُسْنِ الْحَاتِمَةِ مَنْ أَغْفَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا. فَبَعِيدٌ
مَنْ قَلْبُهُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، غَافِلٌ عَنْهُ مُتَعَبِّدٌ لَهُوَ أَسِيرٌ لَشَهَوَاتِهِ، وَلِسَانُهُ يَابَسٌ مِنْ ذِكْرِهِ، وَجَوَارِحُهُ
مُعْطَلَةٌ مِنْ طَاعَتِهِ مُسْتَعْلَةٌ بِمَعْصِيَتِهِ - أَنْ يُوقَفَ لِلْحَاتِمَةِ بِالْحُسْنَى.

وَلَقَدْ قَطَعَ خَوْفُ الْحَاتِمَةِ ظُهُورَ الْمُتَّقِينَ، وَكَانَ الْمُسِيئِينَ الظَّالِمِينَ قَدْ أَخَذُوا تَوَقُّعًا بِالْأَمَانِ ﴿أَمْ لَكُمْ
أَيَّانُ عَلَيْنَا بِالْعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ - سَلَهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [سُورَةُ الْقَلَمِ: ٣٩ -
٤٠].

كَمَا قِيلَ:

يَا أَمْنَا مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ مِنْهُ أَهْلٌ... أَتَاكَ تَوَقُّعُ أَمْنٍ أَنْتَ تَمَلِكُهُ
جَمَعْتَ شَيْئَيْنِ أَمْنًا وَاتِّبَاعَ هَوَى... هَذَا وَإِحْدَاهُمَا فِي الْمُرءِ تُهْلِكُهُ

وَالْمُحْسِنُونَ عَلَى دَرَبِ الْمَخَافِ قَدْ... سَارُوا وَذَلِكَ دَرَبٌ لَسْتَ تَسْلُكُهُ
 قَرَطْتَ فِي الرَّزَعِ وَقْتَ الْبَدْرِ مِنْ سَفَهٍ... فَكَيْفَ عِنْدَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهُ
 هَذَا وَأَعْجَبُ شَيْءٍ مِنْكَ زُهْدُكَ فِي... دَارِ الْبَقَاءِ بَعِيشٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ
 مِنَ السَّفِيهِ إِذَا بِاللَّهِ أَنْتَ أَمِ أَل... مَعْجُونٌ فِي الْبَيْعِ غَبْنًا سَوْفَ يُدْرِكُهُ

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهَا تُعْمِي الْقَلْبَ، فَإِنْ لَمْ تُعْمِهِ أَضَعَفَتْ بَصِيرَتَهُ وَلَا بَدَّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ أَنَّهَا تُضَعِّفُهُ
 وَلَا بَدَّ، فَإِذَا عَمِيَ الْقَلْبُ وَضَعُفَ، فَاتَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْهُدَى وَقُوَّتِهِ عَلَى تَنْفِيذِهِ فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ، بِحَسَبِ
 ضَعْفِ بَصِيرَتِهِ وَقُوَّتِهِ.

فَإِنَّ الْكَمَالَ الْإِنْسَانِيَّ مَدَارُهُ عَلَى أَصْلَيْنِ: مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَإِيثارِهِ عَلَيْهِ.

وَمَا تَفَاوَتَتْ مَنَازِلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِقَدْرِ تَفَاوُتِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَذَيْنِ
 الْأَمْرَيْنِ، وَهُمَا اللَّذَانِ أَثْنَى اللَّهُ بِهِمَا سُبْحَانَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ بِهِمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ
 وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [سُورَةُ ص: ٤٥].

فَالْأَيْدِي: الْقُوَّةُ فِي تَنْفِيذِ الْحَقِّ، وَالْأَبْصَارُ: الْبَصَائِرُ فِي الدِّينِ، فَوَصَفَهُمْ بِكَمَالِ إِدْرَاكِ الْحَقِّ وَكَمَالِ
 تَنْفِيذِهِ، وَانْقَسَمَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، فَهَؤُلَاءِ أَشْرَفُ الْأَقْسَامِ مِنَ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ
 تَعَالَى.

الْقِسْمُ الثَّانِي: عَكْسُ هَؤُلَاءِ، مَنْ لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي الدِّينِ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى تَنْفِيذِ الْحَقِّ، وَهُمْ أَكْثَرُ هَذَا
 الْخَلْقِ، وَهُمْ الَّذِينَ رُؤْيَتُهُمْ قَدَى الْعُيُونِ وَحَمَى الْأَرْوَاحِ وَسَقَمَ الْقُلُوبِ، يُضَيِّقُونَ الدِّيَارَ وَيَغْلُونَ
 الْأَسْعَارَ، وَلَا يُسْتَفَادُ مِنْ صُحَّتِهِمْ إِلَّا الْعَارُ وَالشَّنَارُ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ بِالْحَقِّ وَمَعْرِفَةٌ بِهِ، لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ لَا قُوَّةَ لَهُ عَلَى تَنْفِيزِهِ وَلَا الدَّعْوَةَ إِلَيْهِ، وَهَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَالْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ.

القِسْمُ الرَّابِعُ: مَنْ لَهُ قُوَّةٌ وَهَمَّةٌ وَعَزِيمَةٌ، لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ الْبَصِيرَةَ فِي الدِّينِ، لَا يَكَادُ يَمِيزُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، بَلْ يَحْسَبُ كُلَّ سَوْدَاءٍ تَمَرَّةً وَكُلَّ بَيْضَاءٍ شَحْمَةً، يَحْسَبُ الْوَرَمَ شَحْمًا وَالذَّوَاءَ النَّافِعَ سُمًّا.

وَلَيْسَ فِي هَؤُلَاءِ مَنْ يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَلَا هُوَ مَوْضِعٌ لَهَا سِوَى الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَةِ: ٢٤].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ نَالُوا الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ اسْتَشْنَاهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْخَاسِرِينَ، وَأَقْسَمَ بِالْعَصْرِ - الَّذِي هُوَ زَمَنُ سَعْيِ الْخَاسِرِينَ وَالرَّابِحِينَ - عَلَى أَنْ مَنْ عَدَاهُمْ فَهُوَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [الْعَصْرِ: ١ - ٣].

وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ، حَتَّى يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهِ وَيُرْشِدَهُ إِلَيْهِ وَيُخَصِّصَهُ عَلَيْهِ.

وَإِذَا كَانَ مَنْ عَدَا هَؤُلَاءِ فَهُوَ خَاسِرٌ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَعَاصِيَ وَالذُّنُوبَ تُعْمِي بَصِيرَةَ الْقَلْبِ فَلَا يُدْرِكُ الْحَقَّ كَمَا يَنْبَغِي، وَتَضَعُفُ قُوَّتُهُ وَعَزِيمَتُهُ فَلَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ، بَلْ قَدْ تَوَارَدُ عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى يَنْعَكِسَ إِذْرَاكُهُ كَمَا يَنْعَكِسُ سَيْرُهُ، فَيُدْرِكُ الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، فَيَسْتَكْسِرُ فِي سَيْرِهِ وَيَرْجِعُ عَنِ سَفَرِهِ إِلَى اللَّهِ وَالِدَّارِ الْآخِرَةِ، إِلَى سَفَرِهِ إِلَى مُسْتَقَرِّ النُّفُوسِ الْمُبْطَلَةِ الَّتِي رَضِيَتْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاطْمَأَنَّتْ بِهَا، وَغَفَلَتْ عَنِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ، وَتَرَكَّتْ الْإِسْتِعْدَادَ لِلِقَائِهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي عُقُوبَةِ الذُّنُوبِ إِلَّا هَذِهِ وَحَدَهَا لَكَانَتْ دَاعِيَةً إِلَى تَرْكِهَا وَالْبُعْدِ مِنْهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَهَذَا كَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ تَنُورُ الْقَلْبَ وَتَجْلُوهُ وَتَصْقَلُهُ، وَتُقَوِّيه وَتُبَيِّنُهُ حَتَّى يَصِيرَ كَالْمِرَاةِ الْمُجَلُّوَّةِ فِي جَلَالِهَا وَصَفَائِهَا فَيَمْتَلِئُ نُورًا، فَإِذَا دَنَا الشَّيْطَانُ مِنْهُ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ مَا يُصِيبُ مُسْتَرِقَ السَّمْعِ مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَابِ، فَالشَّيْطَانُ يَفْرُقُ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ أَشَدَّ مِنْ فَرْقِ الذَّبِّ مِنَ الْأَسَدِ، حَتَّى إِنَّ صَاحِبَهُ لَيَصْرَعُ الشَّيْطَانُ فَيَخْرُ صَرِيعًا، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا شَأْنُهُ؟ فَيُقَالُ: أَصَابَهُ إِنْسِيٌّ، وَبِهِ نَظْرَةٌ مِنَ الْإِنْسِ:

فَيَا نَظْرَةً مِنْ قَلْبِ حُرِّ مُنَوَّرٍ... يَكَادُهَا الشَّيْطَانُ بِالنُّورِ يُحْرِقُ

أَفَيْسَتَوِي هَذَا الْقَلْبُ وَقَلْبُ مُظْلِمٍ أَرَجَاؤُهُ، مُخْتَلِفَةٌ أَهْوَاؤُهُ، قَدْ اتَّخَذَهُ الشَّيْطَانُ وَطْنَهُ وَأَعَدَّهُ مَسْكَنَهُ، إِذَا تَصَبَّحَ بَطْلَعَتِهِ حَيَاهُ، وَقَالَ: فَدَيْتُ مَنْ لَا يُفْلِحُ فِي دُنْيَاهُ وَلَا فِي آخِرَاهُ؟

قَرِينِكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْحَشْرِ بَعْدَهَا... فَأَنْتَ قَرِينٌ لِي بِكُلِّ مَكَانٍ

فَإِنْ كُنْتَ فِي دَارِ الشَّقَاءِ فَإِنِّي... وَأَنْتَ جَمِيعًا فِي شَقَا وَهَوَانٍ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيُصِدُّوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ: ٣٦ - ٣٩].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ عَشِيَ عَنْ ذِكْرِهِ، وَهُوَ كِتَابُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَعَمِيَ عَنْهُ، وَعَشَتْ بَصِيرَتُهُ عَنْ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَمَعْرِفَةِ مَرَادِ اللَّهِ مِنْهُ - قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ شَيْطَانًا عُقُوبَةً لَهُ بِاعْتِرَاضِهِ عَنْ كِتَابِهِ، فَهُوَ قَرِينُهُ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ فِي الْإِقَامَةِ وَلَا فِي الْمَسِيرِ، وَمَوْلَاهُ وَعَشِيرُهُ الَّذِي هُوَ بِنَسِّ الْمَوْلَى وَبِنَسِّ الْعَشِيرِ.

رَضِيْعَا لِبَانِ ثَدْيِ أُمَّ تَقَاسَمَا... بِأَسْحَمِ دَاجٍ عَوْضٌ لَا تَنْتَرِقُ

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَصُدُّ قَرِينَهُ وَوَلِيَّهُ عَنْ سَبِيلِهِ الْمَوْصِلِ إِلَيْهِ وَإِلَى جَنَّتِهِ، وَيَحْسَبُ هَذَا الصَّلَاةَ الْمُصَدُّودَ أَنَّهُ عَلَى طَرِيقِ هُدًى، حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَرِينَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: ﴿يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبَسَّ الْقَرِينُ﴾ كُنْتُ لِي فِي الدُّنْيَا، أَضَلَّلْتَنِي عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، وَصَدَدْتَنِي عَنِ الْحَقِّ وَأَغْوَيْتَنِي حَتَّى هَلَكْتُ، وَبَسَّ الْقَرِينُ أَنْتَ لِي الْيَوْمَ.

وَلَمَّا كَانَ الْمَصَابُ إِذَا شَارَكَهُ غَيْرُهُ فِي مُصِيبَةٍ، حَصَلَ لَهُ بِالتَّأْسِي نَوْعٌ تَخْفِيفٍ وَتَسْلِيَةٍ، أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا غَيْرٌ مَوْجُودٌ وَغَيْرٌ حَاصِلٌ فِي حَقِّ الْمُشْتَرِكِينَ فِي الْعَذَابِ، وَأَنَّ الْقَرِينَ لَا يَجِدُ رَاحَةً وَلَا أَدْنَى فَرَحٍ بَعْدَ عَذَابِ قَرِينِهِ مَعَهُ، وَإِنْ كَانَتْ الْمَصَابِ فِي الدُّنْيَا إِذَا عَمَّتْ صَارَتْ مَسَلَةً، كَمَا قَالَتِ الْخُنَسَاءُ فِي أُخْيَهَا صَخْرًا:

وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أَعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

فَمَنَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الرَّاحَةِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَقَالَ: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي

الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ: ٣٩]

فَصَلِّ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا مَدَّدَتْ مِنَ الْإِنْسَانِ يَمُدُّ بِهِ عَدُوَّهُ عَلَيْهِ، وَجَيْشٌ يَقُودُهُ بِهِ عَلَى حَرَبِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ ابْتَلَى هَذَا الْإِنْسَانَ بَعْدُ لَا يُفَارِقُهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا يَنَامُ مِنْهُ وَلَا يَغْفُلُ عَنْهُ، يَرَاهُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ، يَبْذُلُ جَهْدَهُ فِي مُعَادَاتِهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَلَا يَدْعُ أَمْرًا يَكِيدُهُ بِهِ يَقْدِرُ عَلَى إِصْصَالِهِ إِلَيْهِ إِلَّا أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ، وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بِنَبِيِّ جِنْسِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، فَقَدْ نَصَبَ لَهُ الْحَبَائِلَ، وَبَغَى لَهُ الْغَوَائِلَ، وَمَدَّ حَوْلَهُ الْأَشْرَكَ، وَنَصَبَ لَهُ الْفِنَاخَ وَالشُّبَاكَ، وَقَالَ لِأَعْوَانِهِ: دُونَكُمْ عَدُوَّكُمْ

وَعَدَوْا أَيْبَكُمْ لَا يَفُوتِكُمْ وَلَا يَكُونُ حَظُّهُ الْجَنَّةَ وَحَظُّكُمُ النَّارَ، وَنَصِيحُهُ الرَّحْمَةَ وَنَصِيحِكُمُ اللَّعْنَةَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَا جَرَى عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْإِبْعَادِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِسَبِيهِ وَمِنْ أَجْلِهِ، فَأَبْدَلُوا جَهْدَكُمْ أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَنَا فِي هَذِهِ الْبَلِيَّةِ، إِذْ قَدْ فَاتَنَا شَرِكَةُ صَالِحِيهِمْ فِي الْجَنَّةِ. وَقَدْ أَعْلَمْنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ عَدْوَانَا وَأَمْرِنَا أَنْ نَأْخُذَ لَهُ أَهْبَتَهُ وَنُعِدَّ لَهُ عُدَّتَهُ.

وَمَا عَلِمَ سُبْحَانَهُ أَنَّ آدَمَ وَنَبِيَّهَ قَدْ بُلُوا بِهَذَا الْعَدُوِّ وَأَنَّهُ قَدْ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ أَمْدَهُمْ بَعَسَاكِرَ وَجُنْدٍ يَلْقَوْنَهُمْ بِهَا، وَأَمَدَّ عَدُوَّهُمْ أَيْضًا بِجُنْدٍ وَعَسَاكِرٍ يَلْقَاهُمْ بِهَا، وَأَقَامَ سُوقَ الْجِهَادِ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي مُدَّةِ الْعُمُرِ الَّتِي هِيَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْآخِرَةِ كَنَفْسٍ وَاحِدٍ مِنْ أَنْفَاسِهَا، وَاشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ هُمْ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ وَعَدَّ مُوَكَّدَ عَلَيْهِ فِي أَشْرَفِ كُتُبِهِ، وَهِيَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَبَشِرُوا بِهَذِهِ الصَّفَقَةِ الَّتِي مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَهَا فَلْيَنْظُرْ إِلَى الْمُشْتَرِي مَنْ هُوَ؟ وَلِإِثْمِ الْمُبْدُولِ فِي هَذِهِ السَّلْعَةِ، وَإِلَى مَنْ جَرَى عَلَى يَدَيْهِ هَذَا الْعَقْدُ، فَأَيُّ فَوْزٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ تِجَارَةٍ أَرْبِحَ مِنْهُ؟

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ هَذَا الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تَوْمُنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَعْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ الصَّفِّ: ١٠-١٣].

وَلَمْ يُسَلِّطْ سُبْحَانَهُ هَذَا الْعَدُوَّ عَلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي هُوَ أَحَبُّ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَيْهِ، إِلَّا لِأَنَّ الْجِهَادَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَأَهْلُهُ أَرْفَعُ الْخَلْقِ عِنْدَهُ دَرَجَاتٍ، وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ وَسَيْلَتُهُ، فَعَقَدَ سُبْحَانَهُ لِيَوَاءِ هَذِهِ الْحَرْبِ لِحِلَاصَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ الْقَلْبُ الَّذِي مَحَلُّ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَعُجُودِيَّتِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ

وَالْإِنْبَاءِ إِلَيْهِ، فَوَلَّاهُ أَمْرَ هَذِهِ الْحَرْبِ، وَأَيْدُهُ بِجُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يُفَارِقُونَهُ ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [سُورَةُ الرَّعْدِ: ١١].

يَعْتَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كُلَّمَا ذَهَبَ بَدَلٌ جَاءَ بَدَلٌ آخَرَ يُثَبِّتُونَهُ وَيَأْمُرُونَهُ بِالْخَيْرِ وَيُحْضِنُونَهُ عَلَيْهِ، وَيَعِدُونَهُ بِكَرَامَةِ اللَّهِ وَيُصَبِّرُونَهُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهَا هُوَ صَبْرُ سَاعَةٍ وَقَدْ اسْتَرَحْتَ رَاحَةَ الْأَبَدِ.

ثُمَّ أَمَدَّهُ سُبْحَانَهُ بِجُنْدٍ آخَرَ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولَهُ ﷺ وَأَنْزَلَ إِلَيْهِ كِتَابَهُ، فَازْدَادَ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِ، وَمَدَدًا إِلَى مَدَدِهِ، وَعُدَّةً إِلَى عُدَّتِهِ، وَأَمَدَّهُ مَعَ ذَلِكَ بِالْعَقْلِ وَزِيرًا لَهُ وَمُدَبِّرًا، وَبِالْمَعْرِفَةِ مُشِيرَةً عَلَيْهِ نَاصِحَةً لَهُ، وَبِالْإِيمَانِ مُثَبِّتًا لَهُ وَمُؤَيِّدًا وَنَاصِرًا، وَبِالْيَقِينِ كَاشِفًا لَهُ عَنِ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، حَتَّى كَانَتْهُ يُعَايِنُ مَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلِيَاءَهُ وَحَزْبَهُ عَلَى جِهَادِ أَعْدَائِهِ، فَالْعَقْلُ يُدَبِّرُ أَمْرَ جَيْشِهِ، وَالْمَعْرِفَةُ تَصْنَعُ لَهُ أُمُورَ الْحَرْبِ وَأَسْبَابَهَا وَمَوَاضِعَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا، وَالْإِيمَانُ يُثَبِّتُهُ وَيَقْوِيهِ وَيُصَبِّرُهُ، وَالْيَقِينُ يُقَدِّمُ بِهِ وَيَحْمِلُ بِهِ الْحِمَالَاتِ الصَّادِقَةَ.

ثُمَّ أَمَدَّ سُبْحَانَهُ الْقَائِمَ بِهَذِهِ الْحَرْبِ بِالْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَجَعَلَ الْعَيْنَ طَلِيعَتَهُ، وَالْأُذُنَ صَاحِبَ خَبْرِهِ، وَاللِّسَانَ تَرْجُمَانَهُ، وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ أَعْوَانَهُ، وَأَقَامَ مَلَائِكَتَهُ وَحَمَلَةَ عَرْشِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَسْأَلُونَ لَهُ أَنْ يَقِيَهُ السَّيِّئَاتِ وَيُدْخِلَهُ الْجَنَّاتِ، وَتَوَلَّى سُبْحَانَهُ الدَّفْعَ وَالِدَّفَاعَ عَنْهُ بِنَفْسِهِ وَقَالَ: هُوَ لَاءِ حَزْبِي، وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الْمُجَادَلَةُ: ٢٢].

وَهُوَ لَاءِ جُنْدِي ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا هُمُ الْعَالِبُونَ﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ١٧٣].

وَعَلَّمَ عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ، فَجَمَعَهَا لَهُمْ فِي أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٢٠٠].

وَلَا يَتِمُّ أَمْرٌ هَذَا الْجِهَادِ إِلَّا بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ، فَلَا يَتِمُّ الصَّبْرُ إِلَّا بِمُصَابِرَةِ الْعَدُوِّ، وَهُوَ مُقَاوَمَتُهُ وَمُنَازَلَتُهُ، فَإِذَا صَابَرَ عَدُوَّهُ احتاجَ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ وَهِيَ المُرَابِطَةُ، وَهِيَ لُزُومُ نَغْرِ القَلْبِ وَحِرَاسَتُهُ لئَلَّا يَدْخُلَ مِنْهُ العَدُوُّ، وَلُزُومُ نَغْرِ العَيْنِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَانِ وَالْبَطْنِ وَالْيَدِ وَالرَّجْلِ، فَهَذِهِ الثُّغُورُ يَدْخُلُ مِنْهَا العَدُوُّ فَيَجُوسُ خِلَالَ الدِّيَارِ وَيُفْسِدُ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ، فَالمُرَابِطَةُ لُزُومُ هَذِهِ الثُّغُورِ، وَلَا يُخْلِي مَكَاتِمَهَا فَيَصَادِفَ العَدُوُّ الثَّغْرَ خَالِيًا فَيَدْخُلُ مِنْهُ.

فَهُوَ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَيْرُ الخَلْقِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ، وَأَعْظَمُهُمْ حِمَايَةً وَحِرَاسَةً مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ أَخْلَوْا المَكَانَ الَّذِي أُمِرُوا بِلُزُومِهِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَدَخَلَ مِنْهُ العَدُوُّ، فَكَانَ مَا كَانَ.

وَجَمَاعٌ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ وَعَمُودُهَا الَّذِي تَقُومُ بِهِ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَنْفَعُ الصَّبْرُ وَلَا المُصَابِرَةُ وَلَا المُرَابِطَةُ إِلَّا بِالتَّقْوَى، وَلَا تَقُومُ التَّقْوَى إِلَّا عَلَى سَاقِ الصَّبْرِ.

التِّقَاءُ الجَيْشِينَ فَانظُرِ الآنَ فِيكَ لِإِلَى التِّقَاءِ الجَيْشِينَ، وَاصْطِدَامِ العَسْكَرَيْنِ وَكَيْفَ تَدَالُ مَرَّةً، وَيَدَالُ عَلَيْكَ أُخْرَى؟ أَقْبَلَ مَلِكُ الكَفْرَةِ بِجُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ، فَوَجَدَ القَلْبَ فِي حِصْنِهِ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ مَمْلُوكِيهِ، أَمْرُهُ نَافِذٌ فِي أَعْوَانِهِ، وَجُنْدُهُ قَدْ حَفُّوا بِهِ، يُقَاتِلُونَ عَنْهُ وَيَدَافِعُونَ عَنْ حَوَازِيهِ، فَلَمْ يُمْكِنْ لَهُمُ الهُجُومُ عَلَيْهِ إِلَّا بِمُخَاوَمَةِ بَعْضِ أَمْرَاتِهِ وَجُنْدِهِ عَلَيْهِ، فَسَأَلَ عَنْ أَحْصَى الجُنْدِ بِهِ وَأَقْرَبِهِمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً، فَقِيلَ لَهُ: هِيَ النَّفْسُ، فَقَالَ لِأَعْوَانِهِ: ادْخُلُوا عَلَيْهَا مِنْ مَرَادِهَا، وَانظُرُوا مَوَاقِعَ مَحَبَّتِهَا وَمَا هُوَ مَحْبُوبُهَا فَعِدُّوهَا بِهِ وَمَنُوهَا أَيَّاهُ وَانقُشُوا صُورَةَ المَحْبُوبِ فِيهَا فِي يَقَظَتِهَا وَمَنَامِهَا، فَإِذَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ وَسَكَنتْ عِنْدَهُ فَاطْرُحُوا عَلَيْهَا كَلَالِيِبَ الشَّهْوَةِ وَخَطَاطِيفِهَا، ثُمَّ جَرُّوْهَا بِهَا إِلَيْكُمْ، فَإِذَا خَامَرَتْ عَلَى القَلْبِ وَصَارَتْ مَعَكُمْ عَلَيْهِ مَلَكَكُمْ نَغْرَ العَيْنِ وَالْأُذُنِ وَاللِّسَانِ وَالفَمِ وَالْيَدِ وَالرَّجْلِ، فَرابِطُوا عَلَى هَذَا الثُّغُورِ كُلِّ المُرَابِطَةِ، فَمتَى دَخَلْتُمْ مِنْهَا إِلَى القَلْبِ فَهُوَ قَتِيلٌ أَوْ أُسِيرٌ، أَوْ جَرِيحٌ مُشَخَّنٌ بِالجِرَاحَاتِ، وَلَا تُخْلُوا هَذِهِ الثُّغُورَ، وَلَا

تَمَكَّنُوا سِرِّيَّةً تَدْخُلُ فِيهَا إِلَى الْقَلْبِ فَخَرَجَكُمْ مِنْهَا، وَإِنْ غَلِبْتُمْ فَاجْتَهِدُوا فِي إضْعَافِ السَّرِيَّةِ وَوَهْنِهَا، حَتَّى لَا تَصِلَ إِلَى الْقَلْبِ، فَإِنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ وَصَلَتْ ضَعِيفَةً لَا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا.

تَغْرُ الْعَيْنَ فَإِذَا اسْتَوْلَيْتُمْ عَلَى هَذِهِ الثُّغُورِ فَاثْمَعُوا نَغْرَ الْعَيْنِ أَنْ يَكُونَ نَظْرُهُ اعْتِبَارًا، بَلِ اجْعَلُوا نَظْرَهُ تَقَرُّجًا وَاسْتِحْسَانًا وَتَلَهِيًّا، فَإِنْ اسْتَرَقَ نَظْرُهُ عِبْرَةً فَأَفْسِدُوهَا عَلَيْهِ بِنَظَرِ الْغَفْلَةِ وَالِاسْتِحْسَانِ وَالشَّهْوَةِ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ وَأَعْلَقَ بِنَفْسِهِ وَأَخْفَّ عَلَيْهِ، وَدُونَكُمْ نَغْرَ الْعَيْنِ، فَإِنَّ مِنْهُ تَنَاوُلٌ بَغِيَّتِكُمْ، فَإِنِّي مَا أَفْسَدْتُ بَنِي آدَمَ بِشَيْءٍ مِثْلِ النَّظَرِ، فَإِنِّي أَبْذُرُ بِهِ فِي الْقَلْبِ بَدْرَ الشَّهْوَةِ، ثُمَّ أَسْقِيهِ بِهَاءِ الْأُمْنِيَّةِ، ثُمَّ لَا أَزَالُ أَعِدُّهُ وَأُمْنِيَّةً حَتَّى أَقْوِي عَزِيمَتَهُ وَأَقْوِدُهُ بِزِمَامِ الشَّهْوَةِ إِلَى الْإِنْخِلَاعِ مِنَ الْعِصْمَةِ، فَلَا تُهْمَلُوا أَمْرَ هَذَا الثَّغْرِ وَأَفْسِدُوهُ بِحَسَبِ اسْتَطَاعَتِكُمْ، وَهَوِّنُوا عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَقُولُوا لَهُ: مِقْدَارُ نَظْرَةٍ تَدْعُوكَ إِلَى تَسْيِيحِ الْخَالِقِ وَالتَّامُّلِ لِبَدِيعِ صَنِيعِهِ، وَحُسْنِ هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي إِنَّمَا خُلِقَتْ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا النَّاطِرُ عَلَيْهِ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ لَكَ الْعَيْنَيْنِ سُدىً، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ الصُّورَةَ لِيَحْجُبَهَا عَنِ النَّظَرِ، وَإِنْ ظَفِرْتُمْ بِهِ قَلِيلَ الْعِلْمِ فَاسِدَ الْعَقْلِ، فَقُولُوا لَهُ: هَذِهِ الصُّورَةُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَقِّ وَجَلِّي مِنْ مَجَالِيهِ، فَادْعُوهُ إِلَى الْقَوْلِ بِالِاتِّحَادِ، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ فَالْقَوْلُ بِالْحُلُولِ الْعَامِّ أَوْ الْخَاصِّ، وَلَا تَقْنَعُوا مِنْهُ بِدُونِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَصِيرُ بِهِ مِنْ إِخْوَانِ النَّصَارَى، فَمُرُوهُ حَيْثُ بَالِغَةً وَالصَّبِيَانَةَ وَالْعِبَادَةَ وَالزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا، وَاصْطَادُوا عَلَيْهِ وَبِهِ الْجُهَّالَ، فَهَذَا مِنْ أَقْرَبِ خَلْفَائِي وَأَكْبَرِ جُنْدِي، بَلِ أَنَا مِنْ جُنْدِهِ وَأَعْوَانِهِ.

فَصْلٌ

ثُمَّ اثْمَعُوا نَغْرَ الْأُذُنِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْكُمْ الْأَمْرَ، فَاجْتَهِدُوا أَنْ لَا تَدْخُلُوا مِنْهُ إِلَّا الْبَاطِلَ، فَإِنَّهُ خَفِيفٌ عَلَى النَّفْسِ تَسْتَحْلِيهِ وَتَسْتَحْسِنُهُ، تَحْيَرُ وَالْهُدَى أَعْدَبَ الْأَلْفَاظِ وَأَسْحَرَهَا لِلْأَلْبَابِ، وَامْرُجُوهُ بِمَا تَهْوَى النَّفْسُ مَرْجَاً.

وَأَلْقُوا الْكَلِمَةَ فَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنْهُ إِضْغَاءً إِلَيْهَا فَرُجُوهُ بِأَخَوَاتِهَا، وَكَلِمًا صَادَفْتُمْ مِنْهُ اسْتِحْسَانَ شَيْءٍ فَالْهَجُوا لَهُ بِذِكْرِهِ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ هَذَا الثَّغْرِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ كَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ أَوْ كَلَامِ النَّصَحَاءِ، فَإِنْ غُلِبْتُمْ عَلَى ذَلِكَ وَدَخَلَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَهْمِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ وَالْعِظَةِ بِهِ، إِمَّا بِإِدْخَالِ ضِدِّهِ عَلَيْهِ، وَإِمَّا بِتَهْوِيلِ ذَلِكَ وَتَعْظِيمِهِ وَأَنْ هَذَا أَمْرٌ قَدْ حِيلَ بَيْنَ النَّفُوسِ وَبَيْنَهُ فَلَا سَبِيلَ لَهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ حِمْلٌ يَثْقُلُ عَلَيْهَا لَا تَسْتَقِلُّ بِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِمَّا بِإِزْخَاصِهِ عَلَى النَّفُوسِ، وَأَنْ الإِشْتِغَالَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِمَا هُوَ أَعْلَى عِنْدَ النَّاسِ، وَأَعَزُّ عَلَيْهِمْ، وَأَغْرَبُ عِنْدَهُمْ، وَزُبُونُهُ الْقَابِلُونَ لَهُ أَكْثَرُ، وَإِمَّا الْحَقُّ فَهُوَ مَهْجُورٌ، وَقَائِلُهُ مُعْرَضٌ لِنَفْسِهِ لِلْعَدَاوَةِ، وَالرَّابِحُ بَيْنَ النَّاسِ أَوْلَى بِالْإِثَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَتَدْخِلُونَ الْبَاطِلَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ قَالِبٍ يَقْبَلُهُ وَيَخْفُ عَلَيْهِ، وَتُخْرِجُونَ لَهُ الْحَقَّ فِي كُلِّ قَالِبٍ يَكْرَهُهُ وَيَثْقُلُ عَلَيْهِ.

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ فَانظُرْ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، كَيْفَ يُخْرِجُونَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي قَالِبِ كَثْرَةِ الْفُضُولِ، وَتَسْبُعِ عَشْرَاتِ النَّاسِ، وَالتَّعَرُّضِ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ، وَالْقَاءِ الْفِتَنِ بَيْنَ النَّاسِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيُخْرِجُونَ أَتْبَاعَ السُّنَّةِ وَوَصَفَ الرَّبُّ تَعَالَى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ فِي قَالِبِ التَّجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ وَالتَّكْيِيفِ، وَيُسَمُّونَ عُلُوَّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَاسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ وَمُبَايَاتِهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ، تَحِيْزًا، وَيُسَمُّونَ نَزْوَلَهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَقَوْلَهُ: مَنْ يَسْأَلْنِي فَأَعْطِيهِ، تَحَرُّكًا وَانْتِقَالَ، وَيُسَمُّونَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْبِدِّ وَالْوَجْهِ أَعْضَاءَ وَجَوَارِحَ، وَيُسَمُّونَ مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ أَعْمَالِهِ حَوَادِثَ، وَمَا يَقُومُ مِنْ صِفَاتِهِ أَعْرَاضًا، ثُمَّ يَتَوَصَّلُونَ إِلَى نَفْيِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بِهِذِهِ الْأُمُورِ، وَيُوهَمُونَ الْأَعْمَارَ وَضَعْفَاءَ الْبَصَائِرِ، أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ تَسْتَلْزِمُ هَذِهِ الْأُمُورَ، وَيُخْرِجُونَ هَذَا التَّعْطِيلَ فِي قَالِبِ التَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ ضَعْفَاءُ الْعُقُولِ يَقْبَلُونَ الشَّيْءَ بِلَفْظٍ وَيُرُدُّونَهُ بِعَيْنِهِ بِلَفْظٍ آخَرَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١١٢] فَسَمَّاهُ زُخْرَفًا، وَهُوَ بَاطِلٌ، لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَزُخْرِفُهُ وَيَزِينُهُ مَا اسْتَطَاعَ، وَيُلْقِيهِ إِلَى سَمْعِ الْمَعْرُورِ فَيَعْتَرِيهِ.
وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ لَزِمَ ثَغْرَ الْأُذُنِ، أَنْ يَدْخُلَ فِيهَا مَا يَضُرُّ الْعَبْدَ وَلَا يَنْفَعُهُ، وَيَمْنَعُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَيْهَا مَا يَنْفَعُهُ، وَإِنْ دَخَلَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ أَفْسَدَهُ عَلَيْهِ.

فَصْلٌ

ثُمَّ يَقُولُ: قَوْمُوا عَلَى ثَغْرِ اللِّسَانِ، فَإِنَّهُ الثَّغْرُ الْأَعْظَمُ، وَهُوَ قِبَالَةُ الْمَلِكِ، فَأَجْرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ، وَامْنَعُوهُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَنْفَعُهُ: مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِغْفَارِهِ، وَتَلَاوَةِ كِتَابِهِ، وَنَصِيحَةِ عِبَادِهِ، وَالتَّكَلُّمِ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَيَكُونُ لَكُمْ فِي هَذَا الثَّغْرِ أَمْرَانِ عَظِيمَانِ، لَا تَبَالُونَ بِأَيِّمَا ظَفَرْتُمْ: أَحَدُهُمَا: التَّكَلُّمُ بِالْبَاطِلِ، فَإِنَّمَا التَّكَلُّمُ بِالْبَاطِلِ أَخٌ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَمِنْ أَكْبَرِ جُنْدِكُمْ وَأَعْوَانِكُمْ.
الثَّانِي: السُّكُوتُ عَنِ الْحَقِّ، فَإِنَّ السَّائِتَ عَنِ الْحَقِّ أَخٌ لَكُمْ أَخْرَسُ، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ أَخٌ نَاطِقٌ، وَرُبَّمَا كَانَ الْأَخُ الثَّانِي أَنْفَعَ أَحْوَبَكُمْ لَكُمْ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ النَّاصِحِ: التَّكَلُّمُ بِالْبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ، وَالسَّائِتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسٌ؟

فَالرِّبَاطُ الرِّبَاطُ عَلَى هَذَا الثَّغْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَقٍّ أَوْ يُمَسِكَ عَنِ بَاطِلٍ، وَزَيْنُوا لَهُ التَّكَلُّمُ بِالْبَاطِلِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَخَوْفُوهُ مِنَ التَّكَلُّمِ بِالْحَقِّ بِكُلِّ طَرِيقٍ.
وَاعْلَمُوا يَا بَنِيَّ أَنَّ ثَغْرَ اللِّسَانِ هُوَ الَّذِي أَهْلَكَ مِنْهُ بَنِي آدَمَ، وَأَكْبَهُمْ مِنْهُ عَلَى مَنْأَخِرِهِمْ فِي النَّارِ، فَكَمْ لِي مِنْ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ وَجَرِيحٍ أَخَذْتُهُ مِنْ هَذَا الثَّغْرِ؟

وَأَوْصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظُوهَا: لِيَنْطِقَ أَحَدُكُمْ عَلَى لِسَانِ أَخِيهِ مِنَ الْإِنْسِ بِالْكَلِمَةِ، وَيَكُونُ الْأَخْرُ عَلَى لِسَانِ السَّامِعِ فَيَنْطِقَ بِاسْتِحْسَانِهَا وَتَعْظِيمِهَا وَالتَّعَجُّبِ مِنْهَا وَيَطْلُبُ مِنْ أَخِيهِ إِعَادَتَهَا، وَكُونُوا

أَعْوَانًا عَلَى الْإِنْسِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَادْخُلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَسَمِي الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لِرَبِّهِمْ حَيْثُ قُلْتُ: ﴿فَبِمَا أَعْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ * ثُمَّ لَا يَنبَغُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿سُورَةُ الْأَعْرَافِ ١٦-١٧﴾.

أَوْ مَا تَرَوْنِي قَدْ قَعَدْتُ لِابْنِ آدَمَ بِطَرَفِهِ كُلِّهَا، فَلَا يَفُوتُنِي مِنْ طَرِيقٍ إِلَّا قَعَدْتُ لَهُ بِطَرِيقٍ غَيْرِهِ، حَتَّى أُصِيبَ مِنْهُ حَاجَتِي أَوْ بَعْضُهَا؟ وَقَدْ حَدَّرَهُمْ ذَلِكَ رَسُولُهُمْ ﷺ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطَرَفِهِ كُلِّهَا، وَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْتَ وَتَدْرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ فَخَالَفَهُ وَأَسْلَمَ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ، فَقَالَ: أَتَهَاجِرُ وَتَدْرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ فَخَالَفَهُ وَهَاجَرَ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: أَتُجَاهِدُ فَتُقْتَلُ فَيُقَسَّمُ الْمَالُ وَتُنْكَحَ الزَّوْجَةُ؟

فَكَهَذَا فَاقْعُدُوا لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقِ الْخَيْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَتَصَدَّقَ فَاقْعُدُوا لَهُ عَلَى طَرِيقِ الصَّدَقَةِ، وَقُولُوا لَهُ فِي نَفْسِهِ: أَخْرَجَ الْمَالَ فَتَبَقِيَ مِثْلُ هَذَا السَّائِلِ وَتَصِيرَ بِمَنْزِلَتِهِ أَنْتَ وَهُوَ سَوَاءٌ؟ أَوْ مَا سَمِعْتُمْ مَا أَلْقَيْتُ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ سَأَلَهُ آخِرُ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، قَالَ: هِيَ أَمْوَالُنَا إِذَا أُعْطِينَا كُمُوهَا صِرْنَا مِثْلَكُمْ.

وَاقْعُدُوا لَهُ بِطَرِيقِ الْحُجِّ، فَقُولُوا: طَرِيقُهُ خَوْفَةٌ مُشَقَّةٌ، يَتَعَرَّضُ سَالِكُهَا لِتَلْفِ النَّفْسِ وَالْمَالِ، وَهَكَذَا فَاقْعُدُوا لَهُ عَلَى سَائِرِ طَرِيقِ الْخَيْرِ بِالتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَذِكْرِ صُعُوبَتِهَا وَأَفَاتِهَا، ثُمَّ اقْعُدُوا لَهُمْ عَلَى طَرِيقِ الْمَعَاصِي فَحَسِّنُوا فِي أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ، وَزَيَّنُوا فِي قُلُوبِهِمْ، وَاجْعَلُوا أَكْثَرَ أَعْوَانِكُمْ عَلَى ذَلِكَ النَّسَاءِ، فَمِنْ أَبْوَابِنَ فَادْخُلُوا عَلَيْهِمْ، فَنِعْمَ الْعَوْنُ هُنَّ لَكُمْ.

ثُمَّ الزُّمُوا نَعْرَ الْيَدَيْنِ وَالرَّجْلَيْنِ، فَاْمْنَعُوهَا أَنْ تَبْطِشَ بِمَا يُضُرُّكُمْ وَتَمَشِي فِيهِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ أَكْبَرَ أَعْوَانِكُمْ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ الثُّغُورِ مُصَالِحَةُ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ، فَأَعْيُوهَا وَاسْتَعِينُوا بِهَا، وَامْدُدُّوهَا وَاسْتَمِدُّوا مِنْهَا، وَكُونُوا مَعَهَا عَلَى حَرْبِ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ، فَاجْتَهِدُوا فِي كَسْرِهَا وَإِطَالِ قَوَاهَا،

وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِقَطْعِ مَوَادِّهَا عَنْهَا، فَإِذَا انْقَطَعَتْ مَوَادُّهَا وَقَوِيَتْ مَوَادُّ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ، وَانْطَاعَتْ لَكُمْ أَعْوَانُهَا، فَاسْتَنْزِلُوا الْقَلْبَ مِنْ حِصْنِهِ، وَاعْرِضُوهُ عَنْ مَمْلَكَتِهِ، وَوَلُّوا مَكَانَهُ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ، فَإِنَّهَا لَا تَأْمُرُ إِلَّا بِمَا تَهْوَوْنَهُ وَتُحِبُّونَهُ، وَلَا تَحْيِيكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَهُ الْبَتَّةَ، مَعَ أَنَّهَا لَا تُخَالِفُكُمْ فِي شَيْءٍ تُشِيرُونَ بِهِ عَلَيْهَا، بَلْ إِذَا أَشْرْتُمْ عَلَيْهَا بِشَيْءٍ بَادَرَتْ لِي فِعْلِهِ، فَإِنْ أَحْسَسْتُمْ مِنَ الْقَلْبِ مُنَازَعَةً إِلَى مَمْلَكَتِهِ، وَأَرَدْتُمْ الْأَمْنَ مِنْ ذَلِكَ، فَاعْقِدُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّفْسِ عَقْدَ النِّكَاحِ، فَرِيضُوهَا وَجَمِّلُوهَا، وَأَرَوْهَا آيَاهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ عَرُوسٍ تُوجَدُ، وَقُولُوا لَهُ ذُقْ طَعْمَ هَذَا الْوِصَالِ وَالتَّمَتَّعِ بِهَذِهِ الْعُرُوسِ كَمَا ذُقْتَ طَعْمَ الْحَرْبِ، وَبَاشَرْتَ مَرَارَةَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ، ثُمَّ وَازِنْ بَيْنَ لَذَّةِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَمَرَارَةِ تِلْكَ الْمُحَارَبَةِ، فَدَعِ الْحَرْبَ تَضَعُ أَوْزَارَهَا، فَالَيْسَتْ يَوْمٌ وَتَنْقِضِي، وَإِنَّمَا هُوَ حَرْبٌ مُتَّصِلٌ بِالْمَوْتِ، وَقَوْلَاكَ تَضَعُ عَنْ حَرْبٍ دَائِمٍ. وَاسْتَعِينُوا يَا بَنِي بَجُنْدَيْنِ عَظِيمَيْنِ لَنْ تُغْلَبُوا مَعَهُمَا:

أَحَدُهُمَا: جُنْدُ الْغَفْلَةِ، فَأَغْفِلُوا قُلُوبَ بَنِي آدَمَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَالِدَارِ الْآخِرَةِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، فَالَيْسَ لَكُمْ شَيْءٌ أَبْلَغُ فِي تَحْصِيلِ عَرَضِكُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا عَفَلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى تَمَكَّنْتُمْ مِنْهُ وَمِنْ إِعْوَانِهِ.

الثَّانِي: جُنْدُ الشَّهَوَاتِ، فَرِيضُوهَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَحَسِّنُوهَا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَصُولُوا عَلَيْهِمْ بِهَدْيَيْنِ الْعَسْكَرَيْنِ، فَالَيْسَ لَكُمْ فِي بَنِي آدَمَ أَبْلَغُ مِنْهُمَا، وَاسْتَعِينُوا عَلَى الْغَفْلَةِ بِالشَّهَوَاتِ، وَعَلَى الشَّهَوَاتِ بِالْغَفْلَةِ، وَافْرِنُوا بَيْنَ الْغَافِلِينَ، ثُمَّ اسْتَعِينُوا بِهِمَا عَلَى الذَّاكِرِ، وَلَا يَغْلِبُ وَاحِدٌ خَمْسَةَ، فَإِنَّ مَعَ الْغَافِلِينَ شَيْطَانَيْنِ صَارُوا أَرْبَعَةً، وَشَيْطَانِ الذَّاكِرِ مَعَهُمْ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ جَمَاعَةً مُجْتَمِعِينَ عَلَى مَا يُضُرُّكُمْ - مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَذَاكِرَةِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَدِينِهِ، وَلَمْ تَقْدِرُوا عَلَى تَفْرِيقِهِمْ - فَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِمْ بِبَنِي جِنْسِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ الْبَطَّالِينَ، فَفَرَّبُوهُمْ مِنْهُمْ، وَشَوَّشُوا عَلَيْهِمْ بِهِمْ، وَبِالْجُمْلَةِ فَاعْدُوا لِلْأُمُورِ أَقْرَانَهَا، وَادْخُلُوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَابِ إِرَادَتِهِ وَشَهْوَتِهِ، فَسَاعِدُوهُ عَلَيْهَا، وَكُونُوا لَهُ أَعْوَانًا عَلَى تَحْصِيلِهَا، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَصْبِرُوا لَكُمْ وَيَصَابِرُواكُمْ وَيُرَابِطُوا عَلَيْكُمْ الثُّغُورَ، فَاصْبِرُوا أَنْتُمْ وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا

عَلَيْهِمْ بِالشُّعُورِ، وَانْتَهَزُوا فُرْصَتَكُمْ فِيهِمْ عِنْدَ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ، فَلَا تَصْطَادُوا بَنِي آدَمَ فِي أَعْظَمَ مِنْ هَذَيْنِ الْمُؤْتِنَيْنِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ الشَّهْوَةِ عَلَيْهِ أَغْلَبَ وَسُلْطَانُ غَضَبِهِ ضَعِيفٌ مَقْهُورٌ، فَخُذُوا عَلَيْهِ طَرِيقَ الشَّهْوَةِ، وَدَعُوا طَرِيقَ الْغَضَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ الْغَضَبِ عَلَيْهِ أَغْلَبَ، فَلَا تُخْلُوا طَرِيقَ الشَّهْوَةِ قَلْبَهُ، وَلَا تُعْطِلُوا ثَغْرَهَا، فَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ، فَإِنَّهُ الْحَرِيُّ أَنْ لَا يَمْلِكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّهْوَةِ، فَزَوِّجُوا بَيْنَ غَضَبِهِ وَشَهْوَتِهِ، وَامْزِجُوا أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ، وَادْعُوهُ إِلَى الشَّهْوَةِ مِنْ بَابِ الْغَضَبِ، وَإِلَى الْغَضَبِ مِنْ طَرِيقِ الشَّهْوَةِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ فِي بَنِي آدَمَ سِلَاحٌ أَبْلَغُ مِنْ هَذَيْنِ السَّلَاحَيْنِ، وَإِنَّمَا أَخْرَجْتُ أَبُوَيْهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ بِالشَّهْوَةِ، وَإِنَّمَا أَلْقَيْتُ الْعِدَاوَةَ بَيْنَ أَوْلَادِهِمْ بِالْغَضَبِ، فِيهِ قَطَّعْتَ أَرْحَامَهُمْ، وَسَفَكْتَ دِمَاءَهُمْ، وَبِهِ قَتَلَ أَحَدُ ابْنَيْ آدَمَ أَخَاهُ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، وَالشَّهْوَةَ تُتَوَّرُ مِنْ قَلْبِهِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ وَالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَالتَّكْبِيرِ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُمَكِّنُوا ابْنَ آدَمَ عِنْدَ غَضَبِهِ وَشَهْوَتِهِ مِنْ قُرْبَانِ الْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطْفِئُ عَنْهُمْ نَارَ الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ، وَقَدْ أَمَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ بِذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ مِنْ اخْمِرَارِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاحِ أَوْدَاجِهِ، فَمَنْ أَحْسَسَ بِذَلِكَ فَلْيَتَوَضَّأْ»^(١).

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩١) وابن ماجه (٤٠٠٠) وأحمد (١١١٤٣) ١٩ / ٣ والحاكم (٥٥١ / ٤) (٨٥٤٣) وغيرهم، من طريق علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري فذكره مطولاً. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٦٤١).

وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ»^(١)، وَقَدْ أَوْصَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يَسْتَعِينُوا عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، فَحَوْلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَأَنَسُوهُمْ إِيَّاهُ، وَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِمْ بِالشَّهْوَةِ وَالغَضَبِ، وَأَبْلَغُ أَسْلِحَتِكُمْ فِيهِمْ وَأَنْكَاهَا: الْغَفْلَةُ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى. وَأَعْظَمُ أَسْلِحَتِهِمْ فِيكُمْ وَأَمْنَعُ حُصُونِهِمْ ذِكْرُ اللَّهِ وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ مُخَالَفًا لِهَوَاهُ فَاهْرُبُوا مِنْ ظِلِّهِ وَلَا تَدْنُوا مِنْهُ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ سِلَاحٌ وَمَدَدٌ يُمَدُّ بِهَا الْعَبْدُ أَعْدَاءَهُ وَيَعِينُهُمْ بِهَا عَلَى نَفْسِهِ، فَيَقَاتِلُونَ بِسِلَاحِهِ، وَيَكُونُ مَعَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ.

مَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنَّ الْعَبْدَ يَسْعَى بِجُهْدِهِ فِي هَوَانِ نَفْسِهِ، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكْرِمٌ وَيَجْتَهِدُ فِي حِرْمَانِهَا أَعْلَى حُظُوظِهَا وَأَشْرَفِهَا وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَسْعَى فِي حَظِّهَا، وَيَبْذُلُ جُهْدَهُ فِي تَحْقِيرِهَا وَتَصْغِيرِهَا وَتَدْنِيسِهَا، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَعْلِيهَا وَيَرْفَعُهَا وَيُكْبِرُهَا.

وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: أَلَا رَبَّ مِهِينٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكْرِمٌ، وَمِثْلُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُعِزٌّ، وَمُصَغِّرٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَهَا مُكَبِّرٌ، وَمُضِيعٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُرَاعٍ لِحِفْظِهَا، وَكَفَى بِالرَّءِ جَهْلًا أَنْ يَكُونَ مَعَ عَدُوِّهِ عَلَى نَفْسِهِ، يَبْلُغُ مِنْهَا بِفِعْلِهِ مَا لَا يَبْلُغُهُ عَدُوُّهُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصَلِّ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُنْسِي الْعَبْدَ نَفْسَهُ، وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ أَهْمَلَهَا وَأَفْسَدَهَا وَأَهْلَكَهَا، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَنْسَى الْعَبْدُ نَفْسَهُ؟ وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ فَأَيُّ شَيْءٍ يَذْكُرُ؟ وَمَا مَعْنَى نَسْيَانِهِ نَفْسَهُ؟

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٨٤) وأحمد (٤/ ٢٢٦) وضعفه الألباني في الضعيفة (٥٨٢).

قِيلَ: نَعَمْ يَنْسَى نَفْسَهُ أَعْظَمَ نَسْيَانٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سُورَةُ الْحَشْرِ: ١٩].

فَلَمَّا نَسُوا رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُمْ وَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٦٧].

فَعَاقَبَ سُبْحَانَهُ مَنْ نَسِيَهُ عُقُوبَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُ.

وَالثَّانِيَةَ: أَنَّهُ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ.

وَنَسْيَانُهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ: إِهْمَالُهُ، وَتَرْكُهُ، وَتَخْلِيهِ عَنْهُ، وَإِضَاعَتُهُ، فَالْهَلَاكُ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنَ الْيَدِ لِلْقَمِ، وَأَمَّا إِنْسَاؤُهُ نَفْسَهُ، فَهُوَ: إِنْسَاؤُهُ حُطُوظَهَا الْعَالِيَةَ، وَأَسْبَابِ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا، وَإِصْلَاحِهَا، وَمَا تَكْمُلُ بِهِ بِنَسْيِهِ ذَلِكَ كُلِّهِ جَمِيعِهِ فَلَا يُحْطَرُّ بِبَالِهِ، وَلَا يُجْعَلُهُ عَلَى ذِكْرِهِ، وَلَا يَصْرِفُ إِلَيْهِ هِمَّتَهُ فَيَرْغَبُ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يَمُرُّ بِبَالِهِ حَتَّى يَقْصِدَهُ وَيُؤْتِرَهُ.

وَأَيْضًا فَيَنْسِيهِ عِيُوبَ نَفْسِهِ وَنَقْصَهَا وَأَفَاتِهَا، فَلَا يُحْطَرُّ بِبَالِهِ إِزَالَتُهَا.

وَأَيْضًا فَيَنْسِيهِ أَمْرَاضَ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَالْأَمَهَا، فَلَا يُحْطَرُّ بِقَلْبِهِ مُدَاوَاتُهَا، وَلَا السَّعْيُ فِي إِزَالَةِ عِلْلِهَا وَأَمْرَاضِهَا الَّتِي تُتَوَلَّى بِهَا إِلَى الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ، فَهُوَ مَرِيضٌ مُتَخَنٌ بِالْمَرَضِ، وَمَرَضُهُ مُتْرَامٌ بِهِ إِلَى التَّلَفِ، وَلَا يَشْعُرُ بِمَرَضِهِ، وَلَا يُحْطَرُّ بِبَالِهِ مُدَاوَاتُهُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَةِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ.

فَأَيُّ عُقُوبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةٍ مِنْ أَهْمَلِ نَفْسَهُ وَضَيَّعَهَا، وَنَسِيَ مَصَالِحَهَا وَدَاءَهَا وَدَوَاءَهَا، وَأَسْبَابِ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا وَصَلَاحِهَا وَحَيَاتِهَا الْأَبَدِيَّةِ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ؟

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْمَوْضِعَ تَيَّنَ لَهُ أَنَّ أَكْثَرَ هَذَا الْخَلْقِ قَدْ نَسُوا حَقِيقَةَ أَنْفُسِهِمْ وَضَيَعُوا وَأَضَاعُوا حَظَّهُا مِنَ اللَّهِ، وَبَاعُوا رَخِيسَةً بِثَمَنٍ بَخْسٍ يَبِيعُ الْعَبْنِ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ لَهُمْ هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَيَظْهَرُ هَذَا كُلُّ الظُّهُورِ يَوْمَ التَّغَابُنِ، يَوْمَ يَظْهَرُ لِلْعَبْدِ أَنَّهُ غَبْنٌ فِي الْعَقْدِ الَّذِي عَقَدَهُ لِنَفْسِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالتَّجَارَةِ الَّتِي اتَّجَرَ فِيهَا لِمَعَادِهِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَتَّجِرُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِآخِرَتِهِ.

فَالْحَاسِرُونَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الرَّبْحِ وَالْكَسْبِ اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَحَظَّهُمْ فِيهَا وَلَدَاتِهِمْ، بِالْآخِرَةِ وَحَظَّهُمْ فِيهَا، فَأَذْهَبُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، وَاسْتَمْتَعُوا بِهَا، وَرَضُوا بِهَا، وَاطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهَا، وَكَانَ سَعْيُهُمْ لِتَحْصِيلِهَا، فَبَاعُوا وَاشْتَرَوْا وَاتَّجَرُوا وَبَاعُوا أَجَلًا بِعَاجِلٍ، وَنَسِيئَةً بِتَقْدِيرٍ، وَغَائِبًا بِبَاجِزٍ، وَقَالُوا: هَذَا هُوَ الْحَزْمُ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ:

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ

فَكَيْفَ أُبِيعَ حَاضِرًا نَقْدًا مُشَاهِدًا فِي هَذِهِ الدَّارِ بِغَائِبٍ نَسِيئَةٍ فِي دَارٍ أُخْرَى غَيْرِ هَذِهِ؟ وَيَنْصَمُّ إِلَى ذَلِكَ ضَعْفُ الْإِيمَانِ وَقُوَّةُ دَاعِي الشَّهْوَةِ، وَمَحَبَّةُ الْعَاجِلَةِ وَالتَّشْبَهُ بِنَبِيِّ الْجِنْسِ، فَأَكْثَرَ الْخَلْقِ فِي هَذِهِ التَّجَارَةِ الْحَاسِرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِي أَهْلِهَا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٨٦]، وَقَالَ فِيهِمْ: ﴿فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٦]، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ التَّغَابُنِ ظَهَرَ لَهُمُ الْغَبْنُ فِي هَذِهِ التَّجَارَةِ، فَتَقَطَّعَ عَلَيْهِمُ النَّفُوسُ حَسْرَاتٍ.

وَأَمَّا الرَّابِحُونَ فَأَتَّهَمُوا بِإِثْمِ بَيْعِ الْبَيْعِ، وَخَسِيسًا بِنَفْسِهِمْ، وَحَقِيرًا بِعَظِيمِهِمْ، وَقَالُوا: مَا مِقْدَارُ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَوْهَلِهَا إِلَى آخِرِهَا، حَتَّى نَبِيعَ حَظَّنَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّارِ الْآخِرَةِ بِهَا؟ فَكَيْفَ يَنَالُ الْعَبْدُ مِنْهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الْقَصِيرِ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَغَفْوَةِ حُلْمٍ، لَا نِسْبَةَ لَهُ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ الْآبَتَةِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [سُورَةُ يُونُسَ: ٤٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يُحْشَاهَا * كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ٤٢ - ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ مَّهَارٍ بَلَاغٌ﴾ [سُورَةُ الْأَحْقَافِ: ٣٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ * قَالَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ: ١١٢ - ١١٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [سُورَةُ طه: ١٠٢ - ١٠٤].

فَهَذِهِ حَقِيقَةُ الدُّنْيَا عِنْدَ مُوَاَفَاةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمَّا عَلِمُوا قَلَّةَ لَبِثِهِمْ فِيهَا، وَأَنَّ لَهُمْ دَارًا غَيْرَ هَذِهِ الدَّارِ، هِيَ دَارُ الْحَيَوَانِ وَدَارُ الْبَقَاءِ - رَأَوْا مِنْ أَعْظَمِ الْغَبَنِ بَيْعَ دَارِ الْبَقَاءِ بِدَارِ الْفَنَاءِ، فَاتَّجَرُوا بِتِجَارَةِ الْأَكْيَاسِ، وَلَمْ يَغْتَرُّوا بِتِجَارَةِ السُّفْهَاءِ مِنَ النَّاسِ، فَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ التَّغَابُنِ رِيحُ تِجَارَتِهِمْ وَمَقْدَارُ مَا اشْتَرَوْهُ، وَكُلُّ أَحَدٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَائِعٌ مُّشْتَرٍ مُّتَّجِرٌ، وَكُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعِّكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ١١١].

فَهَذَا أَوَّلُ تَقْدِيمٍ ثَمَنِ هَذِهِ التِّجَارَةِ، فَتَاجَرُوا بِهَا الْمُفْلِسُونَ، وَيَا مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ هَذَا الثَّمَنِ، هُنَا ثَمَنٌ آخَرٌ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ التِّجَارَةِ فَأَعْطِ هَذَا الثَّمَنَ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ

الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[سُورَةُ التَّوْبَةِ: ١١٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ الصَّفِّ: ١٠ - ١١].

وَالْمُقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ تُنْسِي الْعَبْدَ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، وَتَشْغَلُهُ بِالتِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ، وَكَفَى بِذَلِكَ عُقُوبَةً، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصْلٌ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ الْخَاصِرَةَ، وَتَقَطُّعُ النِّعَمَ الْوَاصِلَةَ، فَتَزِيلُ الْخَاصِلَ، وَتَمْنَعُ الْوَاصِلَ، فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودًا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا اسْتُجِلِبَ مَفْقُودًا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا وَآفَةً، سَبِيًّا يُجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ، فَجَعَلَ أَسْبَابَ نِعَمِهِ الْجَالِيَةِ لَهَا طَاعَتَهُ، وَآفَاتِهَا الْمَانِعَةَ مِنْهَا مَعْصِيَتَهُ، فَإِذَا أَرَادَ حِفْظَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ أَهْمَهُ رِعَايَتَهَا بِطَاعَتِهِ فِيهَا، وَإِذَا أَرَادَ زَوَالَهَا عَنْهُ خَذَلَهُ حَتَّى عَصَاهُ بِهَا.

وَمِنْ الْعَجَبِ عِلْمُ الْعَبْدِ بِذَلِكَ مُشَاهِدَةً فِي نَفْسِهِ وَعَايِرَهُ، وَسَمَاعًا لِمَا غَابَ عَنْهُ مِنْ أَخْبَارٍ مَنْ أُزِيلَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَنْهُمْ بِمَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَأَنَّهُ مُسْتَشْنِيٌّ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، أَوْ مَخْصُوصٌ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ، وَكَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ جَارٍ عَلَى النَّاسِ لَا عَلَيْهِ، وَوَأَصِلُ إِلَى الْخَلْقِ لَا إِلَيْهِ، فَأَيُّ جَهْلٍ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ ظُلْمٍ لِلنَّفْسِ فَوْقَ هَذَا؟ فَاحْكُمُ اللَّهُ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.

فَصْلٌ

وَمَنْ عُقُوبَاتِهَا: أَمَّا تَبَاعُدُ عَنِ الْعَبْدِ وَلِيَّهِ وَأَنْفَعُ الْخَلْقِ لَهُ وَأَنْصَحَهُمْ لَهُ، وَمَنْ سَعَادَتُهُ فِي قَرِيبِهِ مِنْهُ، وَهُوَ الْمَلِكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ، وَتُدْنِي مِنْهُ عُدُوَّهُ وَأَعْشَّ الْخَلْقِ لَهُ، وَأَعْظَمَهُمْ ضَرَرًا لَهُ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَصَى اللَّهَ تَبَاعَدَ مِنْهُ الْمَلِكُ بِقَدْرِ تِلْكَ الْمُعْصِيَةِ، حَتَّى إِنَّهُ يَتَبَاعَدُ مِنْهُ بِالْكَذِبَةِ الْوَاحِدَةِ مَسَافَةً بَعِيدَةً.

وَفِي بَعْضِ الْأَثَارِ: إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ مِنْهُ الْمَلِكُ مِيلًا مِنْ تَنْنِ رِيحِهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا تَبَاعُدَ الْمَلِكِ مِنْهُ مِنْ كَذِبَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَاذَا يَكُونُ مَقْدَارُ بُعْدِهِ مِنْهُ مِمَّا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَفْحَشُ مِنْهُ؟

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا رَكِبَ الذَّكَرَ عَجَّتِ الْأَرْضُ إِلَى اللَّهِ وَهَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى رَبِّهَا، وَشَكَتْ إِلَى اللَّهِ عَظِيمَ مَا رَأَتْ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ ابْتَدَرَهُ الْمَلِكُ وَالشَّيْطَانُ، فَإِنَّ ذَكَرَ اللَّهُ وَكَبَّرَهُ وَحَمِدَهُ وَهَلَّلَهُ، طُرِدَ الشَّيْطَانُ وَتَوَلَّاهُ الْمَلِكُ، وَإِنْ افْتَحَ بَعْضُ ذَلِكَ ذَهَبَ الْمَلِكُ عَنْهُ وَتَوَلَّاهُ الشَّيْطَانُ.

وَلَا يَزَالُ الْمَلِكُ يَقْرُبُ مِنَ الْعَبْدِ حَتَّى يَصِيرَ الْحُكْمُ وَالطَّاعَةُ وَالْغَلْبَةُ لَهُ، فَتَتَوَلَّاهُ الْمَلَائِكَةُ فِي حَيَاتِهِ وَعِنْدَ مَوْتِهِ وَعِنْدَ بَعْثِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [سُورَةُ فَصَّلَتْ: ٣٠ - ٣١].

وَإِذَا تَوَلَّاهُ الْمَلِكُ تَوَلَّاهُ أَنْصَحُ الْخَلْقِ وَأَنْفَعُهُمْ وَأَبْرَهُمْ، فَتَبَّتْهُ وَعَلَّمَهُ، وَقَوَى جَنَانَهُ، وَأَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ١٢].

فَيَقُولُ الْمَلِكُ عِنْدَ الْمَوْتِ: لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ وَأَبْشُرْ بِالَّذِي يُسْرُكَ، وَيُثَبِّتُهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَعِنْدَ الْمَوْتِ، وَفِي الْقَبْرِ عِنْدَ الْمُسْأَلَةِ.

فَلَيْسَ أَحَدٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ مِنْ صُحْبَةِ الْمَلِكِ لَهُ، وَهُوَ وَلِيُّهُ فِي يَقْظَتِهِ وَمَنَامِهِ، وَحَيَاتِهِ وَعِنْدَ مَوْتِهِ وَفِي قَبْرِهِ، وَمُؤْنَسُهُ فِي وَحْشَتِهِ، وَصَاحِبُهُ فِي خَلْوَتِهِ، وَمُحَدِّثُهُ فِي سِرِّهِ، وَيُجَارِبُ عَنْهُ عَدُوَّهُ، وَيُدَافِعُ عَنْهُ وَيُعِينُهُ عَلَيْهِ، وَيَعُدُّهُ بِالْخَيْرِ وَيُسِّرُّهُ بِهِ، وَيُحِثُّهُ عَلَى التَّصَدِيقِ بِالْحَقِّ، كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ الَّذِي يُرَوَى مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا: «إِنَّ لِلْمَلِكِ بَقْلَبِ ابْنِ آدَمَ لَمَّةً، وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، فَلَمَّةُ الْمَلِكِ: إِيْعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَّصَدِيقُ بِالْوَعْدِ، وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ: إِيْعَادُ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ».

وَإِذَا اشْتَدَّ قُرْبُ الْمَلِكِ مِنَ الْعَبْدِ تَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ، وَأَلْقَى عَلَى لِسَانِهِ الْقَوْلَ السَّيِّدَ، وَإِذَا بَعُدَ مِنْهُ وَقَرَّبَ الشَّيْطَانُ، تَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ، وَأَلْقَى عَلَيْهِ قَوْلَ الزُّورِ وَالْفُحْشِ، حَتَّى يُرَى الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ الْمَلِكُ وَالرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ الشَّيْطَانُ وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ»^(١) وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ الصَّالِحَةَ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ فَيَقُولُ: مَا أَلْقَاهُ عَلَى لِسَانِكَ إِلَّا الْمَلِكُ، وَيَسْمَعُ ضِدَّهَا فَيَقُولُ: مَا أَلْقَاهَا عَلَى لِسَانِكَ إِلَّا الشَّيْطَانُ، فَالْمَلِكُ يُلْقِي بِالْقَلْبِ الْحَقِّ وَيُلْقِيهِ عَلَى اللِّسَانِ، وَالشَّيْطَانُ يُلْقِي الْبَاطِلَ فِي الْقَلْبِ وَيُجْرِيهِ عَلَى اللِّسَانِ.

فَمِنْ عُقُوبَةِ الْمُعَاصِي أَنَّهُمَا تَبْعُدُ مِنَ الْعَبْدِ وَلِيَّهُ الَّذِي سَعَادَتُهُ فِي قُرْبِهِ وَمُجَاوَرَتِهِ وَمُؤَالَاتِهِ، وَتُدْنِي مِنْهُ عَدُوَّهُ الَّذِي شَقَاؤُهُ وَهَلَاكُهُ وَفَسَادُهُ فِي قُرْبِهِ وَمُؤَالَاتِهِ، حَتَّى إِنْ الْمَلِكُ لَيُنَافِحُ عَنِ الْعَبْدِ، وَيُرَدُّ عَنْهُ إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِ السَّفِيهُ وَسَبَّهُ، كَمَا اخْتَصَمَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلَانِ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا يَسُبُّ الْآخَرَ وَهُوَ

(١) أخرجه أحمد في "فضائل الصحابة" وعبد الله في زوائد الفضائل (٤٧٠، ٣١٠، ٦٠١، ٦٣٤، ٦٢٣، ٧١١) وابن عساكر في تاريخه (٤٤ / ١٠٨) وابن الجعد في مسنده (٢٤٠٣) وغيرهم، من طريق الشعبي عن علي فذكره. وفي طريقه اختلاف في سنده ومتمنه. وأيضاً رأى الشعبي علياً ولم يسمع منه إلا حرفاً وليس هذا مما سمعه. انظر علل الدارقطني (٤ / ١٣٦)، ويغني عنه حديث أبي ذر مرفوعاً: «إن الله وضع الحق على لسان عمر؛ يقول به» أخرجه ابوداود وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٦٢٣).

سَاكِتٌ، فَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يَرُدُّ بِهَا عَلَيَّ صَاحِبِيهِ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ قُمْتُ، فَقَالَ: «كَانَ الْمَلِكُ يُنَافِحُ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ»^(١).

وَإِذَا دَعَا الْعَبْدُ الْمُسْلِمَ لِأَخِيهِ بظَهْرِ الْغَيْبِ أَمَّنَ الْمَلِكُ عَلَى دُعَائِهِ، وَقَالَ: «وَلَكَ بِمِثْلٍ».

وَإِذَا فَرَّغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ أَمَّتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى دُعَائِهِ.

وَإِذَا أَدْنَبَ الْعَبْدُ الْمُوحَّدُ الْمُتَّبِعُ لِسَبِيلِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ اسْتَعْفَرَ لَهُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ.

وَإِذَا نَامَ الْعَبْدُ عَلَى وُضوءٍ بَاتَ فِي شِعَارِ مَلِكٍ.

فَمَلِكُ الْمُؤْمِنِ يَرُدُّ عَنْهُ وَيُجَارِبُ وَيُدَافِعُ عَنْهُ، وَيَعْلَمُهُ وَيُشَبِّهُهُ وَيَشْجَعُهُ، فَلَا يَلِيْقُ بِهِ أَنْ يُسِيءَ جِوَارَهُ وَيُبَالِغَ فِي أَذَاهُ وَطَرْدِهِ عَنْهُ وَإِعْيَادِهِ، فَإِنَّهُ ضَيْفُهُ وَجَارُهُ.

وَإِذَا كَانَ إِكْرَامُ الضَّيْفِ مِنَ الْأَدْمِيِّينَ وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْجَارِ مِنْ لَوَائِمِ الْإِيمَانِ وَمُوجِبَاتِهِ، فَمَا الظَّنُّ بِإِكْرَامِ أَكْرَمِ الْأَضْيَافِ، وَخَيْرِ الْجِيرَانِ وَأَبْرَهَمٍ؟ وَإِذَا آذَى الْعَبْدُ الْمَلِكَ بِأَنْوَاعِ الْمَعَاصِي وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ دَعَا عَلَيْهِ رَبُّهُ، وَقَالَ: لَا جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، كَمَا يَدْعُو لَهُ إِذَا أَكْرَمَهُ بِالطَّاعَةِ وَالْإِحْسَانِ.

قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ، فَاسْتَحْيُوا مِنْهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٩٦) والبخاري في تاريخه (١٠٢ / ٢) وذكره الدارقطني في العلل (١٥٣ / ٨) والبيهقي في الشعب (٦٢٤٢)، من طريق الليث بن سعد وعبد الحميد بن جعفر كلاهما عن سعيد المقبري عن بشير بن المحرر عن سعيد بن المسيب أنه قال فذكر نحوه مرسلًا. ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، فذكر نحوه مطولًا. أخرجه أبو داود (٤٨٩٧) وأحمد ٢ / ٤٣٦ (٩٦٢٤) والبيهقي في السنن (١٥ / ٢٣٦) وغيرهم. قال البخاري: "والأول أصح" يعني المرسل. وكذا صوبه الدارقطني. وذكره الألباني في صحيحته (٢٣٧٦).

وَلَا أَلَامَ مَنْ لَا يَسْتَحِي مِنَ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ الْقَدْرِ، وَلَا يُجِلُّهُ وَلَا يُؤْفِرُهُ، وَقَدْ نَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ: ١٠ - ١٢] أَي اسْتَحْيُوا مَنْ هُوَ لَاءِ الْحَافِظِينَ الْكِرَامِ وَأَكْرَمُوهُمْ، وَأَجْلُوهُمْ أَنْ يَرَوْا مِنْكُمْ مَا تَسْتَحْيُونَ أَنْ يَرَاكُمْ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ مِثْلُكُمْ، وَالْمَلَائِكَةُ تَتَأَذَى مِمَّا يَتَأَذَى مِنْهُ بَنُو آدَمَ، وَإِذَا كَانَ ابْنُ آدَمَ يَتَأَذَى مِمَّنْ يَفْجُرُ وَيَعْصِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَإِنْ كَانَ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَمَا الظَّنُّ بِأَذَى الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ؟ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصِّلْ

وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تَسْتَجْلِبُ مَوَادَّ هَلَاكِ الْعَبْدِ مِنَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، فَإِنَّ الذُّنُوبَ هِيَ أَمْرَاضٌ، مَتَى اسْتَحَكَمْتَ قَلْبَكَ وَلَا بَدَّ، وَكَمَا أَنَّ الْبَدْنَ لَا يَكُونُ صَاحِحًا إِلَّا بِغِذَاءٍ يَحْفَظُ قُوَّتَهُ، وَاسْتِنْفَاحٍ يَسْتَفْرِغُ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ وَالْأَخْلَاطَ الرَّدِيَّةَ، الَّتِي مَتَى غَلَبَتْ أَفْسَدَتْهُ، وَحِمِيَّةٌ يَمْتَنِعُ بِهَا مِمَّا يُؤْذِيهِ وَيُخْشَى ضَرَرَهُ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ لَا يَتِمُّ حَيَاتُهُ إِلَّا بِغِذَاءٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، تَحْفَظُ قُوَّتَهُ، وَاسْتِنْفَاحٍ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، تَسْتَفْرِغُ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ وَالْأَخْلَاطَ الرَّدِيَّةَ مِنْهُ، وَحِمِيَّةٌ تُوجِبُ لَهُ حِفْظَ الصَّحَّةِ وَتَجَنُّبَ مَا يُضَادُّهَا، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِ مَا يُضَادُّ الصَّحَّةَ.

وَالتَّقْوَى: اسْمٌ مُتَنَاوِلٌ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، فَمَا فَاتَ مِنْهَا فَاتَ مِنَ التَّقْوَى بِقَدْرِهِ.

وَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَالذُّنُوبُ مُضَادَّةٌ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، فَإِنَّهَا تَسْتَجْلِبُ الْمَوَادَّ الْمُؤْذِيَّةَ وَتُوجِبُ التَّخْطِيطَ الْمُضَادَّ لِلْحِمِيَّةِ، وَتَمْتَنِعُ الْاِسْتِنْفَاحَ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ.

فَانظُرْ إِلَى بَدَنِ عَالِيٍّ قَدْ تَرَكَمَتْ عَلَيْهِ الْأَخْلَاطُ وَمَوَادُّ الْمَرَضِ، وَهُوَ لَا يَسْتَفْرِغُهَا، وَلَا يَحْتَمِي لَهَا، كَيْفَ تَكُونُ صِحَّتُهُ وَبِقَاؤُهُ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

جِسْمُكَ بِالْحِمِيَّةِ حَصَّتُهُ... مَخَافَةً مِنْ أَلَمِ طَارِي

وَكَانَ أَوْلَىٰ بِكَ أَنْ تُخْشِيَ... مِنَ الْمَعَاصِي خَشْيَةَ الْبَارِي

فَمَنْ حَفِظَ الْقُوَّةَ بِامْتِثَالِ الْأَمْرِ، وَاسْتَعْمَلَ الْحَمِيَّةَ بِاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَاسْتَفْرَغَ التَّخْطِيطَ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، لَمْ يَدْعُ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا، وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصَلِّ

فَإِنْ لَمْ تَرُدِّعْ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ، وَلَمْ تَجِدْ لَهَا تَأْثِيرًا فِي قَلْبِكَ، فَأَحْضِرْهُ الْعُقُوبَاتِ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى الْجَرَائِمِ، كَمَا قَطَعَ الْيَدَ فِي سَرِقَةٍ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمٍ، وَقَطَعَ الْيَدَ وَالرَّجْلَ فِي قَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى مَعْصُومِ الْمَالِ وَالنَّفْسِ، وَشَقَّ الْجِلْدَ بِالسَّوِطِ عَلَى كَلِمَةٍ قَذَفَ بِهَا الْمُحْصَنُ، أَوْ قَطَرَةَ خَمْرٍ يُدْخِلُهَا جَوْفَهُ، وَقَتَلَ بِالْحِجَارَةِ أَشْنَعَ قَتْلَةٍ فِي إِيْلَاجِ الْحَشْفَةِ فِي فَرْجِ حَرَامٍ، وَخَفَّفَ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ عَمَّنْ لَمْ يَتَمَّ عَلَيْهِ نِعْمَةٌ الْإِحْصَانِ بِإِثْمَةِ جُلْدَةٍ، وَيُنْفَى سَنَةً عَنْ وَطَنِهِ وَبَلَدِهِ إِلَى بَلَدِ الْغُرْبَةِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ رَأْسِ الْعَبْدِ وَبَدَنِهِ إِذَا وَقَعَ عَلَى ذَاتِ رَحِمٍ مِنْهُ، أَوْ تَرَكَ الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، أَوْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ كُفْرٍ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ مَنْ وَطِئَ ذَكَرًا مِثْلَهُ وَقَتَلَ الْمُفْعُولَ بِهِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ مَنْ أَتَى بِهَيْمَةٍ وَقَتَلَ الْبِهَيْمَةَ مَعَهُ، وَعَزَمَ عَلَى تَحْرِيقِ بُيُوتِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي رَتَّبَهَا اللَّهُ عَلَى الْجَرَائِمِ، وَجَعَلَهَا بِحُكْمَتِهِ عَلَى حَسَبِ الدَّوَاعِي إِلَى تِلْكَ الْجَرَائِمِ، وَحَسَبِ الْوَازِعِ عَنْهَا.

فَمَا كَانَ الْوَازِعُ عَنْهُ طَبَعِيًّا وَمَا لَيْسَ فِي الطَّبَاعِ دَاعٍ إِلَيْهِ أَكْتَفِي بِالتَّحْرِيمِ مَعَ التَّعْزِيرِ، وَلَمْ يُرْتَّبْ عَلَيْهِ حَدًّا، كَأَكْلِ الرَّجِيعِ، وَشُرْبِ الدَّمِ، وَأَكْلِ الْمَيْتَةِ.

وَمَا كَانَ فِي الطَّبَاعِ دَاعٍ إِلَيْهِ رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ بِقَدْرِ مَفْسَدَتِهِ، وَبِقَدْرِ دَاعِيِ الطَّبَعِ إِلَيْهِ.

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ دَاعِيِ الطَّبَاعِ إِلَى الزُّنَا مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي كَانَتْ عُقُوبَتُهُ الْعُظْمَى مِنْ أَشْنَعَ الْقِتْلَاتِ وَأَعْظَمِهَا، وَعُقُوبَتُهُ السَّهْلَةُ أَعْلَى أَنْوَاعِ الْجُلْدِ مَعَ زِيَادَةِ التَّعْزِيرِ.

وَلَمَّا كَانَتْ جَرِيمَةُ اللُّوَاطِ فِيهَا الْأَمْرَانِ، كَانَ حَدَّهُ الْقَتْلَ بِكُلِّ حَالٍ، وَلَمَّا كَانَ دَاعِي السَّرِقَةِ قَوِيًّا
وَمَفْسُدَتْهَا كَذَلِكَ، قَطَعَ فِيهَا الْيَدَ.

وَتَأَمَّلْ حِكْمَتَهُ فِي إِفْسَادِ الْعُضْوِ الَّذِي بَاشَرَ بِهِ الْجِنَايَةَ، كَمَا أَفْسَدَ عَلَى قَاطِعِ الطَّرِيقِ يَدَهُ وَرِجْلَهُ اللَّتَيْنِ
هُمَا آلَةُ قَطْعِهِ، وَلَمْ يُفْسِدْ عَلَى الْقَازِفِ لِسَانَهُ الَّذِي جَنَى بِهِ، إِذْ مَفْسُدَتُهُ تَزِيدُ عَلَى مَفْسَدَةِ الْجِنَايَةِ وَلَا يُبْلَغُهَا،
فَاكْتَفَى مِنْ ذَلِكَ بِإِيلَامِ جَمِيعِ بَدَنِهِ بِالْجُلْدِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلَّا أَفْسَدَ عَلَى الزَّانِي فَرَجَهُ الَّذِي بَاشَرَ بِهِ الْمَعْصِيَةَ.

قِيلَ: لَوْ جُوهَ:

أَحَدُهَا: أَنَّ مَفْسَدَةَ ذَلِكَ تَزِيدُ عَلَى مَفْسَدَةِ الْجِنَايَةِ، إِذْ فِيهِ قَطْعُ النَّسْلِ وَتَعْرِيفُهُ لِلْهَلَاكِ.

الثَّانِي: أَنَّ الْفَرْجَ عُضْوٌ مُسْتَوْرٌ، لَا يُحْضَلُ بِقَطْعِهِ مَقْصُودٌ الْحَدِّ مِنَ الرَّدْعِ وَالزَّجْرِ لِأَمْتَالِهِ مِنَ الْجُنَاةِ،
بِخِلَافِ قَطْعِ الْيَدِ.

الثَّلَاثُ: أَنَّهُ إِذَا قَطَعَ يَدَهُ أَبْقَى لَهُ يَدًا أُخْرَى تُعَوِّضُ عَنْهَا، بِخِلَافِ الْفَرْجِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ لَذَّةَ الزَّانَا عَمَّتْ جَمِيعَ الْبَدَنِ، فَكَانَ الْأَحْسَنُ أَنْ تَعَمَّ الْعُقُوبَةُ جَمِيعَ الْبَدَنِ، وَذَلِكَ أَوْلَى مِنْ
تَخْصِيصِهَا بِضِعَّةٍ مِنْهُ.

فَعُقُوبَاتُ الشَّارِعِ جَاءَتْ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ وَأَوْفَقِهَا لِلْعَقْلِ، وَأَقْوَمِهَا بِالْمُصْلَحَةِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الذُّنُوبَ إِنَّمَا تَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا الْعُقُوبَاتُ الشَّرْعِيَّةُ أَوْ الْقَدَرِيَّةُ أَوْ يَجْمَعُهَا اللَّهُ لِلْعَبْدِ، وَقَدْ
يَرْفَعُهَا عَمَّنْ تَابَ وَأَحْسَنَ.

فَصَلِّ

وَعُقُوبَاتُ الذُّنُوبِ نَوْعَانِ: شَرِّعِيَّةٌ، وَقَدْرِيَّةٌ، فَإِذَا أُقِيمَتِ الشَّرِّعِيَّةُ رُفِعَتِ الْعُقُوبَةُ الْقَدْرِيَّةُ وَخَفَّفَتْهَا، وَلَا يَكَادُ الرَّبُّ تَعَالَى يَجْمَعُ عَلَى الْعَبْدَيْنِ الْعُقُوبَتَيْنِ إِلَّا إِذَا لَمْ يَفِ أَحَدُهُمَا بِرَفْعِ مُوجِبِ الذَّنْبِ، وَلَمْ يَكْفِ فِي زَوَالِ دَائِهِ، وَإِذَا عَطَلَتِ الْعُقُوبَاتُ الشَّرِّعِيَّةُ اسْتَحَالَتْ قَدْرِيَّةً، وَرُبَّمَا كَانَتْ أَشَدَّ مِنَ الشَّرِّعِيَّةِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ دُونَهَا، وَلَكِنَّهَا تَعْمُ، وَالشَّرِّعِيَّةُ تَخُصُّ، فَإِنَّ الرَّبَّ لَا يُعَاقِبُ شَرًّا إِلَّا مَنْ بَاشَرَ الْجِنَايَةَ أَوْ تَسَبَّبَ إِلَيْهَا.

وَأَمَّا الْعُقُوبَةُ الْقَدْرِيَّةُ فَإِنَّهَا تَقَعُ عَامَّةً وَخَاصَّةً، فَإِنَّ الْمُعْصِيَةَ إِذَا خَفِيَتْ لَمْ تُضَرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا أَعْلَنْتْ ضُرَّتِ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ، وَإِذَا رَأَى النَّاسُ الْمُنْكَرَ فَتَرَكُوا إِنْكَارَهُ أَوْ شَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْعُقُوبَةَ الشَّرِّعِيَّةَ شَرَعَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ مَفْسَدَةِ الذَّنْبِ وَتَقَاضِي الطَّبَعِ لَهَا، وَجَعَلَهَا سُبْحَانَهُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ: الْقَتْلَ وَالْقَطْعَ وَالْجُلْدَ، وَجَعَلَ الْقَتْلَ يَأْزِءُ الْكُفْرَ وَمَا يَلِيهِ وَيَقْرُبُ مِنْهُ، وَهُوَ الزِّنَا وَاللُّوَاطُ، فَإِنَّ هَذَا يُفْسِدُ الْأَدْيَانَ، وَهَذَا يُفْسِدُ الْأَنْسَابَ وَنَوْعَ الْإِنْسَانِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: لَا أَعْلَمُ بَعْدَ الْقَتْلِ ذَنْبًا أَعْظَمَ مِنَ الزِّنَا، وَاحْتَجَّ بِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهَا ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ ٦٨].

وَالنَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ أَعْلَاهُ لِيُطَابِقَ جَوَابُهُ سُؤَالَ السَّائِلِ، فَإِنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ أَعْظَمِ الذَّنْبِ، فَأَجَابَهُ بِمَا تَضَمَّنَ ذِكْرَ أَعْظَمِ أَنْوَاعِهَا، وَمَا هُوَ أَعْظَمُ كُلِّ نَوْعٍ. فَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الشُّرْكِ أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدُ لِلَّهِ نِدَاءً.

وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الْقَتْلِ: أَنْ يُقْتَلَ وَلَدُهُ خَشِيَّةً أَنْ يُشَارِكَهُ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ.

وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الزَّانَا: أَنْ يَزِنَ بِحَلِيلَةِ جَارِهِ، فَإِنَّ مَفْسَدَةَ الزَّانَا تَتَضَاعَفُ بِتَضَاعُفِ مَا أَنْتَهَكَهُ مِنَ الْحَقِّ. فَالزَّانَا بِالْمَرْأَةِ الَّتِي لَهَا زَوْجٌ أَعْظَمُ إِثْمًا وَعُقُوبَةً مِنَ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا، إِذْ فِيهِ أَنْتَهَاكُ حُرْمَةِ الزَّوْجِ، وَإِفْسَادُ فِرَاشِهِ وَتَعْلِيْقُ نَسَبٍ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ أَذَاهُ، فَهُوَ أَعْظَمُ إِثْمًا وَجُرْمًا مِنَ الزَّانَا بِغَيْرِ ذَاتِ الْبَعْلِ.

فَالزَّانَا بِمَاءَةِ امْرَأَةٍ لَا زَوْجَ لَهَا أَيْسَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الزَّانَا بِامْرَأَةِ الْجَارِ، فَإِنْ كَانَ زَوْجُهَا جَارًا لَهُ أَنْصَافَ إِلَى ذَلِكَ سُوءِ الْجَوَارِ، وَأَذَى جَارِهِ بِأَعْلَى أَنْوَاعِ الْأَذَى وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْبَوَاتِقِ.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بِوَأْتِقَهُ»^(١) وَلَا بِأَيْقَةِ أَعْظَمُ مِنَ الزَّانَا بِامْرَأَةِ الْجَارِ.

فَإِنْ كَانَ الْجَارُ أَخًا لَهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْ أَقَارِبِهِ أَنْصَمَ إِلَى ذَلِكَ قَطِيعَةَ الرَّحِمِ، فَيَتَضَاعَفُ الْإِثْمُ لَهُ، فَإِنْ كَانَ الْجَارُ غَائِبًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ كَالصَّلَاةِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ تَضَاعَفَ لَهُ الْإِثْمُ، حَتَّى إِنَّ الزَّانِي بِامْرَأَةِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوقَفُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَمَا ظَنُّكُمْ؟ أَيُّ مَا ظَنُّكُمْ أَنَّهُ يَتْرُكُ لَهُ حَسَنَاتٍ، قَدْ حَكَّمْ فِي أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا شَاءَ؟ عَلَى شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى حَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ، حَيْثُ لَا يَتْرُكُ الْأَبُ لِابْنِهِ وَلَا الصَّدِيقُ لِصَدِيقِهِ حَقًّا يَجِبُ عَلَيْهِ، فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ رَحِمًا مِنْهُ أَنْصَافَ إِلَى ذَلِكَ قَطِيعَةَ رَحِمِهَا، فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ الزَّانِي مُحْصَنًا كَانَ الْإِثْمُ أَعْظَمَ، فَإِنْ كَانَ شَيْخًا كَانَ أَعْظَمَ إِثْمًا، وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ لَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزَكِّيهِمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ، فَإِنْ اقْتَرَنَ بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فِي شَهْرِ حَرَامٍ أَوْ بَلَدٍ حَرَامٍ أَوْ وَقْتٍ مُعْظَمٍ عِنْدَ اللَّهِ،

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار (٤٦).

كَأَوْقَاتِ الصَّلَاةِ وَأَوْقَاتِ الْإِجَابَةِ، تَضَاعَفَ الْإِثْمُ. وَعَلَى هَذَا فَاعْتَبِرْ مَفَاسِدَ الذُّنُوبِ وَتَضَاعُفَ
دَرَجَاتِهَا فِي الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فَصْلٌ

وَجَعَلَ سُبْحَانَهُ الْقَطْعَ بِإِزَاءِ فَسَادِ الْأَمْوَالِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ الْإِحْتِرَازُ مِنْهُ، لِأَنَّهُ يَأْخُذُ الْأَمْوَالَ فِي
الْإِحْتِفَاءِ، وَيُنْقَبُ الدُّورَ، وَيَتَسَوَّرُ مِنْ غَيْرِ الْأَبْوَابِ، فَهُوَ كَالسَّنُورِ وَالْحَيَّةِ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ
لَا تَعْلَمُ، فَلَمْ تَرْتَفِعْ مَفْسَدَةُ سِرْقَتِهِ إِلَى الْقَتْلِ، وَلَا تَنْدَفِعُ بِالْجُلْدِ، فَأَحْسَنُ مَا دُفِعَتْ بِهِ مَفْسَدَتُهُ إِبَانَةُ الْعُضْوِ
الَّذِي يَتَسَلَّطُ بِهِ عَلَى الْجَنَائَةِ، وَجُعِلَ الْجُلْدُ بِإِزَاءِ إِفْسَادِ الْعُقُولِ وَتَمْرِيقِ الْأَعْرَاضِ بِالْقَذْفِ.

فَدَارَتْ عُقُوبَاتُهُ سُبْحَانَهُ الشَّرْعِيَّةُ عَلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ، كَمَا دَارَتْ الْكُفَّارَاتُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:
الْعِتْقِ، وَهُوَ أَعْلَاهَا، وَالْإِطْعَامِ، وَالصِّيَامِ.

ثُمَّ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الذُّنُوبَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:

قِسْمًا فِيهِ الْحُدُّ، فَهَذَا لَمْ يَشْرَعْ فِيهِ كَفَّارَةٌ اكْتِفَاءً بِالْحُدِّ.

وَقِسْمًا لَمْ يُرْتَّبْ عَلَيْهِ حَدًّا، فَشَرَعَ فِيهِ الْكُفَّارَةُ، كَالْوَطْءِ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ، وَالْوَطْءِ فِي الْإِحْرَامِ،
وَالظُّهَارِ، وَقَتْلِ الْحَطِّاءِ، وَالْحِنْثِ فِي الْيَمِينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقِسْمًا لَمْ يُرْتَّبْ عَلَيْهِ حَدًّا وَلَا كَفَّارَةً، وَهُوَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَا كَانَ الْوِازِعُ عَنْهُ طَبِيعِيًّا، كَأَكْلِ الْعِدْرَةِ، وَشُرْبِ الْبَوْلِ وَالِدَّمِّ.

وَالثَّانِي: مَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَدْنَى مِنْ مَفْسَدَةِ مَا رُتِّبَ عَلَيْهِ الْحُدُّ، كَالنَّظْرِ وَالْقُبْلَةِ وَاللَّمْسِ وَالْمِحَادَّةِ،

وَسِرْقَةِ فَلْسٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَشَرَعَ الْكُفَّارَاتِ فِي ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا: مَا كَانَ مُبَاحَ الْأَصْلِ، ثُمَّ عَرَضَ تَحْرِيمُهُ فَبَاشَرَهُ فِي الْحَالَةِ الَّتِي عَرَضَ فِيهَا التَّحْرِيمُ، كَالْوَطْءِ فِي الْإِحْرَامِ وَالصِّيَامِ، وَطَرْدُهُ: الْوَطْءُ فِي الْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ، بِخِلَافِ الْوَطْءِ فِي الدُّبْرِ، وَهَذَا كَانَ إِحْقَاقَ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ لَهُ بِالْوَطْءِ فِي الْحَيْضِ لَا يَصِحُّ، فَإِنَّهُ لَا يُبَاحُ فِي وَقْتِ دُونَ وَقْتٍ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ التَّلَوُّطِ، وَشُرْبِ الْمُسْكِرِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: مَا عَقَدَ اللَّهُ مِنْ نَذْرٍ أَوْ بِاللَّهِ مِنْ يَمِينٍ، أَوْ حَرَمَهُ اللَّهُ ثُمَّ أَرَادَ حِلَّهُ، فَشَرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حِلَّهُ بِالْكَفَّارَةِ وَسَمَّاهَا نِحْلَةً، وَكَيْسَتْ هَذِهِ الْكَفَّارَةُ مَا حِيَّةٌ لِهَيْتِكَ حُرْمَةِ الْأِسْمِ بِالْحِنْثِ، كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ، فَإِنَّ الْحِنْثَ قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا، وَقَدْ يَكُونُ مُسْتَحَبًّا، وَقَدْ يَكُونُ مُبَاحًا، وَإِنَّمَا الْكَفَّارَةُ حِلٌّ لِمَا عَقَدَهُ.

النَّوْعُ الثَّلَاثُ: مَا تَكُونُ فِيهِ جَابِرَةٌ لِمَا فَاتَ، كَكَفَّارَةِ قَتْلِ الْخَطَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِثْمٌ، وَكَفَّارَةِ قَتْلِ الصَّيْدِ خَطَاً، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْجَوَابِرِ، وَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنْ بَابِ الزَّوَاجِرِ، وَالنَّوْعُ الْوَسْطُ مِنْ بَابِ التَّحِلَّةِ لِمَا مِنْهُ الْعَقْدُ.

لَا يَجْتَمِعُ الْحُدُّ وَالتَّعْزِيرُ فِي مَعْصِيَةٍ، بَلْ إِنْ كَانَ فِيهَا حَدٌّ أَكْتَفِيَ بِهِ وَإِلَّا أَكْتَفِيَ بِالتَّعْزِيرِ، وَلَا يَجْتَمِعُ الْحُدُّ وَالتَّعْزِيرُ فِي مَعْصِيَةٍ، بَلْ كُلُّ مَعْصِيَةٍ فِيهَا حَدٌّ فَلَا كَفَّارَةَ فِيهَا، وَمَا فِيهِ كَفَّارَةٌ فَلَا حَدَّ فِيهِ، وَهَلْ يَجْتَمِعُ التَّعْزِيرُ وَالتَّعْزِيرُ فِي الْمَعْصِيَةِ الَّتِي لَا حَدَّ فِيهَا؟

فِيهِ وَجْهَانِ: وَهَذَا كَالْوَطْءِ فِي الْإِحْرَامِ وَالصِّيَامِ، وَوَطْءِ الْحَائِضِ، وَإِذَا أُوجِبْنَا فِيهِ الْكَفَّارَةَ، فَقِيلَ: يَجِبُ فِيهِ التَّعْزِيرُ لِمَا أَنْتَهَكَ مِنَ الْحُرْمَةِ بِرُكُوبِ الْجِنَايَةِ، وَقِيلَ: لَا تَعْزِيرَ فِي ذَلِكَ، أَكْتَفَاءً بِالْكَفَّارَةِ لِأَنَّهَا جَابِرَةٌ وَمَا حِيَّةٌ.

فَصْلٌ

وَأَمَّا الْعُقُوبَاتُ الْقَدْرِيَّةُ فَهِيَ نَوْعَانِ: نَوْعٌ عَلَى الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ، وَنَوْعٌ عَلَى الْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ.

وَالَّتِي عَلَى الْقُلُوبِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْآمُ وَجُودِيَّةٌ يُضْرَبُ بِهَا الْقَلْبُ.

وَالثَّانِي: قَطْعُ الْمَوَادِّ الَّتِي بِهَا حَيَاتُهُ وَصَلَاحُهُ عَنْهُ.

وَإِذَا قُطِعَتْ عَنْهُ حَصَلَ لَهُ أَضْدَادُهَا، وَعُقُوبَةُ الْقُلُوبِ أَشَدُّ الْعُقُوبَاتَيْنِ، وَهِيَ أَصْلُ عُقُوبَةِ الْأَبْدَانِ.

وَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ تَقْوَى وَتَتَزَايَدُ، حَتَّى تَسْرِي مِنَ الْقَلْبِ إِلَى الْبَدَنِ، كَمَا يَسْرِي أَلْمُ الْبَدَنِ إِلَى الْقَلْبِ، فَإِذَا

فَارَقَتِ النَّفْسُ الْبَدْنَ صَارَ الْحُكْمُ مُتَعَلِّقًا بِهَا فَظَهَرَتْ عُقُوبَةُ الْقَلْبِ حَيْثُذِ، وَصَارَتْ عَلَانِيَةً ظَاهِرَةً،

وَهِيَ الْمُسَمَّاةُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَنَسَبَتْهُ إِلَى الْبَرْزَخِ كَنَسَبَةِ عَذَابِ الْأَبْدَانِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ.

فَصْلٌ

وَالَّتِي عَلَى الْأَبْدَانِ أَيْضًا نَوْعَانِ:

نَوْعٌ فِي الدُّنْيَا، وَنَوْعٌ فِي الْآخِرَةِ.

وَشَدَّتْهَا وَدَوَّامُهَا بِحَسَبِ مَفَاسِدِ مَا رُبِّتَ عَلَيْهِ فِي الشَّدَّةِ وَالْخَلْقَةِ، فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرٌّ

أَصْلًا إِلَّا الذُّنُوبَ وَعُقُوبَاتِهَا، فَالشَّرُّ اسْمٌ لِذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَصْلُهُ مِنْ شَرِّ النَّفْسِ وَسَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ، وَهُمَا

الأَصْلَانِ اللَّذَانِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَعِيدُ مِنْهُمَا فِي خُطْبَتِهِ بِقَوْلِهِ: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»^(١).

وَسَيِّئَاتُ الْأَعْمَالِ مِنْ شُرُورِ النَّفْسِ، فَعَادَ الشَّرُّ كُلُّهُ إِلَى شَرِّ النَّفْسِ، فَإِنَّ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ مِنْ فُرُوعِهِ وَثَمَرَاتِهِ.

وَقَدْ اِخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا» هَلْ مَعْنَاهُ: السَّيِّئُ مِنْ أَعْمَالِنَا، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ النَّوعِ إِلَى جِنْسِهِ، أَوْ تَكُونُ (مِنْ) بَيَانِيَّةً؟ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: مِنْ عُقُوبَاتِهَا الَّتِي تَسُوءُ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: وَمِنْ عُقُوبَاتِ أَعْمَالِنَا الَّتِي تَسُوءُنَا، وَيُرْجَحُ هَذَا الْقَوْلُ: أَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ تَكُونُ قَدْ تَضَمَّنَتْ جَمِيعَ الشَّرِّ، فَإِنَّ شُرُورَ الْأَنْفُسِ تَسْتَلْزِمُ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ، وَهِيَ تَسْتَلْزِمُ الْعُقُوبَاتِ السَّيِّئَةَ، فَنَبَهُ بِشُرُورِ الْأَنْفُسِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ مِنْ قُبْحِ الْأَعْمَالِ، وَاکْتَفَى بِذِكْرِهَا مِنْهُ، أَوْ هِيَ أَصْلُهُ ثُمَّ ذَكَرَ غَايَةَ الشَّرِّ وَمُتَمَّهَاهُ، فَهُوَ السَّيِّئَاتُ الَّتِي تَسُوءُ الْعَبْدَ مِنْ عَمَلِهِ، مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَالْأَلَامِ، فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْإِسْتِعَاذَةَ أَصْلَ الشَّرِّ وَفُرُوعَهُ وَغَايَتَهُ وَمُقْتَضَاهُ.

وَمِنْ دُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ قَوْلُهُمْ: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: ٩].

فَهَذَا يَتَضَمَّنُ طَلَبَ وَقَايَتِهِمْ مِنْ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ وَعُقُوبَاتِهَا الَّتِي تَسُوءُ صَاحِبَهَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَتَى وَقَاهُمْ عَمَلَ السَّيِّئِ وَقَاهُمْ جَزَاءَ السَّيِّئِ، وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أَظْهَرَ فِي عُقُوبَاتِ الْأَعْمَالِ الْمَطْلُوبِ وَقَايَتِهَا يَوْمَئِذٍ.

(١) أخرجه الترمذي (١١٠٥) وأحمد / ١ / ٣٩٣ (٣٧٢١)، / ١ / ٤٣٢ (٤١١٦) وابن ماجه (١٨٩٢) والنسائي (١١٦٤) وأبو داود (٢١١٨) وغيرهم، من طريق الأعمش ويونس بن أبي إسحاق وشعبة وإسرائيل كلهم عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً في خطبة الحاجة.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ سَأَلُوهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَهَذَا هُوَ وَقَايَةُ الْعُقُوبَاتِ السَّيِّئَةِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّيِّئَةِ الَّتِي سَأَلُوا وَقَايَتَهَا، الْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ، يَكُونُ الَّذِي سَأَلَهُ الْمَلَائِكَةُ نَظِيرَ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ.

وَلَا يَرُدُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ: {يَوْمَئِذٍ} فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ وَقَايَةُ شُرُورِ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَهِيَ سَيِّئَاتُ فِي أَنْفُسِهَا.

قِيلَ: وَقَايَةُ السَّيِّئَاتِ نَوْعَانِ.

أَحَدُهُمَا: وَقَايَةُ فِعْلِهَا بِالتَّوْفِيقِ فَلَا تَصْدُرُ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: وَقَايَةُ جَزَائِهَا بِالْمَغْفِرَةِ، فَلَا يُعَاقَبُ عَلَيْهَا، فَتَضَمَّنَتْ الْآيَةُ سُؤَالَ الْأَمْرَيْنِ، وَالظَّرْفُ تَقْيِيدٌ لِلْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ لَا لِلْجُمْلَةِ الطَّلِيَّةِ.

وَتَأْمَلْ مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْخَبْرُ عَنِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ مَدْحِهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ اسْتِغْفَارَهُمْ تَوَسَّلَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِسَعَةِ عِلْمِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ، فَسَعَةُ عِلْمِهِ يَتَضَمَّنُ عِلْمَهُ بِذُنُوبِهِمْ وَأَسْبَابِهَا وَضَعْفِهِمْ عَنِ الْعِصْمَةِ، وَاسْتِيْلَاءِ عَدُوِّهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَهَوَاهُمْ وَطِبَاعِهِمْ وَمَا زَيْنَ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَعِلْمَهُ بِهِمْ إِذْ أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذْ هُمْ أَجْنَتُهُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَعِلْمَهُ السَّابِقَ بِأَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْصُوهُ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ سَعَةِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ.

وَسَعَةُ رَحْمَتِهِ تَتَضَمَّنُ أَنَّهُ لَا يَهْلِكُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ أَهْلُ تَوْحِيدِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَإِنَّهُ وَاسِعُ الرَّحْمَةِ لَا يُخْرِجُ عَنْ دَائِرَةِ رَحْمَتِهِ إِلَّا الْأَشْقِيَاءَ، وَلَا أَشَقَى مِمَّنْ لَمْ تَسَعَهُ رَحْمَتُهُ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لِلتَّائِبِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا سَبِيلَهُ، وَهُوَ صِرَاطُ الْمَوْصِلِ إِلَيْهِ الَّذِي هُوَ مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَطَاعَتُهُ، فَتَابُوا مِمَّا

يَكْرَهُ، وَاتَّبَعُوا السَّبِيلَ الَّتِي يُحِبُّهَا، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَأَنْ يُدْخِلَهُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَصُولِهِمْ وَفُرُوعِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَهُمْ بِهَا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَإِنَّهُ وَعَدَهُمْ بِهَا بِأَسْبَابٍ، وَمِنْ جُمَّلَتِهَا: دُعَاءُ مَلَائِكَتِهِ هُمْ أَنْ يُدْخِلَهُمْ إِيَّاهَا بِرَحْمَتِهِ الَّتِي مِنْهَا أَنْ وَفَّقَهُمْ لِأَعْمَالِهِمْ وَأَقَامَ مَلَائِكَتَهُ يَدْعُونَ هُمْ بِهَا.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ قَالُوا عَقِيبَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سُورَةُ

غَافِرٍ: ٨].

أَيُّ مَصْدَرٍ ذَلِكَ وَسَبَبُهُ وَغَايَتُهُ صَادِرٌ عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِكَ وَكَمَالِ عِلْمِكَ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ كَمَالُ الْقُدْرَةِ، وَالْحِكْمَةَ كَمَالُ الْعِلْمِ، وَبِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ يَقْضَى مَا شَاءَ، وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، فَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ مَصْدَرُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ عُقُوبَاتِ السَّيِّئَاتِ تَتَنَوَّعُ إِلَى عُقُوبَاتِ شَرِّعِيَّةٍ، وَعُقُوبَاتِ قَدْرِيَّةٍ، وَهِيَ إِمَّا فِي الْقَلْبِ، وَإِمَّا فِي الْبَدَنِ، وَإِمَّا فِيهِمَا، وَعُقُوبَاتِ فِي دَارِ الْبَرْزَخِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَعُقُوبَاتِ يَوْمَ عَوْدِ الْأَجْسَادِ، فَالذَّنْبُ لَا يَخْلُو مِنْ عُقُوبَةٍ أَلَبَّتْهُ، وَلَكِنْ لِحُجْلِ الْعَبْدِ لَا يَشْعُرُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ السَّكَرَانِ وَالْمُخَدَّرِ وَالنَّائِمِ الَّذِي لَا يَشْعُرُ بِالْأَلَمِ، فَتُرْتَّبُ الْعُقُوبَاتِ عَلَى الذُّنُوبِ كَتُرْتَّبِ الْإِحْرَاقِ عَلَى النَّارِ، وَالْكَسْرِ عَلَى الْإِنْكَسَارِ، وَالْعَرَقِ عَلَى الْمَاءِ، وَفَسَادِ الْبَدَنِ عَلَى السُّمُومِ، وَالْأَمْرَاضِ عَلَى الْأَسْبَابِ الْجَالِيَةِ لَهَا، وَقَدْ تُقَارَنُ الْمَضْرَةُ الذَّنْبِ وَقَدْ تَتَأَخَّرُ عَنْهُ، إِمَّا يَسِيرًا وَإِمَّا مُدَّةً، كَمَا يَتَأَخَّرُ الْمَرِيضُ عَنْ سَبَبِهِ أَنْ يُقَارِنَهُ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ الْغَلَطُ لِلْعَبْدِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَلَا يَرَى أَثْرَهُ عَقِبَهُ، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ يَعْمَلُ عَمَلَهُ عَلَى التَّدْرِيجِ شَيْئًا فَشَيْئًا، كَمَا تَعْمَلُ السُّمُومُ وَالْأَشْيَاءُ الضَّارَّةُ حَذْوًا الْقَدَّةَ بِالْقَدَّةِ، فَإِنْ تَدَارَكَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْإِسْتِفْرَاحِ وَالْحُمِيَّةِ، وَإِلَّا فَهُوَ صَائِرٌ إِلَى الْهَلَاكِ، هَذَا إِذَا كَانَ ذَنْبًا وَاحِدًا لَمْ يَتَدَارَكْهُ بِمَا يُزِيلُ أَثْرَهُ، فَكَيْفَ بِالذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ كُلِّ يَوْمٍ وَكُلِّ سَاعَةٍ؟ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فصل

فَاسْتَحْضِرْ بَعْضَ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي رَتَّبَهَا اللَّهُ عَلَى الذُّنُوبِ وَجَوِّزْ وَصُولَ بَعْضِهَا إِلَيْكَ وَاجْعَلْ ذَلِكَ دَاعِيًا لِلنَّفْسِ إِلَى هِجْرَانِهَا، وَأَنَا أَسُوقُ إِلَيْكَ مِنْهَا طَرَفًا يَكْفِي الْعَاقِلَ مَعَ التَّصَدِيقِ بَبَعْضِهِ.

فَمِنْهَا: الْحُتْمُ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ، وَالْغِشَاوَةُ عَلَى الْأَبْصَارِ، وَالْأَقْفَالُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَجَعَلَ الْأَكِنَّةَ عَلَيْهَا وَالرَّيْنَ عَلَيْهَا وَالطَّبْعَ وَتَقْلِيْبُ الْأَفِنَّةِ وَالْأَبْصَارِ، وَالْحَيْلُولَةَ بَيْنَ الْمُرءِ وَقَلْبِهِ، وَإِعْقَالَ الْقَلْبِ عَنْ ذِكْرِ الرَّبِّ، وَإِنْسَاءَ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وَتَرَكَ إِرَادَةَ اللَّهِ تَطْهِيرَ الْقَلْبِ، وَجَعَلَ الصَّدْرَ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ، وَصَرَفُ الْقُلُوبِ عَنِ الْحَقِّ، وَزِيَادَتُهَا مَرَضًا عَلَى مَرَضِهَا، وَإِرْكَاسُهَا وَإِنْكَاسُهَا بِحَيْثُ تَبَقَى مَنْكُوسَةً، كَمَا ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ أَنَّهُ قَالَ: الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: فَقَلْبٌ أَجْرُدٌ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ، وَقَلْبٌ تَمَكَّهُ مَادَّتَانِ: مَادَّةُ إِيمَانٍ وَمَادَّةُ نِفَاقٍ، وَهُوَ لِمَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا.

وَمِنْهَا: الشَّيْطَانُ عَنِ الطَّاعَةِ، وَالْإِفْعَادُ عَنْهَا.

وَمِنْهَا: جَعَلَ الْقَلْبَ أَصَمًّا لَا يَسْمَعُ الْحَقَّ، أَبْكَمًّا لَا يَنْطِقُ بِهِ، أَعْمَى لَا يَرَاهُ، فَتَصِيرُ النَّسْبَةُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَنْفَعُهُ غَيْرُهُ، كَالنَّسْبَةِ بَيْنَ أُذُنِ الْأَصَمِّ وَالْأَصْوَاتِ، وَعَيْنِ الْأَعْمَى وَالْأَلْوَانِ، وَلِسَانِ الْأَخْرَسِ وَالْكَلامِ، وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ الْعَمَى وَالصَّمَمَ وَالْبَكْمَ لِلْقَلْبِ بِالذَّاتِ: الْحَقِيقَةُ، وَلِلْجَوَارِحِ بِالْعَرَضِ وَالتَّبَعِيَّةِ ﴿فَاتِّبَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سُورَةُ الْحَجِّ: ٤٦].

وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ الْعَمَى الْحَسِيِّ عَنِ الْبَصَرِ، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [سُورَةُ النُّورِ: ٦١].

وَقَالَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [سُورَةُ عَبَسَ: ١ - ٢].

وَأَيْتُ الْمُرَادِ الْعَمَى التَّأَمُّ فِي الْحَقِيقَةِ: عَمَى الْقَلْبِ، حَتَّى إِنَّ عَمَى الْبَصَرِ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ كَلَا عَمَى، حَتَّى إِنَّهُ يَصِحُّ نَفْيُهُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى كَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(١) وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ»^(٢) وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي جَعَلَ الْقَلْبَ أَعْمَى أَصَمَّ أَبْكَمَ.

وَمِنْهَا: الْحَسْفُ بِالْقَلْبِ كَمَا يُحْسَفُ بِالْمَكَانِ وَمَا فِيهِ، فَيُحْسَفُ بِهِ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ وَصَاحِبِهِ لَا يَشْعُرُ، وَعَلَامَةُ الْحَسْفِ بِهِ أَنَّهُ لَا يَزَالُ جَوَّالًا حَوْلَ السُّفْلِيَّاتِ وَالْقَادُورَاتِ وَالرِّدَائِلِ، كَمَا أَنَّ الْقَلْبَ الَّذِي رَفَعَهُ اللَّهُ وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ لَا يَزَالُ جَوَّالًا حَوْلَ الْعَرْشِ.

وَمِنْهَا: الْبُعْدُ عَنِ الْبِرِّ وَالْحَيْرِ وَمَعَالِي الْأُمُورِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَخْلَاقِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ جَوَّالَةٌ، فَمِنْهَا مَا يَجُولُ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَمِنْهَا مَا يَجُولُ حَوْلَ الْحُسْنِ.

وَمِنْهَا: مَسْخُ الْقَلْبِ، فَيُمَسَّخُ كَمَا تُمَسَّخُ الصُّورَةُ، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ عَلَى قَلْبِ الْحَيَوَانِ الَّذِي شَابَهُ فِي أَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ وَطَبِيعَتِهِ، فَمِنْ الْقُلُوبِ مَا يُمَسَّخُ عَلَى قَلْبِ خَنْزِيرٍ لِشِدَّةِ شَبِّهِ صَاحِبِهِ بِهِ، وَمِنْهَا مَا

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب الحذر من الغضب (٦١١٤)؛ ومسلم في البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب قول الله ﷻ ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا﴾ ... (١٤٧٩)؛ ومسلم في الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ... (١٠٣٩).

يُمَسَّخُ عَلَى قَلْبِ كَلْبٍ أَوْ حِمَارٍ أَوْ حَيَّةٍ أَوْ عَقْرَبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذَا تَأْوِيلُ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ٣٨].

قَالَ: مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى أَخْلَاقِ السَّبَاعِ الْعَادِيَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى أَخْلَاقِ الْكِلَابِ وَأَخْلَاقِ الْخَنَازِيرِ وَأَخْلَاقِ الْحَمِيرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَطَوَّسُ فِي ثِيَابِهِ كَمَا يَتَطَوَّسُ الطَّاوُوسُ فِي رِيشِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ بَلِيدًا كَالْحِمَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤَثِّرُ عَلَى نَفْسِهِ كَالدِّيكِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ كَالْحَمَامِ، وَمِنْهُمْ الْحُقُودُ كَالجَمَلِ، وَمِنْهُمْ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ كُلُّهُ كَالْغَنَمِ، وَمِنْهُمْ أَشْبَاهُ الثَّعَالِبِ الَّتِي تَرُوعُ كَرَوْغَانِهَا، وَقَدْ شَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْجَحِيمِ وَالْغِيِّ بِالْحُمُرِ تَارَةً، وَبِالْكَلْبِ تَارَةً، وَبِالْأَنْعَامِ تَارَةً، وَتَقْوَى هَذِهِ الْمِشَابَهَةِ بَاطِنًا حَتَّى تَظْهَرَ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةَ ظُهُورًا خَفِيًّا، يَرَاهُ الْمُتَفَرِّسُونَ، وَتَظْهَرُ فِي الْأَعْمَالِ ظُهُورًا يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَلَا يَزَالُ يَقْوَى حَتَّى تُسْتَشَنَّعَ الصُّورَةُ، فَتَنْقَلِبُ لَهُ الصُّورَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَهُوَ الْمَسْخُ التَّامُّ، فَيَقْلِبُ اللَّهُ الصُّورَةَ الظَّاهِرَةَ عَلَى صُورَةِ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ، كَمَا فَعَلَ بِالْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ، وَيَفْعَلُ بِقَوْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَمَسِّخُهُمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ.

فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ مِنْ قَلْبٍ مَنكُوسٍ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ؟ وَقَلْبٍ مَمْسُوحٍ وَقَلْبٍ مَحْسُوفٍ بِهِ؟ وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِنِشَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَمَعْرُورٍ بِسِتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ وَمُسْتَدْرَجٍ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ وَكُلِّ هَذِهِ عُقُوبَاتٌ وَإِهَانَاتٌ وَيُظَنُّ الْجَاهِلُ أَنَّهَا كَرَامَةٌ.

وَمِنْهَا: مَكْرُ اللَّهِ بِالْمَاكِرِ، وَمُخَادَعَتُهُ لِلْمُخَادِعِ، وَاسْتِهْزَاؤُهُ بِالْمُسْتَهْزِئِ، وَإِزَاعَتُهُ لِلْقَلْبِ الزَّائِعِ عَنِ الْحَقِّ.

وَمِنْهَا: نَكْسُ الْقَلْبِ حَتَّى يَرَى الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، وَيُفْسِدُ وَيَرَى أَنَّهُ يُصْلِحُ، وَيُصَدِّدُ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَيَشْتَرِي الصَّلَاةَ بِالْهَدَى، وَهُوَ يَرَى

أَنَّهُ عَلَى الْهَدَى، وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُطِيعٌ لِمَوْلَاهُ؟ وَكُلُّ هَذَا مِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ الْجَارِيَةِ عَلَى الْقَلْبِ.

وَمِنْهَا: حِجَابُ الْقَلْبِ عَنِ الرَّبِّ فِي الدُّنْيَا، وَالْحِجَابُ الْأَكْبَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُطَفِّينَ: ١٤ - ١٥].

فَمَنْعَتُهُمُ الذُّنُوبُ أَنْ يَقْطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَهُمْ وَيَبِينَ قُلُوبِهِمْ، فَيَصِلُوا إِلَيْهَا فَيَرَوْا مَا يُصْلِحُهَا وَيُزَكِّيَهَا، وَمَا يُفْسِدُهَا وَيُشْقِيهَا، وَأَنْ يَقْطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَيَبِينَ رَبِّهِمْ، فَتَصِلَ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ فَتُفُوزَ بِقُرْبِهِ وَكَرَامَتِهِ، وَتَقَرَّرَ بِهِ عَيْنًا وَتَطْيَبَ بِهِ نَفْسًا، بَلْ كَانَتْ الذُّنُوبُ حِجَابًا بَيْنَهُمْ وَيَبِينَ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ.

وَمِنْهَا: الْمَعِيشَةُ الضَّنْكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْبَرْزَخِ، وَالْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [سُورَةُ طه: ١٢٤].

وَفُسِّرَتِ الْمَعِيشَةُ الضَّنْكَ بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنَ الْمَعِيشَةِ الضَّنْكَ، وَالْآيَةُ تَتَنَاوَلُ مَا هُوَ أَعْمُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَتْ نَكْرَةً فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ، فَإِنَّ عُمُومَهَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ رَبَّ الْمَعِيشَةِ الضَّنْكَ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِهِ، فَالْمُعْرَضُ عَنْهُ لَهُ مِنْ ضَنْكَ الْمَعِيشَةِ بِحَسَبِ إِعْرَاضِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ فِي الدُّنْيَا بِأَصْنَافِ النِّعَمِ، فَفِي قَلْبِهِ مِنَ الْوَحْشَةِ وَالذُّلِّ وَالْحَسْرَاتِ الَّتِي تَقْطَعُ الْقُلُوبَ، وَالْأَمَانِي الْبَاطِلَةَ وَالْعَذَابِ الْحَاضِرِ مَا فِيهِ، وَإِنَّمَا يُوَارِيهِ عَنْهُ سَكَرَاتُ الشَّهَوَاتِ وَالْعِشْقِ وَحُبُّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، وَإِنْ لَمْ يَنْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ سُكْرُ الْحَمْرِ، فَسُكْرُ هَذِهِ الْأُمُورِ أَعْظَمُ مِنْ سُكْرِ الْحَمْرِ، فَإِنَّهُ يَفِيقُ صَاحِبُهُ وَيَضْحُو، وَسُكْرُ الْهَوَى وَحُبِّ الدُّنْيَا لَا يَضْحُو صَاحِبُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُهُ فِي عَسْكَرِ الْأَمْوَاتِ، فَالْمَعِيشَةُ الضَّنْكَ لَازِمَةٌ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ فِي دُنْيَاهُ وَفِي الْبَرْزَخِ وَيَوْمَ مَعَادِهِ، وَلَا تَقَرُّ الْعَيْنُ، وَلَا يَهْدَأُ الْقَلْبُ، وَلَا تَطْمَئِنُّ النَّفْسُ إِلَّا بِإِلَهَائِهَا وَمَعْبُودِهَا الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ، فَمَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ قَرَّتْ بِهِ كُلُّ عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِاللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسْرَاتٍ، وَاللَّهُ

تَعَالَى إِنَّهَا جَعَلَ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ صَالِحًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ٩٧].

فَضَمِنَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجُزْءَ فِي الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَالْحُسْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَهُمْ أَطْيَبُ الْحَيَاتَيْنِ، فَهُمَ أَحْيَاءُ فِي الدَّارَيْنِ.

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ٣٠].

وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ٣].

فَفَازَ الْمُتَّقُونَ الْمُحْسِنُونَ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحَصَلُوا عَلَى الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدَّارَيْنِ، فَإِنَّ طِيبَ النَّفْسِ، وَسُرُورَ الْقَلْبِ، وَفَرَحَهُ وَلَذَّتَهُ وَإِتِّهَاجَهُ وَطُمَأْنِينَتَهُ وَأَنْشُرَاحَهُ وَنُورَهُ وَسَعَتَهُ وَعَافِيَتَهُ مِنْ تَرْكِ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالشُّبُهَاتِ الْبَاطِلَةِ - هُوَ النَّعِيمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَا نَسْبَةَ لِنَعِيمِ الْبَدَنِ إِلَيْهِ.

فَقَدْ كَانَ يَقُولُ بَعْضُ مَنْ ذَاقَ هَذِهِ اللَّذَّةَ: لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالِدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ.

وَقَالَ آخَرُ: إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ.

وَقَالَ آخَرُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً هِيَ فِي الدُّنْيَا كَالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، فَمَنْ دَخَلَهَا دَخَلَ تِلْكَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذِهِ الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: حِلْقُ الذُّكْرِ»^(١) وَقَالَ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمَنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»^(٢).

وَلَا تَظَنَّ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ: ١٣ - ١٤] مُحْتَصِّصٌ يَوْمَ الْمَعَادِ فَقَطُّ، بَلْ هُوَ لِأَيِّ فِي نَعِيمٍ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ، وَهَؤُلَاءِ فِي جَحِيمٍ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ، وَأَيُّ لَذَّةٍ وَنَعِيمٍ فِي الدُّنْيَا أَطْيَبُ مِنْ بَرِّ الْقَلْبِ، وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ، وَمَعْرِفَةِ الرَّبِّ وَمَحَبَّتِهِ، وَالْعَمَلِ عَلَى مُوَافَقَتِهِ؟ وَهَلِ الْعَيْشُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا عَيْشُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ؟ وَقَدْ أَتَى اللَّهُ عَلَى خَلِيلِهِ بِسَلَامَةِ قَلْبِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٨٣ - ٨٤].

وَقَالَ حَاكِيًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٨٨ - ٨٩].

وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الشَّرِّ وَالْغُلِّ وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشُّحِّ وَالْكَبْرِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ، فَسَلِمَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ تُبْعِدُهُ عَنِ اللَّهِ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبْرَهُ، وَمِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ تُعَارِضُ أَمْرَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ إِرَادَةٍ تُزَاحِمُ مُرَادَهُ، وَسَلِمَ مِنْ كُلِّ قَاطِعٍ يَقْطَعُ عَنِ اللَّهِ، فَهَذَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ فِي جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَفِي جَنَّةٍ فِي الْبَرَزَخِ، وَفِي جَنَّةٍ يَوْمَ الْمَعَادِ.

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٠) وأحمد (١٥٠ / ٣) (١٢٥٤٥) وأبو يعلى (١٥٥ / ٦) (٣٤٣٢) وابن عدي في الكامل (٦ / ١٣٦) وابن حبان في المجروحين (٢ / ٢٥٢) وابن عساكر (١٠ / ٣٨٦) وغيرهم من طريق محمد بن ثابت البناني عن أبيه عن أنس. وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٥٦٢) بشواهده.

(٢) أخرجه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر عن عبد الله بن زيد المازني (١١٩٥) وأبي هريرة (١١٩٦). ومسلم في الحج، باب ما بين القبر والمنبر... (١٣٩٠، ١٣٩١).

وَلَا تَتِمُّ لَهُ سَلَامَتُهُ مُطْلَقًا حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ شِرْكِ يُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ، وَبِدْعَةٍ تُخَالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهْوَةٍ تُخَالِفُ الْأَمْرَ، وَعَقْلَةٍ تُنَاقِضُ الذِّكْرَ، وَهَوًى يُنَاقِضُ التَّجْرِيدَ وَالْإِخْلَاصَ.
وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ حُجُبٌ عَنِ اللَّهِ، وَتَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، تَتَضَمَّنُ أَفْرَادًا لَا تَنْحَصِرُ.

وَلِذَلِكَ اشْتَدَّتْ حَاجَةُ الْعَبْدِ بَلْ ضُرُّورَتُهُ، إِلَى أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحْوَجَ مِنْهُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا.

فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ يَتَضَمَّنُ: عُلُومًا، وَإِرَادَةً، وَأَعْمَالًا، وَتُرُوكًا ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً تَجْرِي عَلَيْهِ كُلُّ وَقْتٍ، فَتَفَاصِيلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ قَدْ يَعْلَمُهَا الْعَبْدُ وَقَدْ لَا يَعْلَمُهَا، وَقَدْ يَكُونُ مَا لَا يَعْلَمُهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُهَا، وَمَا يَعْلَمُهَا قَدْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَقَدْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَإِنْ عَجَزَ عَنْهُ، وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ قَدْ تُرِيدُهُ نَفْسُهُ وَقَدْ لَا تُرِيدُهُ كَسَلًا وَتَهَاوُنًا، أَوْ لِقِيَامِ مَنَاعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا تُرِيدُهُ قَدْ يَفْعَلُهُ وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ، وَمَا يَفْعَلُهُ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِشُرُوطِ الْإِخْلَاصِ قَدْ يَقُومُ فِيهِ بِكَمَالِ الْمَتَابَعَةِ وَقَدْ لَا يَقُومُ، وَمَا يَقُومُ فِيهِ بِالْمَتَابَعَةِ قَدْ يَثْبُتُ عَلَيْهِ وَقَدْ يُضْرَفُ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَهَذَا كُلُّهُ وَاقِعٌ سَارٍ فِي الْخَلْقِ، فَامْتَسِكْهُ وَمُسْتَكْبِرٌ.

وَلَيْسَ فِي طِبَاعِ الْعَبْدِ الْهُدَايَةَ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ مَتَى وَكُلَّ إِلَى طِبَاعِهِ حِيلَ بَيْنَهُ وَيِنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَهَذَا هُوَ الْإِزْكَاسُ الَّذِي أَرْكَسَ اللَّهُ بِهِ الْمُنَافِقِينَ بِذُنُوبِهِمْ، فَأَعَادَهُمْ إِلَى طِبَاعِهِمْ وَمَا خُلِقَتْ عَلَيْهِ نَفُوسُهُمْ مِنَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، وَالرَّبُّ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ فِي قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَمَنْهِيهِ وَأَمْرِهِ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجَعَلَهُ الْهُدَايَةَ حَيْثُ نَصَلِحْ، وَيَضْرَفُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، لِعَدَمِ صِلَاحِيَةِ الْمُحَلِّ، وَذَلِكَ مُوجِبٌ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَصَبَ خَلْقِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوَصِّلُهُمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ.

وَنَصَبَ لِعِبَادِهِ مِنْ أَمْرِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا دَعَاهُمْ جَمِيعًا إِلَيْهِ حُجَّةً مِنْهُ وَعَدْلًا، وَهَدَى مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ إِلَى سُلُوكِهِ نِعْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَلَمْ يُخْرِجْ بِهَذَا الْعَدْلِ وَهَذَا الْفَضْلِ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ لِقَائِهِ نَصَبَ لِحَلْفِهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُوصِلُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، ثُمَّ صَرَفَ عَنْهُ مَنْ صَرَفَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَقَامَ عَلَيْهِ مَنْ أَقَامَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، نُورًا ظَاهِرًا يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِيَانِهِمْ فِي ظِلْمَةِ الْحَشْرِ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ نُورَهُمْ حَتَّى قَطَعُوهُ كَمَا حَفِظَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ حَتَّى لَقَوْهُ، وَأَطْفَأَ نُورَ الْمُنَافِقِينَ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ، كَمَا أَطْفَأَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وَأَقَامَ أَعْمَالَ الْعَصَاةِ بِجَنبَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِيْبَ وَحَسَكًا تَحْطِفُهُمْ كَمَا خَطَفَتْهُمْ فِي الدُّنْيَا عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ قُوَّةَ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتَهُمْ عَلَى قَدْرِ قُوَّةِ سَيْرِهِمْ وَسُرْعَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَنَصَبَ لِلْمُؤْمِنِينَ حَوْضًا يَشْرَبُونَ مِنْهُ بِإِزَاءِ شُرْبِهِمْ مِنْ شَرِّعِهِ فِي الدُّنْيَا، وَحَرَّمَ مِنَ الشُّرْبِ مِنْهُ هُنَاكَ مَنْ حُرِّمَ الشُّرْبُ مِنْ شَرِّعِهِ وَدِينِهِ هَاهُنَا.

فَانظُرْ إِلَى الْآخِرَةِ كَأَنَّهَا رَأْيُ عَيْنٍ، وَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الدَّارَيْنِ، تَعَلَّمَ حَيْثُ عَلِمَ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ: أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةٌ الْآخِرَةِ وَعُنُوتُهَا وَأَنْمُودُجُهَا، وَأَنَّ مَنَازِلَ النَّاسِ فِيهَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ عَلَى حَسَبِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَضِدِّهِمَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. فَمِنْ أَعْظَمِ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ - الْخُرُوجُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَصْلٌ

وَلَمَّا كَانَتْ الذُّنُوبُ مُتَفَاوِتَةً فِي دَرَجَاتِهَا وَمَفَاسِدِهَا تَفَاوَتَتْ عُقُوبَاتُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ تَفَاوُتِهَا.

وَنَحْنُ نَذَكُرُ فِيهَا بِعَوْنِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ فَضْلًا وَجِيزًا جَامِعًا، فَتَقُولُ:

أصلها نَوْعَانِ: تَرَكَ مَأْمُورًا، وَفَعَلَ مَحْظُورًا، وَهُمَا الذَّنْبَانِ اللَّذَانِ ابْتَلَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِمَا أَبُوي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

وَكَلاهُمَا يَنْقَسِمُ بِاعْتِبَارِ مَحَلِّهِ إِلَى ظَاهِرٍ عَلَى الْجَوَارِحِ، وَبَاطِنٍ فِي الْقُلُوبِ.

وَبِاعْتِبَارِ مُتَعَلِّقِهِ إِلَى حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ خَلْقِهِ.

وَإِنْ كَانَ كُلُّ حَقِّ خَلْقِهِ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِحَقِّهِ، لَكِنْ سُمِّيَ حَقًّا لِلْخَلْقِ لِأَنَّهُ يَجِبُ بِمُطَابَقَتِهِمْ وَيَسْقُطُ بِإِسْقَاطِهِمْ.

ثُمَّ هَذِهِ الذُّنُوبُ تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: مَلَكِيَّةٍ، وَشَيْطَانِيَّةٍ، وَسَبْعِيَّةٍ، وَبَهِيمِيَّةٍ، وَلَا تَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ. فَالذُّنُوبُ الْمَلَكِيَّةُ أَنْ يَتَعَاطَى مَا لَا يَصِحُّ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، كَالْعِظَمَةِ، وَالْكَبْرِيَاءِ، وَالْجَبْرُوتِ، وَالْقَهْرِ، وَالْعُلُوِّ، وَاسْتِعْبَادِ الْخَلْقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا شِرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ نَوْعَانِ: شِرْكٌ بِهِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَعْلُ آلِهَةٍ أُخْرَى مَعَهُ، وَشِرْكٌ بِهِ فِي مُعَامَلَتِهِ، وَهَذَا الثَّانِي قَدْ لَا يُوجِبُ دُخُولَ النَّارِ، وَإِنْ أَحْبَطَ الْعَمَلُ الَّذِي أَشْرَكَ فِيهِ مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ.

وَهَذَا الْقِسْمُ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ الذُّنُوبِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الذُّنُوبِ، فَقَدْ نَارَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ، وَجَعَلَ لَهُ نِدَاءً، وَهَذَا أَعْظَمُ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ عَمَلٌ.

فَصَلُّ الذُّنُوبِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَأَمَّا الشَّيْطَانِيَّةُ: فَالْتَّشَبُّهُ بِالشَّيْطَانِ فِي الْحَسَدِ، وَالْبَغْيِ وَالْغِيْشِ وَالْغُلِّ وَالْخِدَاعِ وَالْمُكْرِ، وَالْأَمْرَ بِمَعْاصِي اللَّهِ وَتَحْسِينِهَا، وَالنَّهْيَ عَنْ طَاعَتِهِ وَتَهْجِينِهَا، وَالْإِتِّدَاعِ فِي دِينِهِ، وَالذَّعْوَةَ إِلَى الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ.

وَهَذَا النَّوعُ يَلِي النَّوعَ الْأَوَّلَ فِي الْمَفْسَدَةِ، وَإِنْ كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ دُونَهُ.

فَصَلِّ الذُّنُوبِ السَّبْعِيَّةَ وَأَمَّا السَّبْعِيَّةُ: فَذُنُوبُ الْعُدْوَانِ وَالْغَضَبِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ، وَالتَّوَثُّبِ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَالْعَاجِزِينَ، وَيَتَوَلَّدُ مِنْهَا أَنْوَاعُ أَذَى النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْجُرْأَةِ عَلَى الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ.

الذُّنُوبِ الْبَهِيمِيَّةِ وَأَمَّا الذُّنُوبُ الْبَهِيمِيَّةُ: فَمِثْلُ الشَّرِّهِ وَالْحِرْصِ عَلَى قِصَاءِ شَهْوَةِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ، وَمِنْهَا يَتَوَلَّدُ الرِّزَا وَالسَّرِقَةُ وَأَكْلُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى، وَالْبُخْلُ، وَالشُّحُّ، وَالْجُبْنُ، وَالْهَلَعُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَهَذَا الْقِسْمُ أَكْثَرُ ذُنُوبِ الْخَلْقِ لِعَجْزِهِمْ عَنِ الذُّنُوبِ السَّبْعِيَّةِ وَالْمَلَكِيَّةِ، وَمِنْهُ يَدْخُلُونَ إِلَى سَائِرِ الْأَقْسَامِ، فَهُوَ يَجْرُهُمْ إِلَيْهَا بِالزَّمَامِ، فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ إِلَى الذُّنُوبِ السَّبْعِيَّةِ، ثُمَّ إِلَى الشَّيْطَانِيَّةِ، ثُمَّ مُنَازَعَةَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالشَّرْكِ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا حَقَّ التَّأَمُّلِ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الذُّنُوبَ دَهْلِيْزُ الشَّرْكِ وَالْكَفْرِ وَمُنَازَعَةَ اللَّهِ رَبُّوبِيَّتَهُ.

فَصْلٌ

وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ وَالْأئِمَّةَ، عَلَى أَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ كِبَائِرَ وَصَغَائِرَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: ٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [سُورَةُ النَّجْمِ: ٣٢].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «الصَّلَوَاتُ الْخُمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكْفَرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنِبْتَ الْكِبَائِرَ»^(١).

(١) أخرجه مسلم في الطهارة، باب الصلوات الخمس (٢٣٣).

وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ الْمَكْفُورَةُ لَهَا ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ:

إِحْدَاهَا: أَنْ تَقْصُرَ عَنْ تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ لِضَعْفِهَا وَضَعْفِ الْإِحْلَاصِ فِيهَا وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا، بِمَنْزِلَةِ الدَّوَاءِ الضَّعِيفِ الَّذِي يَنْقُصُ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدَّاءِ كَمِيَّةً وَكَيْفِيَّةً.

الثَّانِيَةُ: أَنْ تُقَاوِمَ الصَّغَائِرَ وَلَا تَرْتَقِيَ إِلَى تَكْفِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْكِبَائِرِ.

الثَّالِثَةُ: أَنْ تَقْوَى عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ وَتَبْقَى فِيهَا قُوَّةٌ تُكْفِرُ بِهَا بَعْضَ الْكِبَائِرِ.

فَتَأْمَلْ هَذَا فَإِنَّهُ يُزِيلُ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كَثِيرَةً.

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بَأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ:

«الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ»^(١).

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وَالسَّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»^(٢).

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سُئِلَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تُجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ»، قِيلَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَافَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قِيلَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (٢٦٥٣)؛ ومسلم في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا، باب قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] الآية، (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان باب بيان الكبائر (٨٩).

(٣) تقدّم.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَصْدِيقَهَا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
وَلَا يَزْنُونَ﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ٦٨].

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْكِبَائِرِ: هَلْ لَهَا عَدَدٌ يَحْصُرُهَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ.

ثُمَّ الَّذِينَ قَالُوا بِحَصْرِهَا اخْتَلَفُوا فِي عَدَدِهَا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: هِيَ أَرْبَعٌ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
عُمَرَ: هِيَ سَبْعٌ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو وَبْنُ الْعَاصِ: هِيَ تِسْعَةٌ، وَقَالَ غَيْرُهُ: هِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ، وَقَالَ
آخَرُ: هِيَ سَبْعُونَ.

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ الْمُكِّيُّ: جَمَعْتُهَا مِنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، فَوَجَدْتُهَا: أَرْبَعَةٌ فِي الْقَلْبِ، وَهِيَ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ،
وَالْإِضْرَارُ عَلَى الْمُعْصِيَةِ، وَالقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ.

وَأَرْبَعَةٌ فِي اللِّسَانِ، وَهِيَ: شَهَادَةُ الزُّورِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ، وَالسِّحْرُ.

وَثَلَاثٌ فِي الْبَطْنِ: شُرْبُ الْحَمْرِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرَّبَا.

وَأَثْنَانِ فِي الْفَرْجِ، وَهُمَا: الزَّانَا، وَاللَّوْاطُ.

وَأَثْنَانِ فِي الْيَدَيْنِ، وَهُمَا: الْقَتْلُ، وَالسَّرِقَةُ.

وَوَاحِدَةٌ فِي الرَّجْلَيْنِ، وَهِيَ: الْفِرَارُ مِنَ الرَّحْفِ.

وَوَاحِدٌ يَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ الْجَسَدِ، وَهُوَ: عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ.

وَالَّذِينَ لَمْ يَحْصُرُوا بِعَدَدٍ، مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كُلُّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا نَهَى عَنْهُ
الرَّسُولُ ﷺ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مَا اقْتَرَنَ بِالنَّهْيِ عَنْهُ وَعِيدٌ مِنْ لَعْنٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ عُقُوبَةٍ فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا لَمْ يَقْتَرِنِ بِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا تَرْتَبَ عَلَيْهِ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا أَوْ وَعِيدٌ فِي الآخِرَةِ، فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا لَمْ يَرْتَبَ عَلَيْهِ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ فَهُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَمَا كَانَ تَحْرِيمُهُ فِي شَرِيعةٍ دُونَ شَرِيعةٍ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا لَعَنَ اللَّهُ أَوْ رَسُولُهُ فَاعِلُهُ فَهُوَ كَبِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا ذُكِرَ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ النَّسَاءِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: ٣١].

وَالَّذِينَ لَمْ يَقْتَسِمُوا إِلَى كَبَائِرٍ وَصَغَائِرٍ، قَالُوا: الذُّنُوبُ كُلُّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَرَاعَةِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ أَمْرِهِ، كَبَائِرٌ، فَالنَّظَرُ إِلَى مَنْ عَصَى أَمْرَهُ وَأَنْتَهَكَ مَحَارِمَهُ، يُوجِبُ أَنْ تَكُونَ الذُّنُوبُ كُلُّهَا كَبَائِرٌ، وَهِيَ مُسْتَوِيَةٌ فِي هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ.

قَالُوا: وَيُوضِحُ هَذَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا تُضَرُّهُ الذُّنُوبُ وَلَا يَتَأَثَّرُ بِهَا، فَلَا يَكُونُ بَعْضُهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ أَكْبَرَ مِنْ بَعْضٍ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مُجَرَّدُ مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ ذَنْبٍ وَذَنْبٍ.

قَالُوا: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ مَفْسَدَةَ الذُّنُوبِ إِنَّمَا هِيَ تَابِعَةٌ لِلْجَرَاعَةِ وَالتَّوْتُّبِ عَلَى حَقِّ الرَّبِّ، وَهَذَا لَوْ شَرِبَ رَجُلٌ خَمْرًا، أَوْ وَطِئَ فَرْجًا حَرَامًا، وَهُوَ لَا يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ، لَكَانَ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْجَهْلِ وَبَيْنَ مَفْسَدَةِ ارْتِكَابِ الْحَرَامِ، وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ مَنْ يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ، لَكَانَ آتِيًا بِأَحَدِي الْمَفْسَدَتَيْنِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ دُونَ الْأَوَّلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَفْسَدَةَ الذَّنْبِ تَابِعَةٌ لِلْجَرَاعَةِ وَالتَّوْتُّبِ.

قَالُوا: وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تَتَّصِفُ بِأَمْرِ الْمَطَاعِ وَنَهْيِهِ وَأَنْتَهَاكِ حُرْمَتِهِ، وَهَذَا لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ ذَنْبٍ وَذَنْبٍ.

قَالُوا: فَلَا يُنْظَرُ الْعَبْدُ إِلَى كِبَرِ الذَّنْبِ وَصِغَرِهِ فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنْ يُنْظَرُ إِلَى قَدْرِ مَنْ عَصَاهُ وَعَظَمَتِهِ، وَأَنْتَهَاكِ حُرْمَتِهِ بِالْمَعْصِيَةِ، وَهَذَا لَا يَفْتَرِقُ فِيهِ الْحَالُ بَيْنَ مَعْصِيَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، فَإِنَّ مَلِكًا مُطَاعًا عَظِيمًا لَوْ أَمَرَ أَحَدًا مَمْلُوكِيهِ أَنْ يَذْهَبَ فِي مِهْمٍ لَهُ إِلَى بَلَدٍ بَعِيدٍ، وَأَمَرَ آخَرَ أَنْ يَذْهَبَ فِي شُغْلٍ لَهُ إِلَى جَانِبِ الدَّارِ، فَعَصِيَاهُ وَخَالَفَا أَمْرَهُ، لَكَانَا فِي مَقْتِهِ وَالسُّقُوطِ مِنْ عَيْنِهِ سَوَاءً.

قَالُوا: وَهَذَا كَانَتْ مَعْصِيَةٌ مِنْ تَرْكِ الْحَجِّ مِنْ مَكَّةَ وَتَرْكِ الْجُمُعَةِ وَهُوَ جَارُ الْمَسْجِدِ، أَقْبَحَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مَعْصِيَةٍ مِنْ تَرْكِ مِنَ الْمَكَانِ الْبَعِيدِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى هَذَا أَكْثَرُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى هَذَا، وَلَوْ كَانَ مَعَ رَجُلٍ مِائَتًا دِرْهَمٍ وَمَنْعَ زَكَاتِهَا، وَمَعَ آخَرَ مِائَتًا أَلْفَ دِرْهَمٍ فَمَنْعَ مِنْ زَكَاتِهَا؛ لِأَسْتَوِيَا فِي مَنْعِ مَا وَجِبَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَلَا يَبْعُدُ اسْتَوَاؤُهُمَا فِي الْعُقُوبَةِ، إِذَا كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا مُصْرًا عَلَى مَنْعِ زَكَاتِهِ مَالِهِ، قَلِيلًا كَانَ الْمَالُ أَوْ كَثِيرًا.

فَصْلٌ

وَكَشَفُ الْعِطَاءِ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنْ يُقَالَ:

إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ رَسُولَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيُعْرَفَ وَيُعْبَدَ وَيُوحَدَ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالطَّاعَةُ كُلُّهَا لَهُ، وَالدَّعْوَةُ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سُورَةُ الدَّارِيَّاتِ: ٥٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [سُورَةُ الْحَجَرِ: ٨٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطَّلَاقِ: ١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامِ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٩٧].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقَصْدَ بِالْحُلُقِ وَالْأَمْرِ: أَنْ يُعْرَفَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ، وَأَنَّ يُقَوْمَ النَّاسَ بِالْقِسْطِ، وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسَ بِالْقِسْطِ﴾ [الْحَدِيدِ: ٢٥].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ لِيُقَوْمَ النَّاسَ بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْقِسْطِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ رَأْسُ الْعَدْلِ وَقَوَامُهُ، وَإِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ، فَالشَّرْكَ أَظْلَمُ الظُّلْمِ، وَالتَّوْحِيدُ أَعْدَلُ الْعَدْلِ، فَمَا كَانَ أَشَدَّ مُنَافَاةً لِهَذَا الْمُقْصُودِ فَهُوَ أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ، وَتَفَاوُثُهَا فِي دَرَجَاتِهَا بِحَسَبِ مُنَافَاتِهَا لَهُ، وَمَا كَانَ أَشَدَّ مُوَافَقَةً لِهَذَا الْمُقْصُودِ فَهُوَ أَوْجَبُ الْوَاجِبَاتِ وَأَفْرُضُ الطَّاعَاتِ.

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْأَصْلَ حَقَّ التَّأَمُّلِ، وَاعْتَبِرْ تَفَاصِيلَهُ تَعْرِفْ بِهِ حِكْمَةَ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ، وَأَعْلَمِ الْعَالِمِينَ فِيمَا فَرَضَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ، وَتَفَاوُثَ مَرَاتِبِ الطَّاعَاتِ وَالْمُعَاصِي.

فَلَمَّا كَانَ الشَّرْكَ بِاللَّهِ مُنَافِيًا بِالذَّاتِ لِهَذَا الْمُقْصُودِ كَانَ أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ كُلِّ مُشْرِكٍ، وَأَبَاحَ دَمَهُ وَمَالَهُ وَأَهْلَهُ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ عِيدًا هُمْ لَمَّا تَرَكُوا الْقِيَامَ بِعِبُودِيَّتِهِ، وَأَبَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُشْرِكٍ عَمَلًا أَوْ يَقْبَلَ فِيهِ شَفَاعَةٌ أَوْ يَسْتَجِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ دَعْوَةً، أَوْ يُقِيلَ لَهُ عَثْرَةً، فَإِنَّ المُشْرِكَ أَجْهَلُ الْجَاهِلِينَ بِاللَّهِ، حَيْثُ جَعَلَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ نَدًّا، وَذَلِكَ غَايَةُ الْجَهْلِ بِهِ، كَمَا أَنَّهُ غَايَةُ الظُّلْمِ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ المُشْرِكُ لَمْ يَظْلِمِ رَبَّهُ وَإِنَّمَا ظَلَمَ نَفْسَهُ.

فصل

وَوَقَعَتْ مَسْأَلَةٌ وَهِيَ: أَنَّ الْمُشْرِكَ إِنَّمَا قَصَدَهُ تَعْظِيمُ جَنَابِ الرَّبِّ، وَأَنَّهُ لِعَظَمَتِهِ لَا يَنْبَغِي الدُّخُولُ عَلَيْهِ إِلَّا بِالْوَسَائِطِ وَالشُّفَعَاءِ كَحَالِ الْمُلُوكِ، فَالْمُشْرِكُ لَمْ يَقْصِدِ الإِسْتِهَانَةَ بِجَنَابِ الرَّبُّوبِيَّةِ، وَإِنَّمَا قَصَدَ تَعْظِيمَهُ، وَقَالَ: إِنَّمَا أَعْبُدُ هَذِهِ الْوَسَائِطَ لِتُقَرَّبَنِي إِلَيْهِ وَتُدَلِّنِي وَتُدْخِلَنِي عَلَيْهِ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ وَهَذِهِ وَسَائِلُ وَشُفَعَاءُ، فَلِمَ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مُوجِبًا لِسُخْطِهِ وَعَظْصِهِ، وَمُحَلِّدًا فِي النَّارِ، وَمُوجِبًا لِسَفْكِ دِمَائِ أَصْحَابِهِ، وَاسْتِبَاحَةِ حَرِيمِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؟

وَتَرْتَبَ عَلَى هَذَا سُؤَالَ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهُ هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَشْرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِالشُّفَعَاءِ وَالْوَسَائِطِ، فَيَكُونُ تَحْرِيمُ هَذَا إِنَّمَا اسْتِغْنَاءٌ مِنَ الشَّرْعِ، أَمْ ذَلِكَ قَيْحٌ فِي الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ، يَمْتَنِعُ أَنْ تَأْتِيَ بِهِ شَرِيعَةٌ؟ بَلْ جَاءَتِ الشَّرَائِعُ بِتَقْرِيرِ مَا فِي الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ مِنْ قُبْحِ الَّذِي هُوَ أَقْبَحُ مِنْ كُلِّ قَيْحٍ؟ وَمَا السَّبَبُ فِي كَوْنِهِ لَا يَغْفِرُهُ مِنْ دُونَ سَائِرِ الذُّنُوبِ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: ٤٨].

فَتَأْمَلْ هَذَا السُّؤَالَ، وَاجْمَعْ قَلْبَكَ وَذَهْنَكَ عَلَى جَوَابِهِ وَلَا تَسْتَهْوِنُهُ، فَإِنَّ بِهِ يَحْصُلُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُؤَحِّدِينَ، وَالْعَالَمِينَ بِاللَّهِ وَالْجَاهِلِينَ بِهِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ. فَتَقُولُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَالتَّائِيدُ، وَمِنْهُ نَسْتَمِدُّ الْمَعُونَةَ وَالتَّسَدِيدَ، فَإِنَّهُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ. الشُّرْكُ شِرْكَانِ:

شِرْكٌ يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ الْمَعْبُودِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وَشِرْكَ فِي عِبَادَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ،
وَلَا فِي أَعْمَالِهِ.

وَالشِّرْكَ الْأَوَّلُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: شِرْكَ التَّعْطِيلِ: وَهُوَ أَقْبَحُ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ، كَشِرْكِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
[سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٢٣].

وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لَهُامَانَ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ -
أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: ٣٦-٣٧] فَالشِّرْكَ وَالتَّعْطِيلُ
مُتَلَاذِمَانِ: فَكُلُّ مُشْرِكٍ مُعْطَلٌ وَكُلُّ مُعْطَلٍ مُشْرِكٌ، لَكِنَّ الشِّرْكَ لَا يَسْتَلْزِمُ أَصْلَ التَّعْطِيلِ، بَلْ يَكُونُ
المُشْرِكُ مُفْرًا بِالْحَالِقِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ مُعْطَلٌ حَقَّ التَّوْحِيدِ.

وَأَصْلُ الشِّرْكِ وَقَاعِدَتُهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا، هُوَ التَّعْطِيلُ، وَهُوَ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ:

تَعْطِيلُ الْمُصْنُوعِ عَنْ صَانِعِهِ وَخَالِقِهِ.

وَتَعْطِيلُ الصَّانِعِ سُبْحَانَهُ عَنْ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، بِتَعْطِيلِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ.

وَتَعْطِيلُ مُعَامَلَتِهِ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ مِنَ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ.

وَمِنْ هَذَا شِرْكَ طَائِفَةِ أَهْلِ وَحْدَةِ الوجودِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: مَا تَمَّ خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ وَلَا هَاهُنَا شَيْئَانِ،
بَلِ الْحَقُّ الْمُتَزَّهُ هُوَ عَيْنُ الْخَلْقِ الْمُشَبَّهِ. وَمِنْهُ شِرْكَ الْمَلَاحِدَةِ الْقَائِلِينَ بِقَدَمِ الْعَالَمِ وَأَبْدِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
مَعْدُومًا أَصْلًا، بَلْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، وَالْحَوَادِثُ بِأَسْرِهَا مُسْتِنْدَةٌ عِنْدَهُمْ إِلَى أَسْبَابٍ وَوَسَائِطٍ اقْتَضَتْ
إِجَادَهَا، وَيُسَمَّوْنَهَا بِالْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ. وَمِنْ هَذَا شِرْكَ مَنْ عَطَّلَ أَسْمَاءَ الرَّبِّ تَعَالَى وَأَوْصَافَهُ وَأَعْمَالَهُ

مِنْ غَلَاةِ الْجُهْمِيَّةِ وَالْقَرَامِطَةِ، فَلَمْ يُشْتَوِ لَهُ اسْمًا وَلَا صِفَةً، بَلْ جَعَلُوا الْمَخْلُوقَ أَكْمَلَ مِنْهُ، إِذْ كَمَّالِ الذَّاتِ بِأَسْمَائِهَا وَصِفَاتِهَا.

فَصْلٌ

النَّوْعُ الثَّانِي: شَرِكٌ مَنْ جَعَلَ مَعَهُ إِهًا آخَرَ، وَلَمْ يُعْطَلْ أَسْمَاءُ وَصِفَاتِهِ وَرُبُوبِيَّتُهُ، كَشَرِكِ النَّصَارَى الَّذِينَ جَعَلُوهُ ثَلَاثَةً، فَجَعَلُوا الْمَسِيحَ إِهًا، وَأُمَّهُ إِهًا.

وَمِنْ هَذَا شَرِكُ الْمُجُوسِ الْقَائِلِينَ بِإِسْنَادِ حَوَادِثِ الْخَيْرِ إِلَى النُّورِ، وَحَوَادِثِ الشَّرِّ إِلَى الظُّلْمَةِ. وَمِنْ هَذَا شَرِكُ الْقَدْرِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْحَيَوَانَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ أَعْمَالَ نَفْسِهِ، وَأَنَّهَا تَحْدُثُ بِدُونِ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَهَذَا كَانُوا مِنْ أَشْبَاهِ الْمُجُوسِ.

وَمِنْ هَذَا شَرِكٌ - الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٥٨].

فَهَذَا جَعَلَ نَفْسَهُ نِدَاءً لِلَّهِ، يُحْيِي وَيُمِيتُ بِزَعْمِهِ، كَمَا يُحْيِي اللَّهُ وَيُمِيتُ، فَالزَّمَهُ إِبْرَاهِيمُ أَنْ طَرَدَ قَوْلَكَ أَنْ تَقْدِرَ عَلَى الْإِثْيَانِ بِالشَّمْسِ مِنْ غَيْرِ الْجِهَةِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا اللَّهُ مِنْهَا، وَلَيْسَ هَذَا انْتِقَالًا كَمَا زَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْجَدَلِ بَلْ الْإِزْمَا عَلَى طَرْدِ الدَّلِيلِ إِنْ كَانَ حَقًّا.

وَمِنْ هَذَا شَرِكٌ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُشْرِكُ بِالْكَوَاكِبِ الْعُلُويَّاتِ، وَيَجْعَلُهَا أَرْبَابًا مُدَبَّرَةً لِأَمْرِ هَذَا الْعَالَمِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مُشْرِكِي الصَّابِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْ هَذَا شَرِكٌ عِبَادِ الشَّمْسِ وَعِبَادِ النَّارِ وَغَيْرِهِمْ.

وَمَنْ هُوَ لِأَنَّ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَعْبُودَهُ هُوَ الْإِلَٰهَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَكْبَرُ الْإِلَٰهَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ إِلَٰهٌ مِنْ جُمْلَةِ الْإِلَٰهَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا خَصَّهُ بِعِبَادَتِهِ وَالتَّبَتُّلِ إِلَيْهِ وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَاعْتَنَى بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَعْبُودَهُ الْأَدْنَى يُقَرَّبُهُ إِلَى الْمَعْبُودِ الَّذِي هُوَ فَوْقَهُ، وَالْفَوْقَانِي يُقَرَّبُهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ، حَتَّى تُقَرَّبَهُ تِلْكَ الْإِلَٰهَةُ إِلَى اللَّهِ، فَتَارَةً تَكْتُمُ الْوَسَائِطُ وَتَارَةً تَقُلُّ.

فَصْلٌ

وَأَمَّا الشُّرْكَ فِي الْعِبَادَةِ فَهُوَ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا الشُّرْكِ، وَأَخْفُ أَمْرًا، فَإِنَّهُ يَصْدُرُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ لَا يُضَرُّ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يُعْطَى وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ لَا إِلَٰهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَكِنْ لَا يُخْصُ اللَّهُ فِي مُعَامَلَتِهِ وَعِبُودِيَّتِهِ، بَلْ يَعْمَلُ لِحِظِّ نَفْسِهِ تَارَةً، وَلِطَلْبِ الدُّنْيَا تَارَةً، وَلِطَلْبِ الرَّفْعَةِ وَالْمُنْزَلَةِ وَالْجَاهِ عِنْدَ الْخَلْقِ تَارَةً، فَلِلَّهِ مِنْ عَمَلِهِ وَسَعْيِهِ نَصِيبٌ، وَلِنَفْسِهِ وَحِظِّهِ وَهَوَاهُ نَصِيبٌ، وَلِلشَّيْطَانِ نَصِيبٌ، وَلِلْخَلْقِ نَصِيبٌ، وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ النَّاسِ، وَهُوَ الشُّرْكَ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي صَحِيحِهِ: «الشُّرْكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ» قَالُوا: كَيْفَ نَنْجُو مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»^(١).

(١) ليس في المطبوع، ولعل المؤلف وهم فيه. وقد ورد نحو هذا المتن عن أبي موسى وأبي بكر وعائشة وابن عباس، وكلها لا تثبت. وأصحها حديث أبي موسى الأشعري. فقد أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٤٠٣ (١٩٦٠٦) والبخاري في الكنى (٥٠٩) وغيرهما من طريق أبي علي الكاهلي قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من ديب النمل ... -وفيه: قال أبو موسى - خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال. فذكر نحوه. قال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط. ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي، ووثقه ابن حبان» المجمع (١٠ / ٢٢٣). وانظر الترغيب والترهيب (١ / ٤٠). وقد ورد موقوفاً عن ابن مسعود وابن عباس أخرجه ابن حبان في الثقات (٥ / ٣٤٢) من طريق كردوس الثعلبي عن ابن مسعود قال:

فَالرِّيَاءُ كُلُّهُ شِرْكٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ: ١١٠].

أَيُّ: كَمَا أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ، فَكَمَا تَفْرَدُ بِالْإِلَهِيَّةِ يَجِبُ أَنْ يَفْرَدَ بِالْعِبُودِيَّةِ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْخَالِي مِنَ الرِّيَاءِ الْمُقَيَّدِ بِالسَّنَةِ.

وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِرَجَائِكَ خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِرَجَائِكَ فِيهِ شَيْئًا.

وَهَذَا الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ يُبْطِلُ ثَوَابَ الْعَمَلِ، وَقَدْ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ الْعَمَلُ وَاجِبًا، فَإِنَّهُ يُنَزِّلُهُ مَنزِلَةَ مَنْ لَمْ يَعْمَلْهُ، فَيُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ عِبَادَةً خَالِصَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً﴾ [الْبَيْتَةِ: ٥].

فَمَنْ لَمْ يُخْلِصْ لِلَّهِ فِي عِبَادَتِهِ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَ بِهِ، بَلِ الَّذِي أَتَى بِهِ شَيْءٌ غَيْرُ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَلَا يَصِحُّ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ، وَيَقُولُ اللَّهُ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لِلذِّي أَشْرَكَ بِهِ، وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ»^(١).

"الشرك في أمة محمد ﷺ وفي المصلين أخفى من ديب النمل". وسنده لا بأس به. وانظر صحيح الأدب المفرد للألباني (٧١٦/٥٥٤) حيث صحح ما رواه البخاري في الأدب المفرد عن معقل بن يسار قال انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: «يا أبا بكر للشرك فيكم أخفى من ديب النمل» فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهًا آخر؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده للشرك أخفى من ديب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قال: قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم».

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرفائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة.

أقسام الشرك

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر، والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم: أن يحب مخلوقاً كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥] وقال أصحاب هذا الشرك لأهلهم وقد جمعهم الجحيم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ - إِذْ نَسَوْنَكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٩٧ - ٩٨].

ومعلوم أنهم ما سواهم به سبحانه في الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والمملك، والقدرة، وإنما سواهم به في الحب، والتأله، والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى التراب برَبِّ الأرباب، وكيف يسوى العبيد بربِّ الرقاب، وكيف يسوى الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغني بالذات، القادر بالذات، الذي غناه، وقدرته ومملكه وجوده، وإحسانه، وعلمه، ورحمته، وكما له المطلق التأم من لوازم ذاته؟

فأي ظلم أفتح من هذا؟ وأي حكم أشد جوراً منه؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ - ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١].

فعدل المشرك من خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات والأرض، فيا لك من عدل تضمن أكبر الظلم وأفبحه.

فصل

وَيَتَّبِعُ هَذَا الشُّرْكَ الشُّرْكَ بِهِ سُبْحَانَهُ فِي الْأَفْعَالِ، وَالْأَقْوَالِ، وَالْإِرَادَاتِ، وَالنِّيَّاتِ، فَالشُّرْكَ فِي الْأَفْعَالِ كَالسُّجُودِ لِغَيْرِهِ، وَالطَّوَافِ بِغَيْرِ بَيْتِهِ، وَحَلْقِ الرَّأْسِ عُبُودِيَّةً وَخُضُوعًا لِغَيْرِهِ، وَتَقْيِيلِ الْأَحْجَارِ غَيْرِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ الَّذِي هُوَ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَتَقْيِيلِ الْقُبُورِ وَاسْتِلامِهَا، وَالسُّجُودَ لَهَا، وَقَدْ لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ اتَّخَذَ قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَسَاجِدَ يُصَلِّي لَهَا فِيهَا، فَكَيْفَ بَمَنْ اتَّخَذَ الْقُبُورَ أَوْثَانًا يَعْبُدُهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(١).

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ: «إِنَّ شِرَارَ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»^(٢).

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْهُ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»^(٣).

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَصَحِيحِ ابْنِ حَبَّانَ عَنْهُ ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالشُّرْجَ»^(٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة (٤٣٥، ٤٣٦) وغيره؛ ومسلم في المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٥٣١).

(٢) أخرجه أحمد ٥ / ٤٠١ (٣٨٤٤) وابن خزيمة (٧٨٩) وابن حبان (٦٨٤٧) والبخاري في مسنده (١٧٢٤) وغيرهم، من طريق زائدة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود مرفوعاً. وذكره البخاري في الفتن معلقاً بصيغة الجزم بالشرط الأول فقط. وحسنه الألباني في أحكام الجنائز (ص ٢١٧).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٥٣٢).

(٤) مسند أحمد ١ / ٢٢٩ (٢٠٣٠)، وابن حبان (٣١٧٩). وأخرجه الترمذي (٣٢٠) وأبو داود (٣٢٣٦) وابن ماجه (١٥٧٥) والنسائي (٢٠٤٣) والحاكم ١ / ٥٣٠ (١٣٨٤) وغيرهم، من طريق محمد بن جحادة عن أبي صالح

وَقَالَ: «اَشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(١).

وَقَالَ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، كَانَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوْرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخُلُقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

فَهَذَا حَالٌ مَنْ سَجَدَ لِلَّهِ فِي مَسْجِدٍ عَلَى قَبْرِ، فَكَيْفَ حَالٌ مَنْ سَجَدَ لِلْقَبْرِ نَفْسِهِ؟

عن ابن عباس فذكره. قال الترمذي: "حديث حسن". وقال الحاكم: "أبو صالح هذا ليس بالسَّمان المحتج به، إنما هو باذام. ولم يحتج به الشيخان لكنه حديث متداول فيما بين الأئمة، ووجدت له متابعًا... فذكره. صحح الألباني شرطه الأول في الإرواء (٧٧٤) وضعفه بزيادة اتخاذ المساجد والسرج كما في الضعيفة (٢٢٥).

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار - ٤٤٥) وابن عبد البر في التمهيد (٥ / ٤٣) من طريق عمر بن صهبان عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد عن النبي ﷺ فذكره. قال الهيثمي في المجمع (٢٨ / ٢): "رواه البزار وفيه عمر بن صهبان وقد اجتمعوا على ضعفه". قلت: وقد خولف عمر بن صهبان. خالفه الإمام مالك وغيره فرووه مرسلًا وهو أصح. فرواه مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن النبي ﷺ مرسلًا. أخرجه في الموطأ (٤٧٥) وابن سعد (٢ / ٢١٢). ورواه معمر ومحمد بن عجلان عن زيد بن أسلم عن النبي ﷺ معضلاً. أخرجه عبد الرزاق (١٥٨٧) وابن أبي شيبة (١١٨١٨). وقال الألباني في حاشية هداية الرواة (١ / ٣٤٩): «وقد صح موصولاً من حديث أبي هريرة، وقد حققت الكلام عليه في "تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد" (ص ١٧ - ١٨)».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة (٤٣٤) وغيره؛ ومسلم في المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٥٢٨).

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَرِيًّا وَثَنًا يُعْبَدُ»^(١)، وَقَدْ حَمَى النَّبِيُّ ﷺ جَانِبَ التَّوْحِيدِ أَعْظَمَ حِمَايَةٍ، حَتَّى نَهَى عَنْ صَلَاةِ التَّطَوُّعِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَعِنْدَ غُرُوبِهَا؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذَرِيعَةً إِلَى التَّشْبِيهِ بِعِبَادِ الشَّمْسِ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهَا فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ.

وَسَدَّ الذَّرِيعَةَ بِأَنْ مَنَعَ الصَّلَاةَ بَعْدَ الْعَصْرِ وَالصُّبْحِ؛ لِاتِّصَالِ هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ بِالْوَقْتَيْنِ اللَّذَيْنِ يَسْجُدُ الْمُشْرِكُونَ فِيهِمَا لِلشَّمْسِ.

وَأَمَّا السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ فَقَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ»^(٢).

وَ "لَا يَنْبَغِي" فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ لِلَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الْإِمْتِنَاعِ شَرَعًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٩٢].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [سُورَةُ يَس: ٦٩].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ - وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ [سُورَةُ الشُّعْرَاءِ: ٢١٠ - ٢١١].

وَقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ١٨].

فَصَلِّ

(١) أخرجه أحمد ٢ / ٢٤٦ (٧٣٥٨) والبخاري في تاريخه (٤٧ / ٣) وابن سعد (٢ / ٢١٣) وأبو نعيم في الحلية (٧ / ٣١٧) وغيرهم من طريق سفيان بن عيينة عن حمزة بن الغيرة عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً فذكره. وصححه الألباني كما في تحذير الساجد (ص ٢٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٤١٦٢) وابن أبي الدنيا في العيال (٥٣٤) من طريق أبي أسامة والنضر بن إسماعيل البجلي كلاهما عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، والحديث ورد عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ، ذكرها الألباني وصححه في الإرواء (١٩٩٨).

وَمِنَ الشُّرْكِ بِهِ سُبْحَانَهُ الشُّرْكَ بِهِ فِي اللَّفْظِ، كَالْحَلْفِ بغيرِهِ، كَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»^(١) صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَابْنُ حِبَّانَ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْقَائِلِ لِلْمَخْلُوقِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجْعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ قُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَخَدَّهُ»^(٢).

هَذَا مَعَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَثَبَتَ لِلْعَبِيدِ مَشِيئَةً، كَقَوْلِهِ: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [سُورَةُ التَّكْوِينِ: ٢٨].
فَكَيْفَ بِمَنْ يَقُولُ: أَنَا مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ، وَأَنَا فِي حَسْبِ اللَّهِ وَحَسْبِكَ، وَمَا لِي إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ، وَهَذَا مِنَ اللَّهِ وَمِنْكَ، وَهَذَا مِنْ بَرَكَاتِ اللَّهِ وَبَرَكَاتِكَ، وَاللَّهُ لِي فِي السَّمَاءِ وَأَنْتَ فِي الْأَرْضِ.

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٢٥ (٦٠٧٢) وأبو داود (٣٢٥١) والترمذي (١٥٣٥) وابن حبان (٢١٧٧) والحاكم ٤/ ٢٣١ (٧٨١٤) وغيرهم من طرق عن الحسن بن عبيد الله عن سعد بن عبيدة: سمع ابن عمر رجلاً يقول: والكعبة، فقال: لا تحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك". وكذا رواه سعيد بن مسروق والأعمش عن سعد بن عبيدة به عند أحمد (٤٩٠٤). ورواه شعبة وشيبان وجريير بن عبد الحميد كلهم عن منصور بن المعتمر عن سعد بن عبيدة عن محمد الكندي عن ابن عمر مرفوعاً، فذكره، وفيه قصة. أخرجه أحمد (٥٣٧٥، ٥٥٩٣) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨٣١) وغيرهما. وانظر: السلسلة الصحيحة (٢٠٤٢)، وتحقيق المسند (٨/ ٥٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٩، ١٩٦٤، ٢٥٦١، ٣٢٤٧) والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٤) وابن ماجه (٢١١٧) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٨٨) والبيهقي وغيرهم، من طرق عن الأجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس أن رجلاً قال... فذكره. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٠٥/ ٧٨٣). قلت: ومدار الحديث على الأجلح وهو مختلف فيه، ولهذا قال البوصيري: "هذا إسناد فيه الأجلح بن عبد الله مختلف فيه. ضعفه أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن سعد. ووثقه ابن معين والعجلي ويعقوب بن سفيان. وباقي رجال الإسناد ثقات...". قلت: وله شواهد، انظرها في تحقيق المسند (٣/ ٣٣٩).

أَوْ يَقُولُ: وَاللَّهِ، وَحَيَاةِ فُلَانٍ، أَوْ يَقُولُ نَذْرًا لِلَّهِ وَلِفُلَانٍ، وَأَنَا تَائِبٌ لِلَّهِ وَلِفُلَانٍ، أَوْ أَرْجُو اللَّهَ وَفُلَانًا، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَوَازِنُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَلْفَافِ وَبَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. ثُمَّ انْظُرْ أَيُّهَا أَفْحَشُ، يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ قَائِلَهَا أَوْلَى بِجَوَابِ النَّبِيِّ ﷺ لِقَائِلِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ جَعَلَهُ نِدَاءً لِلَّهِ بِهَا، فَهَذَا قَدْ جَعَلَ مَنْ لَا يُدَانِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ - بَلْ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَعْدَائِهِ - نِدَاءً لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ، فَالسُّجُودُ، وَالْعِبَادَةُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالتَّقْوَى، وَالْحَشْيَةُ، وَالْحُسْبُ، وَالتَّوْبَةُ، وَالنَّذْرُ، وَالْحَلْفُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَالِاسْتِغْفَارُ، وَحَلْقُ الرَّأْسِ خُضُوعًا وَتَعَبُّدًا، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالدُّعَاءُ، كُلُّ ذَلِكَ مُحَضُّ حَقِّ اللَّهِ، لَا يَصْلُحُ وَلَا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ: مِنْ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيِّ مُرْسَلٍ.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ: «عَرَفَ الْحَقُّ لِأَهْلِهِ»^(١).

فَصْلٌ

وَأَمَّا الشَّرْكُ فِي الْإِرَادَاتِ وَالنِّيَّاتِ، فَذَلِكَ الْبَحْرُ الَّذِي لَا سَاحِلَ لَهُ، وَقَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُ، مَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ وَجْهِ اللَّهِ، وَنَوَى شَيْئًا غَيْرَ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَطَلَبَ الْجُزَاءَ مِنْهُ، فَقَدْ أَشْرَكَ فِي نِيَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ.

وَالْإِخْلَاصُ: أَنْ يُخْلِصَ اللَّهُ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَإِرَادَتِهِ وَنِيَّتِهِ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَنِيفِيَّةُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ كُلَّهُمْ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرَهَا، وَهِيَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ.

(١) أخرجه في المسند ٣/ ٤٣٥ (١٥٥٨٧) والطبراني في الكبير ١/ ٢٨٦ (٨٣٩، ٨٤٠) والحاكم ٤/ ٢٨٤ (٧٦٥٤)

وغيرهم. من طريق محمد بن مصعب القرقيساني عن سلام بن مسكين والمبارك بن فضالة عن الحسن البصري عن الأسود بن سريع مرفوعاً فذكره. قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" وتعقبه الذهبي قائلاً: "ابن مصعب ضعيف". وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٨٦٢).

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ:

[٨٥].

وَهِيَ مَلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي مَنْ رَغِبَ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ.

فَصَلِّ

إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ أَنْفَتَحَ لَكَ بَابُ الْجَوَابِ عَنِ السُّؤَالِ الْمَذْكُورِ، فَنَقُولُ، وَمِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ نَسْتَمِدُّ الصَّوَابَ:

حَقِيقَةُ الشَّرِكِ: هُوَ التَّشْبَهُ بِالْحَالِقِ وَتَشْبِيهُهُ الْمَخْلُوقِ بِهِ، هَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ فِي الْحَقِيقَةِ، لَا إِثْبَاتُ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ، وَوَصَفَهُ بِهَا رَسُولُهُ، ﷺ. فَعَكَسَ الْأَمْرَ مِنْ نَكَسَ اللَّهُ قَلْبَهُ وَأَعْمَى بَصِيرَتَهُ وَأَرْكَسَهُ بِكَسْبِهِ، وَجَعَلَ التَّوْحِيدَ تَشْبِيهًا وَالتَّشْبِيهَ تَعْظِيمًا وَطَاعَةً، فَالْمُشْرِكُ مُشَبَّهُهُ لِلْمَخْلُوقِ بِالْحَالِقِ فِي خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ.

فَإِنَّ مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ التَّفَرُّدَ بِمِلْكِ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ تَعْلِيْقَ الدَّعَاءِ وَالْحَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالتَّوَكُّلِ بِهِ وَحْدَهُ، فَمَنْ عَلَّقَ ذَلِكَ بِمَخْلُوقٍ فَقَدْ شَبَّهُهُ بِالْحَالِقِ وَجَعَلَ مَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، فَضَلًّا عَنْ غَيْرِهِ - شَبِيهًا بِمَنْ لَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَارْتَمَتْهُ الْأُمُورُ كُلُّهَا بِيَدَيْهِ، وَمَرَجَعَهَا إِلَيْهِ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، بَلْ إِذَا فَتَحَ لِعَبْدِهِ بَابَ رَحْمَتِهِ لَمْ يُمْسِكْهَا أَحَدٌ، وَإِنْ أَمْسَكَهَا عَنْهُ لَمْ يُرْسَلْهَا إِلَيْهِ أَحَدٌ.

فَمِنْ أَفْبَحِ التَّشْبِيهِ: تَشْبِيهُهُ هَذَا الْعَاجِزِ الْفَقِيرِ بِالذَّاتِ بِالْقَادِرِ الْغَنِيِّ بِالذَّاتِ.

وَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ: الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ الَّذِي لَا نَقْصَ فِيهِ بَوَجهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ كُلُّهَا لَهُ وَحْدَهُ، وَالتَّعْظِيمُ وَالْإِجْلَالُ وَالْحَشْيَةُ وَالدَّعَاءُ وَالرَّجَاءُ وَالْإِنَابَةُ وَالتَّوْبَةُ

والتَّوَكُّلُ وَالِاسْتِعَانَةُ، وَغَايَةُ الدُّلِّ مَعَ غَايَةِ الْحُبِّ - كُلُّ ذَلِكَ يَجِبُ عَقْلًا وَشَرْعًا وَفِطْرَةً أَنْ يَكُونَ لَهُ وَحْدَهُ، وَيَمْتَنِعُ عَقْلًا وَشَرْعًا وَفِطْرَةً أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ، فَمَنْ جَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَ ذَلِكَ الْغَيْرَ بِمَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا مِثِيلَ وَلَا نَدْلَهُ، وَذَلِكَ أَقْبَحُ التَّشْبِيهِ وَأَبْطَلُهُ، وَلِشِدَّةِ قُبْحِهِ وَتَضَمُّنِهِ غَايَةَ الظُّلْمِ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، مَعَ أَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.

وَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ: الْعُبُودِيَّةُ الَّتِي قَامَتْ عَلَى سَائِقِينَ لَا قِيَامَ لَهَا بِدُونِهَا: غَايَةُ الْحُبِّ، مَعَ غَايَةِ الدُّلِّ. هَذَا تَمَامُ الْعُبُودِيَّةِ، وَتَفَاوُتُ مَنَازِلِ الْخَلْقِ فِيهَا بِحَسَبِ تَفَاوُتِهِمْ فِي هَدْيِ الْأَصْلِينَ.

فَمَنْ أَعْطَى حُبَّهُ وَذُلَّهُ وَخُضُوعَهُ لِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ فِي خَالِصِ حَقِّهِ، وَهَذَا مِنَ الْمَحَالِ أَنْ تَحِيَّءَ بِهِ شَرِيعةً مِنَ الشَّرَائِعِ، وَقُبْحُهُ مُسْتَقَرٌّ فِي كُلِّ فِطْرَةٍ وَعَقْلٍ، وَلَكِنْ غَيَّرَتِ الشَّيَاطِينُ فِطْرَ الْخَلْقِ وَعَقُوهُمْ وَأَفْسَدَتْهَا عَلَيْهِمْ، وَاجْتَالَتْهُمْ عَنْهَا، وَمَضَى عَلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ بِمَا يُوَافِقُ فِطْرَهُمْ وَعَقُوهُمْ، فَازْدَادُوا بِذَلِكَ نُورًا عَلَى نُورٍ، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَمِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ السُّجُودُ، فَمَنْ سَجَدَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَ الْمَخْلُوقَ بِهِ.

وَمِنْهَا: التَّوَكُّلُ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ.

وَمِنْهَا: التَّوْبَةُ، فَمَنْ تَابَ لِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ.

وَمِنْهَا: الْحَلْفُ بِاسْمِهِ تَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا لَهُ، فَمَنْ حَلَفَ بِغَيْرِهِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِهِ، هَذَا فِي جَانِبِ التَّشْبِيهِ.

وَأَمَّا فِي جَانِبِ التَّشْبِيهِ بِهِ: فَمَنْ تَعَاظَمَ وَتَكَبَّرَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى إِطْرَائِهِ فِي الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّخْضُوعِ وَالرَّجَاءِ، وَتَعَلَّقَ الْقَلْبَ بِهِ خَوْفًا وَرَجَاءً وَالتَّجَاءً وَاسْتِعَانَةً، فَقَدْ تَشَبَّهَ بِاللَّهِ وَنَازَعَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُهَيِّئَهُ غَايَةَ الْهُوَانِ، وَيُذِلَّهُ غَايَةَ الدُّلِّ، وَيَجْعَلُهُ تَحْتَ أَقْدَامِ خَلْقِهِ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ: " الْعَظْمَةُ إِزَارِي، وَالْكَبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهَا عَذَّبْتُهُ "»^(١).

وَإِذَا كَانَ الْمَصُورُ الَّذِي يَصْنَعُ الصُّورَةَ بِيَدِهِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِتَشْبِهِهِ بِاللَّهِ فِي مَجْرَدِ الصُّورَةِ، فَمَا الظَّنُّ بِالتَّشْبِهِ بِاللَّهِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ؟
كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَصُورُونَ، يُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْتُلِقُ خَلْقًا كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً "»^(٢)، فَتَبَّ بِالذَّرَّةِ وَالشَّعِيرَةِ عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا وَأَكْبَرُ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ هَذَا حَالٌ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي صِنْعَةِ صُورَةٍ، فَكَيْفَ حَالٌ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي خَوَاصِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ؟ وَكَذَلِكَ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي الْإِسْمِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَلِكِ الْمُلُوكِ، وَحَاكِمِ الْحُكَّامِ، وَنَحْوِهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِشَاهَانِ شَاهٍ، - أَيِّ مَلِكِ الْمُلُوكِ - لَا مَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ»^(٣) وَفِي لَفْظٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِمَلِكِ الْأَمَلَاكِ»^(٤).

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الكبر (٢٦٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٥٥٩)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان (٢١١١).

(٣) والحديث أخرجه البخاري في الأدب، باب أبغض الأسماء إلى الله (٦٢٠٥، ٦٢٠٦)، ومسلم في الآداب، باب تحريم التسمي بملاك والملوك (٢١٤٣) من حديث أبي هريرة.

(٤) صحيح مسلم، الحديث السابق (٢١٤٣).

فَهَذَا مَقَّتُ اللَّهَ وَغَضَبُهُ عَلَى مَنْ تَشَبَّهَ بِهِ فِي الْإِسْمِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَلِكُ الْمُلُوكِ وَوَحْدَهُ، وَهُوَ حَاكِمُ الْحُكَّامِ وَوَحْدَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى الْحُكَّامِ كُلِّهِمْ، وَيَقْضِي عَلَيْهِمْ كُلِّهِمْ، لَا غَيْرُهُ.

فَصْلٌ

إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَهَاهُنَا أَصْلُ عَظِيمٍ يَكْشِفُ سِرَّ الْمُسْأَلَةِ، وَهُوَ أَنَّ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِهِ، فَإِنَّ الْمُسِيءَ بِهِ الظَّنَّ قَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ كَرَمِهِ الْمُقَدَّسِ، وَظَنَّ بِهِ مَا يَنَاقِضُ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَهَذَا تَوَعَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الظَّانِّينَ بِهِ ظَنَّ السُّوءِ بِمَا لَمْ يَتَوَعَّدْ بِهِ غَيْرَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سُورَةُ الْفَتْحِ: ٦].

وَقَالَ تَعَالَى لِمَنْ أَنْكَرَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ [سُورَةُ فَصَّلَتْ: ٢٣].

قَالَ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَتَقُولُونَ * اللَّهُ تَرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصَّافَاتِ: ٨٥ - ٨٧].

أَيُّ فَمَا ظَنُّكُمْ أَنْ يُجَازِيَكُمْ بِهِ إِذَا لَقِيتُمُوهُ وَقَدْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ؟ وَمَا ظَنَنْتُمْ بِهِ حِينَ عَبَدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ وَمَا ظَنَنْتُمْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ مِنَ النَّقْصِ حَتَّى أَحْوَجَكُمُ ذَلِكَ إِلَى عِبُودِيَّةِ غَيْرِهِ؟ فَلَوْ ظَنَنْتُمْ بِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْ أَنْهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِتَدْيِيرِ خَلْقِهِ لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، وَالْعَالَمُ بِتَفَاصِيلِ الْأُمُورِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَالْكَافِي لَهُمْ وَوَحْدَهُ فَلَا يَخْتَاجُ إِلَى مُعِينٍ، وَالرَّحْمَنُ بِذَاتِهِ، فَلَا يَخْتَاجُ فِي رَحْمَتِهِ إِلَى مَنْ يَسْتَعِظِفُهُ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّؤَسَاءِ، فَإِنَّهُمْ يَخْتَاجُونَ إِلَى مَنْ

يَعْرِفُهُمْ أَحْوَالَ الرَّعِيَّةِ وَحَوَائِجَهُمْ، وَيُعِينُهُمْ إِلَى قَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، وَإِلَى مَنْ يَسْتَرْحِمُهُمْ وَيَسْتَعِظُمُهُمْ
بِالشَّفَاعَةِ، فَاحْتَاجُوا إِلَى الْوَسَائِطِ صُرُورَةً، لِحَاجَتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ وَعَجْزِهِمْ وَقُصُورِ عِلْمِهِمْ.

فَأَمَّا الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الَّذِي وَسَعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ،
فَادْخَالَ الْوَسَائِطِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ نَقْصٌ بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوِّءِ، وَهَذَا
يَسْتَحِيلُ أَنْ يَشْرَعَ لِعِبَادِهِ، وَيَمْتَنِعَ فِي الْعُقُولِ وَالْفِطْرِ جَوَازُهُ، وَقُبْحُهُ مُسْتَقَرٌّ فِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ فَوْقَ
كُلِّ قَيْحٍ.

يُوضِّحُ هَذَا: أَنَّ الْعَابِدَ مُعَظَّمٌ لِعِبَادِهِ، مُتَّالٍ خَاضِعٌ ذَلِيلٌ لَهُ، وَالرَّبُّ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ
كَمَالَ التَّعْظِيمِ وَالْجَلَالِ وَالتَّأَلُّهِ وَالْخُضُوعِ وَالدُّلِّ، وَهَذَا خَالِصٌ حَقُّهُ، فَمَنْ أَفْبَحَ الظُّلْمِ أَنْ يُعْطِيَ حَقَّهُ
لِغَيْرِهِ، أَوْ يُشْرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِيهِ، وَلَا سِيَّامًا إِذَا كَانَ الَّذِي جُعِلَ شَرِيكُهُ فِي حَقِّهِ هُوَ عَبْدُهُ وَمَمْلُوكُهُ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ
فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سُورَةُ الرُّومِ: ٢٨].

أَيُّ: إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يَأْتِي أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكُهُ شَرِيكُهُ فِي رِزْقِهِ، فَكَيْفَ يُجْعَلُونَ لِي مِنْ عِبِيدِي شُرَكَاءَ
فِي مَا أَنَا بِهِ مُنْفَرِدٌ؟ وَهُوَ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي لَا تَتَّبِعِي لِغَيْرِي، وَلَا تَصِحُّ لِسِوَايَ.

فَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَمَا قَدَرَنِي حَقَّ قَدْرِي، وَلَا عَظَمَنِي حَقَّ تَعْظِيمِي، وَلَا أَقْرَدَنِي بِمَا أَنَا مُفْرَدٌ بِهِ وَوَحْدِي
دُونَ خَلْقِي، فَمَا قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ مِنْ عَبْدٍ مَعَهُ غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا
لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ
مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سُورَةُ الْحَجِّ: ١٧٣ -

[١٧٤].

فَمَا قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ عَبْدَ مَعَهُ غَيْرُهُ، مِمَّنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ أَصْعَفِ حَيَوَانٍ وَأَصْغَرِهِ، وَإِنْ سَلَبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا مِمَّا عَلَيْهِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى اسْتِنْقَازِهِ مِنْهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: ٦٧]، فَمَا قَدَرَ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ وَعَظَمَتُهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ مَنْ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَتَّةَ، بَلْ هُوَ أَعْجَزُ شَيْءٍ وَأَضْعَفُهُ، فَمَا قَدَرَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ الضَّعِيفَ الدَّلِيلَ.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يُرْسَلْ إِلَى خَلْقِهِ رَسُولًا، وَلَا أَنْزَلَ كِتَابًا، بَلْ نَسَبَهُ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ وَلَا يَحْسُنُ مِنْهُ، مِنْ إِهْمَالِ خَلْقِهِ وَتَضْيِيعِهِمْ وَتَرْكِهِمْ سُدَى، وَخَلْقِهِمْ بَاطِلًا وَعَبَثًا، وَلَا قَدْرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَفَى حَقَائِقَ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا، فَنفَى سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَإِرَادَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ وَعُلُوَّهُ فَوْقَ خَلْقِهِ، وَكَلَامَهُ وَتَكْلِيمَهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا يُرِيدُهُ، أَوْ نفَى عُمُومَ قُدْرَتِهِ وَتَعَلُّقَهَا بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، فَأَخْرَجَهَا عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ يَخْلُقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مَا يَشَاءُونَ بِدُونِ مَشِيئَةِ الرَّبِّ، فَيَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاءُ، وَيَشَاءُ مَا لَا يَكُونُ. تَعَالَى عَنْ قَوْلِ أَشْبَاهِ الْمُجُوسِ عُلوًّا كَبِيرًا.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُعَاقِبُ عَبْدَهُ عَلَى مَا لَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ، وَلَا لَهُ عَلَيْهِ قُدْرَةٌ، وَلَا تَأْثِيرٌ لَهُ فِيهِ الْبَتَّةَ، بَلْ هُوَ نَفْسُ فِعْلِ الرَّبِّ ﷻ، فَيُعَاقِبُ عَبْدَهُ عَلَى فِعْلِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي جَبَرَ الْعَبْدَ عَلَيْهِ. وَجَبْرُهُ عَلَى الْفِعْلِ أَعْظَمُ مِنْ إِكْرَاهِ الْمُخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ، وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمُسْتَقَرِّ فِي الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ أَنَّ السَّيِّدَ لَوْ أَكْرَهَ عَبْدَهُ عَلَى فِعْلِ، أَوْ أَلْجَأَهُ إِلَيْهِ ثُمَّ عَاقَبَهُ عَلَيْهِ لَكَانَ قِيحًا، فَأَعْدَلَ الْعَادِلِينَ وَأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ وَأَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ كَيْفَ يَجْبُرُ الْعَبْدَ عَلَى فِعْلِ لَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ فِيهِ صُنْعٌ وَلَا تَأْثِيرٌ، وَلَا هُوَ وَاقِعٌ بِإِرَادَتِهِ، بَلْ وَلَا هُوَ فِعْلُهُ الْبَتَّةَ، ثُمَّ يُعَاقِبُ عَلَيْهِ عُقُوبَةَ الْأَبْدِ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلوًّا كَبِيرًا، وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ أَقْوَالِ الْمُجُوسِ. وَالطَّائِفَتَانِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ.

وَكَذَلِكَ مَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ لَمْ يَصْنَعْهُ عَنْ تَنْنٍ وَلَا حُشٍّ، وَلَا مَكَانٍ يُرْغَبُ عَنْ ذِكْرِهِ بَلْ جَعَلَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، صَانَهُ عَنْ عَرْشِهِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَوِيًّا عَلَيْهِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ: ١٠].

وَتَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ، وَتَنْزِلُ مِنْ عِنْدِهِ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَةِ: ٥].

فَصَانَهُ عَنْ اسْتِوَائِهِ عَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ، ثُمَّ جَعَلَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَأْتِفُ الْإِنْسَانُ، بَلْ غَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ.

وَمَا قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ مَحَبَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ وَرِضَاهُ وَعَظْمِيَّتِهِ وَمَقْتِهِ، وَلَا مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ حِكْمَتِهِ الَّتِي هِيَ الْغَايَاتُ الْمُحْمُودَةُ الْمُقْصُودَةُ بِفِعْلِهِ، وَلَا مَنْ نَفَى حَقِيقَةَ فِعْلِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ فِعْلًا اخْتِيَارِيًّا يَقُومُ بِهِ، بَلْ أَفْعَالُهُ مَفْعُولَاتٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، فَنَفَى حَقِيقَةَ مَحَبَّتِهِ وَإِيَابِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَتَكْلِيمِهِ مُوسَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ، وَمَحَبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ بِنَفْسِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنْ أَفْعَالِهِ وَأَوْصَافِ كَمَالِهِ، الَّتِي نَفَوْهَا وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ بَنَفِيهَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ جَعَلَ لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، أَوْ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ يَحِلُّ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، أَوْ جَعَلَهُ عَيْنَ هَذَا الْوُجُودِ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ رَفَعَ أَعْدَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَأَعْلَى ذِكْرَهُمْ، وَجَعَلَ فِيهِمُ الْمُلْكَ وَالْخِلَافَةَ وَالْعِزَّ، وَوَضَعَ أَوْلِيَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَأَهَانَهُمْ وَأَذَنَّهُمْ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّ أَيْنَمَا تُقْفُوا، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْقَدْحِ فِي جَنَابِ الرَّبِّ. تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الرَّافِضَةِ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَهَذَا الْقَوْلُ مُسْتَقٌّ مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنَّهُ أَرْسَلَ مَلَكًا ظَلَمًا، فَادَّعَى السُّبُوَّةَ لِنَفْسِهِ، وَكَذَّبَ عَلَى اللَّهِ، وَمَكَثَ زَمَانًا طَوِيلًا يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ كُلَّ وَقْتٍ، وَيَقُولُ: قَالَ اللَّهُ كَذَا، وَأَمَرَ بِكَذَا، وَنَهَى عَنْ كَذَا، يَنْسُخُ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَيَسْتَسِيحُ دِمَاءَ أَتْبَاعِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَحَرِيمَهُمْ، وَيَقُولُ: اللَّهُ أَبَاحَ لِي ذَلِكَ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُظْهِرُهُ وَيُؤَيِّدُهُ، وَيُعْلِيهِ، وَيُعِزُّهُ، وَيُجِيبُ دَعَوَاتِهِ، وَيُمْكِنُهُ مَنْ خَالَفَهُ، وَيُقِيمُ الْأَدْلَةَ عَلَى صِدْقِهِ، وَلَا يُعَادِيهِ أَحَدٌ إِلَّا ظَفَرَ بِهِ، فَيُصَدِّقُهُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَتَقْرِيرِهِ، وَيُحَدِّثُ أَدْلَةَ تَصَدِيقِهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا يَتَضَمَّنُ أَعْظَمَ الْقَدْحِ وَالطَّعْنِ فِي الرَّبِّ، وَعِلْمِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ. تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الْجَاهِلِينَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَوَازِنُ بَيْنَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ، وَقَوْلِ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الرَّافِضَةِ، تَجِدُ الْقَوْلَيْنِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

رَضِيعِي لِبَانِ ثُدِي أُمَّ تَقَاسِمَا... بِأَسْحَمِ دَاجِ عَوْضٍ لَا تَتَفَرَّقُ

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَتَّى قَدَرِهِ مَنْ قَالَ أَنَّهُ يُجُوزُ أَنْ يُعَدَّبَ أَوْلِيَاءَهُ، وَمَنْ لَمْ يَعْصِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيُدْخِلَهُمْ دَارَ الْجَحِيمِ، وَيَنْعَمَ أَعْدَاءَهُ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيُدْخِلَهُمْ دَارَ النَّعِيمِ، وَأَنَّ كِلَا الْأَمْرَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاءٌ، وَإِنَّمَا الْخَبْرُ الْمُحْضُ جَاءَ عَنْهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَمَعْنَاهُ لِلْخَيْرِ لَا لِلْخَالِفَةِ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ.

وَقَدْ أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى مَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ ذَلِكَ غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَجَعَلَ الْحُكْمَ بِهِ مِنْ أَسْوَأِ الْأَحْكَامِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * [سُورَةُ ص: ٢٧ - ٢٨].

وَقَالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ الْجَاثِيَةِ: ٢١ - ٢٢].

وَقَالَ: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [سُورَةُ الْقَلَمِ: ٣٥ - ٣٦]
وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقُّ قَدْرِهِ مِنْ زَعَمٍ أَنَّهُ لَا يُجِيبِي الْمَوْتَى، وَلَا يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَلَا يَجْمَعُ خَلْقَهُ لِيَوْمٍ يُجَازِي فِيهِ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ حَقَّهُ مِنْ ظَالِمِهِ، وَيُكْرِمُ الْمُتَحَمِّلِينَ الْمَشَاقَّ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ أَجْلِهِ وَفِي مَرَضَاتِهِ بِأَفْضَلِ كَرَامَتِهِ، وَيَبَيِّنُ لِحَلْقِهِ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَيَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ.

وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقُّ قَدْرِهِ مِنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَعَصَاهُ، وَمَهِيَّةَ فَارْتِكَبَهُ، وَحَقَّهُ فَضَيَعَهُ، وَذِكْرَهُ فَأَهْمَلَهُ، وَعَفَلَ قَلْبَهُ عَنْهُ، وَكَانَ هَوَاهُ أَثَرُ عِنْدَهُ مِنْ طَلَبِ رِضَاهُ، وَطَاعَةِ الْمَخْلُوقِ أَهَمَّ مِنْ طَاعَتِهِ، فَلِلَّهِ الْفَضْلَةُ مِنْ قَلْبِهِ وَقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، هُوَ الْمَقْدَمُ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ الْمُهِمُّ عِنْدَهُ، يَسْتَخِفُّ بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَاطَّلَاعِهِ عَلَيْهِ بِكُلِّ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَيَسْتَحِي مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ، وَيَخْشَى النَّاسَ وَلَا يَخْشَى اللَّهَ، وَيُعَامِلُ الْخَلْقَ بِأَفْضَلِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَامَلَ اللَّهُ عَامِلَهُ بِأَهْوَنَ مَا عِنْدَهُ وَأَحْقَرَهُ، وَإِنْ قَامَ فِي خِدْمَةِ مَنْ يُحِبُّهُ مِنَ الْبَشَرِ قَامَ بِالْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ وَبَدَلَ النَّصِيحَةِ، وَقَدْ أَفْرَغَ لَهُ قَلْبَهُ وَجَوَارِحَهُ، وَقَدَّمَهُ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ مَصَالِحِهِ، حَتَّى إِذَا قَامَ فِي حَقِّ رَبِّهِ - إِنْ سَاعَدَ الْقَدْرُ - قَامَ قِيَامًا لَا يَرْضَاهُ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، وَبَدَلَ لَهُ مِنْ مَالِهِ مَا يَسْتَحِي أَنْ يُوَاجِهَ بِهِ مَخْلُوقًا مِثْلَهُ، فَهَلْ قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ مِنْ هَذَا وَصَفُهُ؟

وَهَلْ قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ شَارَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ فِي مَحْضِ حَقِّهِ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالْتَعْظِيمِ وَالطَّاعَةِ وَالذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ؟ فَلَوْ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَقْرَبِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ شَرِيكًا فِي ذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ جَرَاءً وَتَوَبُّبًا عَلَى مَحْضِ حَقِّهِ وَاسْتِهَانَةً بِهِ وَتَشْرِيكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَلَا يَنْبَغِي وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا لَهُ سُبْحَانَهُ،

فَكَيْفَ وَإِنَّمَا شَرِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ أَبْغَضَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَأَهْوَتْهُمْ عَلَيْهِ، وَأَمْتَقَتْهُمْ عِنْدَهُ، وَهُوَ عَدُوُّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ؟ فَإِنَّهُ مَا عَبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا الشَّيْطَانَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [سُورَةُ يَس: ٦٠ - ٦١].

وَلَمَّا عَبَدَ الْمُشْرِكُونَ الْمَلَائِكَةَ بِزَعْمِهِمْ وَقَعَتْ عِبَادَتُهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِلشَّيَاطِينِ، وَهُمْ يَطُنُّونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مَنْ دُونَهُمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سُورَةُ سَبَأ: ٤٠ - ٤١].

فَالشَّيْطَانُ يَدْعُو الْمُشْرِكَ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَيُوهِمُهُمْ أَنَّهُ مَلَكٌ، وَكَذَلِكَ عَبَادُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ، وَهِيَ الَّتِي تُحَاطَبُهُمْ، وَتَقْضِي لَهُمُ الْحَوَائِجَ، وَهَذَا إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَارِبَهَا الشَّيْطَانُ، فَيَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، فَيَقَعُ سُجُودُهُمْ لَهُ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ غُرُوبِهَا، وَكَذَلِكَ مَنْ عَبَدَ الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ لَمْ يَعْبُدْهُمَا وَإِنَّمَا عَبَدَ الشَّيْطَانَ.

فَإِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَعْبُدُ مَنْ أَمَرَهُ بِعِبَادَتِهِ وَعِبَادَةِ أُمَّهُ، وَرَضِيَهَا لَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِهَا، وَهَذَا هُوَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ، لَا عَبَدَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَتَزَلَّ هَذَا كُلُّهُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

فَمَا عَبَدَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ غَيْرَ اللَّهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ إِلَّا وَقَعَتْ عِبَادَتُهُ لِلشَّيْطَانِ، فَيَسْتَمْتِعُ الْعَابِدُ بِالْمُعْبُودِ فِي حُصُولِ غَرَضِهِ، وَيَسْتَمْتِعُ الْمُعْبُودُ بِالْعَابِدِ فِي تَعْظِيمِهِ لَهُ، وَإِشْرَاكِهِ مَعَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ رِضَا الشَّيْطَانِ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَامْعَشَرَ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أَي: مَنْ مِنْ إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَام: ١٢٨].

فَهَذِهِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى السِّرِّ الَّذِي لِأَجْلِهِ كَانَ الشُّرْكُ أَكْبَرَ الْكِبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ بِغَيْرِ التَّوْبَةِ مِنْهُ، وَأَنَّهُ يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي الْعَذَابِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ تَحْرِيمُهُ وَقَبْحُهُ بِمَجْرَدِ النَّهْيِ عَنْهُ، بَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَشْرَعَ لِعِبَادِهِ عِبَادَةَ إِلَهٍ غَيْرِهِ، كَمَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ مَا يُنَاقِضُ أَوْصَافَ كَمَالِهِ، وَنُعُوتَ جَلَالِهِ، وَكَيْفَ يُظَنُّ بِالْمُنْفَرِدِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْإِجْلَالِ أَنْ يَأْذَنَ فِي مُشَارَكَتِهِ فِي ذَلِكَ، أَوْ يَرْضَى بِهِ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَصْلٌ

فَلَمَّا كَانَ الشُّرْكُ أَكْبَرَ شَيْءٍ مُنَافَاةً لِلْأَمْرِ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْخَلْقَ، وَأَمْرًا لِأَجْلِهِ بِالْأَمْرِ، كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ الْكِبْرُ وَتَوَابِعُهُ كَمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ لِتَكُونَ الطَّاعَةُ لَهُ وَحْدَهُ، وَالشُّرْكُ وَالْكِبْرُ يُنَافِيَانِ ذَلِكَ.

وَلِذَلِكَ حَرَّمَ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى أَهْلِ الشُّرْكِ وَالْكِبْرِ، فَلَا يَدْخُلُهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ.

فَصْلٌ

وَيَلِي ذَلِكَ فِي كِبَرِ الْمُفْسَدَةِ: الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَوَصْفُهُ بِضِدِّ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصْفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ. فَهَذَا أَشَدُّ شَيْءٍ مُنَافَاةً لِكَمَالِ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَقَدْ حُجِّجَ فِي نَفْسِ الرُّبُوبِيَّةِ وَخَصَائِصِ الرَّبِّ، فَإِنْ صَدَرَ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ فَهُوَ عِنَادٌ أَقْبَحُ مِنَ الشُّرْكِ، وَأَعْظَمُ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ.

فإنَّ المُشْرِكَ المُتَرَبِّصِ صِفَاتِ الرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ المُعْطَلِ الجَّاحِدِ لِصِفَاتِ كَمَالِهِ، كَمَا أَنَّ مَنْ أَقْرَبَ لِلْمَلِكِ بِالْمَلِكِ،
وَلَمْ يَجْهَدْ مُلْكَهُ وَلَا الصِّفَاتِ الَّتِي اسْتَحَقَّ بِهَا الْمَلِكُ، لَكِنْ جَعَلَ مَعَهُ شَرِيكًا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، يُقَرِّبُهُ
إِلَيْهِ، خَيْرٌ مِمَّنْ جَحَدَ صِفَاتِ الْمَلِكِ وَمَا يَكُونُ بِهِ مَلَكًا، وَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَقَرٌّ فِي سَائِرِ الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ.

فَأَيْنَ الْقَدْحُ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجُحْدِ لَهَا، مِنْ عِبَادَةِ وَإِسْطَةِ بَيْنَ الْمُعْبُودِ الْحَقِّ وَبَيْنَ الْعَابِدِ، يَتَقَرَّبُ
إِلَيْهِ بِعِبَادَةِ تِلْكَ الْوَاسِطَةِ إِعْظَامًا لَهُ وَإِجْلَالًا؟

فَدَاءُ التَّعْطِيلِ هَذَا الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِي لَا دَوَاءَ لَهُ، وَهَذَا حَكَى اللَّهُ عَنْ إِمَامِ الْمُعْطَلَةِ فِرْعَوْنَ، أَنَّهُ أَنْكَرَ
عَلَى مُوسَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَنَّ رَبَّهُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، فَقَالَ: ﴿يَاهَامَانَ ابْنِ بِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ
* أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأُظَنَّهُ كَاذِبًا ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: ٣٦ - ٣٧].

وَاحْتَجَّ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ فِي كُتُبِهِ عَلَى الْمُعْطَلَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَلَقَدْ ذَكَرْنَا لَفْظَهُ فِي غَيْرِ هَذَا
الْكِتَابِ.

وَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ وَالشَّرْكَ مُتَلَا زَمَانٍ. وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْبِدْعُ الْمُضِلَّةُ جَهْلًا بِصِفَاتِ اللَّهِ وَتَكْذِيبًا
بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَأَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنَادًا وَجَهْلًا - كَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ، وَإِنْ قَصُرَتْ
عَنِ الْكُفْرِ وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ كِبَارِ الذُّنُوبِ.

كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْبِدْعَةُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمُعْصِيَةِ: لِأَنَّ الْمُعْصِيَةَ يَتَابُ مِنْهَا وَالْبِدْعَةَ لَا
يَتَابُ مِنْهَا.

وَقَالَ إِبْلِيسُ: أَهْلَكْتُ بَنِي آدَمَ بِالذُّنُوبِ وَأَهْلَكُونِي بِالْإِسْتِعْفَارِ وَبِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ
بَشَّتُ فِيهِمُ الْأَهْوَاءَ، فَهُمْ يَذُنُّونَ وَلَا يَتُوبُونَ، لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُنْذِبَ إِنَّمَا ضَرَّرَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَمَّا الْمُبْتَدِعُ فَضَرَّرَهُ عَلَى النَّوعِ، وَفِتْنَةُ الْمُبْتَدِعِ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَفِتْنَةُ الْمُنْذِبِ فِي الشَّهْوَةِ، وَالْمُبْتَدِعُ قَدْ قَعَدَ لِلنَّاسِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ يَصُدُّهُمْ عَنْهُ، وَالْمُنْذِبُ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَالْمُبْتَدِعُ قَادِحٌ فِي أَوْصَافِ الرَّبِّ وَكَمَالِهِ، وَالْمُنْذِبُ لَيْسَ كَذَلِكَ.

وَالْمُبْتَدِعُ يَقْطَعُ عَلَى النَّاسِ طَرِيقَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاصِي بَطِيءُ السَّيْرِ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِ.

فَصْلٌ

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ مُنَافِيَيْنِ لِلْعَدْلِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَأُرْسِلَ لَهُ سُبْحَانَهُ رُسُلُهُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ لِيَقُومَ النَّاسُ بِهِ - كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَتْ دَرَجَتُهُ فِي الْعِظَمَةِ بِحَسَبِ مَفْسَدَتِهِ فِي نَفْسِهِ، وَكَانَ قَتْلُ الْإِنْسَانِ وَلَدَهُ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ وَقَدْ جَبَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْقُلُوبَ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَظْفِهَا عَلَيْهِمْ، وَخَصَّ الْوَالِدِينَ مِنْ ذَلِكَ بِمِزْيَةِ ظَاهِرَةٍ، فَقَتَلَهُ خَشِيَّةٌ أَنْ يُشَارِكَهُ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَالِهِ، مِنْ أَقْبَحِ الظُّلْمِ وَأَشَدِّهِ، وَكَذَلِكَ قَتَلَهُ أَبُو يَهُوذَا اللَّذِينَ كَانَا سَبَبَ وُجُودِهِ، وَكَذَلِكَ قَتَلَهُ ذَارِحِمَةُ.

وَتَفَاوَتْ دَرَجَاتُ الْقَتْلِ بِحَسَبِ قُبْحِهِ وَاسْتِحْقَاقِ مَنْ قَتَلَهُ لِلْسَّعْيِ فِي إِبْقَائِهِ وَنَصِيحَتِهِ.

وَلِهَذَا كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ.

وَيَلِيهِ مَنْ قَتَلَ إِمَامًا عَادِلًا يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْقِسْطِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَيَنْصَحُهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَزَاءَ قَتْلِ النَّفْسِ الْمُؤْمِنَةِ عَمْدًا الْخُلُودَ فِي النَّارِ، وَغَضَبَ الْجَبَّارِ وَلَعْنَتَهُ، وَإِعْدَادَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ لَهُ، هَذَا مُوجِبٌ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا مَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْهُ مَانِعٌ.

وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْإِسْلَامَ الْوَاقِعَ بَعْدَ الْقَتْلِ طَوْعًا وَاخْتِيَارًا مَانِعٌ مِنْ نَقُوضِ ذَلِكَ الْجُزْءِ، وَهَلْ تَمْنَعُ تَوْبَةُ الْمُسْلِمِ مِنْهُ بَعْدَ وَقُوعِهِ فِيهِ؟ قَوْلَانِ لِلسَّلَفِ وَالْخَلْفِ، وَهُمَا رَوَايَتَانِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

وَالَّذِينَ قَالُوا: لَا تَمْتَعُ التَّوْبَةُ مِنْ نُفُوسِهِ. رَأَوْا أَنَّهُ حَقٌّ لِأَدَمِيٍّ لَمْ يَسْتَوْفِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَخَرَجَ مِنْهُ بِظُلَامَتِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُسْتَوْفَى فِي دَارِ الْعَدْلِ.

قَالُوا: وَمَا اسْتَوْفَاهُ الْوَارِثُ إِنَّمَا اسْتَوْفَى مُحَضَّ حَقِّهِ الَّذِي خَيْرَهُ اللَّهُ بَيْنَ اسْتِيفَائِهِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ، وَمَا يَنْفَعُ الْمَقْتُولَ مِنْ اسْتِيفَاءِ وَارِثِهِ؟ وَآيُّ اسْتِذْرَاكِ لِظُلَامَتِهِ حَصَلَ بِاسْتِيفَاءِ وَارِثِهِ؟

وَهَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ فِي الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ حَقَّ الْمَقْتُولِ لَا يَسْقُطُ بِاسْتِيفَاءِ الْوَارِثِ وَهُمَا وَجْهَانِ لِأَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمَا.

وَرَأَتْ طَائِفَةٌ أَنَّهُ يَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ وَاسْتِيفَاءِ الْوَارِثِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا، وَالذَّنْبُ الَّذِي جَنَاهُ قَدْ أُقِيمَ عَلَيْهِ حَدُّهُ.

قَالُوا: وَإِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ تَمْحُو أَثَرَ الْكُفْرِ وَالسَّحْرِ، وَهُمَا أَعْظَمُ إِثْمًا مِنَ الْقَتْلِ، فَكَيْفَ تَقْصُرُ عَنْ مَحْوِ أَثَرِ الْقَتْلِ؟ وَقَدْ قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَةَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ، وَجَعَلَهُمْ مِنْ خِيَارِ عِبَادِهِ، وَدَعَا الَّذِينَ أَحْرَقُوا أَوْلِيَاءَهُ وَفَتَنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: ٥٣] فَهَذَا فِي حَقِّ النَّابِ، وَهِيَ تَتَاوَلُ الْكُفْرَ وَمَا دُونَهُ.

قَالُوا: وَكَيْفَ يُتَوَّبُ الْعَبْدُ مِنَ الذَّنْبِ وَيُعَاقَبُ عَلَيْهِ بَعْدَ التَّوْبَةِ؟ هَذَا مَعْلُومٌ ائْتِيَ بِهِ فِي شَرْعِ اللَّهِ وَجَزَائِهِ.

قَالُوا: وَتَوْبَةُ هَذَا الْمَذْنُوبِ تَسْلِيمُ نَفْسِهِ، وَلَا يُمَكِّنُ تَسْلِيمُهَا إِلَى الْمَقْتُولِ، فَأَقَامَ الشَّرْعُ وَلِيَهُ مَقَامَهُ وَجَعَلَ تَسْلِيمَ النَّفْسِ إِلَيْهِ كَتَسْلِيمِهَا إِلَى الْمَقْتُولِ، بِمَنْزِلَةِ تَسْلِيمِ الْمَالِ الَّذِي عَلَيْهِ لَوَارِثُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مَقَامَ تَسْلِيمِهِ لِلْمُورِثِ.

والتَّحْقِيقُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْقَتْلَ يَتَعَلَّقُ بِهِ ثَلَاثَةٌ حُقُوقٌ: حَقُّ اللَّهِ وَحَقُّ الْمَقْتُولِ، وَحَقُّ الْوَلِيِّ، فَإِذَا سَلَّمَ الْقَاتِلُ نَفْسَهُ طَوْعًا وَاخْتِيَارًا إِلَى الْوَلِيِّ نَدَمًا عَلَى مَا فَعَلَ، وَخَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَتَوْبَةً نَصُوحًا، سَقَطَ حَقُّ اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ، وَحَقُّ الْوَلِيِّ بِالِاسْتِيفَاءِ أَوْ الصُّلْحِ أَوْ الْعَفْوِ، وَيَبْقَى حَقُّ الْمَقْتُولِ يُعَوِّضُهُ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ عِبْدِهِ التَّائِبِ الْمُحْسِنِ، وَيُصْلِحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَلَا يَبْطُلُ حَقُّ هَذَا، وَلَا تَبْطُلُ تَوْبَةُ هَذَا.

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الْمَالِ: فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهَا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِذَا أَدَّى مَا عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ إِلَى الْوَارِثِ بَرِيءٌ مِنْ عَهْدَتِهِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا بَرِيءٌ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلِ الْمَطَالِبَةُ لِمَنْ ظَلَمَهُ بِأَخْذِهِ بَاقِيَةٌ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ لَمْ يَسْتَدْرِكْ ظِلَامَتَهُ بِأَخْذِ وَاثِرِهِ لَهُ، فَإِنَّهُ مَنَعَهُ مِنْ انْتِفَاعِهِ بِهِ فِي طُولِ حَيَاتِهِ، وَمَاتَ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ، وَهَذَا ظَلَمٌ لَمْ يَسْتَدْرِكْهُ، وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُهُ بِاسْتِدْرَاكِهِ، وَبَنُوا عَلَى هَذَا أَنَّهُ لَوْ انْتَقَلَ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى وَاحِدٍ، وَتَعَدَّدَ الْوَرَثَةُ، كَانَتِ الْمَطَالِبَةُ لِلْجَمِيعِ؛ لِأَنَّهُ حَقٌّ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ دَفْعُهُ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عِنْدَ كَوْنِهِ هُوَ الْوَارِثِ، وَهَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ.

وَفَصَلَ شَيْخُنَا بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، فَقَالَ: إِنْ تَمَكَّنَ الْمُورُوثُ مِنْ أَخْذِ مَالِهِ وَالْمَطَالِبَةُ بِهِ فَلَمْ يَأْخُذْهُ حَتَّى مَاتَ، صَارَتِ الْمَطَالِبَةُ بِاللُّوَارِثِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا هِيَ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ لَمْ يَتِمَّ كُنْ مِنْ طَلْبِهِ وَأَخْذِهِ، بَلَّ حَالِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، فَالطَّلَبُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَهَذَا التَّفْصِيلُ مِنْ أَحْسَنِ مَا يُقَالُ، فَإِنَّ الْمَالَ إِذَا اسْتَهْلَكَهُ الظَّالِمُ عَلَى الْمُورُوثِ، وَتَعَدَّرَ أَخْذَهُ مِنْهُ، صَارَ بِمَنْزِلَةِ عِبْدِهِ الَّذِي قَتَلَهُ قَاتِلٌ، وَدَارِهِ الَّتِي أَحْرَقَهَا غَيْرُهُ، وَطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ الَّذِي أَكَلَهُ وَشَرِبَهُ غَيْرُهُ، وَمِثْلُ هَذَا إِذَا تَلَفَ عَلَى الْمُورُوثِ لَا عَلَى الْوَارِثِ، فَحَقُّ الْمَطَالِبَةِ لِمَنْ تَلَفَ عَلَى مَلِكِهِ. وَيَقَى أَنْ يُقَالَ: فَإِذَا كَانَ الْمَالُ عَقَارًا أَوْ أَرْضًا أَوْ أَعْيَانًا قَائِمَةً بَاقِيَةً بَعْدَ الْمَوْتِ فَهِيَ مِلْكُ الْوَارِثِ يَجِبُ عَلَى الْغَاصِبِ دَفْعُهَا

إِلَيْهِ كُلِّ وَقْتٍ، فَإِذَا لَمْ يَدْفَعْ إِلَيْهِ أَعْيَانَ مَالِهِ اسْتَحَقَّ الْمَطَالِبَةَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا يَسْتَحَقُّ الْمَطَالِبَةَ بِهَا فِي الدُّنْيَا.

وَهَذَا سُؤَالَ قَوِيٍّ لَا مَخْلَصَ مِنْهُ إِلَّا بِأَنْ يُقَالَ: الْمَطَالِبَةُ هُمَا جَمِيعًا، كَمَا لَوْ غَضِبَ مَا لَا مُشْتَرَكًا بَيْنَ جَمَاعَةٍ؛ اسْتَحَقَّ كُلُّ مِنْهُمُ الْمَطَالِبَةَ لِحَقِّهِ مِنْهُ، كَمَا لَوْ اسْتَوْلَى عَلَى وَقْفٍ مُرْتَبٍ عَلَى بُطُونٍ، فَأَبْطَلَ حَقَّ الْبُطُونِ كُلِّهِمْ مِنْهُ، كَانَتْ الْمَطَالِبَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِجَمِيعِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَصُلِّ

وَلَمَّا كَانَتْ مَفْسَدَةُ الْقَتْلِ هَذِهِ الْمَفْسَدَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بَعِيرٍ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٣٢].

وَقَدْ أَشْكَلَ فَهْمُهُ هَذَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَقَالَ: مَعْلُومٌ أَنَّ إِثْمَ قَاتِلِ مِائَةِ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ إِثْمِ قَاتِلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّمَا اتُّوهُ مِنْ ظَنِّهِمْ أَنَّ التَّشْبِيهَ فِي مِقْدَارِ الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ، وَاللَّفْظُ لَمْ يَدُلَّ عَلَى هَذَا، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ تَشْبِيهِ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ أَخْذُهُ بِجَمِيعِ أَحْكَامِهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ [سُورَةُ الْأَحْقَافِ: ٣٥].

وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ أَنْ لُبُّهُمْ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا كَانَ هَذَا الْمِقْدَارَ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ»^(١)، أَيْ: مَعَ الْعِشَاءِ كَمَا جَاءَ فِي لَفْظِ آخَرَ، وَأَصْرَحَ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ

(١) أخرجه مسلم في المساجد، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة (٦٥٦).

وَاتَّبَعَهُ بَسِيتٌ مِنْ سُؤَالٍ فَكَاتَمْنَا صَامَ الدَّهْرِ»^(١)، وَقَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَكَاتَمْنَا قَرَأْتُمْ الْقُرْآنَ»^(٢)، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ثَوَابَ فَاعِلٍ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَمْ يَبْلُغْ ثَوَابَ الْمُسَيِّبِ بِهِ، فَيَكُونُ قَدْرُهُمَا سَوَاءً، وَلَوْ كَانَ قَدْرُ الثَّوَابِ سَوَاءً لَمْ يَكُنْ لِمُصَلِّيِ الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ جَمَاعَةٌ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ مَنْفَعَةٌ غَيْرُ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ، وَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ - بَعْدَ الْإِيْمَانِ - أَفْضَلَ مِنَ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، ﷺ. وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَفِي أَيِّ شَيْءٍ وَقَعَ التَّشْبِيهُ بَيْنَ قَاتِلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَقَاتِلِ النَّاسِ جَمِيعًا؟
قِيلَ: فِي وُجُوهِ مُتَعَدِّدَةٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا عَاصَى لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ مُحَالِفٌ لِأَمْرِهِ مُتَعَرِّضٌ لِعُقُوبَتِهِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا قَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَلَعْنَتِهِ، وَاسْتَحْقَاقِ الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَإِعْدَادِهِ عَذَابًا عَظِيمًا، وَإِنَّمَا التَّفَاوُتُ فِي دَرَجَاتِ الْعَذَابِ، فَلَيْسَ إِثْمٌ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ إِمَامًا عَادِلًا أَوْ عَالِمًا يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْقِسْطِ، كَمَا ثَمَّ مَنْ قَتَلَ مَنْ لَا مَزِيَّةَ لَهُ مِنْ أَحَادِ النَّاسِ.

الثَّانِي: أَنَّهُمَا سَوَاءٌ فِي اسْتِحْقَاقِ إِزْهَاقِ النَّفْسِ.

الثَّلَاثُ: أَنَّهُمَا سَوَاءٌ فِي الْجُرَاءَةِ عَلَى سَفْكِ الدَّمِ الْحَرَامِ، فَإِنْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ، بَلْ لِمَجْرَدِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، أَوْ لِأَخْذِ مَالِهِ: فَإِنَّهُ يَجْتَرِي عَلَى قَتْلِ كُلِّ مَنْ ظَفَرَ بِهِ وَأَمَكَّنَهُ قَتْلَهُ، فَهُوَ مُعَادٍ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ.

(١) أخرجه مسلم عن أبي أيوب الأنصاري في الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال (١١٦٤).

(٢) حديث أبي الدرداء عند مسلم (٨١١) بلفظ: "أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن". وعن أبي هريرة عند مسلم أيضًا (٨١٢) نحوه. وعن أبي سعيد الخدري عند البخاري (٥٠١٥) نحوه.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُسَمَّى قَاتِلًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ ظَالِمًا أَوْ عَاصِيًا بِقَتْلِهِ وَاحِدًا، كَمَا يُسَمَّى كَذَلِك بِقَتْلِهِ النَّاسَ جَمِيعًا.
 وَمِنْهَا: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاضُعِهِمْ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحَمَى وَالسَّهْرِ، فَإِذَا أَتَلَفَ الْقَاتِلُ مِنْ هَذَا الْجَسَدِ عُضْوًا، فَكَأَنَّمَا أَتَلَفَ سَائِرَ الْجَسَدِ، وَالْمُ جَمِيعَ أَعْضَائِهِ، فَمَنْ آذَى مُؤْمِنًا وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا آذَى جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِي آذَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ آذَى جَمِيعِ النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يُدَافِعُ عَنِ النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَهُمْ، فَإِذَا هُوَ الْخَفِيرُ إِذَا هُوَ الْمُخْفَرُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظَلَمًا بِغَيْرِ حَقٍّ، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(١).

وَلَمْ يَجِئْ هَذَا الْوَعِيدُ فِي أَوَّلِ زَانٍ وَلَا أَوَّلِ سَارِقٍ وَلَا أَوَّلِ شَارِبٍ مُسَكِّرٍ، وَإِنْ كَانَ أَوَّلُ الْمُشْرِكِينَ قَدْ يَكُونُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ قَاتِلٍ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الشَّرْكَ؛ وَهَذَا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ عَمْرَو بْنَ لَحْيٍ الْخَزَاعِيَّ يُعَذَّبُ أَعْظَمَ الْعَذَابِ فِي النَّارِ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ^(٢).

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٤١].

أَيُّ فَيَقْتَدِي بِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ، فَيَكُونُ إِنْكُمْ كَفَرِهِ عَلَيْكُمْ، وَكَذَلِكَ حُكْمٌ مِنْ سَنِّ سُنَّةِ سَيِّئَةٍ فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا.

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته (٣٣٣٥)، ومسلم في القسامة، باب بيان إثم من سنّ القتل (١٦٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب قصة خزاعة (٣٥٢١)؛ ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون (٢٨٥٦).

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ الْمُقْتُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاصِيئَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ، وَأَوْدَاجُهُ تَشْحَبُ دَمًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلْتَنِي؟»^(١) فَذَكَرُوا لِابْنِ عَبَّاسٍ التَّوْبَةَ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: ٩٣].

ثُمَّ قَالَ: مَا نُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا بُدِّلَتْ، وَأَنَّى لَهُ التَّوْبَةُ؟ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ نَافِعٍ قَالَ: نَظَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: «مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ، وَالْمُؤْمِنُ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْكَ»، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ: أَوَّلُ مَا يُتَيْنُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ مِلءٌ كَفَّ مِنْ دَمٍ أَهْرَاقَهُ فَلْيَفْعَلْ. وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»^(٢).

وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْفَعَ نَفْسَهُ فِيهَا: سَفْكُ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ.

(١) (٣٠٢٩). وأخرجه النسائي (٤٠٠٥) من طريق ورقاء ومحمد بن ثابت العبدي كلاهما عن عمرو بن دينار عن ابن عباس فذكره. ورواه عمار الدهني وغيره عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس بنحوه. أخرجه النسائي (٣٩٩٩) وابن ماجه (٢٦٢١) وأحمد (١٩٤١، ٢٦٨٣) والطبراني (١٢٥٩٧) وغيرهم. قال الحافظ ابن حجر في موافقة الخبر الخبر (٢/ ٣٣٤): "هذا حديث صحيح". وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٤٤٧) - ((١٣)).

(٢) صحيح البخاري كتاب الديات، باب قول الله تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ (٦٨٦٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ: «سَبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^(١).

وَفِيهَا أَيْضًا عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفْرًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(٢).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يُرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(٣).

هَذِهِ عُقُوبَةٌ قَاتِلِ عَدُوِّ اللَّهِ إِذَا كَانَ فِي عَهْدِهِ وَأَمَانِهِ، فَكَيْفَ عُقُوبَةُ قَاتِلِ عَيْبِهِ الْمُؤْمِنِ؟ وَإِذَا كَانَتْ امْرَأَةً قَدْ دَخَلَتْ النَّارَ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا وَعَطَشًا، فَرَأَاهَا النَّبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي النَّارِ وَالْهَرَّةُ تَخْدِشُهَا فِي وَجْهِهَا وَصَدْرِهَا، فَكَيْفَ عُقُوبَةُ مَنْ حَبَسَ مُؤْمِنًا حَتَّى مَاتَ بِغَيْرِ جُرْمٍ؟ وَفِي بَعْضِ السُّنَنِ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»^(٤).

(١) الحديث الوارد في الصحيحين عن ابن مسعود وليس عن أبي هريرة. أخرجه البخاري في الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٤٨)؛ ومسلم في الإيمان (٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن (٧٠٧٧ - ٧٠٨٠)؛ ومسلم في كتاب الإيمان (٦٥ - ٦٦).

(٣) أخرجه في كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم (٣١٦٦).

(٤) أخرجه النسائي (٣٩٩٠) وابن أبي عاصم في الدييات (٨) وابن عدي في الكامل (٢١ / ٢) وغيرهم من طريق بشير بن المهاجر عن ابن بريدة عن أبيه رفعه: "قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا". وفيه بشير بن المهاجر الغنوي، فيه ضعف. وورد عن البراء، أخرجه ابن ماجه (٢٦١٩) وابن أبي عاصم في الدييات (٧) وابن عدي في الكامل (٣ / ١٤٥) وغيرهم من طريق روح بن جناح عن أبي الجهم مولى البراء عن البراء فذكره. فيه روح بن جناح، فيه ضعف. انظر تهذيب الكمال (٩ / ٢٣٤). وورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص. أخرجه الترمذي (١٣٩٥) والنسائي (٣٩٨٧) وابن أبي عاصم في الدييات (٥) وغيرهم من طريق محمد بن أبي عدي عن شعبة عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمرو فذكره مرفوعًا قال البخاري: "الصحيح عن عبد الله بن عمرو موقوف". وصححه البخاري في صحيح الترغيب (٢٤٣٨٠ - ٢٤٤٤٠).

فَصْلٌ

وَمَا كَانَتْ مَفْسَدَةُ الزُّنَى مِنْ أَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ وَهِيَ مُنَافِيَةٌ لِمَصْلَحَةِ نِظَامِ الْعَالَمِ فِي حِفْظِ الْأَنْسَابِ، وَحِمَايَةِ الْفُرُوجِ، وَصِيَانَةِ الْحُرْمَاتِ، وَتَوْقِي مَا يُوقِعُ أَعْظَمَ الْعَدَاوَةِ وَالْبُغْضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ، مِنْ إِفْسَادِ كُلِّ مِنْهُمْ امْرَأَةً صَاحِبِهِ وَبِنْتَهُ وَأُخْتَهُ وَأُمَّهُ، وَفِي ذَلِكَ خَرَابُ الْعَالَمِ، كَانَتْ تَلِي مَفْسَدَةَ الْقَتْلِ فِي الْكِبَرِ، وَهَذَا قَرَنَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَرَسُولُهُ ﷺ فِي سُنَّتِهِ كَمَا تَقَدَّمَ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: وَلَا أَعْلَمُ بَعْدَ قَتْلِ النَّفْسِ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنَ الزُّنَى.

وَقَدْ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ حُرْمَتَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ٦٨ - ٧٠].

فَقَرَنَ الزُّنَى بِالشُّرْكِ وَقَتْلِ النَّفْسِ، وَجَعَلَ جَزَاءَ ذَلِكَ الْخُلُودَ فِي الْعَذَابِ الْمُضَاعَفِ، مَا لَمْ يَرَفَعْ الْعَبْدُ مُوجِبَ ذَلِكَ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزُّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [سُورَةُ الْأَسْرَاءِ: ٣٢].

فَأَخْبَرَ عَنْ فُحْشِهِ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ الْقَيْحُ الَّذِي قَدْ تَنَاهَى قُبْحُهُ حَتَّى اسْتَقَرَّ فُحْشُهُ فِي الْعُقُولِ حَتَّى عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانِ، كَمَا ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونِ الْأَوْدِيِّ قَالَ: (رَأَيْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَرْدًا زُنَى بِقَرْدَةٍ، فَاجْتَمَعَ الْقُرُودُ عَلَيْهَا فَزَجَّوْهُمَا حَتَّى مَاتَا).

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ غَايَتِهِ بِأَنَّهُ ﴿سَاءَ سَبِيلًا﴾ فَإِنَّهُ سَبِيلُ هَلَكَةٍ وَبَوَارٍ وَافْتِقَارٍ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابٍ وَخِزْيٍ وَنَكَالٍ فِي الْآخِرَةِ.

وَلَمَّا كَانَ نِكَاحُ آزْوَاجِ الْآبَاءِ مِنْ أَقْبَحِهِ خَصَّهُ بِمَزِيدٍ ذَمًّا، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: ٢٢].

وَعَلَّقَ سُبْحَانَهُ فَلَاحَ الْعَبْدِ عَلَى حِفْظِ فَرْجِهِ مِنْهُ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْفَلَاحِ بِدُونِهِ، فَقَالَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ١-٧].

وَهَذَا يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: أَنْ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ فَرْجَهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُفْلِحِينَ، وَأَنَّ مِنَ الْمَلُومِينَ، وَمَنْ الْعَادِينَ، فَقَاتَهُ الْفَلَاحُ، وَاسْتَحَقَّ اسْمَ الْعُدْوَانِ، وَوَقَعَ فِي اللَّوْمِ، فَمُقَاسَاةُ أَلْمِ الشَّهْوَةِ وَمُعَانَاةَا أَيْسَرٍ مِنْ بَعْضِ ذَلِكَ.

وَنَظِيرٌ هَذَا أَنَّهُ ذَمُّ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّهُ خُلِقَ هُلُوعًا لَا يَصْبِرُ عَلَى سَرَاءٍ وَلَا ضَرَاءٍ، بَلْ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنَعَ وَيَخَلَّ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزِعَ، إِلَّا مَنْ اسْتَشْنَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ النَّاجِينَ مِنْ خَلْقِهِ، فَذَكَرَ مِنْهُمْ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [سُورَةُ الْمَعَارِجِ: ٢٩-٣١].

فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يَأْمُرَ الْمُؤْمِنِينَ بِغَضِّ أَبْصَارِهِمْ، وَحِفْظِ فُرُوجِهِمْ، وَأَنْ يُعْلِمَهُمْ أَنَّهُ مُشَاهِدٌ لِأَعْمَالِهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهَا، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: ١٩].

وَلَمَّا كَانَ مَبْدَأُ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْبَصْرِ جُعِلَ الْأَمْرُ بَعْضُهُ مُقَدَّمًا عَلَى حِفْظِ الْفَرْجِ، فَإِنَّ الْحَوَادِثَ مَبْدُؤَهَا مِنَ الْبَصْرِ، كَمَا أَنَّ مُعْظَمَ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْعِرِ الشَّرْرِ، فَتَكُونُ نَظْرَةً، ثُمَّ تَكُونُ خَطْرَةً، ثُمَّ خُطْوَةً، ثُمَّ خَطِيئَةً.

وَلِهَذَا قِيلَ: مَنْ حَفِظَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ أَحْرَزَ دِينَهُ: اللَّحَظَاتِ، وَالْحَطَرَاتِ، وَاللَّفْظَاتِ، وَالْحُطُوبَاتِ.
فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ بَوَّابَ نَفْسِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَبْوَابِ الْأَرْبَعَةِ، وَيَلْزِمَ الرِّبَاطَ عَلَى تُغُورِهَا، فَمِنْهَا
يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ، فَيَجُوسُ خِلَالَ الدِّيَارِ وَيَتَبَّرُ مَا عَلَا تَنْبِيرًا.

فَصْلٌ

وَأَكْثَرُ مَا تَدْخُلُ الْمُعَاصِي عَلَى الْعَبْدِ مِنْ هَذِهِ الْأَبْوَابِ الْأَرْبَعَةِ، فَتَذَكَّرُ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْهَا فَضْلًا يَلِيْقُ

بِهِ.

فَأَمَّا اللَّحَظَاتُ: فَهِيَ رَائِدُ الشَّهْوَةِ وَرَسُوْمُهَا، وَحِفْظُهَا أَصْلُ حِفْظِ الْفَرْجِ، فَمَنْ أَطْلَقَ بَصْرَهُ أُوْرِدَ
نَفْسُهُ مَوَارِدَ الْمُهْلِكَاتِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْأُخْرَى»^(١).

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْهُ ﷺ: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، فَمَنْ غَضَّ بَصْرَهُ عَنْ مُحَاسِنِ أَمْرٍ أَوْ لِقَاءِ اللَّهِ،
أُوْرَثَ اللَّهُ قَلْبُهُ حَلَاوَةً إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»^(٢) هَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ.

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٩) والترمذي (٢٧٧٧) وأحمد ٥ / ٣٥٢، ٣٥٣ (٢٢٩٧٤، ٢٢٩٩١) وغيرهم من طريق شريك القاضي عن أبي ربيعة الإيادي عن ابن بريدة عن أبيه. وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٦٥).
(٢) والحديث أخرجه الحاكم ٤ / ٣٤٩ (٧٨٧٥) والقضاعي في مسند الشهاب (٢٩٢) من طريق إسحاق بن عبد الواحد القرشي عن هشيم عن عبد الرحمن بن إسحاق عن محارب بن دثار عن صلة بن زفر عن حذيفة مرفوعاً فذكره. قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" فتعقبه الذهبي بقوله: "إسحاق وإه، وعبد الرحمن هو الواسطي ضعّفوه". وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١١٩٤).

وَقَالَ: «غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ»^(١)، وَقَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَجَالِسُنَا مَا لَنَا بُدٌّ مِنْهَا، قَالَ: «فَإِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ فَاعِلِينَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصْرِ وَكَفُّ الْأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ»^(٢).

وَالنَّظْرُ أَصْلُ عَامَّةِ الْحَوَادِثِ الَّتِي تُصِيبُ الْإِنْسَانَ، فَالنَّظْرَةُ تُؤَلِّدُ خَطْرَةً، ثُمَّ تُؤَلِّدُ الْخَطْرَةُ فِكْرَةً، ثُمَّ تُؤَلِّدُ الْفِكْرَةُ شَهْوَةً، ثُمَّ تُؤَلِّدُ الشَّهْوَةُ إِرَادَةً، ثُمَّ تَقْوَى فَصِيرٌ عَزِيمَةٌ جَازِمَةٌ، فَيَقَعُ الْفِعْلُ وَلَا بُدَّ، مَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْهُ مَانِعٌ، وَفِي هَذَا قِيلَ: الصَّبْرُ عَلَى غَضِّ الْبَصْرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى أَلْمِ مَا بَعْدَهُ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظْرِ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغِرِ الشَّرِّ
كَمْ نَظْرَةٌ بَلَّغَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا... كَمَبَلَّغِ السَّهْمِ بَيْنَ الْقَوْسِ وَالْوَتْرِ
وَالْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا طَرْفٍ يُقَلِّبُهُ... فِي أَعْيُنِ الْعَيْنِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطْرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ... لَا مَرَحَبًا بِسُرُورٍ عَادًا بِالضَّرْرِ

وَمِنْ آفَاتِ النَّظْرِ: أَنَّهُ يُورِثُ الْحَسْرَاتِ وَالزَّفَرَاتِ وَالْحُرْقَاتِ، فَيَرَى الْعَبْدُ مَا لَيْسَ قَادِرًا عَلَيْهِ وَلَا صَابِرًا عَنْهُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعَذَابِ، أَنْ تَرَى مَا لَا صَبْرَ لَكَ عَنْ بَعْضِهِ، وَلَا قُدْرَةَ عَلَى بَعْضِهِ.

(١) أخرجه أحمد ٥ / ٣٢٣ (٢٢٧٥٧) وابن حبان (٢٧١) والحاكم ٤ / ٣٩٩ (١٠٦٦) وغيرهم من طريق عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن عبد الله عن عبادة بن الصامت رفعه: "اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة...". قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه". فتعقبه الذهبي بقوله: «فيه إرسال» لكن صححه الألباني في الصحيحة (١٤٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم، باب أفنية الدور... (٢٤٦٥)؛ ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢١).

قَالَ الشَّاعِرُ:

وَكُنْتُ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا... لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعَبْتِكَ الْمُنَاطِرُ

رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ... عَلَيْهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ

وَهَذَا الْبَيْتُ يَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ، وَمُرَادُهُ: أَنْكَ تَرَى مَا لَا تَصْبِرُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ:

" لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ " نَفْيٌ لِقُدْرَتِهِ عَلَى الْكُلِّ الَّذِي لَا يَتَنَهَى إِلَّا بِنَفْيِ الْقُدْرَةِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ.

وَكَمْ مَنْ أَرْسَلَ لِحَظَاتِهِ فَمَا قَلَعَتْ إِلَّا وَهُوَ يَتَشَحَّطُ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا، كَمَا قِيلَ:

يَا نَاظِرًا مَا أَقْلَعْتَ لِحَظَاتِهِ... حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا

وَلِي مِنْ أَيْبَاتٍ:

مَلَّ السَّلَامَةَ فَاغْتَدَّتْ لِحَظَاتِهِ... وَقَفَا عَلَى طَلَلٍ يَطْنُ جَمِيلًا

مَا زَالَ يُتْبِعُ إِثْرَهُ لِحَظَاتِهِ... حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا

وَمِنْ الْعَجَبِ: أَنَّ لِحَظَةَ النَّاطِرِ سَهْمٌ لَا يَصِلُ إِلَى الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ حَتَّى يَتَبَوَّأَ مَكَانًا مِنْ قَلْبِ النَّاطِرِ، وَبِ

مِنْ قَصِيدَةٍ:

يَا رَامِيًا بِسَهْمِ اللَّحْظِ مُجْتَهِدًا... أَنْتَ الْقَتِيلُ بِمَا تَرْمِي فَلَا تُصَبِّ

يَا بَاعِثَ الطَّرْفِ يَرْتَادُ الشِّفَاءَ لَهُ... أَحْسِنِ رِسُولَكَ لَا يَأْتِيكَ بِالْعَطَبِ

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ النَّظْرَةَ تَجْرَحُ الْقَلْبَ جُرْحًا، فَيَتْبَعُهَا جُرْحٌ عَلَى جُرْحٍ، ثُمَّ لَا يَمْنَعُهُ أَلَمُ الْجِرَاحَةِ

مِنْ اسْتِدْعَاءِ تَكَرُّرِهَا، وَبِ أَيْضًا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

مَا زِلْتَ تُتْبِعُ نَظْرَةً فِي نَظْرَةٍ... فِي إِثْرِ كُلِّ مَلِيحَةٍ وَمَلِيحٍ

وَتَظُنُّ ذَاكَ دَوَاءً جُرْحِكَ وَهُوَ فِي آلٍ ... تَحْقِيقُ تَجْرِيحٍ عَلَى تَجْرِيحٍ
فَدَبِحَتْ طَرْفَكَ بِاللِّحَاطِ وَيَالْبُكََا ... فَالْقَلْبُ مِنْكَ ذِيحُ أَيُّ ذِيحٍ
وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ حَبْسَ اللَّحْظَاتِ أَيْسَرُ مِنْ دَوَامِ الْحَسَرَاتِ.

وَأَمَّا الْخَطَرَاتُ: فَشَأْنُهَا أَصْعَبُ، فَإِنَّهَا مَبْدَأُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَمِنْهَا تَتَوَلَّدُ الْإِرَادَاتُ وَالْهَمَمُ وَالْعَزَائِمُ،
فَمَنْ رَاعَى خَطَرَاتِهِ مَلَكَ زَمَانَ نَفْسِهِ وَقَهَرَ هَوَاهُ، وَمَنْ غَلَبَتْهُ خَطَرَاتُهُ فَهَوَاهُ وَنَفْسُهُ لَهُ أَغْلَبُ، وَمَنْ
اسْتَهَانَ بِالْخَطَرَاتِ قَادَهُ قَهْرًا إِلَى الْهَلَكَاتِ، وَلَا تَزَالُ الْخَطَرَاتُ تَرُدُّ عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى تَصِيرَ مُنَى بَاطِلَةٍ
﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ﴾ [سُورَةُ النُّورِ: ٣٩].

وَأَخْسُ النَّاسِ هِمَّةٌ وَأَوْضَعُهُمْ نَفْسًا، مَنْ رَضِيَ مِنَ الْحَقَائِقِ بِالْأَمَانِيِّ الْكَادِبَةِ، وَاسْتَجَلَبَهَا لِنَفْسِهِ
وَتَجَلَّى بِهَا، وَهِيَ لَعْمُرُ اللَّهِ رُءُوسُ أَمْوَالِ الْمُفْلِسِينَ، وَمَتَاجِرُ الْبَطَّالِينَ، وَهِيَ قُوَّةُ النَّفْسِ الْفَارِغَةِ، الَّتِي
قَدَّ قَنَعَتْ مِنَ الْوَصْلِ بِزُورَةِ الْخَيَالِ، وَمِنَ الْحَقَائِقِ بِكَوَاذِبِ الْأَمَالِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَمَانِيٍّ مِنْ سُعْدَى رِوَاءٍ عَلَى الظَّمَا ... سَقَتْنَا بِهَا سُعْدَى عَلَى ظَمًا بَرْدًا

مُنَى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنَى ... وَإِلَّا فَقَدْ عَشْنَا بِهَا زَمَانًا رَغْدًا

وَهِيَ أَضْرُّ شَيْءٍ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَيَتَوَلَّدُ مِنْهَا الْعَجْزُ وَالْكَسَلُ، وَتُوَلَّدُ التَّفْرِيطَ وَالْحُسْرَةَ وَالنَّدَمَ،
وَالْمُتَمَنَّى لَمَّا فَاتَتْهُ مَبَاشَرَةُ الْحَقِيقَةِ بِجِسْمِهِ حَوْلَ صُورَتِهَا فِي قَلْبِهِ، وَعَانَقَهَا وَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَقَنَعَ بِوَصَالِ
صُورَةٍ وَهَمِيَّةٍ خَيَالِيَّةٍ صَوَّرَهَا فِكْرَهُ.

وَذَلِكَ لَا يُجِدِي عَلَيْهِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا مَثَلُهُ مَثَلُ الْجَائِعِ وَالظَّمَانِ، يُصَوِّرُ فِي وَهْمِهِ صُورَةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ،
وَهُوَ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ.

وَالسُّكُونُ إِلَى ذَلِكَ وَاسْتِجْلَابُهُ يُدُلُّ عَلَى خَسَارَةِ النَّفْسِ وَوَضَاعَتِهَا، وَإِنَّمَا شَرَفُ النَّفْسِ وَزَكَوَاتُهَا، وَطَهَارَتُهَا وَعُلُوُّهَا بِأَنْ يَنْفِي عَنْهَا كُلَّ خَطَرَةٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَلَا يَرْضَى أَنْ يُحْطَرَهَا بِبَالِهِ، وَيَأْنِفَ لِنَفْسِهِ مِنْهَا.

ثُمَّ الْخَطَرَاتُ بَعْدَ أَقْسَامِ تَدْوُرٍ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصُولٍ:

خَطَرَاتٌ يَسْتَجْلِبُ بِهَا الْعَبْدُ مَنَافِعَ دُنْيَاهُ.

وَخَطَرَاتٌ يَسْتَدْفِعُ بِهَا مَضَارَّ دُنْيَاهُ.

وَخَطَرَاتٌ يَسْتَجْلِبُ بِهَا مَصَالِحَ آخِرَتِهِ.

وَخَطَرَاتٌ يَسْتَدْفِعُ بِهَا مَضَارَّ آخِرَتِهِ.

فَلْيَحْصُرِ الْعَبْدُ خَطَرَاتِهِ وَأَفْكَارَهُ وَهَمُومَهُ فِي هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ، فَإِذَا انْحَصَرَتْ لَهُ فِيهَا أَمْكَنَ اجْتِمَاعُهُ مِنْهَا وَلَمْ يَتْرُكْهُ لِغَيْرِهِ، وَإِذَا تَزَاحَمَتْ عَلَيْهِ الْخَطَرَاتُ لِتَرَاحُمِ مُتَعَلِّقَاتِهَا، قَدَّمَ الْأَهَمَّ فَالْأَهَمُّ الَّذِي يَخْشَى فَوْتَهُ، وَآخَرَ الَّذِي لَيْسَ بِأَهَمِّ وَلَا يَخَافُ فَوْتَهُ.

بَقِيَ قِسْمَانِ آخِرَانِ:

أَحَدُهُمَا: مُهِمٌّ لَا يَفُوتُ.

وَالثَّانِي: غَيْرُ مُهِمٍّ وَلَكِنَّهُ يَفُوتُ.

فَفِي كُلِّ مِنْهُمَا مَا يَدْعُو إِلَى تَقْدِيمِهِ، فَهَذَا يَقَعُ التَّرَدُّدُ وَالْحَيْرَةُ، فَإِنْ قَدَّمَ الْمُهِمَّ؛ خَشِيَ فَوَاتَ مَا دُونَهُ، وَإِنْ قَدَّمَ مَا دُونَهُ فَاتَتْهُ الْإِشْتِعَالُ بِهِ عَنِ الْمُهِمِّ، وَكَذَلِكَ يَعْزِضُ لَهُ أَمْرَانِ لَا يُمْكِنُ الْجُمْعُ بَيْنَهُمَا، وَلَا يَحْضُلُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِتَقْوِيَتِ الْآخَرِ.

فَهُوَ مَوْضِعُ اسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ وَالْفِقْهِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَمَنْ هَاهُنَا ارْتَفَعَ مِنْ ارْتَفَعٍ وَأَنْجَحَ مِنْ أَنْجَحٍ، وَخَابَ مَنْ خَابَ، فَأَكْثَرَ مَنْ تَرَى مِمَّنْ يَعْظُمُ عَقْلَهُ وَمَعْرِفَتَهُ، يُؤَثِّرُ غَيْرَ الْمُهْمِّ الَّذِي لَا يَفُوتُ عَلَى الْمُهْمِّ الَّذِي يَفُوتُ، وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مُسْتَقِيلٌ وَمُسْتَكْبِرٌ.

وَالْتَّحْكِيمُ فِي هَذَا الْبَابِ لِلْقَاعِدَةِ الْكُبْرَى الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ، وَإِلَيْهَا مَرْجِعُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَهِيَ إِثَارُ أَكْبَرِ الْمُصْلِحَتَيْنِ وَأَعْلَاهُمَا، وَإِنْ فَاتَتِ الْمُصْلِحَةُ الَّتِي هِيَ دُونَهَا، وَالِدُّخُولُ فِي أَدْنَى الْمُفْسَدَتَيْنِ لِدَفْعِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا.

فَيَفُوتُ مَصْلِحَةٌ لِتَحْصِيلِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا، وَيَرْتَكِبُ مَفْسَدَةٌ لِدَفْعِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا.

فَخَطَرَاتُ الْعَاقِلِ وَفِكْرُهُ لَا يُجَاوِزُ ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ جَاءَتِ الشَّرَائِعُ، وَمَصَالِحُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ، وَأَعْلَى الْفِكْرِ وَأَجْلَاهَا وَأَنْفَعُهَا: مَا كَانَ لِلَّهِ وَالِدَّارِ الْآخِرَةِ، فَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ أَنْوَاعٌ: أَحَدُهَا: الْفِكْرَةُ فِي آيَاتِهِ الْمُنَزَّلَةِ وَتَعَقُّلُهَا، وَفَهْمُهَا وَفَهْمُ مُرَادِهِ مِنْهَا، وَلِذَلِكَ أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى، لَا لِجُرْدِ تِلَاوَتِهَا، بَلِ التَّلَاوَةُ وَسِيْلَةٌ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا.

الثَّانِي: الْفِكْرَةُ فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ وَالْإِعْتِبَارُ بِهَا، وَالِاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَحِكْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَبِرِّهِ وَجُودِهِ، وَقَدْ حَصَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ وَتَدْبِيرِهَا وَتَعَقُّلِهَا، وَدَمَّ الْغَافِلَ عَنْ ذَلِكَ.

الثَّلَاثُ: الْفِكْرَةُ فِي آيَاتِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَإِنْعَامِهِ عَلَى خَلْقِهِ بِأَصْنَافِ النِّعَمِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَحِلْمِهِ. وَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ الثَّلَاثَةُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ الْقَلْبِ مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَمَحَبَّتَهُ وَخَوْفَهُ وَرَجَاءَهُ. وَدَوَامُ الْفِكْرَةِ فِي ذَلِكَ مَعَ الذِّكْرِ يَصْبِغُ الْقَلْبَ فِي الْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ صِبْغَةً تَامَةً.

الرَّابِعُ: الْفِكْرَةُ فِي عُيُوبِ النَّفْسِ وَأَفَاتِمَا، وَفِي عُيُوبِ الْعَمَلِ، وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ عَظِيمَةُ النَّفْعِ، وَهَذَا بَابٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَتَأْثِيرُهَا فِي كَسْرِ النَّفْسِ الْأَمَارَةِ بِالشُّوْءِ، وَمَتَى كُسِرَتْ عَاشَتْ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةَ وَأُنْبَعَثَتْ وَصَارَ الْحُكْمُ لَهَا، فَحَيِيَ الْقَلْبُ، وَدَارَتْ كَلِمَتُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ، وَبَثَّ أَمْرَاهُ وَجُنُودَهُ فِي مَصَالِحِهِ.

الْحَامِسُ: الْفِكْرَةُ فِي وَاجِبِ الْوَقْتِ وَوُضُوعِهِ وَجَمْعِ الْهَمِّ كُلِّهِ عَلَيْهِ، فَالْعَارِفُ ابْنَ وَقْتِهِ، فَإِنْ أَضَاعَهُ ضَاعَتْ عَلَيْهِ مَصَالِحُهُ كُلُّهَا، فَجَمِيعُ الْمَصَالِحِ إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنَ الْوَقْتِ، وَإِنْ ضَيَّعَهُ لَمْ يَسْتَدْرِكْهُ أَبَدًا.

قَالَ الشَّافِعِيُّ: «صَحِبْتُ الصُّوفِيَّةَ فَلَمْ أَسْتَفِدْ مِنْهُمْ سِوَى حَرْفَيْنِ: أَحَدُهُمَا قَوْلُهُمْ: الْوَقْتُ سَيْفٌ، فَإِنْ قَطَعْتَهُ وَإِلَّا قَطَعَكَ».

وَذَكَرَ الْكَلِمَةَ الْأُخْرَى: «وَنَفْسِكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْحَقِّ وَإِلَّا شَغَلْتَكَ بِالْبَاطِلِ».

فَوْقَ الْإِنْسَانِ هُوَ عُمُرُهُ فِي الْحَقِيقَةِ، وَهُوَ مَادَّةُ حَيَاتِهِ الْأَبَدِيَّةِ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَمَادَّةُ الْمَعِيشَةِ الضَّنْكَ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَهُوَ يَمُرُّ أَسْرَعَ مِنَ السَّحَابِ، فَمَا كَانَ مِنْ وَقْتِهِ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ

فَهُوَ حَيَاتُهُ وَعُمُرُهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ لَيْسَ مُحْسُوبًا مِنْ حَيَاتِهِ، وَإِنْ عَاشَ فِيهِ عَاشَ الْبَهَائِمِ، فَإِذَا قَطَعَ وَقْتَهُ فِي الْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ وَالْأَمَانِيِّ الْبَاطِلَةِ، وَكَانَ خَيْرٌ مَا قَطَعَهُ بِهِ النَّوْمُ وَالْبَطَالَةُ، فَمَوْتُ هَذَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ.

وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ - وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ - لَيْسَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ مِنْهَا فَلَيْسَ لَهُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا مَا كَانَ فِيهِ بِاللَّهِ وَاللَّهُ.

وَمَا عَدَا هَذِهِ الْأَقْسَامِ مِنَ الْخَطَرَاتِ وَالْفِكَرِ، فِيمَا وَسَاوَسَ شَيْطَانِيَّةً وَإِمَامَانِيَّةً بَاطِلَةً، وَخَدَعُ كَادِبَةً، بِمَنْزِلَةِ خَوَاطِرِ الْمَصَابِينِ فِي عُقُوبِهِمْ مِنَ السُّكَارَى وَالْمُحْشُوشِينَ وَالْمُوسُوسِينَ، وَلِسَانِ حَالِ هَؤُلَاءِ يَقُولُ عِنْدَ انْكِشَافِ الْحَقَائِقِ:

إِنْ كَانَ مَنَزَلَتِي فِي الْحُشْرِ عِنْدَكُمْ ... مَا قَدْ لَقِيتُ فَقَدْ ضَيَّعْتُ أَيَّامِي

أُمْنِيَّةٌ ظَفَرْتُ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا ... وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ

وَاعْلَمْ أَنَّ وُرُودَ الْخَاطِرِ لَا يُضُرُّ، وَإِنَّمَا يُضُرُّ اسْتِدْعَاؤُهُ وَمُحَادَثَتُهُ، فَالْخَاطِرُ كَالْمَارِّ عَلَى الطَّرِيقِ، فَإِنْ تَرَكَتَهُ مَرًّا وَانصَرَفَ عَنْكَ، وَإِنْ اسْتَدْعَيْتَهُ سَحَرَكَ بِحَدِيثِهِ وَعُغْرُورِهِ، وَهُوَ أَخْفَى شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ الْفَارِغَةِ الْبَاطِلَةِ، وَأَثْقَلُ شَيْءٍ عَلَى الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ الشَّرِيفَةِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُطْمَئِنَّةِ.

وَقَد رَكَّبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْإِنْسَانِ نَفْسَيْنِ: نَفْسًا أَمَّارَةً وَنَفْسًا مُطْمَئِنَّةً، وَهُمَا مُتَعَادِيَتَانِ، فَكُلُّ مَا خَفَّ عَلَى هَذِهِ ثِقَلٌ عَلَى هَذِهِ، وَكُلُّ مَا التَّدَّتْ بِهِ هَذِهِ تَأَلَّمَتْ بِهِ الْأُخْرَى، فَلَيْسَ عَلَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ أَشَقُّ مِنَ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَإِيثَارِ رِضَاهُ عَلَى هَوَاهَا، وَلَيْسَ لَهَا أَنْفَعُ مِنْهُ، وَلَيْسَ عَلَى النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ أَشَقُّ مِنَ الْعَمَلِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ دَاعِي الْهَوَى، وَلَيْسَ عَلَيْهَا شَيْءٌ أَضُرُّ مِنْهُ، وَالْمَلِكُ مَعَ هَذِهِ عَنْ يَمِينَةِ الْقَلْبِ، وَالشَّيْطَانُ مَعَ تِلْكَ عَنْ يَسْرَةِ الْقَلْبِ، وَالْحُرُوبُ مُسْتَمِرَّةٌ لَا تَضَعُ أَوْزَارَهَا إِلَّا أَنْ يُسْتَوْفَى أَجَلُهَا مِنَ الدُّنْيَا، وَالْبَاطِلُ كُلُّهُ يَتَحَيَّزُ مَعَ الشَّيْطَانِ وَالْأَمَّارَةِ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ يَتَحَيَّزُ مَعَ الْمَلِكِ وَالْمُطْمَئِنَّةِ، وَالْحَرْبُ دُوْلٌ وَسِجَالٌ وَالنَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ، وَمَنْ صَبَرَ وَصَابَرَ وَرَابَطَ وَاتَّقَى اللَّهَ فَلَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمًا لَا يُبَدَّلُ أَبَدًا: أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، وَالْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، فَالْقَلْبُ لَوْحٌ فَارِعٌ، وَالْحَوَاطِرُ نُقُوشٌ تُنْقَشُ فِيهِ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ نُقُوشٌ لَوْحِهِ مَا بَيْنَ كَذِبٍ وَعُغْرُورٍ وَخُدَعٍ، وَأَمَانِيٌّ بَاطِلَةٌ، وَسَرَابٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ؟ فَأَيُّ حِكْمَةٍ وَعِلْمٍ وَهُدًى يَتَّقِشُ مَعَ هَذِهِ النُّقُوشِ؟ وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَّقِشَ ذَلِكَ فِي لَوْحِ قَلْبِهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ كِتَابَةِ الْعِلْمِ النَّافِعِ فِي مَحَلٍّ مَشْغُولٍ بِكِتَابَةِ مَا لَا مَنَفْعَةَ فِيهِ، فَإِنْ لَمْ يُفْرِغِ الْقَلْبَ مِنَ الْحَوَاطِرِ الرَّدِيَّةِ، لَمْ تَسْتَفِرَّ فِيهِ الْحَوَاطِرُ النَّافِعَةُ، فَإِنَّهَا لَا تَسْتَفِرُّ إِلَّا فِي مَحَلٍّ فَارِعٍ، كَمَا قِيلَ:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى ... فَصَادَفَ قَلْبًا فَارِعًا فَتَمَكَّنَا

وَهَذَا كَثِيرٌ مِنْ أَرْبَابِ السُّلُوكِ بَنَوْا سُلوُكَهُمْ عَلَى حِفْظِ الْخَوَاطِرِ، وَأَنْ لَا يُمَكِّنُوا خَاطِرًا يَدْخُلُ قُلُوبَهُمْ حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ فَارِغَةً قَابِلَةً لِلْكَشْفِ وَظُهُورِ حَقَائِقِ الْعُلُوبِيَّاتِ فِيهَا، وَهَؤُلَاءِ حَفِظُوا شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْهُمْ أَشْيَاءٌ، فَإِنَّهُمْ أَحَلُّوا الْقُلُوبَ مِنْ أَنْ يَطْرُقَهَا خَاطِرٌ فَبَقِيَتْ فَارِغَةً لَا شَيْءَ فِيهَا، فَصَادَفَهَا الشَّيْطَانُ خَالِيَةً، فَبَدَرَ فِيهَا الْبَاطِلَ فِي قَوْلِ الْبِاطِلِ أَوْ هَمَّهُمْ أَنَّهَا أَعْلَى الْأَشْيَاءِ وَأَشْرَفُهَا، وَعَوَّضَهُمْ بِهَا عَنِ الْخَوَاطِرِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْعِلْمِ وَالْهُدَى، وَإِذَا خَلَا الْقَلْبُ عَنْ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فَوَجَدَ الْمَحَلَّ خَالِيًا، فَيَسْغَلُهُ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَ صَاحِبِهِ، حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْغَلَهُ بِالْخَوَاطِرِ السُّفْلِيَّةِ، فَسْغَلَهُ بِإِرَادَةِ التَّجْرِيدِ وَالْفَرَاعِ مِنَ الْإِرَادَةِ الَّتِي لَا صَلاَحَ لِلْعَبِيدِ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمُسْتَوَلِيَّةَ عَلَى قَلْبِهِ، وَهِيَ إِرَادَةُ مَرَادِ اللَّهِ الدِّينِيِّ الْأَمْرِيِّ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَشُغْلُ الْقَلْبِ وَاهْتِمَامُهُ بِمَعْرِفَتِهِ عَلَى التَّصْصِيلِ بِهِ، وَالْقِيَامِ بِهِ، وَتَنْفِيذِهِ فِي الْخَلْقِ، وَالتَّطَرُّقِ إِلَى ذَلِكَ، وَالتَّوَسُّلِ إِلَيْهِ بِالْدُّخُولِ فِي الْخَلْقِ لِتَنْفِيذِهِ، فَيُضِلُّهُمْ الشَّيْطَانُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ دَعَاهُمْ إِلَى تَرْكِهِ وَتَعْطِيلِهِ مِنْ بَابِ الزُّهْدِ فِي خَوَاطِرِ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا.

وَأَوْهَمَهُمْ أَنَّ كَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ التَّجْرِيدِ وَالْفَرَاعِ، وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، إِنَّمَا الْكَمَالُ فِي امْتِنَاءِ الْقَلْبِ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ مَرَاذِي الرَّبِّ تَعَلَّى مِنَ الْعَبِيدِ وَمِنَ النَّاسِ، وَالْفِكْرِ فِي طُرُقِ ذَلِكَ وَالتَّوَسُّلِ إِلَيْهِ، فَأَكْمَلُ النَّاسِ أَكْثَرُهُمْ خَوَاطِرَ وَفِكْرًا وَإِرَادَاتٍ لِذَلِكَ، كَمَا أَنَّ أَنْقَصَ النَّاسِ أَكْثَرُهُمْ خَوَاطِرَ وَفِكْرًا وَإِرَادَاتٍ لِحُطُوظِهِ وَهَوَاهُ أَيْنَ كَانَتْ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَانَتْ تَتَرَاخَمُ عَلَيْهِ الْخَوَاطِرُ فِي مَرَاذِي الرَّبِّ تَعَالَى، فَرَبَّمَا اسْتَعْمَلَهَا فِي صَلاَتِهِ، فَكَانَ يُجَهِّزُ جِسْمَهُ وَهُوَ فِي الصَّلاةِ، فَيَكُونُ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْجِهَادِ وَالصَّلاةِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ تَدَاخُلِ الْعِبَادَاتِ فِي الْعِبَادَةِ الْوَاحِدَةِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ عَزِيزٍ شَرِيفٍ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَّا صَادِقٌ حَادِقٌ الطَّلَبِ، مُتَضَلِّعٌ مِنَ الْعِلْمِ، عَلِيٍّ الْهَمَّةِ، بِحَيْثُ يَدْخُلُ فِي عِبَادَةٍ يَظْفَرُ فِيهَا بِعِبَادَاتِ شَيْءٍ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

وَأَمَّا اللَّفْظَاتُ: فَحِفْظُهَا بِأَنْ لَا يُخْرِجَ لَفْظَةً ضَائِعَةً، بَلْ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو فِيهِ الرَّبْحَ وَالزِّيَادَةَ فِي دِينِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ نَظَرَ: هَلْ فِيهَا رِبْحٌ وَفَائِدَةٌ أَمْ لَا؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا رِبْحٌ أَمْسَكَ عَنْهَا، وَإِنْ كَانَ فِيهَا رِبْحٌ، نَظَرَ: هَلْ تَفَوُّتُهُ بِهَا كَلِمَةٌ أَرْبَحُ مِنْهَا، فَلَا يُضَيِّعُهَا بِهَذِهِ، وَإِذَا أَرَدَتْ أَنْ تَسْتَدِلَّ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ، فَاسْتَدِلَّ عَلَيْهِ بِحَرَكَةِ اللِّسَانِ، فَإِنَّهُ يُطْلَعُكَ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ، شَاءَ صَاحِبُهُ أَمْ أَبِي.

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: الْقُلُوبُ كَالْقُدُورِ تَغْلِي بِمَا فِيهَا، وَاللِّسْتُهَا مَعَارِفُهَا، فَانْظُرْ إِلَى الرَّجُلِ حِينَ يَتَكَلَّمُ فَإِنَّ لِسَانَهُ يَغْتَرِفُ لَكَ بِمَا فِي قَلْبِهِ، حُلُوٌّ وَحَامِضٌ، وَعَذْبٌ وَأَجَاجٌ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَبَيْنَ لَكَ طَعْمَ قَلْبِهِ اغْتِرَافُ لِسَانِهِ، أَيُّ كَمَا تَطْعَمُ بِلِسَانِكَ طَعْمَ مَا فِي الْقُدُورِ مِنَ الطَّعَامِ فَتَدْرِكُ الْعِلْمَ بِحَقِيقَتِهِ، كَذَلِكَ تَطْعَمُ مَا فِي قَلْبِ الرَّجُلِ مِنْ لِسَانِهِ، فَتَذُوقُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ لِسَانِهِ، كَمَا تَذُوقُ مَا فِي الْقَدْرِ بِلِسَانِكَ.

وَفِي حَدِيثِ أَنَسِ الْمُرْفُوعِ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»^(١).

وَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ فَقَالَ: «الْفَمُّ وَالْفَرْجُ»^(٢) قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٩٨ (١٣٠٤٨) وابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان (٩) والقضاعي في مسند الشهاب (٨٨٧) وغيرهم من طريق علي بن مسعدة عن قتادة عن أنس. والحديث ضعفه الهيثمي والعراقي. انظر مجمع الزوائد (١/ ٥٣). بينا حسنه الألباني في الصحيحة (٢٨٤١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) وابن ماجه (٤٢٤٦) والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٤) وابن أبي الدنيا في الصمت (٤) وابن حبان (٤٧٦) والحاكم ٤/ ٣٦٠ (٧٩١٩) وغيرهم من طريق عبد الله بن إدريس عن أبيه وعمه عن جده يزيد الأودي عن أبي هريرة فذكره. قال الترمذي: "هذا حديث صحيح غريب". وصححه ابن حبان والحاكم والألباني في الصحيحة (٩٧٧).

وَقَدْ سَأَلَ مُعَاذُ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْعَمَلِ الَّذِي يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُهُ مِنَ النَّارِ، فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِرَأْسِهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» فَقَالَ: وَإِنَّا لَمَوْأخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «تَكَلَّمْتَ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟» قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَمَنْ الْعَجَبُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَهُونُ عَلَيْهِ التَّحْفُظُ وَالْإِحْتِرَازُ مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ وَالظُّلْمِ وَالزَّوْنِ وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَمَنْ النَّظَرِ الْمُحَرَّمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ التَّحْفُظُ مِنْ حَرَكَةِ لِسَانِهِ، حَتَّى تَرَى الرَّجُلَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالذِّينِ وَالرُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَاتِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَنْزِلُ بِالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَكَمْ تَرَى مِنْ رَجُلٍ مُتَوَرِّعٍ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ، وَلِسَانُهُ يَفْرِي فِي أَعْرَاضِ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، وَلَا يُبَالِي مَا يَقُولُ.

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ فَانظُرْ فِيهَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنِّي لَا أَغْفِرُ لِفُلَانٍ؟ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَهُ»^(١) فَهَذَا الْعَابِدُ الَّذِي قَدْ عَبَدَ اللَّهَ مَا شَاءَ أَنْ يَعْبُدَهُ، أَحْبَطَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةَ عَمَلَهُ كُلَّهُ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ نَحْوُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»^(٢).

(١) كتاب البرِّ والصلة، باب النهي عن تقنين الإنسان من رحمة الله (٢٦٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠١) وأحمد ٢ / ٣٢٣، ٣٦٣ (٨٢٩٢، ٨٧٤٩) وابن حبان (٥٧١٢) وغيرهم من طريق

عكرمة بن عمار عن ضمضم بن جوس عن أبي هريرة فذكر مطولاً.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا؛ يَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(١)، وَعِنْدَ مُسْلِمٍ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُ مَا فِيهَا يَزُلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبَعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(٢).

وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزَنِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»^(٣)، وَكَانَ عُلُقَمَةُ يَقُولُ: كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَنَعَنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ.

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: «تُوِّفِي رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَبَشِرْ بِالْجَنَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيهَا لَا يَعْنِيهِ، أَوْ بَخِلَ بِهَا لَا يُنْقِصُهُ»^(٤) قَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب حفظ اللسان (٦٤٧٨).

(٢) صحيح مسلم (٢٩٨٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١٩). وأخرجه ابن ماجه (٣٩٦٩) وأحمد (٤٦٩ / ١٥٨٥٢) وغيرهم من طرق عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جدّه علقمة عن بلال بن الحارث المزني فذكره. قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح". وصححه الألباني في الصحيحة (٨٨٨).

(٤) أخرجه الترمذي برقم (٢٣١٦). وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (١٠٩) وأبو يعلى (٤٠١٧) وأبو نعيم في الحلية (٥ / ٥٦) وغيرهم من طريق يحيى بن يعلى وعمرو بن حفص عن أبيه عن الأعمش عن أنس فذكره. قال الترمذي: "هذا حديث غريب" وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٨٢).

وَفِي لَفْظٍ: «أَنَّ غَلَامًا اسْتَشْهَدَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَوَجَدَ عَلَى بَطْنِهِ صَخْرَةً مَرْبُوطَةً مِنَ الْجُوعِ، فَمَسَحَتْ أُمَّهُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَتْ: هَيْئًا لَكَ يَا بَنِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيهَا لَا يَعْينُهُ، وَيَمْنَعُ مَا لَا يَضُرُّهُ»^(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ»^(٢).

وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لِيَسْكُتْ»^(٣).

وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْينُهُ»^(٤).

وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقَمْتُ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخَوْفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا»^(٥)، وَالحَدِيثُ صَحِيحٌ.

(١) ذكره الألباني في الضعيفة (٦١٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب حفظ اللسان (٦٤٧٥)؛ ومسلم في الإيمان، باب الحث على إكرام الجار (٤٧).

(٣) كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء (١٤٦٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣١٧). وأخرجه ابن ماجه (٣٩٧٦) وابن حبان (٢٢٩) والقضاعي في مسند الشهاب

(١٩٢) وابن عبد البر في التمهيد (٩/ ١٩٨، ١٩٩) وغيرهم من طريق قرة بن عبد الرحمن المصري عن الزهري

عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً. وخالفه الإمام مالك ومعمربن راشد ويونس بن يزيد وزبيد بن سعد كلهم

عن الزهري عن علي بن الحسين عن النبي ﷺ مرسلًا. أخرجه الترمذي (٢٣١٨) وعبد الرزاق (١١/ ٣٠٧)

وابن أبي عاصم في الزهد (١٠٣) والقضاعي (١٩٣). وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٨١).

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام (٣٨) إلى قوله: "ثم استقم". وهو بتمامه في مسند أحمد

(١٥٤١٨) وغيره.

وَعَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَأَنَّهُ إِلَّا أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرٍ لِلَّهِ»^(١)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِذَا أَصْبَحَ الْعَبْدُ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ، تَقُولُ: أَتَى اللَّهُ فِينَا فِينَا نَحْنُ بِكَ، فَإِذَا اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اغْوَجَتْ اغْوَجْنَا»^(٢).

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يُحَاسِبُ أَحَدَهُمْ نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ: يَوْمٌ حَارٌّ، وَيَوْمٌ بَارِدٌ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ الْأَكْبَارِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي النَّوْمِ فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ، فَقَالَ: أَنَا مَوْقُوفٌ عَلَى كَلِمَةٍ قُلْتُهَا، قُلْتُ: مَا أَحْوَجَ النَّاسَ إِلَيَّ غَيْثٍ، فَقِيلَ لِي: وَمَا يُدْرِيكَ؟ أَنَا أَعْلَمُ بِمَصْلَحَةِ عِبَادِي.

وَقَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ لِجَارِيَتِهِ يَوْمًا: هَاتِي السُّفْرَةَ نَعْبُثُ بِهَا، ثُمَّ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، مَا أَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَخْطِئُهَا وَأَزْمُهَا إِلَّا هَذِهِ الْكَلِمَةَ خَرَجَتْ مِنِّي بغيرِ خَطَامٍ وَلَا زِمَامٍ، أَوْ كَمَا قَالَ.

وَأَيْسَرُ حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ حَرَكَةُ اللِّسَانِ وَهِيَ أَضْرُّهَا عَلَى الْعَبْدِ.

وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْخَلْفُ هَلْ يُكْتَبُ جَمِيعُ مَا يُلْفِظُ بِهِ أَوْ الْحَيَرُ وَالشَّرُّ فَقَطُّ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ أَظْهَرُهُمَا الْأَوَّلُ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٢) وابن ماجه (٣٩٧٤) والبخاري في تاريخه (١ / ٢٦١ - ٢٦٢) وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (١٢٣) وابن أبي الدنيا في الصمت (١٤) والنسائي في أماليه (١٥) والحاكم ١ / ٥٥٧ (٣٨٩٢) وغيرهم من طريق محمد بن يزيد بن خنيس سمعت سعيد بن حسان المخزومي حدثني أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة فذكرته. وضعفه الألباني في الضعيفة (١٣٦٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧) وأبو يعلى (٢ / رقم ١١٨٥) وأبو نعيم في الحلية (٤ / ٣٠٩) وابن عبد البر في التمهيد (٢١ / ٤٠) وغيرهم من طرق عن حماد بن زيد عن أبي الصهباء عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد الخدري فذكره مرفوعاً. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٧١).

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُلُّ كَلَامٍ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، وَكَانَ الصِّدِّيقُ يُمَسِّكُ عَلَى لِسَانِهِ وَيَقُولُ: هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ، وَالْكَلامُ أُسِيرَكَ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ فِيكَ صِرْتَ أَنْتَ أُسِيرَهُ، وَاللَّهُ عِنْدَ لِسَانِ كُلِّ قَائِلٍ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وَفِي اللِّسَانِ آفَتَانِ عَظِيمَتَانِ، إِنْ خَلَصَ الْعَبْدُ مِنْ إِحْدَاهُمَا لَمْ يَخْلُصْ مِنَ الْأُخْرَى: آفَةُ الْكَلَامِ، وَآفَةُ السُّكُوتِ، وَقَدْ يَكُونُ كُلُّ مِنْهُمَا أَعْظَمَ إِثْمًا مِنَ الْأُخْرَى فِي وَقْتِهَا، فَالْسَّكُوتُ عَنِ الْحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسٌ، عَاصِيٌّ لِلَّهِ، مُرَاءٍ مُدَاهِنٌ إِذَا لَمْ يَخْفَ عَلَى نَفْسِهِ، وَالْمُتَكَلِّمُ بِالْبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ، عَاصِيٌّ لِلَّهِ، وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ مُنْحَرِفٌ فِي كَلَامِهِ وَسُكُوتِهِ فَهُمْ بَيْنَ هَذَيْنِ التَّوَعِينِ، وَأَهْلِ الْوَسْطِ - وَهُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ - كَفُّوا أَلْسِنَتَهُمْ عَنِ الْبَاطِلِ، وَأَطْلَقُوهَا فِيمَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ نَفْعُهُ فِي الْآخِرَةِ، فَلَا تَرَى أَحَدَهُمْ يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ تَذْهَبُ عَلَيْهِ ضَائِعَةٌ بِلَا مَنَفَعَةٍ، فَضَلًّا أَنْ تَضُرَّهُ فِي آخِرَتِهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيَجِدُ لِسَانَهُ قَدْ هَدَمَهَا عَلَيْهِ كُلِّهَا، وَيَأْتِي بِسَيِّئَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ فَيَجِدُ لِسَانَهُ قَدْ هَدَمَهَا مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَا اتَّصَلَ بِهِ.

فصل

وَأَمَّا الْخُطُوبَاتُ: فَحِفْظُهَا بَأَنْ لَا يَنْقَلِ قَدَمُهُ إِلَّا فِيمَا يَرْجُو ثَوَابَهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي خُطَاهُ مَزِيدُ ثَوَابٍ، فَالْقُعُودُ عَنْهَا خَيْرٌ لَهُ، وَيُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَخْرِجَ مِنْ كُلِّ مَبَاحٍ يَخْطُو إِلَيْهِ قُرْبَةً يَنْوِيهَا لِلَّهِ، فَتَنْقَعُ خُطَاهُ قُرْبَةً. وَمَا كَانَتِ الْعَشْرَةُ عَشْرَتَيْنِ: عَشْرَةُ الرَّجْلِ وَعَشْرَةُ اللِّسَانِ، جَاءَتْ إِحْدَاهُمَا قَرِينَةً الْأُخْرَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ٦٣].

فَوَصَفَهُمْ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي لَفْظَاتِهِمْ وَخُطُوبَاتِهِمْ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ اللَّحْظَاتِ وَالْخُطُوبَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: ١٩].

فصل

وَهَذَا كُلُّهُ ذَكَرْنَاهُ مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيْ تَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ وَوُجُوبِ حِفْظِ الْفَرْجِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ: الْفَمُّ، وَالْفَرْجُ»^(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِيٍّ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ: الثَّيْبِ الزَّانِي، وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمَفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ»^(٢)، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي اقْتِرَانِ الزَّانِي بِالْكَفْرِ وَقَتْلِ النَّفْسِ، نَظِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي الْفُرْقَانِ، وَنَظِيرُ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَبَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَكْثَرِ وَقُوْعًا، وَالَّذِي يَلِيهِ، فَالزَّانِي أَكْثَرُ وَقُوْعًا مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ أَكْثَرُ وَقُوْعًا مِنَ الرَّدَّةِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ تَنْقَلُ مِنَ الْأَكْبَرِ إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَمَمْسَدَةُ الزَّانِي مُنَاقِضَةٌ لِصَلَاحِ الْعَالَمِ: فَإِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا زَنَتْ أَدْخَلَتْ الْعَارَ عَلَى أَهْلِهَا وَزَوْجِهَا وَأَقَارِبِهَا، وَنَكَسَتْ رُءُوسَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِنْ حَمَلَتْ مِنَ الزَّانِي، فَإِنْ قَتَلَتْ وَلَدَهَا جَمَعَتْ بَيْنَ الزَّانِي وَالْقَتْلِ، وَإِنْ حَمَلَتْهُ عَلَى الزَّوْجِ أَدْخَلَتْ عَلَى أَهْلِهِ وَأَهْلِهَا أَجْنَبِيًّا لَيْسَ مِنْهُمْ، فَوَرِثَهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَرَأَهُمْ وَخَلَا بِهِمْ وَانْتَسَبَ إِلَيْهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَفَاسِدِ زِنَاهَا.

وَأَمَّا زَنَى الرَّجُلِ فَإِنَّهُ يُوجِبُ اخْتِلَاطَ الْأَنْسَابِ أَيْضًا، وَإِفْسَادَ الْمَرْأَةِ الْمُصُونَةِ وَتَعْرِضَهَا لِلتَّلَفِ وَالْفَسَادِ، وَفِي هَذِهِ الْكَبِيرَةِ خَرَابُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَإِنْ عَمَرَتِ الْقُبُورَ فِي الْبَرْزَخِ وَالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ، فَكَمْ فِي الزَّانِي مِنَ اسْتِحْلَالِ حُرْمَاتٍ وَفَوَاتِ حُقُوقٍ وَوُقُوعِ مَظَالِمٍ؟

(١) تقدّم.

(٢) أخرجه البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ (٦٨٧٨)؛ ومسلم في

القسامة، باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦).

وَمِنْ خَاصِّيَّتِهِ: أَنَّهُ يُوجِبُ الْفَقْرَ، وَيُقَصِّرُ الْعُمْرَ، وَيَكْسُو صَاحِبَهُ سَوَادَ الْوَجْهِ، وَثَوْبَ الْمُقْتِ بَيْنَ النَّاسِ.

وَمِنْ خَاصِّيَّتِهِ أَيضًا: أَنَّهُ يَشْتِئُ الْقَلْبَ وَيَمْرُضُهُ إِنْ لَمْ يَمْتَهُ، وَيَجْلِبُ أَهْمَ وَالْحَزْنَ وَالْخَوْفَ، وَيُبَاعِدُ صَاحِبَهُ مِنَ الْمَلِكِ وَيَقْرُبُهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلَيْسَ بَعْدَ مَفْسَدَةِ الْقَتْلِ أَعْظَمُ مِنْ مَفْسَدَتِهِ، وَهَذَا شُرْعٌ فِيهِ الْقَتْلُ عَلَى أَشْنَعِ الْوُجُوهِ وَأَفْحَشِهَا وَأَصْعَبِهَا، وَلَوْ بَلَغَ الْعَبْدُ أَنَّ أَمْرَهُ أَوْ حُرْمَتَهُ قُتِلَتْ كَانَ أَسْهَلَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَبْلُغَهُ أُمَّهَا زَنْتٌ.

وَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرِ مُصَفِّحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ وَاللَّهِ لَأَنَا أَعْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهِ أَعْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»^(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيضًا عَنْهُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ»^(٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَعْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُدْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرَّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمُدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَتَى عَلَى نَفْسِهِ»^(٣).

(١) تقدم.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب الغيرة (٥٢٢٣)، ومسلم في التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦١).

(٣) تقدم.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ فِي خُطْبَتِهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ أَنَّهُ قَالَ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَزِنِي عَبْدُهُ أَوْ تَزِينِي أُمَّتَهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟»^(١).

وَفِي ذِكْرِ هَذِهِ الْكَبِيرَةِ بِخُصُوصِهَا عَقَبَ صَلَاةِ الْكُسُوفِ سِرٌّ بَدِيعٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ، وَظُهُورُ الزَّنى مِنْ أَمَارَاتِ خَرَابِ الْعَالَمِ، وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: «لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لَا يُحَدِّثُكُمْوَهُ أَحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيُظْهَرَ الْجُهْلُ وَيُشْرَبَ الْخُمْرُ وَيُظْهَرَ الزَّنى وَيَقِلَّ الرَّجَالُ وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِحَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيْمُ الْوَاحِدُ»^(٢) وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ عِنْدَ ظُهُورِ الزَّنى يَعْضِبُ اللَّهُ وَيَشْتَدُّ غَضَبُهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤَثَّرَ غَضَبُهُ فِي الْأَرْضِ عُقُوبَةً.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: مَا ظَهَرَ الرَّبَا وَالزَّنى فِي قَرِيَةٍ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ بِإِهْلَاكِهَا.

وَرَأَى بَعْضُ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ابْنَهُ يَغْمِزُ امْرَأَةً، فَقَالَ: مَهَلًا يَا بَنِيَّ، فَصَرَخَ الْأَبُ عَنْ سَرِيرِهِ فَانْقَطَعَ نَخَاعُهُ وَأَسْقَطَتِ امْرَأَتُهُ، وَقِيلَ لَهُ: هَكَذَا غَضَبُكَ لِي؟ لَا يَكُونُ فِي جَنَسِكَ خَيْرٌ أَبَدًا.

وَخَصَّ سُبْحَانَهُ حَدَّ الزَّنى مِنْ بَيْنِ الْحُدُودِ بِثَلَاثِ خَصَائِصٍ:

أَحَدُهَا: الْقَتْلُ فِيهِ بِأَشْنَعِ الْقَتْلَاتِ، وَحَيْثُ خَفَّفَهُ جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْبَدَنِ بِالْجُلْدِ وَعَلَى الْقَلْبِ بِتَغْرِيْبِهِ عَنْ وَطْئِهِ سَنَةً.

(١) تقدّم.

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (٨٠ - ٨١)؛ ومسلم في العلم، باب رفع العلم

(٢٦٧١).

الثاني: أَنَّهُ نَهَى عِبَادَهُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ بِالزُّنَاةِ رَأْفَةً فِي دِينِهِ، بِحَيْثُ تَمْنَعُهُمْ مِنْ إِقَامَةِ الْحُدِّ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ رَأْفَتِهِ بِهِمْ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ شَرَعَ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ؛ فَهُوَ أَرْحَمُ بِكُمْ، وَلَمْ تَمْنَعَهُ رَحْمَتُهُ مِنْ أَمْرِهِ بِهِذِهِ الْعُقُوبَةَ، فَلَا يَمْنَعُكُمْ أَنْتُمْ مَا يَقُومُ بِقُلُوبِكُمْ مِنَ الرَّأْفَةِ مِنْ إِقَامَةِ أَمْرِهِ.

وَهَذَا - وَإِنْ كَانَ عَامًّا فِي سَائِرِ الْحُدُودِ - وَلَكِنْ ذَكَرَ فِي حَدِّ الزَّانِي خَاصَّةً لِشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى ذِكْرِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَجِدُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْعِلْظَةِ وَالْفُسُوقِ عَلَى الزَّانِي مَا يَجِدُونَهُ عَلَى السَّارِقِ وَالْقَازِفِ وَشَارِبِ الْخَمْرِ، فَقُلُوبُهُمْ تَرْحَمُ الزَّانِيَّ أَكْثَرَ مِمَّا تَرْحَمُ غَيْرَهُ مِنْ أَرْبَابِ الْجَرَائِمِ، وَالْوَاقِعُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ، فَهِيَ أُنْ تَأْخُذَهُمْ هَذِهِ الرَّأْفَةُ وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى تَعْطِيلِ حَدِّ اللَّهِ.

وَسَبَبُ هَذِهِ الرَّحْمَةِ: أَنَّ هَذَا ذَنْبٌ يَقَعُ مِنَ الْأَشْرَافِ وَالْأَوْسَاطِ وَالْأَرَادِلِ، وَفِي النُّفُوسِ أَقْوَى الدَّوَاعِي إِلَيْهِ، وَالْمُشَارِكُ فِيهِ كَثِيرٌ، وَأَكْثَرُ أَسْبَابِهِ الْعَشْقُ، وَالْقُلُوبُ مَجْبُولَةٌ إِلَى رَحْمَةِ الْعَاشِقِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَعُدُّ مَسَاعِدَتَهُ طَاعَةً وَقُرْبَةً، وَإِنْ كَانَتْ الصُّورَةُ الْمُعْشُوقَةَ مُحَرَّمَةً عَلَيْهِ، وَلَا يَسْتَنْكِرُ هَذَا الْأَمْرَ، فَهُوَ مُسْتَقَرٌّ عِنْدَ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَشْبَاهِ الْأَنْعَامِ، وَلَقَدْ حَكَى لَنَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا كَثِيرًا نَقَّصُ الْعُقُولِ كَالْحَدَّامِ وَالنِّسَاءِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا ذَنْبٌ غَالِبًا مَا يَقَعُ مَعَ التَّرَاضِي مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَلَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ وَالْإِعْتِصَابِ مَا تَنْفَرُ النُّفُوسُ مِنْهُ.

وَفِي النُّفُوسِ شَهْوَةٌ غَالِبَةٌ لَهُ فَيَصُورُ ذَلِكَ لَهَا، فَتَقُومُ بِهَا رَحْمَةٌ تَمْنَعُ إِقَامَةَ الْحُدِّ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ. وَكَمَا أَلِ الْإِيمَانَ أَنْ تَقُومَ بِهِ قُوَّةٌ يُقِيمُ بِهَا أَمْرَ اللَّهِ، وَرَحْمَةٌ يَرْحَمُ بِهَا الْمُحْدُودَ، فَيَكُونُ مُوَافِقًا لِرَبِّهِ تَعَالَى فِي أَمْرِهِ وَرَحْمَتِهِ.

الثالث: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمْرٌ أَنْ يَكُونَ حَدُّهُمَا بِمَشْهَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يَكُونُ فِي خَلْوَةٍ بِحَيْثُ لَا يَرَاهُمَا أَحَدٌ، وَذَلِكَ أْبْلَغُ فِي مَصْلَحَةِ الْحُدِّ، وَالْحِكْمَةُ الرَّجْرُ، وَحَدُّ الزَّانِي الْمُحْصَنِ مُسْتَقٌّ مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ تَعَالَى

لِقَوْمٍ لَوِطٍ بِالْقَذْفِ بِالْحِجَارَةِ، وَذَلِكَ لِاشْتِرَاكِ الزَّانَا وَاللَّوَاطِ فِي الْفُحْشِ، وَفِي كُلِّ مِنْهَا فَسَادٌ يَبْقَى
حِكْمَةَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، فَإِنَّ فِي اللَّوَاطِ مِنَ الْمَفَاسِدِ مَا يَفُوتُ الْحُضَرَ وَالتَّعَدَادَ، وَلِأَنَّ يُقْتَلُ الْمُفْعُولُ بِهِ
خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُؤْتَى، فَإِنَّهُ يَفْسُدُ فَسَادًا لَا يُرْجَى لَهُ بَعْدَهُ صَلَاحٌ أَبَدًا، وَيَذْهَبُ خَيْرُهُ كُلُّهُ، وَتَمَّصُّ الْأَرْضُ
مَاءَ الْحَيَاءِ مِنْ وَجْهِهِ، فَلَا يَسْتَجِي بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ وَلَا مِنْ خَلْقِهِ، وَتَعْمَلُ فِي قَلْبِهِ وَرُوحِهِ نُطْفَةَ الْفَاعِلِ
مَا يَعْمَلُ السُّمُّ فِي الْبَدَنِ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ هَلْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَفْعُولٌ بِهِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ يَحْكِيهَا.

وَالَّذِينَ قَالُوا: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ اخْتَجَّجُوا بِأُمُورٍ:

مِنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَدٌ زَنِيٌّ»^(١) فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالٌ وَلَدِ الزَّانِي مَعَ أَنَّهُ لَا ذَنْبَ لَهُ
فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ مَظْنُونٌ كُلُّ شَرٍّ وَخُبْثٍ، وَهُوَ جَدِيرٌ أَنْ لَا يَجِيءَ مِنْهُ خَيْرٌ أَبَدًا، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نُطْفَةِ خَبِيثَةٍ،
وَإِذَا كَانَ الْجَسَدُ الَّذِي تَرَبَّى عَلَى الْحَرَامِ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ، فَكَيْفَ بِالْجَسَدِ الْمَخْلُوقِ مِنَ النُّطْفَةِ الْحَرَامِ؟
قَالُوا: وَالْمُفْعُولُ بِهِ شَرٌّ مِنْ وَلَدِ الزَّانِي، وَأَخْزَى وَأَخْبَثُ وَأَوْفَحُ، وَهُوَ جَدِيرٌ أَنْ لَا يُؤَفَّقَ لِخَيْرٍ، وَأَنْ
يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَكُلَّمَا عَمِلَ خَيْرًا قَبِضَ اللَّهُ لَهُ مَا يُفْسِدُهُ عِقُوبَةً لَهُ، وَقَلَّ أَنْ تَرَى مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فِي صِغَرِهِ
إِلَّا وَهُوَ فِي كِبَرِهِ شَرٌّ مِمَّا كَانَ، وَلَا يُؤَفَّقُ لِعِلْمٍ نَافِعٍ، وَلَا عَمَلٍ صَالِحٍ، وَلَا تَوْبَةٍ نَصُوحٍ.

وَالْتَّحْقِيقُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنْ يُقَالَ: إِنْ تَابَ الْمُتَبَلَّى بِهَذَا الْبَلَاءِ وَأَنَابَ، وَرَزَقَ تَوْبَةً نَصُوحًا وَعَمَلًا صَالِحًا،
وَكَانَ فِي كِبَرِهِ خَيْرًا مِنْهُ فِي صِغَرِهِ، وَبَدَّلَ سَيِّئَاتِهِ بِحَسَنَاتٍ، وَغَسَلَ عَارَ ذَلِكَ عَنْهُ بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ
وَالْقُرْبَاتِ، وَغَضَّ بَصَرَهُ وَحَفِظَ فَرْجَهُ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَصَدَّقَ اللَّهَ فِي مُعَامَلَتِهِ، فَهَذَا مَغْفُورٌ لَهُ وَهُوَ

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٢٠٢ (٦٨٩٢) وابن حبان (٨/ رقم ٣٣٨٣) والنسائي في الكبرى (٤٩١٦) والطحاوي في

شرح المشكل (٩١٤) من طريق الثوري وشيبان وجريير عن منصور عن سالم بن أبي الجعد عن جابان عن عبد الله

بن عمرو مرفوعًا. وصححه الألباني في الصحيحة (٦٧٣).

مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، وَإِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ تَمَحُّو كُلِّ ذَنْبٍ، حَتَّى الشُّرْكَ بِاللَّهِ وَقَتْلَ
أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَالسَّحْرَ وَالْكَفْرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا تَقْصُرُ عَنْ مَحْوِ هَذَا الذَّنْبِ، وَقَدْ اسْتَقَرَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ
تَعَالَى بِهِ عَدْلًا وَفَضْلًا أَنْ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»، وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِمَنْ تَابَ مِنَ
الشُّرْكَ وَقَتْلِ النَّفْسِ وَالزَّوْنِ، أَنَّهُ يُبَدِّلُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، وَهَذَا حُكْمٌ عَامٌّ لِكُلِّ تَائِبٍ مِنْ ذَنْبٍ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ
جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سُورَةُ الزَّمْرِ: ٥٣].

فَلَا يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ هَذَا فِي حَقِّ التَّائِبِينَ خَاصَّةً.

وَأَمَّا الْمُفْعُولُ بِهِ إِنْ كَانَ فِي كِبَرِهِ شَرًّا مِمَّا كَانَ فِي صِغَرِهِ؛ أَمْ يُوقَفُ لِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ، وَلَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ، وَلَا
اسْتِذْرَاكِ مَا فَاتَ، وَلَا أَبْدَلِ السَّيِّئَاتِ بِالْحَسَنَاتِ، فَهَذَا بَعِيدٌ أَنْ يُوقَفَ عِنْدَ الْمَاتِ لِحَاتِمَةٍ يَدْخُلُ بِهَا الْجَنَّةَ،
عُقُوبَةً لَهُ عَلَى عَمَلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُ عَلَى السَّيِّئَةِ بِسَيِّئَةٍ أُخْرَى، وَتَضَاعَفُ عُقُوبَةُ السَّيِّئَاتِ بَعْضُهَا
بِبَعْضٍ، كَمَا يُثَبِّبُ عَلَى الْحَسَنَةِ بِحَسَنَةٍ أُخْرَى.

إِذَا نَظَرْتَ إِلَى حَالِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُحْتَضِرِينَ وَجَدْتَهُمْ يُحَالُ بَيْنَهُمْ وَيَيْنَ حُسْنِ الْحَاتِمَةِ، عُقُوبَةً هُمْ عَلَى
أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ.

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَقِّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْإِسْبِيلِيُّ: وَاعْلَمْ أَنَّ لِسُوءِ الْحَاتِمَةِ - أَعَادَنَا اللَّهُ مِنْهَا -
أَسْبَابًا، وَلَهَا طُرُقٌ وَأَبْوَابٌ، أَعْظَمُهَا الْإِنْكَابُ عَلَى الدُّنْيَا، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْآخِرَى، وَالْإِقْدَامُ وَالْجُرْأَةُ
عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ، وَرُبَّمَا غَلَبَ عَلَى الْإِنْسَانِ صَرْبٌ مِنَ الْخَطِيئَةِ، وَنَوْعٌ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَجَانِبٌ مِنَ
الْإِعْرَاضِ، وَنَصِيبٌ مِنَ الْجُرْأَةِ وَالْإِقْدَامِ، فَمَلَكَ قَلْبُهُ، وَسَبَى عَقْلَهُ وَأَطْفَأَ نُورَهُ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِ حُجْبَهُ فَلَمْ
تَنْفَعْ فِيهِ تَذَكُّرَةٌ، وَلَا نَجَحَتْ فِيهِ مَوْعِظَةٌ، فَرُبَّمَا جَاءَهُ الْمَوْتُ عَلَى ذَلِكَ، فَسَمِعَ النَّدَاءَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، فَلَمْ
يَتَّبِعْ لَهُ الْمَرَادُ، وَلَا عَلِمَ مَا أَرَادَ، وَإِنْ كَرَّرَ عَلَيْهِ الدَّاعِيَ وَأَعَادَ.

قَالَ: وَيُرَوَّى أَنَّ بَعْضَ رِجَالِ النَّاصِرِ نَزَلَ الْمَوْتُ بِهِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ، فَأَعَادَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَصَابَتْهُ غَشِيَةٌ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ، وَكَانَ هَذَا دَابُّهُ كُلَّمَا قِيلَ لَهُ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: النَّاصِرُ مَوْلَايَ، ثُمَّ قَالَ لِابْنِهِ: يَا فُلَانُ، النَّاصِرُ إِنَّمَا يَعْرِفُكَ بِسَيْفِكَ، وَالْقَتْلَ الْقَتْلَ، ثُمَّ مَاتَ.

قَالَ عَبْدُ الْحَقِّ: وَقِيلَ لِأَخْر - مِمَّنْ أَعْرِفُهُ - قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَجَعَلَ يَقُولُ: الدَّارُ الْفُلَانِيَّةُ أَصْلِحُوا فِيهَا كَذًا، وَالبُسْتَانُ الْفُلَانِيُّ أَفْعَلُوا فِيهِ كَذًا.

وَقَالَ: وَفِيهَا أَيْ أَبُو طَاهِرٍ السَّلَفِيُّ أَنَّ أَحَدًا حَدَّثَ بِهِ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَقِيلَ لَهُ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ بِالْفَارِسِيَّةِ: دَهْ يَارِدَهْ دَهْ وَازِدَهْ، تَفْسِيرُهُ: عَشْرٌ بِأَحَدٍ عَشْرَ.

وَقِيلَ لِأَخْر: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَامٍ مِنْجَابٍ، قَالَ: وَهَذَا الْكَلَامُ لَهُ قِصَّةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا كَانَ وَاقِعًا بِإِزَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ بَابُهَا يُشْبِهُ بَابَ هَذَا الْحَمَامِ، فَمَرَّتْ بِهِ جَارِيَةٌ لَهَا مَنْظَرٌ، فَقَالَتْ: أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَامٍ مِنْجَابٍ؟ فَقَالَ: هَذَا حَمَامٌ مِنْجَابٍ، فَدَخَلَتِ الدَّارَ وَدَخَلَ وَرَاءَهَا، فَلَمَّا رَأَتْ نَفْسَهَا فِي دَارِهِ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ قَدْ خَدَعَهَا، أَظْهَرَتْ لَهُ الْبُشْرَى وَالْفَرَحَ بِاجْتِمَاعِهَا مَعَهُ، وَقَالَتْ لَهُ: يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعَنَا مَا يَطِيبُ بِهِ عَيْشُنَا وَنَقْرُهُ بِهِ عِيُونُنَا، فَقَالَ لَهَا: السَّاعَةَ آتِيكَ بِكُلِّ مَا تُرِيدِينَ وَتَشْتَهِينَ، وَخَرَجَ وَتَرَكَهَا فِي الدَّارِ وَلَمْ يُغْلِقْهَا، فَأَخَذَ مَا يَصْلُحُ وَرَجَعَ، فَوَجَدَهَا قَدْ خَرَجَتْ وَذَهَبَتْ، وَلَمْ تَخُنْهُ فِي شَيْءٍ، فَهَامَ الرَّجُلُ وَأَكْثَرَ الذِّكْرَ لَهَا، وَجَعَلَ يَمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَالْأَرْقَةَ وَيَقُولُ:

يَا رَبِّ قَاتِلَةِ يَوْمًا وَقَدْ تَعَبْتُ ... كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَامٍ مِنْجَابٍ؟

فَبَيْنَمَا هُوَ يَوْمًا يَقُولُ ذَلِكَ، إِذَا بِجَارِيَتِهِ أَجَابَتْهُ مِنْ طَاقٍ:

هَلَّا جَعَلْتَ سَرِيعًا إِذْ ظَفَرْتَ بِهَا ... حِرْزًا عَلَى الدَّارِ أَوْ قُفْلًا عَلَى الْبَابِ

فَارْدَادَ هَيْبَانُهُ وَاشْتَدَّ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى كَانَ هَذَا الْبَيْتُ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا.
وَلَقَدْ بَكَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قِيلَ لَهُ: كُلُّ هَذَا خَوْفًا مِنَ الذُّنُوبِ؟ فَأَخَذَ
تَبَنَةً مِنَ الْأَرْضِ، وَقَالَ: الذُّنُوبُ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا أَبْكِي مِنْ خَوْفِ سُوءِ الْحَاتِمَةِ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ: أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ أَنْ تَخْذُلَهُ ذُنُوبُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَتَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَاتِمَةِ الْحُسْنَى.
وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ لَمَّا اخْتَضَرَ جَعَلَ يُعْمَى عَلَيْهِ ثُمَّ يَفِيْقُ وَيَقْرَأُ: ﴿وَنُقَلِّبُ
أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١١٠].

فَمِنْ هَذَا خَافَ السَّلَفُ مِنَ الذُّنُوبِ، أَنْ تَكُونَ حِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَاتِمَةِ الْحُسْنَى.
قَالَ: وَاعْلَمْ أَنَّ سُوءَ الْحَاتِمَةِ - أَعَادَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا - لَا تَكُونُ لِمَنْ اسْتَقَامَ ظَاهِرُهُ وَصَلَحَ بَاطِنُهُ، مَا
سَمِعَ بِهَذَا وَلَا عَلِمَ بِهِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لِمَنْ لَهُ فَسَادٌ فِي الْعَقْدِ، أَوْ إِضْرَارٌ عَلَى الْكِبَائِرِ، وَإِقْدَامٌ عَلَى
الْعَظَائِمِ، فَرُبَّمَا غَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْزِلَ بِهِ الْمَوْتُ قَبْلَ التَّوْبَةِ، فَيَأْخُذُهُ قَبْلَ إِصْلَاحِ الطَّوْبَةِ، وَيَصْطَلِمُهُ
قَبْلَ الْإِنَابَةِ فَيُظْفَرُ بِهِ الشَّيْطَانُ عِنْدَ تِلْكَ الصَّدْمَةِ، وَيَحْتَضِفُهُ عِنْدَ تِلْكَ الدَّهْشَةِ، وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

قَالَ: وَيُرْوَى أَنَّهُ كَانَ بِمَضَرَ رَجُلٌ يَلْزِمُ مَسْجِدًا لِلْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ، وَعَلَيْهِ بَهَاءُ الطَّاعَةِ وَأَنْوَارُ الْعِبَادَةِ،
فَرَفِيَ يَوْمًا الْمَنَارَةَ عَلَى عَادَتِهِ لِلْأَذَانِ، وَكَانَ تَحْتَ الْمَنَارَةِ دَارٌ لِنَصْرَانِيٍّ، فَاطَّلَعَ فِيهَا، فَرَأَى ابْنَةَ صَاحِبِ الدَّارِ
فَافْتَنَ بِهَا، فَتَرَكَ الْأَذَانَ، وَنَزَلَ إِلَيْهَا، وَدَخَلَ الدَّارَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: مَا شَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُكَ،
فَقَالَتْ: لِمَاذَا؟ قَالَ: قَدْ سَبَيْتُ لَبِّي، وَأَخَذتُ بِمَجَامِعِ قَلْبِي، قَالَتْ: لَا أُجِيبُكَ إِلَى رِيَّةِ أَبَدًا، وَقَالَ:
أَتَزَوَّجُكَ؟ قَالَتْ: أَنْتَ مُسْلِمٌ وَأَنَا نَصْرَانِيَّةٌ وَأَبِي لَا يُزَوِّجُنِي مِنْكَ، قَالَ: أَتَنْصُرُ، قَالَتْ: إِنْ فَعَلْتَ أَفْعَلُ،
فَتَنْصُرَ الرَّجُلَ لِيَتَزَوَّجَهَا، وَأَقَامَ مَعَهُمْ فِي الدَّارِ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، رَفِيَ إِلَى سَطْحِ كَانَ فِي الدَّارِ
فَسَقَطَ مِنْهُ قَمَاتٌ، فَلَمْ يَظْفَرِ بِهَا، وَفَاتَهُ دِينُهُ.

قَالَ: وَيُرَوَّى أَنَّ رَجُلًا عَشِقَ شَخْصًا فَاشْتَدَّ كَلْفُهُ بِهِ، وَتَمَكَّنَ حُبُّهُ مِنْ قَلْبِهِ، حَتَّى وَقَعَ أَلْمُ بِهِ وَكَزِمَ الْفِرَاشَ بِسَبَبِهِ، وَتَمَمَّ ذَلِكَ الشَّخْصُ عَلَيْهِ، وَاشْتَدَّ نِفَارُهُ عَنْهُ، فَلَمْ تَزَلِ الْوَسَائِطُ يَمْشُونَ بَيْنَهُمَا حَتَّى وَعَدَهُ بِأَنْ يَعُودَهُ، فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ النَّاسُ، فَفَرِحَ وَاشْتَدَّ سُرُورُهُ وَانْجَلَى غَمُّهُ، وَجَعَلَ يَنْتَظِرُ الْمِيعَادَ الَّذِي ضَرَبَ لَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ السَّاعِي بَيْنَهُمَا، فَقَالَ: إِنَّهُ وَصَلَ مَعِيَ إِلَى بَعْضِ الطَّرِيقِ وَرَجَعَ، وَرَعَبْتُ إِلَيْهِ وَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ ذَكَرَنِي وَصَرَحَ بِي، وَلَا أَدْخُلُ مَدَاخِلَ الرِّيَّةِ وَلَا أُعْرِضُ نَفْسِي لِمَوَاقِعِ التُّهْمِ، فَعَاوَذْتُهُ فَأَبَى وَانْصَرَفَ، فَلَمَّا سَمِعَ الْبَائِسُ أُسْقَطَ فِي يَدِهِ، وَعَادَ إِلَى أَشَدِّ مِمَّا كَانَ بِهِ، وَبَدَتْ عَلَيْهِ عَائِلَتُهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ فِي تِلْكَ الْحَالِ:

يَا سَلْمُ يَا رَاحَةَ الْعَلِيلِ ... وَيَا شِفَا الْمُدْنَفِ النَّحِيلِ

رِضَاكَ أَشْهَى إِلَيَّ فُؤَادِي ... مِنْ رَحْمَةِ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ

فَقُلْتُ لَهُ: يَا فَلَانُ اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ: قَدْ كَانَ، فُقِّمْتُ عَنْهُ، فَمَا جَاوَزْتُ بَابَ دَارِهِ حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةَ الْمَوْتِ، فَعِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَشَوْمِ الْخَاتِمَةِ.

فَصَلِّ

وَلَمَّا كَانَتْ مَفْسَدَةُ اللُّوَاطِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ؛ كَانَتْ عُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ. وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ: هَلْ هُوَ أَعْظَمُ عُقُوبَةً مِنَ الزَّنى، أَوِ الزَّنى أَعْظَمُ عُقُوبَةً مِنْهُ، أَوْ عُقُوبَتُهُمَا سَوَاءٌ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

فَذَهَبَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَخَالِدُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرٍ، وَالزُّهْرِيُّ، وَرَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَمَالِكٌ، وَإِسْحَاقُ

بْنُ رَاهَوِيَّةٍ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ - فِي أَصْحَحِ الرَّوَايَتَيْنِ عَنْهُ - وَالشَّافِعِيُّ - فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ - إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ أَغْلَظُ مِنْ عُقُوبَةِ الزَّانِي، وَعُقُوبَتُهُ الْقَتْلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ.

وَذَهَبَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَالشَّافِعِيُّ - فِي ظَاهِرِ مَذْهَبِهِ -، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ - فِي الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ عَنْهُ -، وَأَبُو يُوسُفَ، وَمُحَمَّدُ: إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ وَعُقُوبَةَ الزَّانِي سَوَاءٌ.

وَذَهَبَ الْحَاكِمُ وَأَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ دُونَ عُقُوبَةِ الزَّانِي، وَهِيَ التَّعْزِيرُ.

قَالُوا: لِأَنَّهُ مَعْصِيَةٌ مِنَ الْمَعْاصِي لَمْ يُقَدَّرِ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ ﷺ فِيهِ حَدًّا مُقَدَّرًا، فَكَانَ فِيهِ التَّعْزِيرُ، كَأَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَحَمِ الْخَنزِيرِ.

قَالُوا: وَلِأَنَّهُ وَطْءٌ فِي مَحَلٍّ لَا تَشْتَهِيهِ الطَّبَاعُ، بَلْ رَكَّبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّفْرَةِ مِنْهُ حَتَّى الْحَيَوَانَ الْبَهِيمِ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ حَدٌّ كَوَطْءِ الْآتَانِ وَغَيْرِهَا.

قَالُوا: وَلِأَنَّهُ لَا يُسَمَّى زَانِيًا لُغَةً وَلَا شُرْعًا وَلَا عُرْفًا، فَلَا يَدْخُلُ فِي النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى حَدِّ الزَّانِينَ. قَالُوا: وَقَدْ رَأَيْنَا قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ، أَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا كَانَ الْوَاظِعُ عَنْهَا طَبِيعِيًّا اكْتَفَى بِذَلِكَ الْوَاظِعِ مِنَ الْحَدِّ، وَإِذَا كَانَ فِي الطَّبَاعِ تَقَاضِيهَا، جُعِلَ فِي الْحَدِّ بِحَسَبِ اقْتِضَاءِ الطَّبَاعِ لَهَا، وَهَذَا جُعِلَ الْحَدُّ فِي الزَّانِي وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْمُسْكِرِ دُونَ أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَحَمِ الْخَنزِيرِ.

قَالُوا: وَطَرْدُ هَذَا، أَنَّهُ لَا حَدَّ فِي وَطْءِ الْبَهِيمَةِ وَلَا الْمَيْتَةِ، وَقَدْ جَبَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الطَّبَاعَ عَلَى النَّفْرَةِ مِنْ وَطْءِ الرَّجُلِ رَجُلًا مِثْلَهُ أَشَدَّ نَفْرَةً، كَمَا جَبَلَهَا عَلَى النَّفْرَةِ مِنْ اسْتِدْعَاءِ الرَّجُلِ مَنْ يَطُؤُهُ بِخِلَافِ الزَّانِي، فَإِنَّ الدَّاعِيَ فِيهِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ.

قَالُوا: وَلَا نَ أَحَدَ النَّوَعَيْنِ إِذَا اسْتَمْتَعَ بِشَكْلِهِ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ الْحُدُّ، كَمَا تَسَاحَقَتِ الْمُرَاتَانِ وَاسْتَمْتَعَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِالْأُخْرَى.

قَالَ أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: وَهُوَ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ، وَحَكَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ إِجْمَاعًا لِلصَّحَابَةِ، لَيْسَ فِي الْمُعَاصِي أَعْظَمَ مَفْسَدَةً مِنْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ، وَهِيَ تَلِي مَفْسَدَةَ الْكُفْرِ، وَرَبَّمَا كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْ مَفْسَدَةِ الْقَتْلِ، كَمَا سُنِّيَتْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَالُوا: وَلَمْ يَتَّيَلَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْكَبِيرَةِ قَبْلَ قَوْمِ لُوطٍ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَعَاقَبَهُمْ عِقَابَهُ لَمْ يُعَاقَبْ بِهَا أَحَدًا غَيْرُهُمْ، وَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ بَيْنَ الْإِهْلَاكِ، وَقَلْبِ دِيَارِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَالْحَسْفِ بِهِمْ، وَرَجْمِهِمْ بِالْحِجَارَةِ مِنَ السَّمَاءِ، فَنَكَلَ بِهِمْ نَكَالًا لَمْ يُنَكِّلْهُ أُمَّةٌ سِوَاهُمْ، وَذَلِكَ لِأَعْظَمِ مَفْسَدَةِ هَذِهِ الْجُرِيمَةِ الَّتِي تَكَادُ الْأَرْضُ تَمِيدُ مِنْ جَوَانِبِهَا إِذَا عَمِلَتْ عَلَيْهَا، وَتَهْرُبُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِذَا شَاهَدُوهَا، خَشِيَةَ نُزُولِ الْعَذَابِ عَلَى أَهْلِهَا، فَيُصِيبُهُمْ مَعَهُمْ، وَتَعِجُّ الْأَرْضُ إِلَى رَبِّهَا، وَتَكَادُ الْجِبَالُ تَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، وَقَتْلُ الْمُفْعُولِ بِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ وَطْئِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا وَطِئَهُ قَتَلَهُ قَتْلًا لَا تُرْجَى الْحَيَاةُ مَعَهُ بِخِلَافِ قَتْلِهِ فَإِنَّهُ مَظْلُومٌ شَهِيدٌ، وَرَبَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِ فِي آخِرَتِهِ.

قَالُوا: وَالِدَلِيلِ عَلَى هَذَا: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَدَّ الْقَاتِلِ إِلَى خَيْرَةِ الْوَلِيِّ، إِنْ شَاءَ قَتَلَ وَإِنْ شَاءَ عَفَا، وَحَتَمَ قَتْلَ اللُّوطِيِّ حَدًّا، كَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلَّتْ عَلَيْهِ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالصَّرِيحَةُ الَّتِي لَا مُعَارِضَ لَهَا، بَلْ عَلَيْهَا عَمَلُ أَصْحَابِهِ وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ أَجْمَعِينَ -.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ: أَنَّهُ وَجَدَ فِي بَعْضِ صَوَاحِي الْعَرَبِ رَجُلًا يُنَكِّحُ كَمَا تُنَكِّحُ الْمَرْأَةُ، فَكَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَاسْتَشَارَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ الصَّحَابَةَ فَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَشَدَّهُمْ قَوْلًا فِيهِ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ هَذَا إِلَّا أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَّمِ وَاحِدَةٌ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلَ اللَّهُ بِهَا، أَرَى أَنْ يُحْرَقَ بِالنَّارِ، فَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَالِدٍ فَحَرَّقَهُ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: يُنْظَرُ أَعْلَى بِنَاءٍ فِي الْقَرْيَةِ، فَيُرْمَى اللَّوْطِيُّ مِنْهَا مُنْكَبًا، ثُمَّ يُبْعُ بِالْحِجَارَةِ.
وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ قَوْمَ لُوطٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ الَّذِي رَوَى عَنِ النَّبِيِّ
ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»^(١)، رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ
وَصَحَّحَهُ ابْنُ حَبَّانٍ وَغَيْرُهُ، وَاحْتَجَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ.

قَالُوا: وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ،
لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ»^(٢) وَلَمْ يَجِئْ عَنْهُ لَعْنَةُ الزَّانِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ لَعَنَ
جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ، فَلَمْ يَتَجَاوَزْ بِهِمْ فِي اللَّعْنِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَكَرَّرَ لَعْنَ اللَّوْطِيَّةِ، وَأَكَّدَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،
وَأَطْبَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلِهِ، لَمْ يَخْتَلَفْ مِنْهُمْ فِيهِ رَجُلَانِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتْ أَقْوَاهُمْ فِي صِفَةِ
قَتْلِهِ، فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ اخْتِلَافًا مِنْهُمْ فِي قَتْلِهِ، فَحَكَاهَا مَسْأَلَةَ نِزَاعٍ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَهِيَ بَيْنَهُمْ مَسْأَلَةُ
إِجْمَاعٍ لَا مَسْأَلَةَ نِزَاعٍ.

قَالُوا: وَمَنْ تَأَمَّلَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ:

[٣٢].

وَقَوْلُهُ فِي اللَّوَاطِ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٨٠].

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٦٢) والترمذي (١٤٥٦) وابن ماجه (٢٥٦١) وأحمد (١/٣٠٠) (٢٧٣٢) وابن عدي (٥/

١١٦) وابن الجارود (٨٢٠) والحاكم (٤/٣٩٥) (٨٠٤٧) وغيرهم، وصححه الألباني في الإرواء (٢٣٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/٣٠٩، ٣١٧، ٨١٦، ٢٩١٣، ٢٩١٥) والنسائي في الكبرى (٧٣٣٧) وأبو يعلى (٤/٢٥٣٩)

وابن حبان (٤٤١٧) والحاكم (٤/٣٩٦) (٨٠٥٢) وغيرهم من طريق زهير بن محمد وسليمان بن بلال وعبد

الرحمن بن أبي الزناد كلهم عن عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً مطولاً. وصححه الألباني

في الصحيحة (٣٤٦٢).

تَبَيَّنَ لَهُ تَفَاوُتُ مَا بَيْنَهُمَا، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَكَرَ الْفَاحِشَةَ فِي الزَّيْنَى، أَيُّ هُوَ فَاحِشَةٌ مِنَ الْفَوَاحِشِ، وَعَرَفَهَا فِي اللُّوَاطِ، وَذَلِكَ يُفِيدُ أَنَّهُ جَامِعٌ لِمَعَانِي اسْمِ الْفَاحِشَةِ، كَمَا نَقُولُ: زَيْدٌ الرَّجُلُ، وَنَعَمُ الرَّجُلُ زَيْدٌ، أَيُّ أَتَأْتُونَ الْخِصْلَةَ الَّتِي اسْتَقَرَّ فُحْشُهَا عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ، فَهِيَ لِظُهُورِ فُحْشِهَا وَكَمَالِهِ غَنِيَّةٌ عَنِ ذِكْرِهَا، بِحَيْثُ لَا يَنْصَرِفُ الْإِسْمُ إِلَى غَيْرِهَا، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ١٩].

أَيُّ الْفَعْلَةِ الشُّعَاءِ الظَّاهِرَةِ الْمُعْلُومَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ.

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ شَأْنَ فُحْشِهَا بِأَنَّهَا لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ قَبْلَهُمْ، فَقَالَ: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، ثُمَّ زَادَ فِي التَّأَكُّدِ بِأَنَّ صَرَاحَ بِمَا تَشَمَّرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ، وَتَنبُو عَنْهُ الْأَسْمَاعُ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ الطَّبَاعُ أَشَدَّ نَفْرَةً، وَهُوَ إِيَّانَ الرَّجُلِ رَجُلًا مِثْلَهُ يَنْكِحُهُ كَمَا يَنْكِحُ الْأُنْثَى، فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٨١].

ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى اسْتِغْنَائِهِمْ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْحَامِلَ لَهُمْ عَلَيْهِ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدَ الشَّهْوَةِ لَا الْحَاجَةَ الَّتِي لِأَجْلِهَا مَالَ الذَّكَرِ إِلَى الْأُنْثَى، وَمِنْ قَضَاءِ الْوَطْرِ وَلَذَّةِ الْإِسْتِمْتَاعِ، وَحُصُولِ الْمُوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي تَتَسَّى الْمَرْأَةَ لَهَا أَبُوئِهَا، وَتَذَكَّرَ بَعْلَهَا، وَحُصُولِ النَّسْلِ الَّذِي هُوَ حِفْظُ هَذَا النَّوْعِ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَتَحْصِينِ الْمَرْأَةِ وَقَضَاءِ وَطْرِهَا، وَحُصُولِ عِلَاقَةِ الْمُصَاهَرَةِ الَّتِي هِيَ أُخْتُ النَّسَبِ، وَقِيَامِ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ، وَخُرُوجِ أَحَبِّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَمَاعِهِنَّ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَمُكَاتَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ الْأَنْبِيَاءِ بِأُمَّتِهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ النِّكَاحِ، وَالْمُفْسَدَةِ الَّتِي فِي اللُّوَاطِ تَقَاوُمٌ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَتُرْبِي عَلَيْهِ بِمَا لَا يُمَكِّنُ حَضْرَ فَسَادِهِ، وَلَا يَعْلَمُ تَفْصِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ.

ثُمَّ أَكَّدَ قُبْحَ ذَلِكَ بِأَنَّ اللُّوَاطِيَّةَ عَكَّسُوا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا الرِّجَالَ، وَقَلَّبُوا الطَّبِيعَةَ الَّتِي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِي الذُّكُورِ، وَهِيَ شَهْوَةُ النِّسَاءِ دُونَ الذُّكُورِ، فَقَلَّبُوا الْأَمْرَ، وَعَكَّسُوا الْفِطْرَةَ وَالطَّبِيعَةَ فَأَتَوْا

الرِّجَالِ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، وَهَذَا قَلَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَكَذَلِكَ قَلَبُوا هُمْ، وَنَكَّسُوا فِي الْعَذَابِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ.

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ قُبْحَ ذَلِكَ بِأَنْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْإِسْرَافِ وَهُوَ مُجَاوِزَةُ الْحُدِّ، فَقَالَ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ٨١].

فَتَأَمَّلْ هَلْ جَاءَ مِثْلُ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ فِي الزُّنَى؟

وَأَكَّدَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَجِّنَا مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ:

[٧٤].

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ بِوَصْفَيْنِ فِي غَايَةِ الْقُبْحِ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَاسِقِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٧٤].

وَسَمَّاهُمْ مُفْسِدِينَ فِي قَوْلِ نَبِيِّهِمْ: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: ٣٠].

وَسَمَّاهُمْ ظَالِمِينَ فِي قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

[سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: ٣١].

فَتَأَمَّلْ مَنْ عُوِقِبَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ، وَمَنْ ذَمَّهُ اللَّهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَذَمَّاتِ، وَمَا جَادَلَ فِيهِمْ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ الْمَلَائِكَةَ، وَقَدْ أَخْبَرُوهُ بِأَهْلَاكِهِمْ قِيلَ لَهُ: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ٧٦].

وَتَأَمَّلْ حُبَّتَ اللُّوطِيَّةِ وَفَرَطَ تَمَرْدِهِمْ عَلَى اللَّهِ حَيْثُ جَاءُوا نَبِيَّهُمْ لُوطًا لَمَّا سَمِعُوا بِأَنَّهُ قَدْ طَرَقَهُ أَضْيَافٌ هُمْ مِنْ أَحْسَنِ الْبَشَرِ صُورًا، فَأَقْبَلَ اللُّوطِيَّةُ إِلَيْهِمْ يَهْرُؤُونَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ قَالَ لَهُمْ: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ٧٨].

فَقَدَىٰ أَضْيَافُهُ بِنَاتِهِ يَزُوجُهُمْ بِهِمْ خَوْفًا عَلَىٰ نَفْسِهِ وَأَضْيَافِهِ مِنَ الْعَارِ الشَّدِيدِ، فَقَالَ: ﴿يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، فَردُّوا عَلَيْهِ، وَلَكِنْ رَدَّ جَبَّارٌ عَنِيْدٌ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [سُورَةُ هُوْدٍ: ٧٩].

فَنَفَثَ نَبِيُّ اللَّهِ مِنْهُ نَفْثَةً مَصْدُورٍ خَرَجَتْ مِنْ قَلْبٍ مَكْرُوبٍ، فَقَالَ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَي رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فَتَقَسَّ لَهُ رُسُلُ اللَّهِ عَنِ حَقِيْقَةِ الْحَالِ، وَأَعْلَمُوهُ أَنَّهُمْ مِمَّنْ لَيْسُوا يُوْصَلُ إِلَيْهِمْ، وَلَا إِلَيْهِ بِسَبِيْبِهِمْ، فَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ، وَلَا تَعْبَأْ بِهِمْ، وَهَوْنٌ عَلَيْكَ، فَقَالُوا: ﴿يَالُوْطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ وَبَشَّرُوهُ بِمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْوَعْدِ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مِنَ الْوَعِيْدِ الْمُصِيبِ فَقَالُوا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيْبٍ﴾ [سُورَةُ هُوْدٍ: ٨١].

فَاسْتَبْطَأَ نَبِيُّ اللَّهِ مَوْعِدَ هَلَاكِهِمْ، وَقَالَ: أُرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ هَذَا، فَقَالَتِ الْمَلَأَيْكَةُ: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيْبٍ﴾ فَوَاللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَ إِهْلَاكِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَنَجَاةِ نَبِيِّهِ وَأَوْلِيَائِهِ إِلَّا مَا بَيْنَ السَّحْرِ وَطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَإِذَا بَدَّيَارِهِمْ قَدْ اقْتَلَعَتْ مِنْ أَصْلِهَا، وَرَفَعَتْ نَحْوَ السَّمَاءِ حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَأَيْكَةُ نُبَاحَ الْكِلَابِ وَنَهْيَ الْحَمِيْرِ، فَبَرَزَ الْمُرْسُومُ الَّذِي لَا يُرَدُّ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ الْجَلِيْلِ، إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ جَبْرَائِيْلِ، بِأَنَّ قَلْبَهَا عَلَيْهِمْ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيْلِ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلِيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلِيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [سُورَةُ هُوْدٍ: ٨٢] فَجَعَلَهُمْ آيَةً لِلْعَالَمِيْنَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِيْنَ، وَنَكَالًا وَسَلَفًا لِمَنْ شَارَكَهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ مِنَ الْمُجْرِمِيْنَ، وَجَعَلَ دِيَارَهُمْ بِطَرِيقِ السَّالِكِيْنَ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِيْنَ﴾ * وَإِنَّهَا لِسَبِيْلٍ مُّقِيْمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِيْنَ﴾ [سُورَةُ الْحَجْرِ: ٧٥ - ٧٧].

أَخَذَهُمْ عَلَى غَرَّةٍ وَهُمْ نَائِمُونَ، وَجَاءَهُمْ بِأَسْهُ وَهُمْ فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْصَمُونَ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَقَلْبَتْ تِلْكَ اللَّذَّةُ أَلَمًا، فَأَصْبَحُوا بِهَا يُعَذِّبُونَ.

مَا رَبُّ كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ لِأَهْلِهَا ... عَذَابًا فَصَارَتْ فِي الْمَمَاتِ عَذَابًا

ذَهَبَتِ اللَّذَاتُ وَأَعْقَبَتِ الْحُسَرَاتُ، وَأَنْقَضَتِ الشَّهَوَاتُ، وَأَوْرَثَتِ الشَّقَوَاتُ، وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا، وَعُدُّبُوا طَوِيلًا، رَتَعُوا مَرْتَعًا وَخِيَمًا فَأَعْقَبَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، أَسْكَرَتْهُمْ خَمْرُ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ، فَمَا اسْتَفَاقُوا مِنْهَا إِلَّا فِي دِيَارِ الْمُعَذِّبِينَ، وَأَزَقَتْهُمْ تِلْكَ الْغَفْلَةَ، فَمَا اسْتَيْقَظُوا مِنْهَا إِلَّا وَهُمْ فِي مَنَازِلِ الْهَالِكِينَ، فَندِمُوا وَاللَّهِ أَشَدَّ النَّدَامَةِ حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، وَبَكَوْا عَلَى مَا أَسْلَفُوهُ بِدَلِّ الدَّمُوعِ بِالْدَّمِ، فَلَوْ رَأَيْتَ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَالنَّارَ تَخْرُجُ مِنْ مَنَافِذِ وُجُوهِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ وَهُمْ بَيْنَ أَطْبَاقِ الْجَحِيمِ، وَهُمْ يَشْرَبُونَ بِدَلِّ لَذِيذِ الشَّرَابِ كَثُوسَ الْحَمِيمِ، وَيَقَالُ لَهُمْ وَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ يُسْحَبُونَ: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ * اِصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سُورَةُ الطُّورِ: ١٦].

وَقَدْ قَرَّبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَسَافَةَ الْعَذَابِ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِمْ فِي الْعَمَلِ، فَقَالَ مُخَوِّفًا لَهُمْ أَنْ يَقَعَ الْوَعِيدُ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِيَعِيدُ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ٨٣].

فَيَا نَاكِحِي الذُّكْرَانَ يَهْنِكُمْ الْبُشْرَى ... فَيَوْمَ مَعَادِ النَّاسِ إِنَّ لَكُمْ أَجْرًا
كُلُّوا وَاشْرَبُوا وَازْنُوا وَلُوطُوا وَأَبْشَرُوا ... فَإِنَّ لَكُمْ زَفْرًا إِلَى الْجَنَّةِ الْحَمْرَا
فَإِخْوَانُكُمْ قَدْ مَهَّدُوا الدَّارَ قَبْلَكُمْ ... وَقَالُوا إِنَّا عَجَّلُوا لَكُمْ الْبُشْرَى
وَهَا نَحْنُ أَسْلَافٌ لَكُمْ فِي أَنْتِظَارِكُمْ سَيَجْمَعُنَا الْجَبَّارُ فِي نَارِهِ الْكُبْرَى
وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ الَّذِينَ نَكَحْتُمُو يَغِيبُونَ عَنْكُمْ بَلْ تَرَوْنَهُمْ جَهْرًا
وَيَلْعَنُ كَلًّا مِنْكُمْ بِخَلِيلِهِ وَيَشْقَى بِهِ الْمُحْزُونُ فِي الْكُرَّةِ الْأُخْرَى
يُعَذَّبُ كَلًّا مِنْهَا بِشْرِيكَه كَمَا اشْتَرَكَ فِي لَذَّةِ تَوْجِبِ الْوِزْرَا

فَصْلٌ

فِي الْأَجْوِبَةِ عَمَّا احْتَجَّ بِهِ مَنْ جَعَلَ عُقُوبَةَ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ دُونَ عُقُوبَةِ الزَّنى .

أَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّهَا مَعْصِيَةٌ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِيهِ حَدًّا مُعِينًا، فَجَوَابُهُ مِنْ وَجْوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْمُبْلَغَ عَنِ اللهِ جَعَلَ حَدَّ صَاحِبِهَا الْقَتْلَ حَتْمًا، وَمَا شَرَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِنَّمَا شَرَعَهُ عَنِ اللهِ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّ حَدَّهَا غَيْرُ مَعْلُومٍ بِالشَّرْعِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّهُ غَيْرُ ثَابِتٍ بِنَصِّ الْكِتَابِ لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ انْتِفَاءُ حُكْمِهِ لِثُبُوتِهِ بِالسُّنَّةِ.

الثَّانِي: أَنَّ هَذَا يَنْتَقِضُ عَلَيْكُمْ بِالرَّجْمِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: بَلْ ثَبَتَ بِقُرْآنٍ نُسِخَ لَفْظُهُ وَيَقِي حُكْمُهُ.

قُلْنَا: فَيَنْتَقِضُ عَلَيْكُمْ بِحَدِّ شَارِبِ الْحَمْرِ.

الثَّلَاثُ: أَنَّ نَفْيَ دَلِيلٍ مُعَيَّنٍ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ مُطْلَقِ الدَّلِيلِ وَلَا نَفْيَ الْمُدْلُولِ، فَكَيْفَ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي نَفَيْتُمُوهُ غَيْرُ مُتَّصِفٍ؟

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنَّهُ وَطْءٌ لَا تَشْتَهِيهِ الطَّبَاعُ، بَلْ رَكَّبَ اللهُ الطَّبَاعَ عَلَى النَّفْرَةِ مِنْهُ، فَهُوَ كَوَطْءِ الْمَيْتَةِ وَالْبَهِيمَةِ، فَجَوَابُهُ مِنْ وَجْوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قِيَاسٌ فَاسِدٌ لِإِعْتِبَارِ، مَرْدُودٍ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ.

الثَّانِي: أَنَّ قِيَاسَ وَطْءِ الْأَمْرَدِ الْجَمِيلِ الَّذِي فَتَنَتْهُ تَرْبُو عَلَى كُلِّ فِتْنَةٍ، عَلَى وَطْءِ أَتَانٍ أَوْ امْرَأَةٍ مَيْتَةٍ مِنْ أَفْسَدِ الْقِيَاسِ، وَهَلْ يَعْدِلُ ذَلِكَ أَحَدٌ قَطُّ بِأَتَانٍ أَوْ بَقْرَةٍ أَوْ مَيْتَةٍ، أَوْ سَبَى ذَلِكَ عَقْلَ عَاشِقٍ، أَوْ أَسَرَ قَلْبَهُ، أَوْ اسْتَوَى عَلَى فِكْرِهِ وَنَفْسِهِ؟ فَلَيْسَ فِي الْقِيَاسِ أَفْسَدٌ مِنْ هَذَا.

الثالث: أَنَّ هَذَا مُتَّقِضٌ بِوَطْءِ الْأُمِّ وَالْبِنْتِ وَالْأُخْتِ، فَإِنَّ النَّفْرَةَ الطَّبِيعِيَّةَ عَنْهُ حَاصِلَةٌ مَعَ أَنَّ الْحَدَّ فِيهِ مِنْ أَعْلَظِ الْحُدُودِ - فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ - وَهُوَ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ، وَهَذِهِ إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَهُوَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوِيَّةَ وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: لَقِيتُ عَمِّي وَمَعَهُ الرَّايَةُ، فَقُلْتُ: إِيَّ أَيِّنَ تُرِيدُ؟ قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةً أَبِيهِ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ وَأَخَذَ مَالَهُ^(١) قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، قَالَ الْجُوزْجَانِيُّ: عَمُّ الْبَرَاءِ اسْمُهُ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرِو.

فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَهٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ وَقَعَ عَلَى ذَاتِ مَحْرَمٍ فَاقْتُلُوهُ»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٥٧) والنسائي (٣٣٣٢) وابن الجارود (٦٨١) والدارمي (٢٢٨٥) وغيرهم من طريق زيد بن أبي أنيسة عن عدي بن ثابت عن يزيد بن البراء عن أبيه فذكره.

(٢) أخرجه الترمذي (١٤٦٢) وأحمد في المسند ١ / ٣٠٠ (٢٧٢٧) وابن ماجه (٢٥٦٨). والطبري في التهذيب (مسند ابن عباس - ٨٧١) والطبراني (١١ / رقم ١١٥٨٠) وابن عدي في الكامل (٥ / ٢٨٦) وابن حبان في المجروحين (١ / ١١٠) من طريق إبراهيم بن إسماعيل (ابن أبي حبيبة) عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس مختصراً ومطولاً. قال الترمذي: "هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن إسماعيل يضعفه في هذا الحديث". وقال أبو حاتم الرازي: "هذا حديث منكر، لم يروه غير ابن أبي حبيبة". العلل (١٣٦٧). وضعفه الألباني في الإرواء (٢٣٥٢).

وَرَفَعَ إِلَى الْحَجَّاجِ رَجُلٌ اغْتَصَبَ أُخْتَهُ عَلَى نَفْسِهَا، فَقَالَ: احْبِسُوهُ وَسَلُّوا مَنْ هَاهُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُطَرِّفٍ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَخَطَّى حُرْمَ الْمُؤْمِنِينَ، فَخَطَّوْا وَسَطَهُ بِالسَّيْفِ»^(١).

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الْقَتْلِ بِالتَّوَسِيطِ، وَهَذَا دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَأَنَّ مَنْ لَا يُبَاحُ وَطْؤُهُ بِحَالٍ فَحَدُّ وَطْئِهِ الْقَتْلُ، دَلِيلُهُ: مَنْ وَقَعَ عَلَى أُمِّهِ أَوْ ابْنَتِهِ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي وَطْءِ ذَوَاتِ الْمُحَارِمِ، وَوَطْءِ مَنْ لَا يُبَاحُ وَطْؤُهُ بِحَالٍ، فَكَانَ حَدُّهُ الْقَتْلُ كَاللُّوْطِيِّ.

وَالْتَحْقِيقُ: أَنَّ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْمَسْأَلَتَيْنِ بِالنَّصِّ، وَالْقِيَاسِ يَشْهَدُ لِصِحَّةِ كُلِّ مِنْهُمَا، وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ زَنَى بِذَاتِ مُحَرَّمِهِ فَعَلِيهِ الْحَدُّ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي صِفَةِ الْحَدِّ، هَلْ هُوَ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ، أَوْ حَدُّهُ حَدُّ الزَّانِي، عَلَى قَوْلَيْنِ:

فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ وَأَحْمَدٌ - فِي إِحْدَى رِوَايَتَيْهِ - : أَنَّ حَدَّهُ حَدُّ الزَّانِي.

وَذَهَبَ أَحْمَدٌ وَإِسْحَاقُ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَى: أَنَّ حَدَّهُ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ.

وَكَذَلِكَ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَصَابَهَا بِاسْمِ النِّكَاحِ عَالِمًا بِالتَّحْرِيمِ أَنَّهُ يُحَدُّ، إِلَّا أَبَا حَنِيفَةَ وَحَدَّهُ، فَإِنَّهُ رَأَى ذَلِكَ شُبْهَةً مُسْقِطَةً لِلْحَدِّ.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم (٥ / رقم ٢٨١٧) والبخاري في معجم الصحابة (٤ / رقم ١٧١٢) وابن قانع في معجم الصحابة (٥٦٢) وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٤ / رقم ١٧١٢) والخرائطي في اعتلال القلوب (١١١) وفي مساوئ الأخلاق (٥٧٥) والعقيلي في الضعفاء (٢ / ٢٠١ - ٢٠٢) وابن عدي في الكامل (٣ / ١٧٥) وغيرهم من طريق رفة بن قضاة عن صالح بن راشد القرشي قال: أتى الحجاج برجل فذكره. وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٥٧٢).

وَمَنَّا عُوهُ يَقُولُونَ: إِذَا أَصَابَهَا بِاسْمِ النِّكَاحِ فَقَدْ زَادَ الْجُرِيمَةَ غِلْظًا وَشِدَّةً، فَإِنَّهُ أَرْتَكَبَ مَحْذُورَيْنِ عَظِيمَيْنِ: مَحْذُورَ الْعُقْدِ، وَمَحْذُورَ الْوَطْءِ، فَكَيْفَ تُخَفِّفُ عَنْهُ الْعُقُوبَةَ بِضَمِّ مَحْذُورِ الزَّانِي؟
وَأَمَّا وَطْءُ الْمَيْتَةِ فَفِيهِ قَوْلَانِ لِلْفُقَهَاءِ، وَهُمَا فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ يَجِبُ بِهِ الْحُدُّ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ، فَإِنَّ فِعْلَهُ أَعْظَمُ جُرْمًا وَأَكْبَرُ ذَنْبًا انْضَمَّ إِلَى فَاحِشَتِهِ هُنَاكَ حُرْمَةُ الْمَيْتَةِ.

فَصْلٌ

وَأَمَّا واطئ البهيمة فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ يُؤَدَّبُ، وَلَا حَدَّ عَلَيْهِ، وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُ إِسْحَاقَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الزَّانِي، يُجْلَدُ إِنْ كَانَ بَكْرًا، وَيُرْجَمُ إِنْ كَانَ مُحْصَنًا، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ.
وَالْقَوْلُ الثَّلَاثُ: أَنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ اللُّوطِيِّ، نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ، فَيُخْرَجُ عَلَى الرَّوَائِيَيْنِ فِي حَدِّهِ، هَلْ هُوَ الْقَتْلُ حَتْمًا أَوْ هُوَ كَالزَّانِي؟

وَالَّذِينَ قَالُوا: حَدُّهُ الْقَتْلُ، اخْتَجُّوا بِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ أَتَى بِهِمَةً فَاقْتُلُوهُ، وَاقْتُلُوهَا مَعَهُ»^(١).

قَالُوا: وَلَا نَهَى وَطْءَ لَا يُبَاحُ بِحَالٍ؛ فَكَانَ فِيهِ الْقَتْلُ كَحَدِّ اللُّوطِيِّ.

وَمَنْ لَمْ يَرِ حَدًّا قَالُوا: لَمْ يَصِحَّ فِيهِ الْحَدِيثُ، وَلَوْ صَحَّ لَقُلْنَا بِهِ، وَلَمْ يَحِلَّ لَنَا مُخَالَفَتُهُ.

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٦٤) و الترمذي (١٤٥٥) والطبري في التهذيب (مسند ابن عباس - ٨٧٥) والحاكم ٤ / ٣٩٦ (٨٠٤٩) والبيهقي (٢٣٣ / ٨) من طريق عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس فذكره. وصححه الألباني في الإرواء (٢٣٤٨).

قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ سَعِيدِ الشَّالَنْجِيِّ: سَأَلْتُ أَحْمَدَ عَنِ الَّذِي يَأْتِي الْبَهِيمَةَ، فَوَقَفَ عِنْدَهَا، وَلَمْ يُثَبِّتْ حَدِيثَ عَمْرٍو بْنِ أَبِي عَمْرٍو فِي ذَلِكَ.

وَقَالَ الطَّحَاوِيُّ: الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ، وَأَيْضًا فَرَاوِيهِ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَدْ أَفْتَى بِأَنَّهُ لَا حَدَّ عَلَيْهِ، قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَهَذَا يُضَعَّفُ الْحَدِيثَ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الزَّاجِرَ الطَّبَعِيَّ عَنِ الْبَهِيمَةِ أَقْوَى مِنَ الزَّاجِرِ الطَّبَعِيِّ عَنِ التَّلَوُّطِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ أَتَمًّا فِي طَبَاعِ النَّاسِ سَوَاءً، فَإِلْحَاقُ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ مِنْ أَفْسَادِ الْقِيَاسِ كَمَا تَقَدَّمَ.

فَصْلٌ

وَأَمَّا قِيَاسُكُمْ وَطَاءَ الرَّجَالِ لِمَثَلِهِ عَلَى تَدَالُكِ الْمُرَاتِينِ، فَمِنْ أَفْسَادِ الْقِيَاسِ، إِذْ لَا إِيْلَاجَ هُنَاكَ، وَإِنَّمَا نَظِيرُهُ مُبَاشَرَةُ الرَّجُلِ الرَّجُلِ مِنْ غَيْرِ إِيْلَاجٍ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ الْمُرْفُوعَةِ: «إِذَا أَتَتِ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةُ فَهِيَ زَانِيَةٌ»^(١) وَلَكِنْ لَا يَجِبُ الْحُدُّ بِذَلِكَ، لِعَدَمِ الْإِيْلَاجِ، وَإِنْ أُطْلِقَ عَلَيْهِمَا اسْمُ الزَّانِي الْعَامُّ، كَزَيْنِ الْعَيْنِ وَالْيَدِ وَالرَّجْلِ وَالْفَمِ.

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا: فَاجْمَعِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ حُكْمَ التَّلَوُّطِ مَعَ الْمَمْلُوكِ كَحُكْمِهِ مَعَ غَيْرِهِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ تَلَوُّطَ الْإِنْسَانِ بِمَمْلُوكِهِ جَائِزٌ، وَاحْتَجَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَمْلُومِينَ﴾ [سُورَةُ الْمَعَارِجِ: ٣٠].

وَقَاسَ ذَلِكَ عَلَى أُمَّتِهِ الْمَمْلُوكَةَ فَهُوَ كَافِرٌ، يُسْتَتَابُ كَمَا يُسْتَتَابُ الْمُرْتَدُّ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ، وَتَلَوُّطُ الْإِنْسَانِ بِمَمْلُوكِهِ كَتَلَوُّطِهِ بِمَمْلُوكٍ غَيْرِهِ فِي الْإِثْمِ وَالْحُكْمِ.

(١) أخرجه الآجري في ذم اللواط (١٧) مختصراً والبيهقي في الكبرى (٨ / ٢٣٣) من طريق محمد بن عبد الرحمن عن خالد الحذاء عن ابن سيرين عن أبي موسى مرفوعاً فذكره. وضعفه الألباني في الإرواء (٢٣٤٩).

فَصْلٌ

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ دَوَاءٌ لِهَذَا الدَّاءِ العُصَالِ؟ وَرُقِيَّةٌ لِهَذَا السَّحْرِ القِتَالِ؟ وَمَا الإِحْتِيَالُ لِدَفْعِ هَذَا الحَبَالِ؟ وَهَلْ مِنْ طَرِيقٍ قَاصِدٍ إِلَى التَّوْفِيقِ؟ وَهَلْ يُمَكِّنُ السَّكْرَانَ بِخَمْرِ الهَوَى أَنْ يُفِيقَ؟ وَهَلْ يَمْلِكُ العَاشِقُ قَلْبَهُ وَالعَشِيقُ قَدْ وَصَلَ إِلَى سُوَيْدَائِهِ؟ وَهَلْ لِلطَّيِّبِ بَعْدَ ذَلِكَ حِيَلَةٌ فِي بُرْتِهِ مِنْ سُوَيْدَائِهِ؟ وَإِنْ لَامَهُ لَأَيْمُ التَّدْبِ بِمَلامِهِ ذَكَرًا لِمَحْبُوبِهِ، وَإِنْ عَدَلَهُ عَادِلٌ أَعْرَاهُ عَدْلُهُ، وَسَارِيهِ فِي طَرِيقِ مَطْلُوبِهِ، يُنَادِي عَلَيْهِ شَاهِدٌ حَالِهِ بِلِسَانِ مَقَالِهِ:

وَقَفَ الهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتِ فَلَيسَ لِي.... مُتَأَخَّرَ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمٌ

وَأَهْسِنِي فَأَهَنْتِ نَفْسِي جَاهِدًا... مَا مِنْ يَهُونٍ عَلَيْكَ مِمَّنْ يُكْرَمُ

أَشْبَهْتَ أَعْدَائِي فَصُرْتُ أَحِبُّهُمْ... إِذْ كَانَ حَظِّي مِنْكَ حَظِّي مِنْهُمْ

أَجِدُ المَلَامَةَ فِي هَوَاكَ لِذِيذَةٍ... حُبًّا لِذِكْرِكَ فَلْيَلْمَنِي اللُّؤْمُ

وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ المَقْصُودُ بِالسُّؤَالِ الأوَّلِ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ الإِسْتِفْتَاءُ، وَالدَّاءُ الَّذِي طَلَبَ لَهُ الدَّوَاءَ.

قِيلَ: نَعَمْ، الجَوَابُ مِنْ رَأْسٍ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا جَعَلَ لَهُ دَوَاءً، عِلْمُهُ مِنْ عِلْمِهِ وَجَهْلُهُ

مِنْ جَهْلِهِ».

وَالكَلَامُ فِي دَوَاءِ دَاءٍ تَعَلَّقَ القَلْبُ بِالمَحَبَّةِ الهَوَائِيَّةِ مِنْ طَرِيقَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: حَسْمُ مَا دَتِهِ قَبْلَ حُصُولِهَا.

وَالثَّانِي: قَلْعُهَا بَعْدَ نُزُولِهِ، وَكِلَاهُمَا يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسْرُهُ اللهُ عَلَيْهِ، وَمَتَعَدِّرٌ عَلَى مَنْ لَمْ يُعِنَهُ اللهُ، فَإِنَّ

أَزِمَّةَ الأُمُورِ بِيَدَيْهِ.

فَأَمَّا الطَّرِيقُ الْمَانِعُ مِنْ حُصُولِ هَذَا الدَّاءِ، فَأَمْرَانِ:

غَضُّ الْبَصْرِ كَمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ النَّظْرَةَ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، وَمَنْ أَطْلَقَ لِحَظَاتِهِ دَامَتْ حَسْرَاتُهُ، وَفِي غَضِّ الْبَصْرِ عِدَّةٌ مَنَافِعَ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ أَنْفَعُ مِنْ امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَمَا شَقِيَّ مِنْ شَقِيٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِتَضْيِيعِ أَمْرِهِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَمْنَعُ مِنْ وُصُولِ أَثْرِ السَّهْمِ الْمَسْمُومِ - الَّذِي لَعَلَّ فِيهِ هَلَاكُهُ - إِلَى قَلْبِهِ.

الثَّلَاثَةُ: أَنَّهُ يُوْرِثُ الْقَلْبَ أَنْسَابًا بِاللَّهِ وَجَمْعِيَّةً عَلَيْهِ، فَإِنَّ إِطْلَاقَ الْبَصْرِ يُفَرِّقُ الْقَلْبَ وَيَشْتَتِهْهُ، وَيُعِيدُهُ عَنِ اللَّهِ، وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ شَيْءٌ أَضْرُّ مِنْ إِطْلَاقِ الْبَصْرِ، فَإِنَّهُ يُوْرِثُ الْوَحْشَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَقْوِي الْقَلْبَ وَيُفْرِحُهُ، كَمَا أَنَّ إِطْلَاقَ الْبَصْرِ يُضْعِفُهُ وَيُجْزِنُهُ.

الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يُكْسِبُ الْقَلْبَ نُورًا، كَمَا أَنَّ إِطْلَاقَهُ يُلْبِسُهُ ظُلْمَةً، وَهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ آيَةَ النُّورِ عُقَيْبَ الْأَمْرِ بِغَضِّ الْبَصْرِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [سُورَةُ النُّورِ: ٣٠].

ثُمَّ قَالَ إِثْرَ ذَلِكَ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [سُورَةُ النُّورِ: ٣٥].

أَيُّ مِثْلُ نُورِهِ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي امْتَثَلَ أَمْرَهُ وَاجْتَنَبَ نَوَاهِيَهُ، وَإِذَا اسْتَتَارَ الْقَلْبُ أَقْبَلَتْ وَفُودُ الْحَيَرَاتِ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا أَظْلَمَ أَقْبَلَتْ سَحَابَاتُ الْبَلَاءِ وَالشَّرِّ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَمَا شَتَّتَ مِنْ بَدَعٍ وَضَلَالَةٍ، وَاتَّبَاعِ هَوَى، وَاجْتِنَابِ هُدَى، وَإِعْرَاضِ عَنِ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ، وَاشْتِغَالِ

بأسباب الشقاوة، فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا نفذ ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام.

السادسة: أنه يورث فِرَاسَةً صَادِقَةً يُمَيِّزُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ، وَكَانَ شَجَاعٌ الْكَرْمَانِيُّ يَقُولُ: مَنْ عَمَرَ ظَاهِرَهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَبَاطِنَهُ بِدَوَامِ الْمُرَاقَبَةِ، وَغَضَّ بَصْرَهُ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشُّبُهَاتِ، وَاعْتَدَى بِالْحَلَالِ، لَمْ تُحْطِ لَهُ فِرَاسَةٌ وَكَانَ شَجَاعًا لَا تُحْطِ لَهُ فِرَاسَةٌ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْزِي الْعَبْدَ عَلَى عَمَلِهِ بِمَا هُوَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ لِلَّهِ شَيْئًا عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ، فَإِذَا غَضَّ بَصْرَهُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ، عَوَّضَهُ اللَّهُ بِأَنْ يُطْلَقَ نُورَ بَصِيرَتِهِ، عَوَّضًا عَنْ حَبْسِ بَصْرِهِ لِلَّهِ، وَيَفْتَحَ عَلَيْهِ بَابَ الْعِلْمِ وَالْإِيْمَانِ، وَالْمَعْرِفَةِ وَالْفِرَاسَةِ الصَّادِقَةِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي إِنَّمَا تُنَالُ بِبَصِيرَةٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سُورَةُ الْحَجَرِ: ٢٧].

فَوَصَفَهُمْ بِالسُّكْرَةِ الَّتِي هِيَ فِسَادُ الْعَقْلِ، وَالْعَمَهُ الَّذِي هُوَ فِسَادُ الْبَصِيرَةِ، فَالتَّعَلُّقُ بِالصُّورِ يُوجِبُ فِسَادَ الْعَقْلِ، وَعَمَهُ الْبَصِيرَةِ، وَسُكْرَ الْقَلْبِ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

سُكْرَانُ سُكْرُ هَوَى وَسُكْرٌ مُدَامَةٌ... وَمَتَى إِفَاقَةٌ مِنْ بِهِ سُكْرَانِ

وَقَالَ الْآخَرُ:

قَالُوا جُنْتِ بِمَنْ تَهَوَى فَقُلْتُ لَهُمْ... الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ

الْعِشْقُ لَا يَسْتَعِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يورثُ الْقَلْبَ ثَبَاتًا وَشَجَاعَةً وَقُوَّةً، فَجَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سُلْطَانِ النُّصْرَةِ وَالْحُجَّةِ، وَسُلْطَانِ الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ، كَمَا فِي الْأَثَرِ: "الَّذِي يُخَالِفُ هَوَاهُ، يَفْرُ السَّيْطَانَ مِنْ ظِلِّهِ".

وَصِدُّ هَذَا تَجِدُ فِي الْمَتَّبِعِ هُوَاهُ - مِنْ ذُلِّ النَّفْسِ وَوَضَاعَتِهَا وَمَهَانَتِهَا وَخِسَّتِهَا وَحَقَارَتِهَا - مَا جَعَلَهُ
اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِيمَنْ حَصَاهُ.

كَمَا قَالَ الْحَسَنُ: "إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقَطَقَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ، وَهَمَلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَادِينُ، إِنَّ ذُلَّ الْمُعْصِيَةِ فِي رِقَابِهِمْ،
أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذَلَّ مَنْ عَصَاهُ".

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْعِزَّ قَرِينَ طَاعَتِهِ، وَالذُّلَّ قَرِينَ مَعْصِيَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ: ٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٣٩].
وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ
الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ: ١٠].

أَيُّ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلْيَطْلُبْهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.
وَفِي دُعَاءِ الْقُنُوتِ: "إِنَّهُ لَا يُذَلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ" وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ وَالَاهُ فِيهَا
أَطَاعَهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ الْعِزِّ بِحَسَبِ طَاعَتِهِ، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَادَاهُ فِيهَا عَصَاهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ الذُّلِّ بِحَسَبِ
مَعْصِيَتِهِ.

الثَّامِنُ: أَنَّهُ يُسَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مَدْخَلَهُ مِنَ الْقَلْبِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ مَعَ النَّظَرِ وَيَنْفُذُ مَعَهَا إِلَى الْقَلْبِ
أَسْرَعُ مِنْ نَفُوزِ الْهَوَاءِ فِي الْمَكَانِ الْحَالِيِّ، فَيَمَثَلُ لَهُ صُورَةُ الْمُنْظُورِ إِلَيْهِ وَيُزَيِّنُهَا، وَيَجْعَلُهَا صَمًا يَعْكُفُ عَلَيْهِ
الْقَلْبُ ثُمَّ يَعِدُّهُ وَيَمْنِيهِ، وَيُوقِدُ عَلَى الْقَلْبِ نَارَ الشَّهْوَةِ، وَيُلْقِي عَلَيْهَا حَطَبَ الْمَعَاصِي الَّتِي لَمْ يَكُنْ يُتَوَصَّلُ
إِلَيْهَا بِدُونِ تِلْكَ الصُّورَةِ، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ فِي اللَّهَبِ.

فَمِنْ ذَلِكَ اللَّهَبِ تِلْكَ الْأَنْفَاسُ الَّتِي يَجِدُ فِيهَا وَهَجَ النَّارِ، وَتِلْكَ الزَّفَرَاتُ وَالْحُرْقَاتُ، فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ النَّيْرَانُ بِكُلِّ جَانِبٍ، فَهُوَ فِي وَسْطِهَا كَالشَّاةِ فِي وَسْطِ النَّتُورِ، وَهَذَا كَانَتْ عُقُوبَةُ أَصْحَابِ الشَّهَوَاتِ لِلصُّورِ الْمُحَرَّمَةِ: أَنْ جُعِلَ لَهُمْ فِي الْبَرْزَخِ تَنُورٌ مِنَ النَّارِ، وَأُودِعَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِيهِ إِلَى يَوْمِ حَشْرِ أَجْسَادِهِمْ، كَمَا أَرَاهَا اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ فِي الْحَدِيثِ الْمُنْفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ.

التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ يَفْرَعُ الْقَلْبَ لِلْفِكْرَةِ فِي مَصَالِحِهِ وَالِاسْتِغَالِ بِهَا، وَإِطْلَاقُ الْبَصْرِ يُنْسِبُهُ ذَلِكَ وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَيَنْفَرِطُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ وَيَقَعُ فِي اتِّبَاعِ هَوَاهُ وَفِي الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطْعَمَنْ مِنْ أَعْفَانَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٢٨].

وَإِطْلَاقُ النَّظْرِ يُوجِبُ هَذِهِ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ بِحَسَبِهِ.

الْعَاشِرَةُ: أَنَّ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ مَنَعًا وَطَرِيقًا يُوجِبُ انْتِقَالَ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، وَأَنْ يَصْلَحَ بِصَلَاحِهِ، وَيُفْسَدَ بِفَسَادِهِ، فَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ؛ فَسَدَ النَّظْرُ، وَإِذَا فَسَدَ النَّظْرُ؛ فَسَدَ الْقَلْبُ، وَكَذَلِكَ فِي جَانِبِ الصَّلَاحِ، فَإِذَا خَرِبَتِ الْعَيْنُ وَفَسَدَتْ؛ خَرِبَ الْقَلْبُ وَفَسَدَ، وَصَارَ كَالْمَزْبَلَةِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ النَّجَاسَاتِ وَالْقَادُورَاتِ وَالْأَوْسَاحِ، فَلَا يَصْلُحُ لِسُكْنَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالْأَنْسِ بِهِ وَالسُّرُورِ بِقُرْبِهِ فِيهِ، وَإِنَّمَا يَسْكُنُ فِيهِ أَضْدَادُ ذَلِكَ.

فَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى بَعْضِ فَوَائِدِ غَضِّ الْبَصْرِ نُطْلَعُكَ عَلَى مَا وَرَاءَهَا.

الطَّرِيقُ الثَّانِي الْمَانِعُ مِنْ حُصُولِ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ: اسْتِغَالُ الْقَلْبِ بِمَا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوُقُوعِ فِيهِ، وَهُوَ إِمَّا خَوْفٌ مُقْلِقٌ أَوْ حُبٌّ مُزَعِجٌ، فَمَتَى خَلَا الْقَلْبُ مِنْ خَوْفِ مَا فَوَاتَهُ أَضُرَّ عَلَيْهِ مِنْ حُصُولِ هَذَا الْمُحْبُوبِ، أَوْ خَوْفِ مَا حُصُولُهُ أَضُرَّ عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْمُحْبُوبِ، أَوْ مَحَبَّتِهِ مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ وَخَيْرٌ لَهُ مِنْ هَذَا الْمُحْبُوبِ، وَفَوَاتُهُ أَضُرَّ عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْمُحْبُوبِ، لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ عَشْقِ الصُّورِ.

وَشَرَحَ هَذَا: أَنَّ النَّفْسَ لَا تَتْرُكُ مَحْبُوبًا إِلَّا لِمَحْبُوبٍ أَعْلَى مِنْهُ، أَوْ خَشِيَّةً مَكْرُوهٍ حُصُولُهُ أَضُرُّ عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْمَحْبُوبِ، وَهَذَا يَحْتَاجُ صَاحِبَهُ لِأَنَّ أَمْرَيْنِ إِنْ فَقَدَهُمَا أَوْ أَحَدَهُمَا لَمْ يَتَنَفَّعْ بِنَفْسِهِ.

أَحَدُهُمَا: بَصِيرَةٌ صَحِيحَةٌ يُفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ دَرَجَاتِ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ، فَيُؤْتِرُ أَعْلَى الْمَحْبُوبِينَ عَلَى أَدْنَاهُمَا، وَيَحْتَمِلُ أَدْنَى الْمَكْرُوهِينَ لِيَخْلُصَ مِنْ أَعْلَاهُمَا، وَهَذَا خَاصَّةُ الْعَقْلِ، وَلَا يُعَدُّ عَاقِلًا مَنْ كَانَ بِضِدِّ ذَلِكَ، بَلْ قَدْ تَكُونُ الْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ.

الثَّانِي: قُوَّةٌ عَزْمٍ وَصَبْرٍ يَتِمَكَّنُ بِهِ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، فَكَثِيرًا مَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ قَدْرَ التَّفَاوُتِ، وَلَكِنْ يَأْبَى لَهُ ضَعْفُ نَفْسِهِ وَهَمَّتِيهِ وَعَزِيمَتِيهِ عَلَى أَشْيَاءَ لَا تَنفَعُ مِنْ خِسَّتِيهِ وَحِرْصِيهِ وَوَضَاعَةِ نَفْسِهِ وَخِسَّةِ هَمَّتِيهِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَتَنَفَّعُ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَتَنَفَّعُ بِهِ غَيْرُهُ، وَقَدْ مَنَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِمَامَةَ الدِّينِ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، فَقَالَ تَعَالَى، وَبِقَوْلِهِ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ مِنْهُمْ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَةِ: ٢٤].

وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَتَنَفَّعُ بِعِلْمِهِ، وَيَتَنَفَّعُ بِهِ النَّاسُ، وَضِدُّهُ لَا يَتَنَفَّعُ بِهِ غَيْرُهُ، وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَنَفَّعُ بِعِلْمِهِ فِي نَفْسِهِ وَلَا يَتَنَفَّعُ بِهِ غَيْرُهُ، فَالْأَوَّلُ يَمْشِي فِي نُورِهِ وَيَمْشِي النَّاسُ فِي نُورِهِ، وَالثَّانِي قَدْ طَفِعَ نُورُهُ، فَهُوَ يَمْشِي فِي الظُّلُمَاتِ وَمَنْ تَبِعَهُ فِي ظُلْمَتِيهِ، وَالثَّلَاثُ يَمْشِي فِي نُورِهِ وَحَدَّهُ.

فَصْلٌ

إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجْتَمِعَ فِي الْقَلْبِ حُبُّ الْمَحْبُوبِ الْأَعْلَى وَعِشْقُ الصُّورِ أَبَدًا، بَلْ هُمَا ضِدَّانِ لَا يَتَلَاقِيَانِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُجْرَجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَمَنْ كَانَتْ قُوَّةُ حُبِّهِ كُلَّهَا لِلْمَحْبُوبِ الْأَعْلَى الَّذِي مَحَبَّةٌ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ وَعَذَابٌ عَلَى صَاحِبِهَا صَرَفَهُ ذَلِكَ عَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ، وَإِنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُحِبَّهُ إِلَّا لِأَجَلِهِ، أَوْ لِكَوْنِهِ وَسِيلَةً إِلَى مَحَبَّتِهِ، أَوْ قَاطِعًا لَهُ عَمَّا يُضَادُّ مَحَبَّتَهُ وَيَقْتَضِيهَا، وَالْمَحَبَّةُ الصَّادِقَةُ تَقْتَضِي

تَوْحِيدَ الْمُحْبُوبِ، وَأَنْ لَا يُشْرِكَ بَيْنَهُ وَيَبِينَ غَيْرَهُ فِي مَحَبَّتِهِ، وَإِذَا كَانَ الْمُحْبُوبُ مِنَ الْخَلْقِ يَأْتِي وَيَغَارُ أَنْ يُشْرِكَ مَعَهُ مَحَبَّةُ غَيْرِهِ فِي مَحَبَّتِهِ، وَيَمُقْتَهُ لِذَلِكَ، وَيَعُدُّهُ لَا يُحْطِئُهُ بِقُرْبِهِ، وَيَعُدُّهُ كَادِبًا فِي دَعْوَى مَحَبَّتِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ أَهْلًا لِصَرْفِ كُلِّ قُوَّةِ الْمَحَبَّةِ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ بِالْحَيْبِ الْأَعْلَى الَّذِي لَا تَبْغِي الْمَحَبَّةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَحَبَّةٍ لَغَيْرِهِ فَهِيَ عَذَابٌ عَلَى صَاحِبِهَا وَوَبَالٌ؟ وَهَذَا لَا يَغْفِرُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ فِي هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

فَمَحَبَّةُ الصُّورِ تُفَوِّتُ مَحَبَّةَ مَا هُوَ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ، بَلْ تُفَوِّتُ مَحَبَّةَ مَا لَيْسَ لَهُ صَلاَحٌ وَلَا نَعِيمٌ، وَلَا حَيَاةٌ نَافِعَةٌ إِلَّا بِمَحَبَّتِهِ وَحْدَهُ، فَلْيَخْتَرْ أَحَدَى الْمَحَبَّتَيْنِ فَإِنَّهُمَا لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الْقَلْبِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ مِنْهُ، بَلْ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَذَكَرَهُ وَالشُّوقَ إِلَى لِقَائِهِ، ابْتِلَاءً بِمَحَبَّةِ غَيْرِهِ؛ فَيَعْدُبُهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَفِي الْبَرْزَخِ وَفِي الْآخِرَةِ، فَإِمَّا أَنْ يُعْدَبَهُ بِمَحَبَّةِ الْأَوْثَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ الصُّلْبَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ الْمُرْدَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ النُّسَوَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ الْعُشْرَاءِ وَالْإِخْوَانِ، أَوْ بِمَحَبَّةِ مَا دُونَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ فِي غَايَةِ الْحَقَارَةِ وَالْهُوَانِ، فَالْإِنْسَانُ عَبْدٌ مُحَبَّبٌ بِمَحَبَّةِ مَنْ كَانَ، كَمَا قِيلَ:

أَنْتَ الْقَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ... فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الْهُوَى مَنْ تَصْطَفِي

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ إِلَهُهُ مَالِكُهُ وَمَوْلَاهُ، كَانَ إِلَهُهُ هَوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سُورَةُ الْجَاثِيَةِ: ٢٣].

فَصْلٌ

وَخَاصِيَّةُ التَّعْبُدِ: الْحُبُّ مَعَ الْخُضُوعِ، وَالذَّلُّ لِلْمُحْبُوبِ، فَمَنْ أَحَبَّ مَحْبُوبًا وَخَضَعَ لَهُ فَقَدْ تَعَبَّدَ قَلْبُهُ لَهُ، بَلِ التَّعْبُدُ آخِرُ مَرَاتِبِ الْحُبِّ، وَيُقَالُ لَهُ التَّسِيمُ أَيْضًا، فَإِنَّ أَوَّلَ مَرَاتِبِهِ الْعِلَاقَةُ، وَسُمِّيَتْ عِلَاقَةً لِتَعَلُّقِ الْمُحِبِّ بِالْمُحْبُوبِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

وَعُلِّقْتُ لَيْلِي وَهِيَ ذَاتُ تَمَائِمٍ ... وَلَمْ يَبْدُ لِلْأَثْرَابِ مِنْ نَدِيهَا حَجْمٌ

وَقَالَ الْآخَرُ:

أَعْلَاقَةُ أُمِّ الْوَلِيدِ بُعِيدَ مَا ... أَفْنَانُ رَأْسِكَ كَالثَّغَامِ الْمُخْلِسِ

ثُمَّ بَعْدَهَا الصَّبَابَةُ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِإِنْصَابِ الْقَلْبِ إِلَى الْمُحْبُوبِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

تَشَكَّى الْمُحِبُّونَ الصَّبَابَةَ لَيْتِي ... تَحَمَّلْتُ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحَدِي

فَكَانَتْ لِقَلْبِي لَذَّةَ الْحُبِّ كُلِّهَا ... فَلَمْ يَلْقَهَا قَلْبِي مُحِبًُّ وَلَا بَعْدِي

ثُمَّ الْغَرَامُ، وَهُوَ لُزُومُ الْحُبِّ لِلْقَلْبِ لُزُومًا لَا يَنْفَكُ عَنْهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْغَرِيمُ غَرِيبًا؛ لِإِلْزَامِيَّةِ صَاحِبِهِ،

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ٦٥].

وَقَدْ أَوْلَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ بِاسْتِعْمَالِ هَذَا اللَّفْظِ فِي الْحُبِّ، وَقَالَ أَنْ تَجِدَهُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ.

ثُمَّ الْعِشْقُ وَهُوَ إِفْرَاطُ الْمُحِبَّةِ، وَهَذَا لَا يُوصَفُ بِهِ الرَّبُّ، وَلَا يُطْلَقُ فِي حَقِّهِ.

ثُمَّ الشَّوْقُ وَهُوَ سَفَرُ الْقَلْبِ إِلَى الْمُحْبُوبِ أَحْتَّ السَّفَرِ، وَقَدْ جَاءَ إِطْلَاقُهُ فِي حَقِّ الرَّبِّ تَعَالَى كَمَا فِي

مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: أَنَّهُ صَلَّى صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ أَمَا إِنِّي دَعَوْتُ

فِيهَا بِدَعْوَاتِ كَانَ النَّبِيُّ يَدْعُو بِهِنَّ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْسِنِي إِذَا

كَانَتِ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتِكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ،

وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ،

وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَيَّ وَجْهَكَ، وَأَسْأَلُكَ

الشُّوقُ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»^(١).

وَفِي آثَرٍ آخَرَ: «طَالَ شَوْقُ الْأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي، وَأَنَا إِلَى لِقَائِهِمْ أَشَدُّ شَوْقًا».

وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(٢).

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: ٥]: «لَمَّا عَلِمَ سُبْحَانَهُ شِدَّةَ شَوْقِ أَوْلِيَائِهِ إِلَى لِقَائِهِ، وَأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَهْتَدِي دُونَ لِقَائِهِ، ضَرَبَ لَهُمْ أَجَلًا وَمَوْعِدًا لِلِقَائِهِ، وَتَسَكَّنُ نَفْسُهُمْ بِهِ، وَأَطْيَبَ الْعَيْشَ وَالذُّهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ عَيْشَ الْمُحْيِينَ الْمُشْتَاقِينَ الْمُسْتَأْنَسِينَ، فَحَيَاتُهُمْ هِيَ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَلَا حَيَاةَ لِلْقَلْبِ أَطْيَبَ وَلَا أَنْعَمَ وَلَا أَهْنَأَ مِنْهَا، وَهِيَ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ٩٧]، لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهَا الْحَيَاةَ الْمُشْتَرَكَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِ، وَالْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَمَنْ طَيَّبَ الْمَأْكَلَ وَالْمَلْبَسَ وَالْمَشْرَبَ وَالْمَنْكَحَ، بَلْ رَبِّمَا زَادَ أَعْدَاءَ اللَّهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ فِي ذَلِكَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا أَنْ يُحْيِيَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً، فَهُوَ صَادِقُ الْوَعْدِ الَّذِي لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، وَأَيُّ حَيَاةٍ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةٍ مَنْ اجْتَمَعَتْ هُمُومُهُ كُلُّهَا وَصَارَتْ هَمًّا وَاحِدًا فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ؟ وَلَمْ يَتَشَعَّبْ قَلْبُهُ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ، وَاجْتَمَعَتْ إِرَادَتُهُ وَأَفْكَارُهُ الَّتِي كَانَتْ مُتَقَسِّمَةً بِكُلِّ وَادٍ مِنْهَا شُعْبَةً عَلَى اللَّهِ، فَصَارَ ذِكْرُهُ بِمَحْبُوبِهِ الْأَعْلَى وَحُبُّهُ وَالشُّوقُ إِلَى لِقَائِهِ، وَالْأَنْسُ بِقُرْبِهِ هُوَ الْمُسْتَوَلِيُّ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ تَدَوَّرُ

(١) أخرجه أحمد ٤ / ٢٦٤ (١٨٣٢٥). النسائي (١٣٠٦) والطبراني في الدعاء (٦٢٥) وغيرهم، صححه الألباني في

صفة الصلاة الأصل (١٠٠٨/٣).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦٥٠٧)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب من

أحب لقاء الله (٢٦٨٣).

هُمُومُهُ وَإِرَادَتُهُ وَقُصُودُهُ بِكُلِّ خَطَرَاتِ قَلْبِهِ، فَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ بِاللَّهِ، وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ بِاللَّهِ، وَإِنْ سَمِعَ فِيهِ يَسْمَعُ، وَإِنْ أَبْصَرَ فِيهِ يُبْصِرُ، وَبِهِ يَبْطِشُ، وَبِهِ يَمْشِي، وَبِهِ يَسْكُنُ، وَبِهِ يَحْيَا، وَبِهِ يَمُوتُ، وَبِهِ يُعِثُّ، كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا يَرُوي عَنْ رَبِّهِ، أَنَّهُ قَالَ: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ آدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، كَتَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ» (١).

فَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ الْإِلَهِيُّ - الَّذِي حَرَامٌ عَلَى غَلِيظِ الطَّنَعِ كَسِيفِ الْقَلْبِ فَهَمُّ مَعْنَاهُ وَالْمُرَادُ بِهِ - حَصَرَ أَسْبَابَ مَحَبَّتِهِ فِي أَمْرَيْنِ: آدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ.

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ آدَاءَ فَرَائِضِهِ أَحَبُّ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ الْمُتَقَرَّبُونَ، ثُمَّ بَعْدَهَا النَّوَافِلُ، وَأَنَّ الْمَحِبَّ لَا يَزَالُ يَكْتُرُ مِنَ النَّوَافِلِ حَتَّى يَصِيرَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ، فَإِذَا صَارَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ أَوْجِبَتْ مَحَبَّتُهُ لِلَّهِ لَهُ مَحَبَّةٌ أُخْرَى مِنْهُ فَوْقَ الْمَحَبَّةِ الْأُولَى، فَشَعَلَتْ هَذِهِ الْمَحَبَّةُ قَلْبَهُ عَنِ الْفِكْرَةِ وَالِإِهْتِمَامِ بِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ، وَمَلَكَتْ عَلَيْهِ رُوحَهُ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ سِعَةٌ لِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ أَلْبَتَّةَ، فَصَارَ ذِكْرُ مَحْبُوبِهِ وَحُبُّهُ وَمِثْلُهُ الْأَعْلَى، وَمَالِكًا لِرِمَامِ قَلْبِهِ مُسْتَوِيًّا عَلَى رُوحِهِ اسْتِبْلَاءَ الْمَحْبُوبِ عَلَى مَحَبَّةِ الصَّادِقِ فِي مَحَبَّتِهِ، الَّتِي قَدِ اجْتَمَعَتْ قُوَى مَحَبَّةٍ حُبِّهَا كُلُّهَا لَهُ.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢)، ما عدا قوله: "فبي يسمع... وببي يمشي". وبهذه الزيادة نقله المؤلف من رواية البخاري في روضة المحبين (٥٥٤) والمدارج (٢/٤١٣)، وكذا شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٥/٥١١) وغيره. قال الألباني: "لم أر هذه الزيادة عند البخاري ولا عند غيره ممن ذكرنا من المخرجين، وقد ذكرها الحافظ في أثناء شرحه للحديث نقلاً عن الطوفي ولم يعزها لأحد". سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/١٩١).

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْمُحِبَّ إِنْ سَمِعَ سَمِعَ بِمُحِبُّوهِ، وَإِنْ أَبْصَرَ أَبْصَرَ بِهِ، وَإِنْ بَطَّشَ بَطَّشَ بِهِ، وَإِنْ مَشَى مَشَى بِهِ، فَهُوَ فِي قَلْبِهِ وَمَعَهُ وَأَنْبَسَهُ وَصَاحِبُهُ، فَالْبَاءُ هَاهُنَا لِلْمُصَاحِبَةِ، وَهِيَ مُصَاحِبَةٌ لَا نَظِيرَ لَهَا، وَلَا تُدْرِكُ بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ عَنْهَا وَالْعِلْمِ بِهَا، فَالْمَسْأَلَةُ حَالِيَّةٌ لَا عِلْمِيَّةٌ مُحَضَّةٌ.

وَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوقُ يَجِدُ هَذَا فِي مَحَبَّةِ الْمَخْلُوقِ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ لَهَا وَلَمْ يُفْطَرْ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ:

حَيَّاكَ فِي عَيْنِي وَذَكَرَكَ فِي فَمِي... وَمَثْوَاكَ فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ

وَقَالَ الْآخَرُ:

وَمَنْ عَجَبَ أَنِّي أَحْنُ إِلَيْهِمْ... فَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا... وَيَسْتَأْفُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْغَعِي

وَهَذَا الْأَطْفُ مِنْ قَوْلِ الْآخَرِ:

إِنْ قُلْتُ غَيْبَ قَلْبِي لَا يُصَدِّقُنِي... إِذْ أَنْتَ فِيهِ مَكَانَ السِّرِّ لَمْ تَغِيبِ

أَوْ قُلْتُ مَا غَيْبَ قَالَ الطَّرْفُ ذَا كَذِبٍ... فَقَدْ تَحَيَّرْتُ بَيْنَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ

فَلَيْسَ شَيْءٌ أَذْنَى إِلَى الْمُحِبِّ مِنْ مَحْبُوبِهِ، وَرَبِّمَا تَمَكَّنْتَ مِنْهُ الْمَحَبَّةُ، حَتَّى يَصِيرَ أَذْنَى إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ،
بِحَيْثُ يَنْسَى نَفْسَهُ وَلَا يَنْسَاهُ، كَمَا قَالَ:

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا... مُثَمِّلٌ لِي لَيْلِي بِكُلِّ سَبِيلِ

وَقَالَ الْآخَرُ:

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نَسْيَانُكُمْ... وَتَأْبَى الطَّبَّاعُ عَلَى النَّاقِلِ

وَخَصَّ فِي الْحَدِيثِ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْيَدَ وَالرَّجْلَ بِالذِّكْرِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَلَاتِ الْأَلَاتِ الْإِدْرَاكِ وَالْأَلَاتِ الْفِعْلِ، وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ يُوردَانِ عَلَى الْقَلْبِ الْإِرَادَةَ وَالْكَرَاهَةَ، وَيَجْلِبَانِ إِلَيْهِ الْحُبَّ وَالْبُغْضَ، فَيَسْتَعْمَلُ الْيَدَ وَالرَّجْلَ، فَإِذَا كَانَ سَمْعُ الْعَبْدِ بِاللَّهِ، وَبَصَرُهُ بِاللَّهِ كَانَ مُحْفُوظًا فِي الْأَلَاتِ إِدْرَاكِهِ، وَكَانَ مُحْفُوظًا فِي حُبِّهِ وَبُغْضِهِ، فَحَفِظَ فِي بَطْشِهِ وَمَشْيِهِ.

وَتَأْمَلُ كَيْفَ اكْتَفَى بِذِكْرِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْيَدِ وَالرَّجْلِ عَنِ اللِّسَانِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ إِدْرَاكُ السَّمْعِ الَّذِي يَحْصُلُ بِاخْتِيَارِهِ تَارَةً، وَبِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ تَارَةً، وَكَذَلِكَ الْبَصَرُ قَدْ يَقَعُ بِغَيْرِ الْإِخْتِيَارِ فَجَاءَ، وَكَذَلِكَ حَرَكَةُ الْيَدِ وَالرَّجْلِ الَّتِي لَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْهَا، فَكَيْفَ بِحَرَكَةِ اللِّسَانِ الَّتِي لَا تَقَعُ إِلَّا بِقَصْدٍ وَاخْتِيَارٍ؟ وَقَدْ يَسْتَعْنِي الْعَبْدُ عَنْهَا إِلَّا حَيْثُ أَمَرَ بِهَا.

وَأَيْضًا فَانْفَعَالَ اللِّسَانِ عَنِ الْقَلْبِ أَنْتُمْ مِنْ أَنْفَعَالِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ، فَإِنَّهُ تَرْجُمَانُهُ وَرَسُولُهُ.

وَتَأْمَلُ كَيْفَ حَقَّقَ تَعَالَى كَوْنَ الْعَبْدِ بِهِ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَبَطْشُهُ وَمَشْيُهُ بِقَوْلِهِ: "كُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا" تَحْقِيقًا لِكَوْنِهِ مَعَ عَبْدِهِ، وَكَوْنِ عَبْدِهِ فِي إِدْرَاكَاتِهِ، بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَحَرَكَاتِهِ بِيَدَيْهِ وَرِجْلِهِ.

وَتَأْمَلُ كَيْفَ قَالَ: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ» وَلَمْ يَقُلْ: فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَرَبِّمَا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ اللَّامَ أَوْلَى بِهَذَا الْمَوْضِعِ، إِذْ هِيَ أَدْلُ عَلَى الْعَايَةِ، وَوُقُوعُ هَذِهِ الْأُمُورِ لِلَّهِ، وَذَلِكَ أَحْصَى مِنْ وُقُوعِهَا بِهِ، وَهَذَا مِنَ الْوَهْمِ وَالْغَلْطِ، إِذْ لَيْسَتْ الْبَاءُ هَاهُنَا بِمُجَرَّدِ الْإِسْتِعَانَةِ، فَإِنَّ حَرَكَاتِ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ وَإِدْرَاكَاتِهِمْ إِنَّمَا هِيَ بِمَعُونَةِ اللَّهِ هُمْ، وَإِنَّ الْبَاءَ هَاهُنَا لِلْمَصَاحِيَةِ، أَي: إِنَّمَا يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَبْطِشُ وَيَمْشِي

وَأَنَا صَاحِبُهُ مَعَهُ، كَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»^(١) وَهَذِهِ هِيَ الْمَعِيَّةُ الْخَاصَّةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٤٠].
 وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا ظَنَنْكَ بِأَثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا»، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: ٦٩].

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ١٢٨].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ٤٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [سُورَةُ الشُّعْرَاءِ: ٦٢].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [سُورَةُ طه: ٤٦].

فَهَذِهِ الْبَاءُ مُفِيدَةٌ لِمَعْنَى هَذِهِ الْمَعِيَّةِ دُونَ اللَّامِ، وَلَا يَتَأْتِي لِلْعَبْدِ الْإِخْلَاصُ وَالصَّبْرُ وَالتَّوَكُّلُ، وَنَزُولُهُ فِي مَنَازِلِ الْعِبُودِيَّةِ إِلَّا بِهَذِهِ الْبَاءِ وَهَذِهِ الْمَعِيَّةِ.

فَمَتَى كَانَ الْعَبْدُ بِاللَّهِ هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَشَاقُّ، وَانْقَلَبَتِ الْمُخَافَةُ فِي حَقِّهِ، فَبِاللَّهِ يَهُونُ كُلُّ صَعْبٍ، وَيَسْهُلُ كُلُّ عَسِيرٍ، وَيَقْرُبُ كُلُّ بَعِيدٍ، وَبِاللَّهِ تَزُولُ الْهُمُومُ وَالْغُمُومُ وَالْأَحْزَانُ، فَلَا هَمَّ مَعَ اللَّهِ، وَلَا غَمَّ

(١) أخرجه البخاري تعليقا من حديث أبي هريرة في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ وفعل النبي ﷺ حيث ينزل عليه الوحي. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٥٦) وأحمد ٥٤٠ / ٢ (١٠٩٧٥، ١٠٩٧٦) والبخاري في خلق أفعال العباد (٤٣٦) وابن حبان في صحيحه (٨١٥) والطبراني في مسند الشاميين (١٤١٧) والبيهقي في الشعب (٥٠٦، ٥٠٧) وابن عساكر (٧٠ / ٥٠ - ٥١) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٩٠).

وَلَا حَزَنَ إِلَّا حَيْثُ يَمُوتُهُ الْعَبْدُ مَعْنَى هَذِهِ الْبَاءِ، فَيَصِيرُ قَلْبُهُ حَيْثُ كَالْحَوْتِ، إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ يَثْبُ وَيَنْقَلِبُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ.

وَلَمَّا حَصَلَتْ هَذِهِ الْمُوَافَقَةُ مِنَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ فِي مَحَابِّهِ؛ حَصَلَتْ مُوَافَقَةُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ فِي حَوَائِجِهِ وَمَطَالِبِهِ، فَقَالَ: «وَلَيْنَ سَأَلْنِي لِأَعْطَيْتَهُ، وَلَيْنَ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيدَنَّهُ»، أَي: كَمَا وَافَقَنِي فِي مُرَادِي بِأَمْتِثَالِ أَوْامِرِي وَالتَّقَرُّبِ بِمَحَابِِّي، فَأَنَا أَوْافِقُهُ فِي رَغْبَتِهِ وَرَهْبَتِهِ فِيمَا يَسْأَلُنِي أَنْ أَفْعَلَهُ بِهِ، وَيَسْتَعِينُنِي أَنْ يَنَالَهُ، وَقَوِي أَمْرُ هَذِهِ الْمُوَافَقَةِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ حَتَّى اقْتَضَى تَرَدُّدُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فِي إِمَاتَةِ عَبْدِهِ؛ لِأَنَّهُ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ عَبْدُهُ، وَيَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ، فَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُمَيِّتَهُ وَلَكِنَّ مَصْلَحَتَهُ فِي إِمَاتَتِهِ، فَإِنَّهُ مَا أَمَاتَهُ إِلَّا لِحَيِّئِهِ، وَلَا أَمْرَضَهُ إِلَّا لِصِحَّتِهِ، وَلَا أَفْقَرَهُ إِلَّا لِغِنِيِّهِ، وَلَا مَنَعَهُ إِلَّا لِإِعْطَائِهِ، وَلَمْ يُخْرِجْ مِنَ الْجَنَّةِ فِي صُلْبِ أَبِيهِ إِلَّا لِإِعِيدَهُ إِلَيْهَا عَلَى أَحْسَنِ أَحْوَالِهِ، وَلَمْ يَقُلْ لِأَبِيهِ أَخْرِجْ مِنْهَا إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُعِيدَهُ إِلَيْهَا، فَهَذَا هُوَ الْحَيِّبُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا سِوَاهُ، بَلْ لَوْ كَانَ فِي كُلِّ مَنَبَتِ شَعْرَةٍ مِنَ الْعَبْدِ مَحَبَّةٌ تَامَّةٌ لِلَّهِ، لَكَانَ بَعْضُ مَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَى عَبْدِهِ.

نَقْلُ فَوَادِكِ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهُوَى ... مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَيِّبِ الْأَوَّلِ

كَمْ مَنَزَلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى ... وَحَيْنَهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنَزَلٍ

فَصْلٌ

ثُمَّ التَّيِّمُ، وَهُوَ آخِرُ مَرَاتِبِ الْحُبِّ، وَهُوَ تَعَبُّدُ الْمُحِبِّ لِمُحْبُوهِهِ، يُقَالُ تَيَّمَهُ الْحُبُّ، إِذَا عَبَدَهُ، وَمِنْهُ: تَيَّمُ اللَّهُ، أَيِ عَبْدُ اللَّهِ، وَحَقِيقَةُ التَّعَبُّدِ: الدُّلُّ وَالْخُضُوعُ لِلْمُحْبُوبِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: طَرِيقُ مُعَبَّدٍ أَيِ مُدَلَّلٍ، قَدْ ذَلَّلَتْهُ الْأَقْدَامُ، فَالْعَبْدُ هُوَ الَّذِي ذَلَّلَهُ اللَّهُ الْحُبُّ وَالْخُضُوعُ لِمُحْبُوهِهِ، وَهَذَا كَانَتْ أَشْرَفُ أَحْوَالِ الْعَبْدِ وَمَقَامَاتِهِ فِي الْعِبُودِيَّةِ، فَلَا مَنَزَلٌ لَهُ أَشْرَفُ مِنْهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَيْهِ وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ، وَهُوَ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْعِبُودِيَّةِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ، وَهِيَ مَقَامُ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَمَقَامُ التَّحَدِّيِّ بِالنُّبُوَّةِ، وَمَقَامُ الْإِسْرَاءِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [سُورَةُ الْجِنِّ: ١٩].

وَقَالَ: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٣].
وَقَالَ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ١].

حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ: «اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدُ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»^(١)، فَنَالَ مَقَامَ الشَّفَاعَةِ بِكَمَالِ عِبُودِيَّتِهِ، وَكَمَالِ مَغْفَرَةِ اللَّهِ لَهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ وَوَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ الْمُحِبَّةِ مَعَ أَكْمَلِ أَنْوَاعِ الْخُضُوعِ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْإِسْلَامِ وَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي مَنْ رَغِبَ عَنْهَا فَقَدْ سَفِهَ نَفْسَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِهَابًا وَإِحْدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٣٠ - ١٣٣].

ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به.

وأصل الشرك بالله الإِشْرَاقُ به في المحبة كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٦٥].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِكُ بِهِ نِدَاءً يُحِبُّهُ كَمَا يُحِبُّ اللَّهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ أَصْحَابِ الْأَنْدَادِ لِأَنْدَادِهِمْ.

وَقِيلَ: بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ أَحَبُّوا اللَّهَ، لَكِنْ لَمَّا شَرِكُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْدَادِهِمْ فِي الْمَحَبَّةِ ضَعُفَتْ مَحَبَّتُهُمْ لِلَّهِ، وَالْمُوحِّدُونَ لِلَّهِ لَمَّا خَلَصَتْ مَحَبَّتُهُمْ لَهُ كَانَتْ أَشَدَّ مِنْ مَحَبَّةِ أَوْلِيائِكَ، وَالْعَدْلُ بَرُّ الْعَالَمِينَ، وَالتَّسْوِيَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْدَادِ هُوَ فِي هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَلَمَّا كَانَ مُرَادُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ خُلُوصَ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ لَهُ، أَنْكَرَ عَلَى مَن اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ وَلِيًّا أَوْ شَفِيعًا غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَجَمَعَ ذَلِكَ تَارَةً، وَإِفْرَادًا أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: ٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَةِ: ٤].

وَقَالَ فِي الْإِفْرَادِ: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَآ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ - قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: ٤٣ - ٤٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُجْشِرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ٥١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سُورَةُ الْجَانَّةِ: ١٠].

فَإِذَا وَلَّى الْعَبْدُ رَبَّهُ وَحْدَهُ أَقَامَ لَهُ الشُّفَعَاءَ، وَعَقَدَ الْمَوَالَاةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَصَارُوا أَوْلِيَاءَهُ فِي اللَّهِ، بِخِلَافٍ مَنِ اتَّخَذَ مَخْلُوقًا وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ. فَهَذَا لَوْنٌ وَذَلِكَ لَوْنٌ، كَمَا أَنَّ الشَّفَاعَةَ الشَّرِكِيَّةَ الْبَاطِلَةَ لَوْنٌ، وَالشَّفَاعَةَ الْحَقَّ الثَّابِتَةَ الَّتِي إِنَّمَا تُنَالُ بِالتَّوْحِيدِ لَوْنٌ، وَهَذَا مَوْضِعُ فُرْقَانٍ بَيْنَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَأَهْلِ الْإِشْرَاكِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ لَا تَحْصُلُ مَعَ الْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ فِي الْمَحَبَّةِ، بِخِلَافِ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ، فَإِنَّهَا مِنْ لَوَازِمِ الْعُبُودِيَّةِ وَمُوجِبَاتِهَا، فَإِنَّ مَحَبَّةَ الرَّسُولِ - بَلْ تَقْدِيمُهُ فِي الْحُبِّ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ - لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهَا، إِذْ مَحَبَّتُهُ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ حُبٍّ فِي اللَّهِ وَاللَّهُ، كَمَا فِي الصَّحِيحِينَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بَيْنَ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ»، وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحِينَ: «لَا يَجِدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَنْ كَانَ فِيهِ ثَلَاثٌ خِصَالٍ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجَعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١٦)، باللفظ الأول، وفي الأدب، باب الحب في الله (٦٠٤١) باللفظ الثاني؛ ومسلم في الإيمان، باب خصال من اتصف بمن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي السُّنَنِ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»^(١).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَا تَحَبَّ رَجُلَانِ فِي اللَّهِ إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ»^(٢).
فَإِنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُوجِبَاتِهَا، وَكُلَّمَا كَانَتْ أَقْوَى كَانَ أَصْلُهَا كَذَلِكَ.
فَصَلِّ

وَهَاهُنَا أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَحَبَّةِ يَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَهَا، وَإِنَّمَا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ بَعْدَمِ التَّمْيِيزِ بَيْنَهَا.
أَحَدُهَا: مَحَبَّةُ اللَّهِ، وَلَا تَكْفِي وَحْدَهَا فِي النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَالْفَوْزِ بِثَوَابِهِ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَعِبَادَ الصَّلِيبِ وَالْيَهُودَ وَغَيْرَهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ.

الثَّانِي: مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّ اللَّهُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُدْخِلُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَتُخْرِجُهُ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَقْوَمُهُمْ بِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَأَشَدَّهُمْ فِيهَا.

الثَّلَاثُ: الْحُبُّ لِلَّهِ وَفِيهِ، وَهِيَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّةِ مَا يُحِبُّ، وَلَا تَسْتَقِيمُ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّ إِلَّا فِيهِ وَلَهُ.

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨١) والطبراني (٨ / رقم ٧٧٣٧) والبخاري في شرح السنة (١٣ / رقم ٣٤٦٩) واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٦١٨) وغيرهم من طريق يحيى بن الحارث الذماري عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة فذكره مرفوعاً. وصححه الألباني في الصحيحة (٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٤) والطيالسي في مسنده (٢١٦٦) وابن حبان في صحيحه (٥٦٦) والبخاري في مسنده (١٣ / رقم ٦٨٦٩) والحاكم ٤ / ١٨٩ (٧٣٢١) وغيرهم من طريق مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس مرفوعاً فذكره. والحديث صححه ابن حبان والحاكم. وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥٠).

الرَّابِعُ: الْمَحَبَّةُ مَعَ اللَّهِ، وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الشَّرِكِيَّةُ، وَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مَعَ اللَّهِ لَا لِلَّهِ، وَلَا مِنْ أَجْلِهِ، وَلَا فِيهِ، فَقَدْ اتَّخَذَهُ نِدًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهَذِهِ مَحَبَّةُ الْمُشْرِكِينَ.

وَبَقِيَ قِسْمٌ خَامِسٌ لَيْسَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ: وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ، وَهِيَ مَيْلُ الْإِنْسَانِ إِلَى مَا يُلَائِمُّ طَبْعَهُ، كَمَحَبَّةِ الْعَطْشَانِ لِلْمَاءِ، وَالْجَائِعِ لِلطَّعَامِ، وَمَحَبَّةِ النَّوْمِ وَالزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ، فَتِلْكَ لَا تُدْمُّ إِلَّا إِذَا أَهْتُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَشَغَلَتْ عَنْ مَحَبَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ: ٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٣٧].

فَصْلٌ

ثُمَّ الْخُلَّةُ وَهِيَ تَتَّصَمَنُ كَمَا لَ الْمَحَبَّةُ وَنَهَائِيَّتَهَا، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى فِي الْقَلْبِ سَعَةٌ لِغَيْرِ مَحْبُوبِهِ، وَهِيَ مَنْصِبٌ لَا يَقْبَلُ الْمُشَارَكَةَ بِوَجْهِ مَا، وَهَذَا الْمَنْصِبُ خَاصٌّ لِلْخَلِيلَيْنِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا - : إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ، كَمَا قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(١).

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»^(٢).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِي»^(٣) وَلَمَّا سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ الْوَلَدَ فَأَعْطِيَهُ، وَتَعَلَّقَ حُبَّهُ بِقَلْبِهِ، فَأَخَذَ مِنْهُ شُعْبَةً، غَارَ الْحَبِيبُ عَلَى خَلِيلِهِ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ لِغَيْرِهِ، فَأَمَرَهُ بِذَبْحِهِ، وَكَانَ الْأَمْرُ

(١) أخرجه مسلم في المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٥٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٢٣٨٣).

(٣) السابق.

فِي الْمَنَامِ لِيَكُونَ تَنْفِيذُ الْمَأْمُورِ بِهِ أَعْظَمَ اِتِّبَاءً وَامْتِحَانًا، وَلَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ ذَبْحَ الْوَلَدِ، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ ذَبْحَهُ مِنْ قَلْبِهِ؛ لِيَخْلُصَ الْقَلْبُ لِلرَّبِّ، فَلَمَّا بَادَرَ الْخَلِيلُ إِلَى الْاِمْتِحَانِ، وَقَدَّمَ مَحَبَّةَ اللَّهِ عَلَى مَحَبَّةِ وَلَدِهِ، حَصَلَ الْمَقْصُودُ فَرَفَعَ الذَّبْحَ، وَفَدِيَ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى مَا أَمَرَ بِشَيْءٍ، ثُمَّ أَبْطَلَهُ رَأْسًا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَبْقِيَ بَعْضُهُ أَوْ بَدَلُهُ، كَمَا أَبْقَى شَرِيعَةَ الْفِدَاءِ، وَكَمَا أَبْقَى اسْتِحْبَابَ الصَّدَقَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْمُنَاجَاةِ، وَكَمَا أَبْقَى الْخُمْسَ الصَّلَوَاتِ بَعْدَ رَفْعِ الْخُمْسِينَ وَأَبْقَى ثَوَابَهَا، وَقَالَ: «وَلَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، هِيَ خُمْسٌ فِي الْفِعْلِ، وَهِيَ خُمْسُونَ فِي الْأَجْرِ»^(١).

فَصْلٌ

وَأَمَّا مَا يَطْنُهُ بَعْضُ الْغَالِطِينَ - أَنَّ الْمَحَبَّةَ أَكْمَلُ مِنَ الْخُلَّةِ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ، وَمُحَمَّدًا حَبِيبُ اللَّهِ - فَمِنْ جَهْلِهِ، فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ عَامَّةً، وَالْخُلَّةَ خَاصَّةً، وَالْخُلَّةَ نِهَايَةَ الْمَحَبَّةِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ أَخَذَهُ خَلِيلًا كَمَا أَخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ خَلِيلٌ غَيْرُ رِيٍّ مَعَ إِخْبَارِهِ بِحُبِّهِ لِعَائِشَةَ وَلَا يَبِيهَا وَلِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَغَيْرِهِمْ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٢٢].

وَ ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٤٦].

وَ ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٤٨].

وَ ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٢].

(١) جزء من حديث الإسراء، أخرجه البخاري في أول كتاب الصلاة (٣٤٩)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء

(١٦٣) عن أنس بن مالك.

وَالشَّابُّ النَّائِبُ حَيْبُ اللَّهِ، وَخَلَّتْهُ خَاصَّةٌ بِالخَلِيلَيْنِ، وَإِنَّمَا هَذَا مِنْ قِلَّةِ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ ﷺ.

فَصْلٌ

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَتْرُكُ مَا يُحِبُّهُ وَيَهْوَاهُ، وَلَكِنْ يَتْرُكُ أَوْضَعَهَا حُبَّةً لِأَقْوَاهِمَا حُبَّةً، كَمَا أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا
يَكْرَهُهُ؛ لِحُصُولِ مَا مُحِبَّتُهُ أَقْوَى عِنْدَهُ مِنْ كَرَاهَةِ مَا يَفْعَلُهُ، أَوْ لِخَلَاصِهِ مِنْ مَكْرُوهِ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ خَاصِيَّةَ الْعَقْلِ إِثَارُ أَعْلَى الْمُحْبُوبِينَ عَلَى أَدْنَاهُمَا، وَأَيْسَرِ الْمَكْرُوهِينَ عَلَى أَقْوَاهُمَا، وَتَقَدَّمَ أَنَّ
هَذَا مِنْ كَمَالِ قُوَّةِ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ.

وَلَا يَتِمُّ لَهُ هَذَا إِلَّا بِأَمْرَيْنِ: قُوَّةِ الْإِدْرَاكِ، وَشَجَاعَةِ الْقَلْبِ، فَإِنَّ التَّخَلُّفَ عَنِ ذَلِكَ وَالْعَمَلَ بِخِلَافِهِ
يَكُونُ إِذَا لُضِعَ الْإِدْرَاكُ بِحَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ مَرَاتِبَ الْمُحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، إِذَا لُضِعَ
فِي النَّفْسِ، وَعَجَزَ فِي الْقَلْبِ، بِحَيْثُ لَا يُطَاوَعُهُ عَلَى إِثَارِ الْأَصْلِحِ؛ لِرَفْعِ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ الْأَصْلِحُ، فَإِذَا صَحَّ
إِدْرَاكُهُ، وَقَوِيَتْ نَفْسُهُ، وَتَشَجَّعَ قَلْبُهُ عَلَى إِثَارِ الْمُحْبُوبِ الْأَعْلَى وَالْمَكْرُوهِ الْأَدْنَى فَقَدْ وَفَّقَ لِأَسْبَابِ
السَّعَادَةِ.

فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ شَهْوَتِهِ أَقْوَى مِنْ سُلْطَانِ عَقْلِهِ وَإِيمَانِهِ، فَيَقْهَرُ الْعَالِبُ الضَّعِيفَ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ سُلْطَانُ إِيْمَانِهِ وَعَقْلِهِ أَقْوَى مِنْ سُلْطَانِ شَهْوَتِهِ، وَإِذَا كَانَ كَثِيرًا مِنَ الْمَرْضَى يَحْمِيهِ
الطَّبِيبُ عَمَّا يَضُرُّهُ، فَتَأْتِي عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَشَهْوَتُهُ إِلَّا تَنَاوَلَهُ، وَيَقْدَمُ شَهْوَتُهُ عَلَى عَقْلِهِ، وَتُسَمِّيهِ الْأَطْبَاءُ:
عَدِيمَ الْمُرُوءَةِ، فَهَكَذَا أَكْثَرُ مَرْضَى الْقُلُوبِ يُؤَثِّرُونَ مَا يَزِيدُ مَرَضَهُمْ، لِقُوَّةِ شَهْوَتِهِمْ لَهُ.

فَأَصْلُ الشَّرِّ مِنْ ضَعْفِ الْإِدْرَاكِ وَضَعْفِ النَّفْسِ وَدَنَاءَتِهَا، وَأَصْلُ الْخَيْرِ مِنْ كَمَالِ الْإِدْرَاكِ وَقُوَّةِ
النَّفْسِ وَشَرَفِهَا وَشَجَاعَتِهَا.

فَالْحُبُّ وَالْإِرَادَةُ أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ وَمَبْدُؤُهُ، وَالْبُغْضُ وَالْكَرَاهَةُ أَصْلُ كُلِّ تَرْكِ وَمَبْدُؤُهُ، وَهَاتَانِ الْقَوَاتَانِ فِي الْقَلْبِ، أَصْلُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ وَشَقَاوَتِهِ.

وَوُجُودُ الْفِعْلِ الْإِخْتِيَارِيُّ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوُجُودِ سَبَبِهِ مِنَ الْحُبِّ وَالْإِرَادَةِ.

وَأَمَّا عَدَمُ الْفِعْلِ: فَتَارَةٌ يَكُونُ لِعَدَمِ مُقْتَضِيهِ وَسَبَبِهِ، وَتَارَةٌ يَكُونُ لَوُجُودِ الْبُغْضِ وَالْكَرَاهَةِ الْمَانِعَةِ مِنْهُ، وَهَذَا مُتَعَلِّقُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى الْكَفِّ، وَهُوَ مُتَعَلِّقُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَبِهَذَا يَزُولُ الْإِشْتِبَاهُ فِي مَسْأَلَةِ التَّرْكِ وَهَلْ هُوَ أَمْرٌ وَجُودِيٌّ أَوْ عَدَمِيٌّ؟ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ قَسَمَانِ: فَالتَّرْكِ الْمُضَافُ إِلَى عَدَمِ السَّبَبِ الْمُقْتَضِي عَدَمِيٌّ، وَالْمُضَافُ إِلَى السَّبَبِ الْمَانِعِ مِنَ الْفِعْلِ وَجُودِيٌّ.

فَصْلٌ

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ الْإِخْتِيَارِيِّينِ إِنَّمَا يُؤَثِّرُهُ الْحَيُّ لِمَا فِيهِ مِنْ حُصُولِ الْمُنْفَعَةِ الَّتِي يَلْتَدُّ بِحُصُولِهَا، أَوْ زَوَالِ الْأَلَمِ الَّذِي يَخْصُلُ لَهُ الشِّفَاءُ بِزَوَالِهِ، وَهَذَا يُقَالُ: شَفَى صَدْرَهُ، وَشَفَى قَلْبَهُ، وَقَالَ:

هِيَ الشِّفَاءُ لِذَائِي لَوْ ظَفَرْتُ بِهَا... وَكَيْسَ مِنْهَا شِفَاءُ الدَّاءِ مَبْدُؤٌ

وَهَذَا مَطْلُوبٌ يُؤَثِّرُهُ الْعَاقِلُ بِلِ الْحَيَوَانَ الْبَهِيمِ، وَلَكِنْ يَغْلُطُ فِيهِ أَكْثَرُ النَّاسِ غَلْطًا قَبِيحًا، فَيَقْصِدُ حُصُولَ اللَّذَّةِ بِمَا يُعَقَّبُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الْأَلَمِ، فَيُؤَلِّمُ نَفْسَهُ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ أَنَّهُ يُحْصَلُ لَذَّتُهَا، وَيَشْفِي قَلْبَهُ بِمَا يُعَقَّبُ عَلَيْهِ غَايَةَ الْمَرَضِ، وَهَذَا شَأْنٌ مِنْ قَصْرِ نَظَرِهِ عَلَى الْعَاجِلِ وَلَمْ يَلَاحِظِ الْعَوَاقِبَ، وَخَاصَّةً الْعَقْلَ النَّاطِقِ فِي الْعَوَاقِبِ، فَأَعْقَلَ النَّاسِ مَنْ آتَرَ لَذَّتَهُ وَرَاحَتَهُ فِي الْأَجَلَةِ الدَّائِمَةِ عَلَى الْعَاجِلَةِ الْمُنْقِضَةِ الزَّائِلَةِ، وَأَسْفَهُ الْخَلْقِ مَنْ بَاعَ نَعِيمَ الْأَيْدِ وَطَيْبَ الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَاللَّذَّةَ الْعُظْمَى الَّتِي لَا تَنْغِيصُ فِيهَا وَلَا تَقْصُ بِوَجْهِ مَا، بِلَذَّةٍ مُنْقِضِيَّةٍ مَشُوبَةٍ بِالْأَلَامِ وَالْمَخَافِ، وَهِيَ سَرِيعَةُ الزَّوَالِ وَشَيْكَةِ الْإِنْقِضَاءِ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: فَكَّرْتُ فِيمَا يَسْعَى فِيهِ الْعُقَلَاءُ، فَرَأَيْتُ سَعِيَهُمْ كُلَّهُمْ فِي مَطْلُوبٍ وَاحِدٍ وَإِنْ اِخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَحْصِيلِهِ، رَأَيْتُهُمْ جَمِيعُهُمْ إِنَّمَا يَسْعَوْنَ فِي دَفْعِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ عَن نَفْسِهِمْ، فَهَذَا بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَهَذَا بِالتَّجَارَةِ وَالْكَسْبِ، وَهَذَا بِالنِّكَاحِ، وَهَذَا بِسَمَاعِ الْغِنَاءِ وَالْأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ، وَهَذَا بِاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، فَقُلْتُ: هَذَا الْمَطْلُوبُ مَطْلُوبُ الْعُقَلَاءِ، وَلَكِنَّ الطَّرِيقَ كُلَّهَا غَيْرُ مَوْصَلَةٍ إِلَيْهِ، بَلْ لَعَلَّ أَكْثَرَهَا إِنَّمَا يُوصِلُ إِلَى ضِدِّهِ، وَلَمْ أَرِ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الطَّرِيقِ طَرِيقًا مَوْصَلَةً إِلَيْهِ إِلَّا الْإِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمُعَامَلَتَهُ وَحْدَهُ، وَإِثَارَ مَرْضَاتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

فَإِنَّ سَأَلَكَ هَذَا الطَّرِيقِ إِنْ فَاتَهُ حَظُّهُ مِنَ الدُّنْيَا فَقَدْ ظَفَرَ بِالْحِظِّ الْعَالِي الَّذِي لَا قُوَّةَ مَعَهُ، وَإِنْ حَصَلَ لِلْعَبْدِ حَصَلٌ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِنْ فَاتَهُ فَاتَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِنْ ظَفَرَ بِحَظِّهِ مِنَ الدُّنْيَا نَالَ عَلَى أَهْنِ الْوُجُوهِ، فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْفَعُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَلَا أَوْصَلُ مِنْهَا إِلَى لَذَّتِهِ وَبَهْجَتِهِ وَسَعَادَتِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

فَصْلٌ

وَالْمُحْبُوبُ قِسْمَانِ: مُحْبُوبٌ لِنَفْسِهِ، وَمُحْبُوبٌ لِغَيْرِهِ، وَالْمُحْبُوبُ لِغَيْرِهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَهِيَ إِلَى الْمُحْبُوبِ لِنَفْسِهِ، دَفْعًا لِلتَّسَلُّسِلِ الْمُحَالِ، وَكُلُّ مَا سِوَى الْمُحْبُوبِ الْحَقِّ فَهُوَ مُحْبُوبٌ لِغَيْرِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُحِبُّ لِدَاتِهِ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مِمَّا يُحِبُّ فَإِنَّمَا مَحَبَّتُهُ تَبِعَ لِمَحَبَّةِ الرَّبِّ، كَمَحَبَّةِ مَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، فَإِنَّمَا تَبِعَ لِمَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَهِيَ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّتِهِ، فَإِنَّ مَحَبَّةَ الْمُحْبُوبِ تُوجِبُ مَحَبَّةَ مَا يُحِبُّهُ، وَهَذَا مَوْضِعُ يُحِبُّ الْإِعْتِنَاءَ بِهِ، فَإِنَّهُ مَحَلُّ فُرْقَانٍ بَيْنَ الْمَحَبَّةِ النَّافِعَةِ لِغَيْرِهِ، وَالَّتِي لَا تَنْفَعُ بَلْ قَدْ تَضُرُّ.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ لِدَاتِهِ إِلَّا مَنْ كَانَ كَمَا لَهُ مِنْ لَوَازِمِ دَاتِهِ، وَإِلَهِيَّتُهُ وَرُبُوبِيَّتُهُ وَغِنَاهُ مِنْ لَوَازِمِ دَاتِهِ، وَمَا سِوَاهُ فَإِنَّمَا يُبْغِضُ وَيُكْرَهُ لِمُنَافَاتِهِ مَحَابَّهُ وَمُضَادَّتِهِ لَهَا، وَبُغْضُهُ وَكَرَاهَتُهُ بِحَسَبِ قُوَّةِ هَذِهِ الْمُنَافَاةِ وَضَعْفِهَا، فَمَا كَانَ أَشَدَّ مُنَافَاةً لِمَحَابِّهِ، كَانَ أَشَدَّ كَرَاهَةً مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَالْإِرَادَاتِ وَغَيْرِهَا، فَهَذَا مِيزَانٌ عَادِلٌ تُوزَنُ بِهِ مَوَافَقَةُ الرَّبِّ وَمُخَالَفَتُهُ وَمُؤَالَاتُهُ وَمُعَادَاتُهُ، فَإِذَا رَأَيْنَا شَخْصًا يُحِبُّ مَا يَكْرَهُهُ الرَّبُّ

تَعَلَّى وَيَكْرَهُ مَا يُحِبُّهُ، عَلِمْنَا أَنَّ فِيهِ مِنْ مُعَادَاتِهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَإِذَا رَأَيْنَا الشَّخْصَ يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ، وَكُلَّمَا كَانَ الشَّيْءُ أَحَبَّ لِي الرَّبِّ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَآثَرُهُ عِنْدَهُ، وَكُلَّمَا كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ وَأَبْعَدَ مِنْهُ، عَلِمْنَا أَنَّ فِيهِ مِنْ مَوَالِيَةِ الرَّبِّ بِحَسَبِ ذَلِكَ.

فَتَمَسَّكَ بِهَذَا الْأَصْلِ فِي نَفْسِكَ وَفِي غَيْرِكَ، فَالْوَلَايَةُ عِبَارَةٌ عَنْ مُوَافَقَةِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ فِي مَحَابِّهِ وَمَسَاخِطِهِ، وَلَيْسَتْ بِكَثْرَةِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَا تَمَرُّقٍ وَلَا رِيَاضَةٍ.

وَالْمُحِبُّوبُ لِغَيْرِهِ قَسَمَانِ أَيْضًا:

أَحَدُهُمَا: مَا يَلْتَمُذُ الْمُحِبُّ بِإِدْرَاكِهِ وَحُصُولِهِ.

وَالثَّانِي: مَا يَتَأَلَّمُ بِهِ وَلَكِنْ يَحْتَمِلُهُ لِإِفْضَائِهِ إِلَى الْمُحِبُّوبِ، كَشُرْبِ الدَّوَاءِ الْكَرِيهِ، قَالَ تَعَلَّى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢١٦].

فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْقِتَالَ مَكْرُوهٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ لِإِفْضَائِهِ إِلَى أَعْظَمِ مُحِبُّوبٍ وَأَنْفَعِهِ، وَالنَّفْسُ تَحْتَ الرَّاحَةِ وَالِدَّعَةِ وَالرَّفَاهِيَةِ، ذَلِكَ شَرٌّ لَهَا لِإِفْضَائِهِ إِلَى فَوَاتِ الْمُحِبُّوبِ، فَالْعَاقِلُ لَا يَنْظُرُ إِلَى لَذَّةِ الْمُحِبُّوبِ الْعَاجِلِ فَيُؤَثِّرُهَا، وَالْمُكْرُوهُ الْعَاجِلُ فَيَرْغَبُ عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ شَرًّا لَهُ، بَلْ قَدْ يَجْلِبُ عَلَيْهِ غَايَةُ الْأَلَمِ وَيَفُوتُهُ أَعْظَمُ اللَّذَّةِ، بَلْ عُقْلَاءُ الدُّنْيَا يَتَحَمَّلُونَ الْمَشَاقَّ الْمَكْرُوهَةَ لِمَا يُعْقِبُهُمْ مِنَ اللَّذَّةِ بَعْدَهَا، وَإِنْ كَانَتْ مُنْقَطِعَةً.

فَالْأُمُورُ أَرْبَعَةٌ: مَكْرُوهٌ يُوَصَّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ، وَمَكْرُوهٌ يُوَصَّلُ إِلَى مُحِبُّوبٍ، وَمُحِبُّوبٌ يُوَصَّلُ إِلَى مُحِبُّوبٍ، وَمُحِبُّوبٌ يُوَصَّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ، فَالْمُحِبُّوبُ الْمُوَصَّلُ إِلَى الْمُحِبُّوبِ قَدْ اجْتَمَعَ فِيهِ دَاعِي الْفِعْلِ مِنْ وَجْهَيْنِ، وَالْمَكْرُوهُ الْمُوَصَّلُ إِلَى مَكْرُوهٍ، قَدْ اجْتَمَعَ فِيهِ دَاعِي التَّرْكِ مِنْ وَجْهَيْنِ.

بِقِي الْقَسَمَانِ الْآخَرَانِ يَتَجَادَبُهُمَا الدَّاعِيَانِ - وَهُمَا مُعْتَرِكُ الْإِتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ - فَالنَّفْسُ تُؤَثِّرُ أَقْرَبَهُمَا جَوَارًا مِنْهَا، وَهُوَ الْعَاجِلُ، وَالْعَقْلُ وَالْإِيْمَانُ يُؤَثِّرُ أَنْفَعَهُمَا وَأَبْقَاهُمَا، وَالْقَلْبُ بَيْنَ الدَّاعِيَيْنِ، وَهُوَ إِلَى هَذَا مَرَّةً، وَإِلَى هَذَا مَرَّةً، وَهَاهُنَا مَحَلُّ الْإِتِلَاءِ شَرْعًا وَقَدْرًا، فَدَاعِي الْعَقْلِ وَالْإِيْمَانِ يُنَادِي كُلُّ وَقْتٍ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ الشَّرِيَّ، وَفِي الْمَمَاتِ يَحْمَدُ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، فَإِنْ اشْتَدَّ ظَلَامٌ لَيْلِ الْمَحَبَّةِ، وَتَحَكَّمَ سُلْطَانُ الشَّهْوَةِ وَالْإِرَادَةِ، يَقُولُ: يَا نَفْسُ اضْبِرِّي فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقِضِي وَيَذْهَبُ هَذَا كُلُّهُ وَيَزُولُ.

فَصْلٌ

وَإِذَا كَانَ الْحُبُّ أَصْلَ كُلِّ عَمَلٍ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، فَأَصْلُ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا أَصْلُ الْأَقْوَالِ الدِّينِيَّةِ تَصْدِيقُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَكُلُّ إِرَادَةٍ تَمْنَعُ كَمَالَ الْحُبِّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُرَاحِمُ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ أَوْ شُبُهَةَ تَمْنَعُ كَمَالَ التَّصْدِيقِ، فَهِيَ مُعَارِضَةٌ لِأَصْلِ الْإِيْمَانِ أَوْ مُضْعِفَةٌ لَهُ، فَإِنْ قَوِيَتْ حَتَّى عَارَضَتْ أَصْلَ الْحُبِّ وَالتَّصْدِيقِ كَانَتْ كُفْرًا أَوْ شِرْكًَا أَكْبَرَ، وَإِنْ لَمْ تُعَارِضْهُ فَدَحَتْ فِي كَمَالِهِ، وَأَثَرَتْ فِيهِ ضَعْفًا وَفُتُورًا فِي الْعَزِيمَةِ وَالطَّلَبِ، وَهِيَ مُحْجَبُ الْوَاصِلِ، وَتَقْطَعُ الطَّلَبَ، وَتُنْكَسُ الرَّاعِبَ، فَلَا تَصِحُّ الْمُوَالَاةُ إِلَّا بِالْمُعَادَاةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ إِمَامِ الْحَنْفَاءِ الْمُحِبِّينَ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَفْرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ - أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ - فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٧٥ - ٧٧].

فَلَمْ يَصِحَّ لِحَلِيلِ اللَّهِ هَذِهِ الْمُوَالَاةُ وَالْحُلَّةُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْمُعَادَاةِ، فَإِنَّهُ لَا وَلَاءَ إِلَّا بِالْبِرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [سُورَةُ الْمُتَحَنِّةِ: ٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ - وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سُورَةُ الزُّحُرْفِ: ٢٦ - ٢٨].

أَيُّ جَعَلَ هَذِهِ الْمُوَالَاةَ لِلَّهِ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ يَتَوَارَثُهَا الْأَنْبِيَاءُ وَاتَّبَاعُهُمْ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَهِيَ كَلِمَةٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهِيَ الَّتِي وَرَّثَهَا إِمَامُ الْخُنَفَاءِ لِاتِّبَاعِهِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي قَامَتْ بِهَا الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَفَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَعَلَيْهَا أُسِّسَتِ الْمَلَّةُ وَنُصِبَتِ الْقِبْلَةُ، وَجَرَّدَتِ سُيُوفُ الْجِهَادِ، وَهِيَ مَحْضٌ حَقُّ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الْعَاصِمَةُ لِلدَّمِ وَالْمَالِ وَالذُّرِّيَّةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالْمُنْجِيَّةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَهِيَ الْمُنْشُورُ الَّذِي لَا يُدْخَلُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِهِ، وَالْحَبْلُ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ مَنْ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِسَيْبِهِ، وَهِيَ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ، وَمِفْتَاحُ دَارِ السَّلَامِ، وَبِهَا انْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، وَمَقْبُولٍ وَطَرِيدٍ، وَبِهَا انْفَصَلَتْ دَارُ الْكُفْرِ مِنْ دَارِ الْإِيمَانِ، وَتَمَيَّزَتْ دَارُ النَّعِيمِ مِنْ دَارِ الشَّقَاءِ وَالْهُوَانِ، وَهِيَ الْعَمُودُ الْحَامِلُ لِلْفَرْضِ وَالسُّنَّةِ، وَ«مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

وَرُوحُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَسُرُّهَا: إِفْرَادُ الرَّبِّ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ - بِالْمَحَبَّةِ وَالْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَتَوَابِعِ ذَلِكَ: مِنَ التَّوَكُّلِ وَالْإِنَابَةِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، فَلَا يُحِبُّ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا كَانَ يُحِبُّ غَيْرَهُ فَاتِّمَامًا يُحِبُّ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ، وَكَوْنِهِ وَسِيلَةً إِلَى زِيَادَةِ مَحَبَّتِهِ، وَلَا يُخَافُ سِوَاهُ، وَلَا يُرْجَى سِوَاهُ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يُرْغَبُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُرْهَبُ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يُخْلَفُ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا يُنْظَرُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُتَابُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُطَاعُ إِلَّا أَمْرُهُ، وَلَا يُتَحَسَّبُ إِلَّا بِهِ، وَلَا

(١) أخرجه أبو داود (٣١١٦) وأحمد / ٥ / ٢٣٣ (٢٢٠٣٤) والبخاري في مسنده (٢٦٢٦) والحاكم / ١ / ٥٠٣ (١٢٩٩)

وغيرهم من طريق صالح بن أبي عريب عن كثير بن مرة عن معاذ بن جبل فذكره مرفوعاً. وصححه الألباني في

الإرواء (٦٨٧).

يُسْتَعَاثُ فِي الشَّدَائِدِ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُلْتَجَأُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُسْجَدُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يُذْبَحُ إِلَّا لَهُ وَبِاسْمِهِ، وَيَجْتَمِعُ ذَلِكَ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ: أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا إِيَّاهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَهَذَا هُوَ تَحْقِيقُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَقِيقَةَ الشَّهَادَةِ، وَمَحَالٌ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ مَنْ تَحَقَّقَ بِحَقِيقَةِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ وَقَامَ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [سُورَةُ الْمَعَارِجِ: ٣٣].

فَيَكُونُ قَائِمًا بِشَهَادَتِهِ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، فِي قَلْبِهِ وَقَالِبِهِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ شَهَادَتُهُ مِيتَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ نَائِمَةً، إِذَا نَبَّهَتْ انْتَبَهَتْ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ مُضْطَجِعَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ إِلَى الْقِيَامِ أَقْرَبَ، وَهِيَ فِي الْقَلْبِ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ فِي الْبَدَنِ، فَرُوحٌ مِيتَةٌ، وَرُوحٌ مَرِيضَةٌ إِلَى الْمَوْتِ أَقْرَبُ، وَرُوحٌ إِلَى الْحَيَاةِ أَقْرَبُ، وَرُوحٌ صَحِيحَةٌ قَائِمَةٌ بِمَصَالِحِ الْبَدَنِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ الْمَوْتِ إِلَّا وَجَدَتْ رُوحَهُ لَهَا رَوْحًا» فَحَيَاةُ هَذِهِ الرُّوحِ بِحَيَاةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِيهَا، فَكَمَا أَنَّ حَيَاةَ الْبَدَنِ بِوُجُودِ الرُّوحِ فِيهِ، وَكَمَا أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ يَتَقَلَّبُ فِيهَا، فَمَنْ عَاشَ عَلَى تَحْقِيقِهَا وَالْقِيَامِ بِهَا فَرُوحُهُ تَتَقَلَّبُ فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى وَعَيْشُهُ وَأَطْيَبُ عَيْشٍ قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ٤٠ - ٤١]، فَالْجَنَّةُ مَأْوَاهُ يَوْمَ اللَّقَاءِ، وَجَنَّةُ الْمَعْرِفَةِ وَالْمُحِبَّةِ وَالْأَنْسِ بِاللَّهِ وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ وَالْفَرَحِ بِهِ وَالرِّضَا بِهِ، وَعَنْهُ مَأْوَى رُوحِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ الْجَنَّةُ مَأْوَاهُ هَاهُنَا، كَانَتْ جَنَّةَ الْخُلْدِ مَأْوَاهُ يَوْمَ الْمِعَادِ، وَمَنْ حُرِمَ هَذِهِ الْجَنَّةَ فَهُوَ لِتِلْكَ الْجَنَّةِ أَشَدُّ حَرْمَانًا، وَالْأَبْرَارُ فِي النَّعِيمِ وَإِنْ اشْتَدَّ بِهِمُ الْعَيْشُ، وَصَاقَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَالْفَجَّارُ فِي جَحِيمٍ وَإِنْ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ: ٩٧] وَطَيَّبُ الْحَيَاةِ جَنَّةَ الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٢٥].

فَأَيُّ نَعِيمٍ أَطِيبٌ مِنْ شَرْحِ الصَّدْرِ؟ وَأَيُّ عَذَابٍ أَمْرٌ مِنْ ضَيْقِ الصَّدْرِ؟

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ - الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ - هُمْ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: ٦٢ - ٦٤] فَالْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ لِلَّهِ مِنْ أَطِيبِ النَّاسِ عَيْشًا، وَأَنْعَمِهِمْ بَالًا، وَأَشْرَحِهِمْ صَدْرًا، وَأَسْرَهُمْ قَلْبًا، وَهَذِهِ جَنَّةٌ عَاجِلَةٌ قَبْلَ الْجَنَّةِ الْأَجَلَّةِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: حِلَقُ الذُّكْرِ»^(١).

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ ﷺ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمَنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»^(٢).

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ سَأَلُوهُ عَنْ وَصَالِهِ فِي الصَّوْمِ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي»^(٣).

فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ مَا يُحْضَلُ لَهُ مِنَ الْغِذَاءِ عِنْدَ رَبِّهِ يَقُومُ مَقَامَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الْحُسْنَى، وَأَنَّ مَا يُحْضَلُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ يَخْتَصُّ بِهِ وَلَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، فَإِذَا أَمْسَكَ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَلَهُ عَنْهُ عَوْضٌ يَقُومُ مَقَامَهُ وَيَنْوِبُ مَنَابَهُ، وَيُغْنِي عَنْهُ، كَمَا قِيلَ:

لَهَا أَحَادِيثٌ مِنْ ذِكْرِكَ تَشْغَلُهَا... عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِمُهَا عَنِ الزَّادِ

لَهَا بَوَاجِهُكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ... وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِي

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم، باب الوصال (١٩٦٤)؛ ومسلم في الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم

(١١٠٥).

إِذَا اشْتَكَّتْ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ أَوْ عَدَّهَا... رَوْحَ اللَّقَاءِ فَتَحِيَا عِنْدَ مِعَادِ

وَكُلَّمَا كَانَ وَجُودُ الشَّيْءِ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ وَهُوَ إِلَيْهِ أَحْوَجُ، كَانَ تَأَلُّهُ بِفَقْدِهِ أَشَدَّ، وَكُلَّمَا كَانَ عَدَمُهُ أَنْفَعَ لَهُ
كَانَ تَأَلُّهُ بِوُجُودِهِ أَشَدَّ، وَلَا شَيْءَ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ، وَاشْتِغَالِهِ بِذِكْرِهِ، وَتَنْعَمِهِ
بِحُبِّهِ، وَإِيثارِهِ لِرِضَايَتِهِ، بَلْ لَا حَيَاةَ لَهُ وَلَا نَعِيمَ وَلَا سُرُورَ وَلَا بَهْجَةَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَعَدَمُهُ أَلَمٌ شَيْءٌ لَهُ، وَأَشَدُّهُ
عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا تَغِيْبُ الرُّوحُ عَنْ شُهُودِ هَذَا الْعَذَابِ وَالْأَلَمِ لِاشْتِغَالِهَا بِغَيْرِهِ، وَاسْتِغْرَاقِهَا فِي ذَلِكَ الْغَيْرِ،
تَتَغَيَّبُ بِهِ عَنْ شُهُودِ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ أَلَمِ الْفَوَاتِ بِفِرَاقِ أَحَبِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا، وَأَنْفَعِهِ لَهَا، وَهَذِهِ مَنْزِلَةُ السَّكَرَانِ
الْمُسْتَعْرِقِ فِي سُكْرِهِ، الَّذِي احْتَرَقَتْ دَارُهُ وَأَمْوَالُهُ وَأَهْلُهُ وَأَوْلَادُهُ، وَهُوَ لَا سِتِغْرَاقِيهِ فِي السُّكْرِ لَا يَشْعُرُ
بِأَلَمِ ذَلِكَ الْفَوَاتِ وَحَسْرَتِهِ، حَتَّى إِذَا صَحَا، وَكَشَفَ عَنْهُ غِطَاءَ السُّكْرِ، وَانْتَبَهَ مِنْ رَفْدَةِ الْحَمْرِ، فَهُوَ أَعْلَمُ
بِحَالِهِ حِينَئِذٍ.

وَهَكَذَا الْحَالُ سِوَاءَ عِنْدَ كَشْفِ الْغِطَاءِ، وَمُعَايِنَةِ طَلَائِعِ الْآخِرَةِ، وَالْإِشْرَافِ عَلَى مُفَارَقَةِ الدُّنْيَا
وَالْإِتِّقَالِ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ، بَلِ الْأَلَمُ وَالْحَسْرَةُ وَالْعَذَابُ هُنَا أَشَدُّ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، فَإِنَّ الْمُصَابَ فِي الدُّنْيَا
يَرْجُو جَبْرَ مُصِيبَتِهِ بِالْعَوَاضِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ أُصِيبَ بِشَيْءٍ زَائِلٍ لَا بَقَاءَ لَهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ مُصِيبَتُهُ بِمَا لَا
عَوَاضَ عَنْهُ، وَلَا بَدَلَ مِنْهُ، وَلَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّنْيَا جَمِيعَهَا؟ فَلَوْ قَضَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ بِالْمُوتِ مِنْ هَذِهِ
الْحَسْرَةِ وَالْأَلَمِ لَكَانَ الْعَبْدُ جَدِيرًا بِهِ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لِيَعُودُ أَعْظَمُ أَمْنِيَّتِهِ وَأَكْبَرَ حَسْرَاتِهِ، هَذَا لَوْ كَانَ الْأَلَمُ عَلَى
مُجَرَّدِ الْفَوَاتِ، فَكَيْفَ وَهُنَاكَ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى الرُّوحِ وَالْبَدَنِ بِأُمُورٍ أُخْرَى وَجُودِيَّةٍ مَا لَا يَقْدَرُهُ قَدْرُهُ؟
فَتَبَارَكَ مَنْ حَمَلَ هَذَا الْخَلْقَ الضَّعِيفَ هَذَيْنِ الْأَلْمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا تَحْمِلُهُمَا الْجِبَالُ الرَّوَاسِي.

فَاعْرِضْ عَلَى نَفْسِكَ الْآنَ أَعْظَمَ مَحْبُوبٍ لَكَ فِي الدُّنْيَا، بِحَيْثُ لَا تَطِيبُ لَكَ الْحَيَاةُ إِلَّا مَعَهُ،
فَأَصْبَحْتَ وَقَدْ أُخِذَ مِنْكَ، وَحِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَحْوَجَ مَا كُنْتَ إِلَيْهِ، كَيْفَ يَكُونُ حَالُكَ؟ هَذَا وَمِنْهُ كُلُّ
عَوَاضٍ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَا عَوَاضَ عَنْهُ؟ كَمَا قِيلَ:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَهُ عَوْضٌ ... وَمَا مِنْ اللَّهِ إِنْ ضَيَّعْتَهُ عَوْضٌ

وَفِي أَثَرِ إِيهِ: «ابْنَ آدَمَ، خَلَقْتِكَ لِعِبَادَتِي فَلَا تَلْعَبْ، وَتَكَمَّلْتَ بِرِزْقِكَ فَلَا تَتَعَبْ، ابْنَ آدَمَ، أَطْلُبُنِي تَجِدُنِي، فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتِكَ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»^(١).

فَصَلِّ

وَمَا كَانَتْ الْمُحَبَّةُ جِنْسًا تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْقَدْرِ وَالْوَصْفِ، كَانَ أَعْلَبَ مَا يُذَكَّرُ فِيهَا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُخْتَصُّ بِهِ وَيَلِيقُ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِهَا، وَمَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، مِثْلَ الْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَكَذَا الْإِنَابَةَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُحَبَّةَ بِاسْمِهَا الْمَطْلُوقِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥٤].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٦٥].

وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِ الْمُحَبَّةِ الْمَذْمُومَةِ: الْمُحَبَّةُ مَعَ اللَّهِ الَّتِي يُسَوِّي الْمُحِبُّ فِيهَا بَيْنَ مُحِبَّتِهِ اللَّهُ وَمُحِبَّتِهِ لِلنَّدِّ الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ دُونِهِ.

وَأَعْظَمُ أَنْوَاعِهَا الْمُحْمُودَةِ: مُحَبَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَهَذِهِ الْمُحَبَّةُ هِيَ أَصْلُ السَّعَادَةِ وَرَأْسُهَا الَّتِي لَا يَنْجُو أَحَدٌ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا بِهَا، وَالْمُحَبَّةُ الْمَذْمُومَةُ الشَّرِكِيَّةُ هِيَ أَصْلُ الشَّقَاوَةِ وَرَأْسُهَا الَّتِي لَا يَبْقَى فِي الْعَذَابِ إِلَّا أَهْلِهَا، فَأَهْلُ الْمُحَبَّةِ الَّذِينَ أَحْبَبُوا اللَّهَ وَعَبَدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَا يَدْخُلُونَ النَّارَ، وَمَنْ دَخَلَهَا مِنْهُمْ بَدُنُو بِهِ فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى فِيهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ.

(١) أثر إسرائيلي كما نصَّ على ذلك شيخ الإسلام في الفتاوى (٨ / ٥٢).

وَمَدَارُ الْقُرْآنِ عَلَى الْأَمْرِ بِتِلْكَ الْمَحَبَّةِ وَلَوْازِمِهَا، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمَحَبَّةِ الْأُخْرَى وَلَوْازِمِهَا، وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَالْمَقَابِيسِ لِلنُّوعَيْنِ، وَذَكَرَ قَصَصَ النُّوعَيْنِ، وَتَفْصِيلَ أَعْمَالِ النُّوعَيْنِ وَأَوْلِيَائِهِمْ وَمَعْبُودِ كُلِّ مِنْهُمَا، وَإِخْبَارَهُ عَنْ فِعْلِهِ بِالنُّوعَيْنِ، وَعَنْ حَالِ النُّوعَيْنِ فِي الدُّورِ الثَّلَاثَةِ: دَارِ الدُّنْيَا، وَدَارِ الْبَرْزَخِ، وَدَارِ الْقَرَارِ، وَالْقُرْآنَ جَاءَ فِي شَأْنِ النُّوعَيْنِ.

وَأَصْلُ دَعْوَةِ جَمِيعِ الرُّسُلِ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، إِنَّمَا هِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْمُتَضَمَّنَةُ لِكَمَالِ حُبِّهِ، وَكَمَالِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ لَهُ، وَالْإِجْلَالَ وَالتَّعْظِيمِ، وَلَوْازِمِ ذَلِكَ مِنَ الطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(١).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: «لَا يَا عُمَرُ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، قَالَ: «الآنَ يَا عُمَرُ»^(٢).

فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنِ مَحَبَّةِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَوُجُوبِ تَقْدِيمِهَا عَلَى مَحَبَّةِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَوَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَمَا الظَّنُّ بِمَحَبَّةِ مُرْسَلِهِ، وَوُجُوبِ تَقْدِيمِهَا عَلَى مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ؟.

وَمَحَبَّةُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ تَخْتَصُّ عَنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ فِي قَدْرِهَا وَصِفَتِهَا وَإِفْرَادِهِ سُبْحَانَهُ بِهَا: فَإِنَّ الْوَاجِبَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يَكُونَ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ، بَلْ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَنَفْسِهِ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ، فَيَكُونُ إِيَّاهُ الْحَقُّ وَمَعْبُودُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَالشَّيْءُ قَدْ يُحِبُّ مِنْ وَجْهِ دُونَ وَجْهِهِ، وَقَدْ يُحِبُّ

(١) أخرجه البخاري في الإيثار، باب حب الرسول ﷺ من الإيثار (١٥)؛ ومسلم في الإيثار، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في الإيثار والندور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٦٣٢).

بغيره، وليس شيءٌ يُحبُّ لذاته من كلِّ وجهٍ إلا الله وحده، ولا تصلحُ الألوهيةُ إلا له، ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا
 إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢] والتألهُ: هو المحبةُ والطاعةُ والخضوعُ.

فصل

وكلُّ حركةٍ في العالمِ العلويِّ والسفليِّ فأصلها المحبةُ، فهي عليها الفاعليةُ والغائيةُ، وذلك لأنَّ
 الحركاتِ ثلاثةٌ أنواعٌ: حركةٌ اختياريةٌ إراديةٌ، وحركةٌ طبيعيةٌ، وحركةٌ قسريَّةٌ.

والحركةُ الطبيعيةُ أصلها السكونُ، وإنما يتحركُ الجسمُ إذا خرجَ عن مُستقرِّه ومركزه الطبيعيِّ، فهو
 يتحركُ للعودِ إليه، وخروجهُ عن مركزه ومُستقرِّه إنما هو بتحركِ القاصرِ المُحركِ له، فله حركةٌ قسريَّةٌ
 تتحركُ بتحركِ مُحركه وقاسره، وحركةٌ طبيعيةٌ بذاتها يطلبُ بها العودُ إلى مركزه، وكلا حركتيه تابعةٌ
 للقاسرِ المُحركِ، فهو أصلُ الحركتينِ.

والحركةُ الاختياريةُ الإراديةُ هي أصلُ الحركتينِ الأخيرينِ، وهي تابعةٌ للإرادةِ والمحبةِ.

والدليلُ على انحصارِ الحركاتِ في هذه الثلاثِ: أنَّ المُتحركَ إن كان له شعورٌ بالحركةِ فهي الإراديةُ،
 وإن لم يكن له شعورٌ بها، فإما أن تكونَ على وفقِ طبعه أو لا، فالأولى هي الطبيعيةُ، والثانيةُ القسريَّةُ، إذا
 ثبتَ هذا فما في السماواتِ والأرضِ وما بينهما من حركاتِ الأفلاكِ والشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ والرياحِ
 والسحابِ والمطرِ والنباتِ وحركاتِ الأجنَّةِ في بطنِ أمهاتها، فإنما هي بواسطةِ الملائكةِ والمُدبِّراتِ أمراً
 والمُقسَّماتِ أمراً، كما دلَّ على ذلك في نصوصٍ من القرآنِ والسُّنةِ في غيرِ موضعٍ، والإيمانُ بذلك من تمامِ
 الإيمانِ بالملائكةِ، فإنَّ اللهَ وكلَّ بالرحمِ ملائكةً، وبالقطرِ ملائكةً، وبالنباتِ ملائكةً، وبالرياحِ ملائكةً،
 وبالأفلاكِ والشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ، وكلُّ بكلِّ عبدٍ أربعةٌ من الملائكةِ، كاتِبينِ عن يمينه وشماله،
 وحافظينِ من بين يديه ومن خلفه، وكلُّ ملائكةً بقبضِ رُوحه وتجهيزها إلى مُستقرِّها في الجنةِ والنَّارِ،
 وملائكةً بمساءلتهِ وامتحانهِ في قبره، وملائكةً بتعذيبهِ في النَّارِ أو نعيمهِ في الجنةِ، وكلُّ بالجبالِ ملائكةً،

وَبِالسَّحَابِ مَلَائِكَةٌ تَسُوِّفُهُ حَيْثُ أُمِرَتْ بِهِ، وَبِالْقَطْرِ مَلَائِكَةٌ تَنْزِلُ بِأَمْرِ اللَّهِ بِقَدْرِ مَعْلُومٍ كَمَا شَاءَ اللَّهُ، وَوَكَّلَ مَلَائِكَةٌ بَعْرَسِ الْجَنَّةِ وَعَمَلِ آتِيهَا وَفُرُشَهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّارِ كَذَلِكَ.

فَاعْظُمُ جُنْدَ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ، وَلَفْظُ الْمَلِكِ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مُنْفَذٌ غَيْرُهُ وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَهُمْ يَدَبُّونَ الْأَمْرَ وَيُقَسِّمُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ وَإِذْنِهِ، قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٦٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [سُورَةُ النَّجْمِ: ٢٦].

وَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِطَوَائِفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُتَفَذِّينَ لِأَمْرِهِ فِي الْخَلِيفَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * [سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ١ - ٣].

وَقَالَ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالفَارِقَاتِ فَرَقًا * فَالمَلْفِياتِ ذِكْرًا * عُدْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ: ١ - ٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ١ - ٥].

وَقَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى ذَلِكَ وَسِرَّ الْأِقْسَامِ بِهِ فِي كِتَابِ (التَّبْيَانِ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ).

وَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَجَمِّعْ تِلْكَ الْمُحَبَّاتِ وَالْمُحَرِّكَاتِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْأَفْعَالَ: هِيَ عِبَادَةُ مِنْهُمْ لِرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَجَمِيعُ الْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْقُسْرِيَّةِ تَابِعَةٌ لَهَا، فَلَوْلَا الْحُبُّ مَا دَارَتِ الْأَفْلَاكُ، وَلَا تَحَرَّكَتِ الْكَوَاكِبُ النَّيِّرَاتُ، وَلَا هَبَّتِ الرِّيَّاحُ الْمُسَخَّرَاتُ، وَلَا مَرَّتِ الشُّحُبُ الْحَامِلَاتُ، وَلَا تَحَرَّكَتِ الْأَجِنَّةُ فِي بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ، وَلَا انْصَدَعَ عَنِ الْحَبِّ أَنْوَاعُ النَّبَاتِ، وَلَا اضْطَرَبَتْ أَمْوَاجُ الزَّخِرَاتِ، وَلَا

تَحَرَّكَتِ الْمُدَبِّرَاتُ وَالْمُقْسِمَاتُ، وَلَا سَبَّحَتْ بِحَمْدِ فَاطِرِهَا الْأَرْضُونَ وَالسَّمَاوَاتُ، وَمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَسُبْحَانَ مَنْ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّعْيُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٤٤].

فَصْلٌ

فَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فَكُلُّ حَيٍّ لَهُ إِرَادَةٌ وَمَحَبَّةٌ وَعَمَلٌ بِحَسَبِهِ، وَكُلُّ مَتَحَرِّكٍ فَأَصْلُ حَرَكَتِهِ الْمَحَبَّةُ وَالْإِرَادَةُ، وَلَا صِلَاحٌ لِلْمَوْجُودَاتِ إِلَّا بِأَنْ تَكُونَ حَرَكَاتِهَا وَمَحَبَّتِهَا لِفَاطِرِهَا وَبَارِئِهَا وَحَدِّه، كَمَا لَا وُجُودَ لَهَا إِلَّا بِإِبْدَاعِهِ وَحَدِّه.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٢٢].

وَلَمْ يُقَلِّ سُبْحَانَهُ: لَمَا وُجِدَتَا وَلَكَانَتَا مَعْدُومَتَيْنِ، وَلَا قَالَ: لَعُدْمَتَا، إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْقِيَهُمَا عَلَى وَجْهِ الْفَسَادِ، لَكِنْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَا عَلَى وَجْهِ الصَّلَاحِ وَالِاسْتِقَامَةِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَحَدَّهُ هُوَ مَعْبُودُهُمَا، وَمَعْبُودَ مَا حَوَاتَاهُ وَسَكَنَ فِيهَا، فَلَوْ كَانَ فِي الْعَالَمِ إِهْتَانٌ لَفَسَدَ نِظَامُهُ غَايَةَ الْفَسَادِ، فَإِنَّ كُلَّ إِلَهٍ كَانَ يَطْلُبُ مُغَالَبَةَ الْآخِرِ، وَالْعُلُوَّ عَلَيْهِ، وَتَفَرُّدَهُ دُونَهُ بِإِلَهِيَّتِهِ، إِذِ الشَّرِكَةُ نَقْصٌ فِي كَمَالِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْإِلَهِ لَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ إِهْتَانًا قِصَا، فَإِنْ قَهَرَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ كَانَ هُوَ الْإِلَهِ وَحَدَّهُ، وَالْمَقْفُورُ لَيْسَ بِإِلَهِ، وَإِنْ لَمْ يَقَهَرَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ لَزِمَ عَجْزُ كُلِّ مِنْهُمَا، وَلَمْ يَكُنْ تَامًّا الْإِلَهِيَّةِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَهُمَا إِلَهٌ قَاهِرٌ لِهَاتِيهِمَا حَاكِمٌ عَلَيْهِمَا، وَإِلَّا ذَهَبَ كُلُّ مِنْهُمَا بِمَا خَلَقَ، وَطَلَبَ كُلُّ مِنْهُمَا الْعُلُوَّ عَلَى الْآخِرِ، وَفِي ذَلِكَ فَسَادٌ أَمْرٍ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ مِنْ فَسَادِ الْبَلَدِ إِذَا كَانَ فِيهَا مَلِكَانِ مُتَكَافِئَانِ، وَفَسَادِ الزَّوْجَةِ إِذَا كَانَ لَهَا بَعْلَانِ، وَالشُّوْلُ: إِذَا كَانَ فِيهِ فَحْلَانِ.

وَأَصْلُ فَسَادِ الْعَالَمِ إِنَّهَا هُوَ مِنْ اخْتِلَافِ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ، وَهَذَا لَمْ يَطْمَعِ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ فِيهِ فِي زَمَنِ مِنَ الْأَزْمَةِ إِلَّا فِي زَمَنِ تَعَدُّدِ الْمُلُوكِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَاخْتِلَافِهِمْ، وَأَنْفِرَادِ كُلِّ مِنْهُمْ بِيَلَادٍ، وَطَلَبِ بَعْضِهِمْ الْعُلُوَّ عَلَى بَعْضٍ.

فَصَلَّحَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاسْتَقَامْتُهُمَا، وَانْتِظَامِ أَمْرِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى أُمَّتِ نِظَامٍ مِنْ أَظْهَرِ الْأَدَلَّةِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ مِنْ لَدُنْ عَرْشِهِ إِلَى قَرَارِ أَرْضِهِ بَاطِلٌ إِلَّا وَجْهَهُ الْأَعْلَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ٩١ - ٩٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْسِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٢١ - ٢٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابَتَّغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٤٢].

فَقِيلَ: لَا تَبْتَغُوا السَّبِيلَ إِلَيْهِ بِالْمُغَالَبَةِ وَالْقَهْرِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

قَالَ شَيْخُنَا: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمَعْنَى: لَا تَبْتَغُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ وَطَاعَتِهِ، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِهِ؟ وَهُمْ لَوْ كَانُوا آلِهَةً كَمَا يَقُولُونَ لَكَانُوا عِبِيدًا لَهُ، قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا وَجُوهٌ:

مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٥٧].

أَيُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِي هُمْ عِبَادِي كَمَا أَنْتُمْ عِبَادِي، وَيَرْجُونَ رَحْمَتِي وَيَخَافُونَ عَذَابِي، فَلِمَ إِذَا تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِي؟

الثاني: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ لَا تَبْغُوا عَلَيْهِ سَبِيلًا، بَلْ قَالَ: لَا تَبْغُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَهَذَا اللَّفْظُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي التَّقَرُّبِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٣٥].

وَأَمَّا فِي الْمَعَالِيَةِ فَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ بَعَلَى كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: ٣٤].

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِنَّ أَهْتَهُمْ تُغَالِبُهُ وَتَطْلُبُ الْعُلُوَّ عَلَيْهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ قَالَ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ وَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ أَهْتَهُمْ تَبْتَغِي التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ وَتُقَرِّبُهُمْ زُلْفَى إِلَيْهِ، فَقَالُوا: لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ لَكَانَتْ تِلْكَ الْآلِهَةُ عِبِيدًا لَهُ، فَلِمَ إِذَا تَعْبُدُونَ عِبِيدَهُ مِنْ دُونِهِ؟

فَصْلٌ

وَالْمُحِبَّةُ لَهَا آثَارٌ وَتَوَابِعٌ وَلَوَازِمٌ وَأَحْكَامٌ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَحْمُودَةً أَوْ مَذْمُومَةً، نَافِعَةً أَوْ ضَارَّةً، مِنَ الْوَجْدِ وَالذُّوقِ وَالْحَلَاوَةِ، وَالشُّوقِ وَالْأُنْسِ، وَالِاتِّصَالِ بِالْمُحْبُوبِ وَالتَّقَرُّبِ مِنْهُ، وَالِانْفِصَالِ عَنْهُ وَالتَّبَعْدِ عَنْهُ، وَالصَّدِّ وَالْهَجْرَانِ، وَالْفَرَحِ وَالشُّرُورِ، وَالْبُكَاءِ وَالْحُزْنَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِهَا وَلَوَازِمِهَا.

وَالْمُحِبَّةُ الْمُحْمُودَةُ: هِيَ الْمُحِبَّةُ النَّافِعَةُ الَّتِي تَجْلِبُ لِصَاحِبِهَا مَا يَنْفَعُهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَهَذِهِ الْمُحِبَّةُ هِيَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ، وَالضَّارَّةُ: هِيَ الَّتِي تَجْلِبُ لِصَاحِبِهَا مَا يُضُرُّهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَهِيَ عُنْوَانُ الشَّقَاوَةِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَيَّ الْعَاقِلَ لَا يَخْتَارُ مَحَبَّةَ مَا يُضُرُّهُ وَيُسْقِيهِ، وَإِنَّمَا يَصْدُرُ ذَلِكَ عَنْ جَهْلِ وَظَلْمٍ، فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَهَوَّى مَا يُضُرُّهَا وَلَا يَنْفَعُهَا، وَذَلِكَ مِنْ ظُلْمِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ، إِذَا بَانَ تَكُونَ جَاهِلَةً بِحَالِ مَحْبُوبِهَا بِأَنَّ تَهَوَّى الشَّيْءَ وَنَجَبَهُ غَيْرَ عَالِمَةٍ بِمَا فِي مَحَبَّتِهِ مِنَ الْمَضَرَّةِ، وَهَذَا حَالٌ مَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنَّمَا

عَالِمَةٌ بِهَا فِي مَحَبَّتِهِ مِنَ الصَّرْرِ لَكِنْ تُؤَثِّرُ هَوَاهَا عَلَى عِلْمِهَا، وَقَدْ تَرَكَتْ مَحَبَّتَهَا عَلَى أَمْرَيْنِ: اعْتِقَادِ فَاسِدٍ، وَهُوَ مَذْمُومٌ، وَهَذَا حَالٌ مَنِ اتَّبَعَ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ، فَلَا تَقَعُ الْمَحَبَّةُ الْفَاسِدَةُ إِلَّا مِنْ جَهْلٍ أَوْ اعْتِقَادِ فَاسِدٍ أَوْ هَوَى غَالِبٍ، أَوْ مَا تَرَكَتْ مِنْ ذَلِكَ فَأَعَانَ بَعْضُهُ بَعْضًا فَتَنَفَّقُ شُبُهَةً وَشَهْوَةً، شُبُهَةً يَشْتَبِهُ بِهَا الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ وَتُزَيَّنُ لَهُ أَمْرُ الْمُحْبُوبِ، وَشَهْوَةً تَدْعُوهُ إِلَى حُصُولِهِ، فَيَتَسَاعَدُ جَيْشُ الشُّبُهَةِ وَالشَّهْوَةِ عَلَى جَيْشِ الْعَقْلِ وَالْإِيَانِ، وَالْغَلْبَةُ لِأَقْوَاهُمَا.

وَإِذَا عُرِفَ هَذَا فَتَوَاعُجُ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ لَهُ حُكْمٌ مَتَّبِعُهُ، فَالْمَحَبَّةُ النَّافِعَةُ الْمُحْمُودَةُ الَّتِي هِيَ عُنْوَانُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ وَتَوَابِعُهَا كُلُّهَا نَافِعَةٌ لَهُ، فَحُكْمُهَا حُكْمُ مَتَّبِعِهَا، فَإِنْ بَكَى نَفَعَهُ، وَإِنْ حَزَنَ نَفَعَهُ، وَإِنْ فَرِحَ نَفَعَهُ، وَإِنْ انْقَبَضَ نَفَعَهُ، وَإِنْ انْبَسَطَ نَفَعَهُ، فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي مَنَازِلِ الْمَحَبَّةِ وَأَحْكَامِهَا فِي مَرِيدٍ وَرَبِحٍ وَقُوَّةٍ.

وَالْمَحَبَّةُ الصَّارَةُ الْمَذْمُومَةُ، تَوَابِعُهَا وَآثَارُهَا كُلُّهَا صَارَةٌ لِصَاحِبِهَا، مُبْعَدَةٌ لَهُ مِنْ رَبِّهِ، كَيْفَمَا تَقَلَّبَ فِي آثَارِهَا وَنَزَلَ فِي مَنَازِلِهَا فِي خَسَارَةٍ وَبُعْدٍ.

وَهَذَا شَأْنٌ كُلِّ فِعْلٍ تَوَلَّدَ عَنْ طَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، فَكُلُّ مَا تَوَلَّدَ مِنَ الطَّاعَةِ فَهُوَ زِيَادَةٌ لِصَاحِبِهَا وَقُرْبَةٌ، وَكُلُّ مَا تَوَلَّدَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ فَهُوَ خُسْرَانٌ لِصَاحِبِهِ وَبُعْدٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيهِمْ ظَمًا وَلَا نَصَبًا وَلَا مَحْمَصَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُؤُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُفِيقُونَ نَفَقَةَ صَغِيرَةٍ وَلَا كَبِيرَةٍ وَلَا يَقْطَعُونَ وَاذْيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ١٢٠ - ١٢١].

فَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: أَنَّ الْمُتَوَلَّدَ عَنْ طَاعَتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ يُكْتَبُ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَأَخْبَرَ فِي الثَّانِيَةِ: أَنَّ أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ الَّتِي بَاشَرُوا وَهَا تُكْتَبُ لَهُمْ أَنْفُسُهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْأَوَّلَ لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَإِنَّمَا تَوَلَّدَ عَنْهُ فَكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَالثَّانِي نَفْسُ أَعْمَالِهِمْ فَكُتِبَ لَهُمْ.

فَلَيْتَأَمَّلُ قَبِيلَ الْمُحِبَّةِ هَذَا الْفَضْلَ حَقَّ التَّأَمُّلِ؛ لِيَعْلَمَ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ.

سَيَعْلَمُ يَوْمَ الْعَرْضِ أَيَّ بَضَاعَةٍ... أَضَاعَ وَعِنْدَ الْوَزْنِ مَا كَانَ حَصَلًا

فَصَلُّ

وَكَمَا أَنَّ الْمُحِبَّةَ وَالْإِرَادَةَ أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ كَمَا تَقَدَّمَ، فَهِيَ أَصْلُ كُلِّ دِينٍ سِوَاهُ أَكَانَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا، فَإِنَّ الدِّينَ هُوَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، وَالْمُحِبَّةُ وَالْإِرَادَةُ أَصْلُ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ وَالْخُلُقُ، فَهُوَ الطَّاعَةُ اللَّازِمَةُ الدَّائِمَةُ الَّتِي صَارَتْ خُلُقًا وَعَادَةً، وَهَذَا فُسِّرَ الْخُلُقُ بِالدِّينِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سُورَةُ الْقَلَمِ: ٤].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَعَلَى دِينٍ عَظِيمٍ.

وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»^(١).

وَالدِّينُ فِيهِ مَعْنَى الْإِذْلَالِ وَالْقَهْرِ، وَفِيهِ مَعْنَى الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ، فَلِذَلِكَ يَكُونُ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَسْفَلِ، كَمَا يُقَالُ: دِنْتُهُ فِدَانٌ، أَيَّ قَهَرْتُهُ فَذَلَّ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

هُوَ دَانَ الرَّبَابَ إِذْ كَرِهُوا الدُّ... يَنْ فَأَضْحَوْا بِعِزَّةٍ وَصِيَالٍ

وَيَكُونُ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، كَمَا يُقَالُ: دِنْتُ اللَّهَ، وَدِنْتُ اللَّهَ، وَفُلَانٌ لَا يَدِينُ اللَّهَ دِينًا، وَلَا يَدِينُ اللَّهَ

بِدِينٍ، فِدَانَ اللَّهِ: أَيَّ أَطَاعَ اللَّهَ وَأَحَبَّهُ وَخَافَهُ، وَدَانَ اللَّهَ: تَخَشَّعَ لَهُ وَخَضَعَ وَذَلَّ وَانْقَادَ.

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل (٧٤٦).

وَالدِّينِ الْبَاطِنُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْحُبِّ وَالْخُضُوعِ كَالْعِبَادَةِ سَوَاءً، بِخِلَافِ الدِّينِ الظَّاهِرِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَلْزِمُ الْحُبَّ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ انْقِيَادٌ وَذُلٌّ فِي الظَّاهِرِ.

وَسَمَّى اللهُ سُبْحَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [يَوْمَ الدِّينِ] فَإِنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي يَدِينُ فِيهِ النَّاسُ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَذَلِكَ يَنْصَمِنُ جَزَاءَهُمْ وَحَسَابُهُمْ، فَلِذَلِكَ فَسَّرُوهُ يَوْمَ الْجَزَاءِ، وَيَوْمَ الْحِسَابِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُتِمَ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُتِمَ صَادِقِينَ﴾ [سُورَةُ الْوَاقِعَةِ: ٨٦ -

[٨٧]

أَيُّ هَلَّا تَرُدُّونَ الرُّوحَ إِلَى مَكَانِهَا إِنْ كُتِمَ غَيْرَ مَرْبُوبِينَ مَقْهُورِينَ وَلَا مَجْزِيَيْنَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ، فَإِنَّهَا سَبَقَتْ لِلْاِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ فِي إِنْكَارِهِمْ الْبَعْثَ وَالْحِسَابَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الدَّلِيلُ مُسْتَلْزِمًا لِمَدْلُولِهِ، بِحَيْثُ يَتَّقِلُ الذَّهْنُ مِنْهُ إِلَى الْمَدْلُولِ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّلَازُمِ، فَيَكُونُ الْمَلْزُومُ دَلِيلًا عَلَى لَازِمِهِ، وَلَا يَجِبُ الْعَكْسُ.

وَوَجْهُ الْاِسْتِدْلَالِ: أَنَّهُمْ إِذَا أَنْكَرُوا الْبَعْثَ وَالْجَزَاءَ فَقَدْ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأَنْكَرُوا قُدْرَتَهُ وَرُبُوبِيَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ، فَإِمَّا أَنْ يَقْرُوا بِأَنَّ هُمْ رَبًّا قَاهِرًا مُتَّصِرًا فِيهِمْ، كَمَا سَمَّيْتَهُمْ إِذَا شَاءَ وَيُحْيِيهِمْ إِذَا شَاءَ، وَيَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ، وَيُثِيبُ مُحْسِنَهُمْ وَيُعَاقِبُ مُسِيئَهُمْ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَقْرُوا بِرَبِّ هَذَا شَأْنَهُ، فَإِنْ أَقْرُوا بِهِ آمَنُوا بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَالدِّينِ الْأَمْرِيِّ وَالْجَزَائِيِّ، وَإِنْ أَنْكَرُوهُ كَفَرُوا بِهِ، فَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مَرْبُوبِينَ وَلَا مُحْكُومٍ عَلَيْهِمْ، وَلَا لَهُمْ رَبٌّ يَنْصَرِفُ فِيهِمْ كَمَا أَرَادَ، فَهَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ الْمَوْتِ عَنْهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ، وَعَلَى رَدِّ الرُّوحِ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ، وَهَذَا خِطَابٌ لِلْحَاضِرِينَ وَهُمْ عِنْدَ الْمُحْتَضِرِ، وَهُمْ يَعَايِنُونَ مَوْتَهُ، أَيُّ: فَهَلَّا تَرُدُّونَ الرُّوحَ إِلَى مَكَانِهَا إِنْ كَانَ لَكُمْ قُدْرَةٌ وَتَصَرَّفٌ، وَلَسْتُمْ بِمَرْبُوبِينَ وَلَا بِمَقْهُورِينَ لِقَاهِرٍ قَادِرٍ، تَمْضِي عَلَيْكُمْ أَحْكَامُهُ، وَتَنْفُذُ أَوْامِرُهُ، وَهَذِهِ غَايَةُ التَّعْجِيزِ لَهُمْ، إِذْ بَيَّنَّ عَجْزَهُمْ عَنْ رَدِّ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ إِلَى مَكَانِهَا، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَى ذَلِكَ الثَّقَلَانِ، فَيَا لَهَا مِنْ آيَةٍ دَالَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَتَصَرُّفِهِ فِي عِبَادِهِ، وَتَفْوِذِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ، وَجَرَيَانِهَا عَلَيْهِمْ.

وَالدِّينُ دِينَانِ: دِينُ شَرْعِيٍّ أَمْرِيٍّ، وَدِينُ حِسَابِيٍّ جَزَائِيٍّ، وَكِلَاهُمَا لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَالِدِّينُ كُلُّهُ لَهِ اللهُ أَمْرًا أَوْ جَزَاءً، وَالْمَحَبَّةُ أَصْلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الدِّينَيْنِ، فَإِنَّ مَا شَرَعَهُ وَأَمَرَ بِهِ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا نَهَى عَنْهُ فَإِنَّهُ يَكْرَهُهُ وَيُبْغِضُهُ؛ لِمَنَافَاتِهِ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، فَهُوَ يُحِبُّ ضِدَّهُ، فَعَادَ دِينَهُ الْأَمْرِيُّ كُلَّهُ إِلَى مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ.

وَدِينُ الْعَبْدِ لِلَّهِ بِهِ إِنَّمَا يُقْبَلُ إِذَا كَانَ عَنْ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا»^(١)، فَهَذَا الدِّينُ قَائِمٌ بِالْمَحَبَّةِ وَسِبْبِهَا شَرْعًا، وَلَا جِلْهًا شَرْعًا، وَعَلَيْهَا أُسِّسَ، وَكَذَلِكَ دِينُهُ الْجَزَائِيُّ، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ مُجَازَاةَ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ، وَكُلُّ مَنْ الْأَمْرَيْنِ مَحْبُوبٌ لِلرَّبِّ، فَإِنَّهُمَا عَدْلُهُ وَفَضْلُهُ، وَكِلَاهُمَا مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ صِفَاتِهِ وَأَسْمَاءَهُ، وَيُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهَا، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الدِّينَيْنِ فَهُوَ صِرَاطُ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَهُوَ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، فِي أَمْرِهِ وَمَنْهِيهِ، وَتَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى إِنْخِبَارًا عَنْ نَبِيِّ هُودٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ - مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ - إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ٥٤ - ٥٦].

وَلَمَّا عَلِمَ نَبِيُّ اللَّهِ هُودٌ أَنَّ رَبَّهُ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَمَنْهِيهِ، وَتَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَمَنْعِهِ وَعَطَائِهِ، وَعَافِيَتِهِ وَبِلَاتِهِ، وَتَوْفِيقِهِ وَخِذْلَانِهِ، لَا يَخْرُجُ فِي ذَلِكَ عَنْ مُوجِبِ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، الَّذِي يَقْتَضِيهِ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ، مِنْ الْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ، وَوَضَعَ الثَّوَابَ مَوَاضِعَهُ، وَالْعُقُوبَةَ فِي مَوَاضِعِهَا اللَّاتِقِ بِهَا، وَوَضَعَ التَّوْفِيقَ وَالْخِذْلَانَ وَالْعَطَاءَ وَالْمَنْعَ وَالْهُدَايَةَ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان (٣٤).

وَالْإِضْلَالِ، كُلُّ ذَلِكَ فِي أَمَاكِينِهِ وَمِحَالِهِ اللَّائِقَةِ بِهِ، بِحَيْثُ يَسْتَحِقُّ عَلَى ذَلِكَ كَمَالَ الْحَمْدِ وَالشَّاءِ، أَوْ جَبَّ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمَ وَالْعِرْفَانَ، إِذْ نَادَى عَلَى رُؤُوسِ الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهِ بِجَنَانٍ ثَابِتٍ وَقَلْبٍ غَيْرِ خَائِفٍ بَلْ مُتَجَرِّدٍ لِلَّهِ ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ * مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظُرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * .

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عُمُومِ قُدْرَتِهِ وَقَهْرِهِ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ، وَذَلَّ كُلَّ شَيْءٍ لِعَظَمَتِهِ، فَقَالَ: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فَكَيْفَ أَخَافُ مَنْ نَاصِيَتُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ، وَهُوَ فِي قَهْرِهِ وَقَبْضَتِهِ وَتَحْتِ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ دُونَهُ، وَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ أَجْهَلِ الْجُهْلِ، وَأَقْبَحِ الظُّلْمِ؟

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَكُلُّ مَا يَقْضِيهِ وَيُقَدِّرُهُ فَلَا يَخَافُ الْعَبْدُ جَوْرَهُ وَلَا ظُلْمَهُ، فَلَا أَخَافُ مَا دُونَهُ، فَإِنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِهِ، وَلَا أَخَافُ جَوْرَهُ وَظُلْمَهُ، فَإِنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَا ضَى فِي عَبْدِهِ حُكْمُهُ، عَدْلٌ فِيهِ قِضَاؤُهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَلَا يَخْرُجُ فِي تَصَرُّفِهِ فِي عِبَادِهِ عَنِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، إِنْ أَعْطَى وَأَكْرَمَ وَهَدَى وَوَفَّقَ فَيَفْضِلُهُ وَرَحِمْتِهِ، وَإِنْ مَنَعَ وَأَهَانَ وَأَضَلَّ وَخَذَلَ وَأَشَقَى فَيَعْدِلُهُ وَحَكَمْتِهِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي هَذَا وَهَذَا.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَأَبْنُ عَبْدِكَ وَأَبْنُ أُمْتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قِضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتُ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِبْعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَعَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَعَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَعَلَّمُهُنَّ؟ قَالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»^(١).

وَهَذَا يَتَنَاوَلُ حُكْمَ الرَّبِّ الْكَوْنِيِّ وَالْأَمْرِيِّ وَقَضَاءَهُ الَّذِي يَكُونُ بِاخْتِيَارِ الْعَبْدِ وَغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، وَكَلاَ الْحَكْمَيْنِ مَاضٍ فِي عَيْدِهِ، وَكَلاَ الْقَضَائَيْنِ عَدْلٌ فِيهِ، فَهَذَا الْحَدِيثُ مُشْتَقٌّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، بَيْنَهُمَا أَقْرَبُ نَسَبٍ.

فَصْلٌ

وَنَحْتِمُ الْجَوَابَ بِفَضْلِ مُتَعَلِّقٍ بِعَشْقِ الصُّورِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَفَاسِدِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَإِنْ كَانَتْ أَضْعَافَ مَا ذَكَرَهُ ذَاكِرٌ، فَإِنَّهُ يُفْسِدُ الْقَلْبَ بِالذَّاتِ، وَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ؛ فَسَدَتِ الْإِرَادَاتُ وَالْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ، وَفَسَدَ ثَغْرُ التَّوْحِيدِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَكَمَا سَتَقَرَّرُهُ أَيْضًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَاللَّهُ إِنَّمَا حَكَمَى هَذَا الْمَرَضَ عَنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ، وَهُمُ اللَّوْطِيَّةُ وَالنِّسَاءُ، فَأَخْبَرَ عَنْ عَشْقِ امْرَأَةٍ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ، وَمَا رَأَوْدَتُهُ وَكَادَتُهُ بِهِ، وَأَخْبَرَ عَنِ الْحَالِ الَّتِي صَارَ إِلَيْهَا يُوسُفُ بِصَبْرِهِ وَعَفْفَتِهِ وَتَقْوَاهُ، مَعَ أَنَّ الَّذِي أَيْتِي بِهِ أَمْرٌ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ صَبَرَهُ اللَّهُ، فَإِنَّ مُوَاقَعَةَ الْفِعْلِ بِحَسَبِ قُوَّةِ الدَّاعِي وَزَوَالِ الْمَانِعِ، وَكَانَ الدَّاعِي هَاهُنَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ:

أَحَدُهَا: مَا رَكَّبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي طَبَعِ الرَّجُلِ مِنْ مَيْلِهِ إِلَى الْمُرَاةِ، كَمَا يَمِيلُ الْعَطْشَانُ إِلَى الْمَاءِ، وَالْجَائِعُ إِلَى الطَّعَامِ، حَتَّى إِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَصْبِرُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا يَصْبِرُ عَنِ النِّسَاءِ، وَهَذَا لَا يُدْمُ إِذَا صَادَفَ حَلَالًا، بَلْ يُحْمَدُ كَمَا فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ بْنِ عَطِيَّةِ الصَّفَّارِ عَنْ ثَابِتِ الْبُنَائِيِّ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «حُبَّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، أَصْبِرُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا أَصْبِرُ عَنْهُنَّ» (١).

(١) ليس في المطبوع. وقد أحال عليه المناوي في الفتح الساموي (١ / ٣٧٧) فقال: "وقد رواه عبد الله بن أحمد في زيادات الزهد عن أبيه من طريق يوسف بن عطية عن ثابت موصولاً أيضاً". وقبله الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الكشاف (١ / ١٩٦) من طريق أبي معمر. وأخرجه ابن حبان في المجروحين (٣ / ١٣٥) من طريق قتيبة بن سعيد كلاهما عن يوسف بن عطية عن ثابت عن

الثاني: أن يوسفَ كان شاباً، وشهوةَ الشبابِ وحِدتهُ أقوى.

الثالث: أنه كان عزباً، ليس له زوجةٌ ولا سريّةٌ تكسرُ شدةَ الشهوةِ.

الرابع: أنه كان في بلادٍ غريبةٍ، يتأتى للغريبِ فيها من قضاءِ الوطرِ ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأةَ كانت ذاتَ منصبٍ وجمالٍ، بحيثُ إنَّ كلَّ واحدٍ من هذينِ الأمرينِ يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غيرُ ممتنعةٍ ولا آبيةٍ، فإنَّ كثيراً من الناسِ يُزيلُ رغبتهُ في المرأةِ إباؤها وامتناعها، لما يجدُ في نفسه من ذلِّ الخضوعِ والسؤالِ لها، وكثيرٌ من الناسِ يزيدُهُ الإباءُ والامتناعُ إرادةً وحباً، كما قال الشاعرُ:

وزادني كلفاً في الحبِّ أن منعت ... أحبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما منعا

فطباعُ الناسِ مختلفَةٌ، فمنهم من يتضاعفُ حبهُ عندَ بذلِ المرأةِ ورغبتها، ويضمحلُّ عندَ إباؤها وامتناعها، وأخبرني بعضُ القضاةِ أنَّ إرادتهُ وشهوتهُ تضمحلُّ عندَ امتناعِ امرأتهِ أو سريتهِ وإباؤها، بحيثُ لا يعاودُها، ومنهم من يتضاعفُ حبهُ وإرادتهُ بالمتعِ فيشتدُّ شوقهُ كلما مُنعَ، ويحصلُ له من اللذةِ بالظفرِ بالضدِّ بعدَ امتناعه ونفاره، واللذةُ بإدراكِ المسألةِ بعدَ استصعابها، وشدةُ الحرصِ على إدراكها.

أنس، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله جل وعلا جعل قرّة عيني في الصلاة. وحبب إلي الطيب كما حبب إلي الجائع الطعام، وإلى الظمآن الماء. والجائع يشبع والظمآن يروى، وأنا لا أشبع من الصلاة. وكان إذا دخل البيت يكون في الصلاة أو في مهنة أهله" لفظ ابن حبان. والحديث لا يصح، وعلته يوسف بن عطية هذا، فإنه متروك الحديث. تنبيه على جملة (أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن): تعقب السيوطي الزركشي في إيراده هذه الجملة، بأنه مر على الزهد لأحمد مراراً فلم يجدها. والذي فيه: "... قرّة عيني في الصلاة، وحبب إلي النساء والطيب، والجائع يشبع، والظمان يروى، وأنا لا أشبع من النساء". فلعله أراد هذا الطريق. انظر فيض القدير (٣/ ٣٧)

السَّابِعُ: أَنَّمَا طَلَبْتَ وَأَرَادْتَ وَبَذَلْتَ الْجُهْدَ، فَكَفَنَتْهُ مُؤَنَةُ الطَّلَبِ وَذَلَّ الرَّغْبَةُ إِلَيْهَا، بَلْ كَانَتْ هِيَ الرَّاعِبَةَ الدَّلِيلَةَ، وَهُوَ الْعَرِيزُ الْمُرْغُوبُ إِلَيْهِ.

الثَّامِنُ: أَنَّهُ فِي دَارِهَا، وَتَحْتَ سُلْطَانِهَا وَقَهْرِهَا، بِحَيْثُ يَخْشَى إِنْ لَمْ يُطَاوِعَهَا مِنْ أَذَاهَا لَهُ، فَاجْتَمَعَ دَاعِي الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ.

التَّاسِعُ: أَنَّهُ لَا يَخْشَى أَنْ تَنَمَّ عَلَيْهِ هِيَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ جِهَتِهَا، فَإِنَّهَا هِيَ الطَّالِبَةُ الرَّاعِبَةُ، وَقَدْ غَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَغَيَّبَتْ الرُّقَبَاءَ.

العَاشِرُ: أَنَّهُ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَمْلُوكًا لَهَا فِي الدَّارِ، بِحَيْثُ يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَحْضُرُ مَعَهَا وَلَا يُنْكِرُ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْأَنْسُ سَابِقًا عَلَى الطَّلَبِ وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي، كَمَا قِيلَ لِامْرَأَةٍ شَرِيفَةٍ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الزَّنى؟ قَالَتْ: قُرْبُ الْوَسَادِ، وَطُولُ السَّوَادِ، تَعْنِي قُرْبَ وَسَادِ الرَّجُلِ مِنْ وَسَادَتِي، وَطُولَ السَّوَادِ بَيْنَنَا.

الحَادِي عَشَرَ: أَنَّمَا اسْتَعَانَتْ عَلَيْهِ بِأَيْمَةِ الْمُكْرِ وَالْإِحْتِيَالِ، فَأَرْتَهُ إِيَّاهُنَّ، وَشَكَتَ حَالَهَا إِلَيْهِنَّ؛ لِنَسْتَعِينَ بِهِنَّ عَلَيْهِ، وَاسْتَعَانَ هُوَ بِاللَّهِ عَلَيْهِنَّ، فَقَالَ: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: ٣٣].

الثَّانِي عَشَرَ: أَنَّمَا تَوَعَّدَتْهُ بِالسَّجْنِ وَالصَّغَارِ، وَهَذَا نَوْعُ إِكْرَاهٍ، إِذْ هُوَ تَهْدِيدٌ مَنْ يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ وَفُوعٌ مَا هَدَدَ بِهِ، فَيَجْتَمِعُ دَاعِي الشَّهْوَةِ، وَدَاعِي السَّلَامَةِ مِنْ ضَيْقِ السَّجْنِ وَالصَّغَارِ.

الثَّلَاثَ عَشَرَ: أَنَّ الزَّوْجَ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ الْغَيْرَةُ وَالنَّخْوَةُ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَهُمَا، وَيُبْعِدُ كُلًّا مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ، بَلْ كَانَ غَايَةَ مَا قَابَلَهَا بِهِ أَنْ قَالَ لِيُوسُفَ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ وَلِلْمَرْأَةِ: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ وَشِدَّةُ الْغَيْرَةِ لِلرَّجُلِ مِنْ أَقْوَى الْمَوَانِعِ، وَهَذَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ غَيْرَةٌ.

وَمَعَ هَذِهِ الدَّوَاعِي كُلِّهَا فَاتَّرَ مَرَضَاةَ اللَّهِ وَخَوْفَهُ، وَحَمَلَهُ حُبُّهُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ اخْتَارَ السَّجْنَ عَلَى الزَّيْنِ:
 ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: ٣٣]، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يُطِيقُ صَرْفَ ذَلِكَ
 عَنْ نَفْسِهِ، وَأَنَّ رَبَّهُ تَعَالَى إِنْ لَمْ يَعِصْمَهُ وَيَصْرِفْ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ؛ صَبَا إِلَيْهِنَّ بِطَبْعِهِ، وَكَانَ مِنَ الْجَاهِلِينَ،
 وَهَذَا مِنْ كَمَالِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ وَبِنَفْسِهِ.

وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنَ الْعِبَرِ وَالْفَوَائِدِ وَالْحِكَمِ مَا يَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ فَائِدَةً، لَعَلَّنَا إِنْ وَفَّقَ اللَّهُ أَنْ نُفْرِدَهَا فِي
 مُصَنَّفٍ مُسْتَقِلٍّ.

فَصْلٌ

وَالطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ، الَّذِينَ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ الْعِشْقَ: هُمُ اللُّوطِيَّةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ
 يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ
 الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سُورَةُ الْحَجَرِ: ٦٧-
 ٧٢].

فَهَذِهِ الْأُمَّةُ عَشِقَتْ فَحَكَاهُ سُبْحَانَهُ عَنْ طَائِفَتَيْنِ، عَشِقَ كُلُّ مِنْهَا مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ مِنَ الصُّورِ، وَلَمْ يُبَالِ
 بِمَا فِي عَشِقِهِ مِنَ الضَّرَرِ.

وَهَذَا دَاءٌ أَعْيَا الْأَطِبَّاءَ دَوَائِهِ، وَعَزَّ عَلَيْهِمْ شِفَاؤُهُ، وَهُوَ وَاللَّهُ الدَّاءُ الْعُضَالُ، وَالسُّمُّ الْقَتَالُ، الَّذِي مَا
 عَلِقَ بِقَلْبٍ إِلَّا وَعَزَّ عَلَى الْوَرَى خَلَاصُهُ مِنْ إِسَارِهِ، وَلَا اشْتَعَلَتْ نَارُهُ فِي مُهْجَةٍ إِلَّا وَصَعَبَ عَلَى الْخَلْقِ
 تَخْلِيصُهَا مِنْ نَارِهِ.

وَهُوَ أَقْسَامٌ:

تَارَةً يَكُونُ كُفْرًا: لَمَنِ اتَّخَذَ مَعْشُوقَهُ نِدَاءً يُجِيبُهُ كَمَا يُجِيبُ اللَّهُ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ مَحَبَّتُهُ أَكْبَرَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ؟ فَهَذَا عَشَقٌ لَا يُغْفَرُ لِصَاحِبِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الشُّرُكِ، وَاللَّهُ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَإِنَّمَا يُغْفَرُ بِالتَّوْبَةِ الْمَاحِيَةِ مَا دُونَ ذَلِكَ.

وَعَلَامَةُ الْعَشَقِ الشَّرِكِيِّ الْكُفْرِيِّ: أَنْ يُقَدِّمَ الْعَاشِقُ رِضَاءَ مَعْشُوقِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَإِذَا تَعَارَضَ عِنْدَهُ حَقُّ مَعْشُوقِهِ وَحِظُّهُ، وَحَقُّ رَبِّهِ وَطَاعَتُهُ، قَدَّمَ حَقَّ مَعْشُوقِهِ عَلَى حَقِّ رَبِّهِ، وَآثَرَ رِضَاءَهُ عَلَى رِضَاءِ رَبِّهِ، وَبَدَّلَ لَهُ أَنْفَسَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَبَدَّلَ لِرَبِّهِ - إِنْ بَدَّلَ - أَرْدَأَ مَا عِنْدَهُ، وَاسْتَفْرَعَ وَسْعَهُ فِي مَرَضَاةِ مَعْشُوقِهِ وَطَاعَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ لِرَبِّهِ - إِنْ أَطَاعَهُ - الْفَضْلَةَ الَّتِي تَفْضُلُ مَعْشُوقَهُ مِنْ سَاعَاتِهِ.

فَتَأْمَلُ حَالَ أَكْثَرِ عَشَاقِ الصُّوَرِ تَجِدُهَا مُطَابِقَةً لِذَلِكَ، ثُمَّ ضَعَّ حَاهِمٌ فِي كِفَّةٍ، وَتَوَحَّيْدُهُمْ وَإِيَابَهُمْ فِي كِفَّةٍ، ثُمَّ زَنَ وَزَنَّا يَرْضَى اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَيُطَابِقُ الْعَدْلَ.

وَرَبِّمَا صَرَّحَ الْعَاشِقُ مِنْهُمْ بِأَنْ وَضَلَ مَعْشُوقَهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ رَبِّهِ، كَمَا قَالَ الْعَاشِقُ الْحَبِيثُ:

يَتَرَشَّفَنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ ... هُنَّ أَحْلَى فِيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ

وكما صرَّحَ الْحَبِيثُ الْآخَرُ بِأَنْ وَضَلَ مَعْشُوقَهُ أَشْهَى إِلَيْهِ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ، - فَعِيَاذًا بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ هَذَا

الْحُدْلَانِ - فَقَالَ:

وَضَلُّكَ أَشْهَى إِلَيَّ فُوَادِي ... مِنْ رَحْمَةِ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ

وَلَا رَيْبَ إِنَّ هَذَا الْعَشَقَ مِنْ أَكْبَرِ الشُّرُكِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يُصْرِّحُ بِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ لِغَيْرِ مَعْشُوقِهِ الْبَتَّةَ، بَلْ قَدْ مَلَكَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ كُلُّهُ فَصَارَ عَبْدًا مُحَضًّا مِنْ كُلِّ وَجْهِ لِمَعْشُوقِهِ، فَقَدْ رَضِيَ هَذَا مِنْ عِبُودِيَةِ الْخَالِقِ ﷻ بِعِبُودِيَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ: فَإِنَّ الْعِبُودِيَةَ هِيَ كَمَا أَلِ الْحُبُّ وَالْخُضُوعُ، وَهَذَا قَدْ اسْتَفْرَعَ قُوَّةَ حُبِّهِ وَخُضُوعِهِ وَذَلَّهُ لِمَعْشُوقِهِ فَقَدْ أَعْطَاهُ حَقِيقَةَ الْعِبُودِيَةِ.

وَلَا نِسْبَةَ بَيْنَ مَفْسَدَةٍ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ وَمَفْسَدَةِ الْفَاحِشَةِ، فَإِنَّ تِلْكَ ذَنْبٌ كَبِيرٌ لِفَاعِلِهِ حُكْمٌ أَمْثَالِهِ، وَمَفْسَدَةٌ هَذَا الْعِشْقِ مَفْسَدَةٌ الشُّرْكِ، وَكَانَ بَعْضُ الشُّيُوخِ مِنَ الْعَارِفِينَ يَقُولُ: لِأَنَّ أُبْتَلِيَ بِالْفَاحِشَةِ مَعَ تِلْكَ الصُّورَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلِيَ فِيهَا بِعِشْقٍ يَتَعَبَّدُ لَهَا قَلْبِي وَيَشْغُلُهُ عَنِ اللَّهِ.

فَصْلٌ

وَدَوَاءُ هَذَا الدَّاءِ الْقَتْلُ: أَنْ يَعْرِفَ أَنْ مَا أُبْتَلِيَ بِهِ مِنْ هَذَا الدَّاءِ الْمُضَادِّ لِلتَّوْحِيدِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ جَهْلِهِ وَغَفْلَةِ قَلْبِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ تَوْحِيدَ رَبِّهِ وَسُنَّتَهُ أَوَّلًا، ثُمَّ يَأْتِيَ مِنَ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ بِمَا يَشْغُلُ قَلْبَهُ عَنِ دَوَامِ الْفِكْرَةِ فِيهِ، وَيُكْثِرُ اللَّجَأَ وَالتَّضَرُّعَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي صَرْفِ ذَلِكَ عَنْهُ، وَأَنْ يُرَاجِعَ بِقَلْبِهِ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ أَنْفَعُ مِنَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَهُوَ الدَّوَاءُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [سُورَةُ يُسُفَ: ٢٤].

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ صَرَفَ عَنْهُ السُّوءَ مِنَ الْعِشْقِ وَالْفَحْشَاءِ مِنَ الْفِعْلِ بِإِخْلَاصِهِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أَخْلَصَ وَأَخْلَصَ عَمَلُهُ لِلَّهِ لَمْ يَتِمَّ كُنْ مِنْهُ عِشْقِ الصُّورِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَتِمَّ كُنْ مِنْ قَلْبٍ فَارِغٍ، كَمَا قَالَ: أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهُوَى ... فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

وَلْيَعْلَمِ الْعَاقِلُ أَنَّ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ يُوجِبَانِ تَحْصِيلَ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلَهَا، وَإِعْدَامَ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلَهَا، فَإِذَا عَرَضَ لِلْعَاقِلِ أَمْرٌ يَرَى فِيهِ مَصْلَحَةً وَمَفْسَدَةً، وَجَبَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ: أَمْرٌ عِلْمِيٌّ، وَأَمْرٌ عَمَلِيٌّ، فَالْعِلْمِيٌّ: مَعْرِفَةُ الرَّاجِحِ مِنْ طَرَفِي الْمَصْلَحَةِ وَالْمَفْسَدَةِ، فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ الرَّجْحَانُ وَجَبَ عَلَيْهِ إِثَارُ الْأَصْلَحِ لَهُ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي عِشْقِ الصُّورِ مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ وَلَا دُنْيَوِيَّةٌ، بَلْ مَفْسَدَةٌ دِينِيَّةٌ وَالدُّنْيَوِيَّةُ أَوْضَعُ أَوْضَعٍ مَا يَقْدَرُ فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهِ:

أَحَدُهَا: الْإِسْتِغَالُ بِحُبِّ الْمَخْلُوقِ وَذِكْرِهِ عَنِ حُبِّ الرَّبِّ تَعَالَى وَذِكْرِهِ، فَلَا يَجْتَمِعُ فِي الْقَلْبِ هَذَا وَهَذَا إِلَّا وَيَقْهَرُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، وَيَكُونُ السُّلْطَانُ وَالْغَلْبَةُ لَهُ.

الثَّانِي: عَذَابُ قَلْبِهِ بِهِ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عَذَّبَ بِهِ وَلَا بُدَّ، كَمَا قِيلَ:
 قَمَا فِي الْأَرْضِ أَشَقَى مِنْ مُحِبٍّ... وَإِنْ وَجَدَ الْهُوَى حُلُوَ الْمَذَاقِ
 تَرَاهُ بَاكِئًا فِي كُلِّ حِينٍ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لِإِسْتِيَاقِ
 فَيَبْكِي إِنْ نَأَى وَشَوْقًا إِلَيْهِمْ... وَيَبْكِي إِنْ دَنَا خَوْفَ الْفِرَاقِ
 فَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الْفِرَاقِ... وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلَاقِ
 وَالْعِشْقُ وَإِنْ اسْتَلَدَّ بِهِ صَاحِبُهُ، فَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ عَذَابِ الْقَلْبِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ قَلْبَهُ أَسِيرٌ قَبْضَةَ غَيْرِهِ يَسُومُهُ الْهُوَانُ، وَلَكِنْ لِسُكْرَتِهِ لَا يَشْعُرُ بِمُصَابِيهِ، فَقَلْبُهُ كَعُصْفُورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلِ يَسُومُهَا حَيَاضَ الرَّدَى، وَالطِّفْلُ يَلْهُو وَيَلْعَبُ، كَمَا قَالَ بَعْضُ هُوَلَاءِ:
 مَلَكْتَ فُؤَادِي بِالْقَطِيعَةِ وَالْجُفَا... وَأَنْتَ خَلِيُّ الْبَالِ تَلْهُو وَتَلْعَبُ
 فَعَيْشُ الْعَاشِقِ عَيْشُ الْأَسِيرِ الْمُوثِقِ، وَعَيْشُ الْخَلِيِّ عَيْشُ الْمَسِيبِ الْمُطْلَقِ.
 طَلِيقٌ بَرَأَى الْعَيْنِ وَهُوَ أَسِيرٌ... عَلِيلٌ عَلَى قُطْبِ الْهَلَاكِ يُدَوِّرُ
 وَمَيِّتٌ يَرَى فِي صُورَةِ الْحَيِّ غَادِيًا... وَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ
 أَخُو غَمَرَاتٍ ضَاعَ فِيهِنَّ قَلْبُهُ... فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى الْمَمَاتِ حُضُورُ

الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَشْتَغِلُ بِهِ عَنْ مَصَالِحِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَضْيَعُ لِمَصَالِحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا مِنْ عِشْقِ الصُّورِ، أَمَّا مَصَالِحُ الدِّينِ فَإِنَّهَا مُنَوَّطَةٌ بِلَمِّ شَعَثِ القَلْبِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ، وَعِشْقُ الصُّورِ أَعْظَمُ شَيْءٍ تَشْعِيثًا وَتَشْتِيًا لَهُ.

وَأَمَّا مَصَالِحُ الدُّنْيَا فَهِيَ تَابِعَةٌ فِي الحَقِيقَةِ لِمَصَالِحِ الدِّينِ، فَمَنْ انْفَرَطَتْ عَلَيْهِ مَصَالِحُ دِينِهِ وَضَاعَتْ عَلَيْهِ، فَمَصَالِحُ دُنْيَاهُ أَضْيَعُ وَأَضْيَعُ.

الخَامِسُ: أَنَّ آفَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَسْرَعُ إِلَى عِشْقِ الصُّورِ مِنَ النَّارِ فِي يَابِسِ الحُطْبِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ: أَنَّ القَلْبَ كُلَّمَا قَرَّبَ مِنَ العِشْقِ وَقَوِيَ اتِّصَالُهُ بِهِ بَعُدَ مِنَ اللَّهِ، فَأَبْعَدُ القُلُوبِ مِنَ اللَّهِ قُلُوبُ عِشَاقِ الصُّورِ، وَإِذَا بَعُدَ القَلْبُ مِنَ اللَّهِ طَرَفَتْهُ الآفَاتُ، وَتَوَلَّاهُ الشَّيْطَانُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ لَمْ يَدْعُ أَذَى يُمَكِّنُهُ إِيصَالَهُ إِلَيْهِ إِلَّا أَوْصَلَهُ، فَمَا الظَّنُّ بِقَلْبٍ تَمَكَّنَ مِنْهُ عَدُوُّهُ وَأَحْرَصُ الخَلْقِ عَلَى غِيِّهِ وَفَسَادِهِ، وَبَعُدَ مِنْهُ وَوَلِيَّهُ، وَمَنْ لَا سَعَادَةَ لَهُ وَلَا فَرَحَ وَلَا سُرُورَ إِلَّا بِقُرْبِهِ وَوِلَايَتِهِ؟

السَّادِسُ: أَنَّهُ إِذَا تَمَكَّنَ مِنَ القَلْبِ وَاسْتَحْكَمَ وَقَوِيَ سُلْطَانُهُ، أَفْسَدَ الذَّهْنَ، وَأَحْدَثَ الوَسْوَاسَ، وَرُبَّمَا أَحَقَّ صَاحِبَهُ بِالْمَجَانِينِ الَّذِينَ فَسَدَتْ عُقُوبُهُمْ فَلَا يَتَّفَعُونَ بِهَا.

وَأَخْبَارُ العِشَاقِ فِي ذَلِكَ مَوْجُودَةٌ فِي مَوَاضِعِهَا، بَلْ بَعْضُهَا مَشَاهِدٌ بِالْعِيَانِ، وَأَشْرَفُ مَا فِي الإِنْسَانِ عَقْلُهُ، وَبِهِ يَتَمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ الحَيَوَانَاتِ، فَإِذَا عَدِمَ عَقْلُهُ التَّحَقَّقَ بِالحَيَوَانَاتِ البَهِيمِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ حَالُ الحَيَوَانَاتِ أَصْلَحَ مِنْ حَالِهِ، وَهَلْ أَذْهَبَ عَقْلُ مَجْنُونٍ لَيْلٍ وَأَضْرَابِهِ إِلَّا ذَلِكَ؟ وَرُبَّمَا زَادَ جُنُونُهُ عَلَى جُنُونِ غَيْرِهِ كَمَا قِيلَ:

قَالُوا جُنُنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ هُمْ... العِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ
العِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبَهُ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ المَجْنُونُ فِي الحِينِ

السَّابِعُ: أَنَّهُ رَبُّمَا أَفْسَدَ الْحَوَاسَّ أَوْ بَعْضَهَا، إِمَّا إِفْسَادًا مَعْنَوِيًّا أَوْ صُورِيًّا، أَمَّا الْفَسَادُ الْمَعْنَوِيُّ فَهُوَ تَابِعٌ لِفَسَادِ الْقَلْبِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا فَسَدَ فَسَدَتِ الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ وَاللِّسَانُ، فَيَرَى الْقَبِيحَ حَسَنًا مِنْهُ وَمَنْ مَعَشَوْهُ كَمَا فِي الْمُسْنَدِ مَرْفُوعًا: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ» فَهُوَ يَعْمِي عَيْنَ الْقَلْبِ عَنْ رُؤْيَةِ مَسَاوِي الْمَحْبُوبِ وَعُيُوبِهِ، فَلَا تَرَى الْعَيْنُ ذَلِكَ، وَيُصِمُّ أُذُنَهُ عَنِ الْإِصْغَاءِ إِلَى الْعَدْلِ فِيهِ، فَلَا تَسْمَعُ الْأُذُنُ ذَلِكَ، وَالرَّغَبَاتُ تَسْتُرُ الْعُيُوبَ، فَالرَّاعِبُ فِي الشَّيْءِ لَا يَرَى عُيُوبَهُ، حَتَّى إِذْ زَالَتْ رَغَبَتُهُ فِيهِ أَبْصَرَ عُيُوبَهُ، فَشِدَّةُ الرَّغْبَةِ غَشَاوَةٌ عَلَى الْعَيْنِ، تَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَةِ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ بِهِ، كَمَا قِيلَ:

هُوَ يَتَكَّ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غَشَاوَةٌ... فَلَمَّا أَنْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أَلْوَمَهَا

وَالدَّخِلُ فِي الشَّيْءِ لَا يَرَى عُيُوبَهُ، وَالخَارِجُ مِنْهُ الَّذِي لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ لَا يَرَى عُيُوبَهُ، وَلَا يَرَى عُيُوبَهُ إِلَّا مَنْ دَخَلَ فِيهِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهُ، وَهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْكُفْرِ خَيْرًا مِنَ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ.

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّمَا تَتَّقِضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرُورَةَ عُرُورَةٍ، إِذَا وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْجَاهِلِيَّةَ.

وَأَمَّا فَسَادُ الْحَوَاسِّ ظَاهِرًا، فَإِنَّهُ يَمْرُضُ الْبَدَنَ وَيُنْهَكُهُ، وَرَبُّمَا أَدَّى إِلَى تَلْفِهِ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي أَخْبَارِ مَنْ قَتَلَهُمُ الْعِشْقُ.

وَقَدْ رُفِعَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ بَعْرَفَةٌ شَابٌّ قَدْ انْتَحَلَ حَتَّى عَادَ جِلْدًا عَلَى عَظْمٍ، فَقَالَ: مَا شَأْنُ هَذَا؟ قَالُوا: بِهِ الْعِشْقُ، فَجَعَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِنَ الْعِشْقِ عَامَّةً يَوْمَهُ.

الثَّامِنُ: أَنَّ الْعِشْقَ كَمَا تَقَدَّمَ هُوَ الْإِفْرَاطُ فِي الْمُحِبَّةِ، بِحَيْثُ يَسْتَوِلِي الْمُعْشُوقُ عَلَى قَلْبِ الْعَاشِقِ، حَتَّى لَا يَخْلُو مِنْ تَحْيِيلِهِ وَذِكْرِهِ وَالْفِكْرِ فِيهِ، بِحَيْثُ لَا يَغِيبُ عَنْ خَاطِرِهِ وَذَهْنِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَشْتَغِلُ النَّفْسُ عَنْ

استخدام القوة الحيوانية والنفسانية فتعطل تلك القوة، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فتعجز البشر عن صلاحه، كما قيل:

الحُبُّ أَوْلُ مَا يَكُونُ لِحَاجَةٍ... يَأْتِي بِهَا وَتَسُوقُهُ الْأَقْدَارُ

حَتَّى إِذَا خَاصَّ الْفَتَى لُجُجُ الْهُوَى... جَاءَتْ أُمُورٌ لَا تُطَاقُ كِبَارُ

وَالْعِشْقُ مَبَادِيهِ سَهْلَةٌ حُلُوءٌ، وَأَوْسَطُهُ هَمٌّ وَشُغْلٌ قَلْبٍ وَسَقَمٌ، وَآخِرُهُ عَطْبٌ وَقَتْلٌ، إِنْ لَمْ تَتَدَارَكْهُ عِنَايَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قِيلَ:

وَعِشْ خَالِيًا فَالْحُبُّ أَوْلُهُ عَنَا... وَأَوْسَطُهُ سَقَمٌ وَآخِرُهُ قَتْلٌ

وَقَالَ آخَرُ:

تَوَلَّعَ بِالْعِشْقِ حَتَّى عَشِقُ... فَلَمَّا اسْتَقَلَّ بِهِ لَمْ يُطِقْ

رَأَى لُجَّةً ظَنَّهَا مَوْجَةً... فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا غَرِقَ

وَالذَّنْبُ لَهُ، فَهُوَ الْجَانِي عَلَى نَفْسِهِ، وَقَدْ قَعَدَتْ مِثْلُ السَّائِرِ: "يَدَاكَ أَوْ كَتَا، وَفُوكَ نَفَخَ".

فَصَلِّ

وَالْعَاشِقُ لَهُ ثَلَاثُ مَقَامَاتٍ: مَقَامُ ابْتِدَاءٍ، وَمَقَامُ تَوْسُطٍ، وَمَقَامُ انْتِهَاءٍ.

فَأَمَّا مَقَامُ ابْتِدَائِهِ: قَالُوا: يَجِبُ عَلَيْهِ مُدَافَعَتُهُ بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ الْوُصُولُ إِلَى مَعْشُوقِهِ مُتَعَذِّرًا قَدْرًا وَشَرْعًا، فَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ وَأَبَى قَلْبُهُ إِلَّا السَّفَرَ إِلَى مَحْبُوبِهِ - وَهَذَا مَقَامُ التَّوَسُّطِ وَالْإِنْتِهَاءِ - فَعَلَيْهِ كِتَابُهُ ذَلِكَ، وَأَنْ لَا يُفْشِيَهُ إِلَى الْخَلْقِ، وَلَا يُشِمَّتَ بِمَحْبُوبِهِ وَيَهْتِكُهُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ الشَّرْكِ

وَالظُّلْمِ، فَإِنَّ الظُّلْمَ فِي هَذَا البَابِ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ، وَرُبَّمَا كَانَ أَعْظَمَ ضَرَرًا عَلَى الْمُعْشُوقِ وَأَهْلِهِ مِنْ ظُلْمِهِ فِي مَالِهِ، فَإِنَّهُ يُعَرِّضُ الْمُعْشُوقَ بِهَيْتِكَ فِي عَشِقِهِ لِي وَفُوقِ النَّاسِ فِيهِ، وَأَنْفَسَامِهِمْ إِلَى مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ، وَأَكْثَرَ النَّاسِ يَصَدِّقُ فِي هَذَا البَابِ بِأَذْنَى شُبْهَةٍ، وَإِذَا قِيلَ فُلَانٌ فَعَلَّ فُلَانٌ أَوْ بِفُلَانَةٍ، كَذَّبَهُ وَاحِدٌ وَصَدَقَهُ تِسْعِمِائَةً وَتِسْعَةً وَتِسْعُونَ.

وَخَبِرَ العَاشِقِ المْتَهَتِكِ عِنْدَ النَّاسِ فِي هَذَا البَابِ يُفِيدُ القَطْعَ البَقِيئِيَّ، بَلْ إِذَا أَخْبَرَهُمُ المَّفْعُولُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ كَذِبًا وَافْتِرَاءً عَلَى غَيْرِهِ جَزَمُوا بِصِدْقِهِ جَزْمًا لَا يَحْتَمِلُ النَّقِيضَ، بَلْ لَوْ جَمَعَهَا مَكَانًا وَاحِدًا اتَّفَاقًا؛ لَجَزَمُوا أَنَّ ذَلِكَ عَنْ وَعْدٍ وَاتَّفَاقٍ بَيْنَهُمَا، وَجَزَمُوهُمْ فِي هَذَا البَابِ عَلَى الظُّنُونِ وَالتَّخِيلِ وَالشُّبْهِ وَالْأَوْهَامِ وَالأَخْبَارِ الكَاذِبَةِ، كَجَزَمِهِمْ بِالحُسِّيَّاتِ المُشَاهِدَةِ، وَبِذَلِكَ وَقَعَ أَهْلُ الإِفْكِ فِي الطَّيِّبَةِ المُطَيَّبَةِ، حَبِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، المَبْرَأَةَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، بِشُبْهَةِ حِجْيَاءِ صَفْوَانَ بْنِ المَعْطَلِ بِهَا وَحَدَهُ خَلْفَ العَسْكَرِ حَتَّى هَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَلَوْلَا أَنْ تَوَلَّى اللهُ سُبْحَانَهُ بَرَاءَتَهَا، وَالدَّبَّ عَنْهَا، وَتَكْذِيبَ قَاذِفِهَا، لَكَانَ أَمْرًا آخَرَ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ فِي إِظْهَارِ المُبْتَلَى عِشْقَ مَنْ لَا يَحِلُّ لَهُ الإِتِّصَالُ بِهِ مِنْ ظُلْمِهِ وَأَذَاهُ مَا هُوَ عُذْوَانٌ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ، وَتَعَرُّضَ لِتَصْدِيقِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ظُنُونَهُمْ فِيهِ، فَإِنْ اسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِمَنْ يَسْتَمِيلُهُ إِلَيْهِ، إِمَّا بِرَغْبَةٍ أَوْ رَهْيَةٍ، تَعَدَّى الظُّلْمُ وَانْتَشَرَ، وَصَارَ ذَلِكَ الوَاسِطَةَ دِيوثًا ظَالِمًا، وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ لَعَنَ الرَّائِشَ - وَهُوَ الوَاسِطَةُ بَيْنَ الرَّائِشِيِّ وَالمُرْتَشِيِّ فِي إِيْصَالِ الرِّشْوَةِ - فَمَا ظَنُّكَ بِالدِّيوثِ الوَاسِطَةِ بَيْنَ العَاشِقِ وَالمُعْشُوقِ فِي الوَصْلِ، فَيَتَسَاعَدُ العَاشِقُ وَالدِّيوثُ عَلَى ظُلْمِ المُعْشُوقِ وَظُلْمِ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَتَوَقَّفُ حُصُولُ عَرَضِهِ عَلَى ظُلْمِهِ فِي نَفْسٍ أَوْ مَالٍ أَوْ عَرَضٍ، فَإِنَّ كَثِيرًا مَا يَتَوَقَّفُ المَطْلُوبُ فِيهِ عَلَى قَتْلِ نَفْسٍ يَكُونُ حَيَاتُهَا مَانِعَةً مِنْ عَرَضِهِ، وَكَمْ قَتِيلٍ طَلَّ دَمُهُ بِهَذَا السَّبَبِ، مِنْ زَوْجٍ وَسَيِّدٍ وَقَرِيبٍ، وَكَمْ حُبَيْتِ امْرَأَةٍ

عَلَى بَعْلِهَا، وَجَارِيَةٍ وَعَبْدٍ عَلَى سَيِّدِهِمَا، وَقَدْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ نَهَى أَنْ يُحْتَبَبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ، وَأَنْ يَسْتَأْمَ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَسْعَى فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ رَجُلٍ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ وَأُمَّتِهِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِهِمَا؟

وَعَشَّاقُ الصُّورِ وَمُسَاعِدُوهُمْ مِنَ الدِّيَابِثَةِ لَا يَرُونَ ذَلِكَ ذَنْبًا، فَإِنْ طَلَبَ الْعَاشِقُ وَصَلَ مَعْشُوقَهُ وَمُشَارَكَةَ الزَّوْجِ وَالسَّيِّدِ، فَفِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ ظَلَمَ الْغَيْرَ مَا لَعَلَّهُ لَا يَقْضُرُ عَنْ إِثْمِ الْفَاحِشَةِ، وَإِنْ لَمْ يُرَبِّ عَلَيْهَا، وَلَا يَسْقُطُ حَقُّ الْغَيْرِ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الْفَاحِشَةِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ وَإِنْ أَسْقَطَتْ حَقَّ اللَّهِ فَحَقُّ الْعَبْدِ بَاقٍ لَهُ الْمُطَالَبَةُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ مَنْ ظَلَمَ الْوَالِدَ إِفْسَادًا وَلِدَهُ وَفَلَدَةَ كَبِدِهِ، وَمَنْ هُوَ أَعَزُّ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، فَظَلَمَ الزَّوْجَ بِإِفْسَادِ حَبِيبَتِهِ وَالْجَنَائَةَ عَلَى فِرَاشِهِ - أَعْظَمُ مِنْ ظُلْمِهِ بِأَخْذِ مَالِهِ كُلِّهِ، وَهَذَا يُؤْذِيهِ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِمَّا يُؤْذِيهِ أَخْذُ مَالِهِ، وَلَا يَعْدِلُ ذَلِكَ عِنْدَهُ إِلَّا سَفْكَ دَمِهِ، فَيَا لَهُ مِنْ ظُلْمٍ أَعْظَمَ إِنَّهَا مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَفَ لَهُ الْجَنَائِي الْفَاعِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ لَهُ: «خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ» كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَمَا ظَنُّكُمْ؟ أَيْ: فَمَا تَظُنُّونَ يَبْقَى لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ؟ فَإِنْ أَنْصَفَ إِلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْمُظْلُومُ جَارًا، أَوْ ذَا رَحِمٍ مُحَرَّمٍ، تَعَدَّدَ الظُّلْمُ فَصَارَ ظُلْمًا مُؤَكَّدًا لِقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَإِيْدَاءِ الْجَارِ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ، وَلَا مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بِوَأْتِقَهُ.

فَإِنْ اسْتَعَانَ الْعَاشِقُ عَلَى وَصَالِ مَعْشُوقِهِ بِشَيَاطِينِ الْجِنِّ - إِمَّا بِسِحْرِ أَوْ اسْتِخْدَامِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ - ضَمَّ إِلَى الشَّرِكِ وَالظُّلْمِ كُفْرَ السِّحْرِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ هُوَ وَرَضِيَ بِهِ، كَانَ رَاضِيًا بِالْكَفْرِ غَيْرِ كَارِهِ لِحُصُولِ مَقْصِدِهِ، وَهَذَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ مِنَ الْكُفْرِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنْ التَّعَاوُنَ فِي هَذَا الْبَابِ، تَعَاوُنٌ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

وَأَمَّا مَا يَقْتَرِنُ بِحُصُولِ غَرَضِ الْعَاشِقِ مِنَ الظُّلْمِ الْمُتَشِيرِ الْمُتَعَدِّي ضَرَرُهُ فَأَمْرٌ لَا يَخْفَى، فَإِنَّهُ إِذَا حَصَلَ لَهُ مَقْصُودُهُ مِنَ الْمُعْشُوقِ، فَلِلْمُعْشُوقِ أَعْرَاضٌ أُخْرَى يُرِيدُ مِنَ الْعَاشِقِ إِعَانَتَهُ عَلَيْهَا، فَلَا يَجِدُ مِنْ إِعَانَتِهِ بَدَأً، فَيَقَى كُلَّ مِنْهَا يُعِينُ الْآخَرَ عَلَى الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَالْمُعْشُوقُ يُعِينُ الْعَاشِقَ عَلَى ظُلْمِ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ أَهْلِهِ وَأَقَارِبِهِ وَسَيِّدِهِ وَرَوْجِهِ، وَالْعَاشِقُ يُعِينُ الْمُعْشُوقَ عَلَى ظُلْمِ مَنْ يَكُونُ غَرَضُ الْمُعْشُوقِ مُتَوَقِّفًا عَلَى ظُلْمِهِ، فَكُلُّ مِنْهَا يُعِينُ الْآخَرَ عَلَى أَعْرَاضِهِ الَّتِي فِيهَا ظَلَمَ النَّاسَ، فَيَحْصُلُ الْعُدْوَانُ وَالظُّلْمُ بِسَبَبِ اشْتِرَاكِهِمَا فِي الْقُبْحِ لِتَعَاوُنِهِمَا بِذَلِكَ عَلَى الظُّلْمِ، كَمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ بَيْنَ الْعُشَّاقِ وَالْمُعْشُوقِينَ، مِنْ إِعَانَةِ الْعَاشِقِ لِمُعْشُوقِهِ عَلَى مَا فِيهِ ظُلْمٌ وَعُدْوَانٌ وَبَغْيٌ، حَتَّى رُبَّمَا يَسْعَى لَهُ فِي مَنْصِبٍ لَا يَلِيقُ بِهِ وَلَا يَصْلُحُ لِمَثَلِهِ، وَفِي تَحْصِيلِ مَالٍ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، وَفِي اسْتِطْلَاقِهِ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِذَا اخْتَصَمَ مَعْشُوقُهُ وَغَيْرُهُ أَوْ تَشَاكَيْمَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا فِي جَانِبِ الْمُعْشُوقِ ظَالِمًا كَانَ أَوْ مَظْلُومًا، هَذَا إِلَى مَا يَنْصُمُّ إِلَى ذَلِكَ مِنْ ظُلْمِ الْعَاشِقِ لِلنَّاسِ بِالتَّحِيلِ عَلَى أَخْذِ أَمْوَالِهِمْ، وَالتَّوَصُّلِ بِهَا إِلَى مَعْشُوقِهِ بِسَرِقَةٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ خِيَانَةٍ أَوْ يَمِينٍ كَادِيَةٍ أَوْ قَطْعِ طَرِيقٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَرُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، لِيَأْخُذَ مَالَهُ لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى مَعْشُوقِهِ.

فَكُلُّ هَذِهِ الْأَفَاتِ وَأَضْعَافُهَا وَأَضْعَافُ أَضْعَافِهَا تَنْشَأُ مِنْ عَشْقِ الصُّورِ، وَرُبَّمَا حَمَلَ عَلَى الْكُفْرِ الصَّرِيحِ، وَقَدْ تَنْصَرَّ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ نَشُوا فِي الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ الْعَشْقِ، كَمَا جَرَى لِبَعْضِ الْمُؤَدِّينَ حِينَ أَبْصَرَ امْرَأَةً جَمِيلَةً عَلَى سَطْحٍ، فَفَتِنَ بِهَا، وَنَزَلَ، وَدَخَلَ عَلَيْهَا، وَسَأَلَهَا نَفْسَهَا، فَقَالَتْ: هِيَ نَصْرَانِيَّةٌ، فَإِنْ دَخَلْتَ فِي دِينِي تَزَوَّجْتُ بِكَ، فَفَعَلَ، فَفَرَّقِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى دَرَجَةٍ عِنْدَهُمْ فَسَقَطَ مِنْهَا قِمَاتٌ، ذَكَرَ هَذَا عَبْدُ الْحَقِّ فِي كِتَابِ الْعَاقِبَةِ لَهُ.

وَإِذَا أَرَادَ النَّصَارَى أَنْ يُنْصَرُوا وَالْأَسِيرَ، أَرَوْهُ أَمْرًا جَمِيلَةً وَأَمْرًا وَهًا أَنْ تُطْمِعَهُ فِي نَفْسِهَا حَتَّى إِذَا تَمَكَّنَ حُبُّهَا مِنْ قَلْبِهِ، بَدَلَتْ لَهُ نَفْسَهَا إِنْ دَخَلَ فِي دِينِهَا، فَهَذَا ذَلِكَ: ﴿يَشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ٢٧].

وَفِي الْعِشْقِ مِنْ ظُلْمٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَاشِقِ وَالْمَعْشُوقِ لِصَاحِبِهِ بِمَعَاوَنَتِهِ لَهُ عَلَى الْفَاحِشَةِ، وَظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ مَا فِيهِ، فَكُلٌّ مِنْهَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَصَاحِبِهِ، وَظُلْمُهُمَا مُتَعَدِّ لِي الْعَيْرِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ظُلْمُهُمَا بِالشَّرْكِ، فَقَدْ تَضَمَّنَ الْعِشْقُ أَنْوَاعَ الظُّلْمِ كُلِّهَا.

وَالْمَعْشُوقُ إِذَا لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّهُ يُعْرِضُ الْعَاشِقَ لِلتَّوَلُّفِ، وَذَلِكَ ظُلْمٌ مِنْهُ، بَأَنْ يُطْمِعَهُ فِي نَفْسِهِ وَيَتَزَيَّنَ لَهُ وَيَسْتَمِيلُهُ بِكُلِّ طَرِيقٍ حَتَّى يَسْتَخْرِجَ مِنْهُ مَالَهُ وَنَفْعَهُ وَلَا يُمْكِنُهُ مِنْ نَفْسِهِ، لِئَلَّا يَزُولَ عَرْضُهُ بِقَضَاءِ وَطَرِهِ مِنْهُ، فَهُوَ يَسُوؤُهُ سُوءَ الْعَذَابِ، وَالْعَاشِقُ رَبُّمَا قَتَلَ مَعْشُوقَهُ لِيَشْفِي نَفْسَهُ مِنْهُ، وَلَا سِيَّأَ إِذَا جَادَ بِالْوَصَالِ لِغَيْرِهِ، فَكَمَ لِلْعِشْقِ مِنْ قَتِيلٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَكَمَ أَرَاكَ مِنْ نِعْمَةٍ، وَأَقْفَرَ مِنْ غِنَى، وَأَسْقَطَ مِنْ مَرْتَبَةٍ، وَشَتَّتَ مِنْ شَمَلٍ، وَكَمَ أَفْسَدَ مِنْ أَهْلِ لِلرَّجُلِ وَوَلَدِهِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا رَأَتْ بَعْلَهَا عَاشِقًا لِغَيْرِهَا اخْتَدَتْ هِيَ مَعْشُوقًا لِنَفْسِهَا، فَيَصِيرُ الرَّجُلُ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ خَرَابِ بَيْتِهِ بِالطَّلَاقِ وَبَيْنَ الْقِيَادَةِ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُؤَثِّرُ هَذَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤَثِّرُ هَذَا.

فَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يُحْكَمَ عَلَى نَفْسِهِ عِشْقَ الصُّورِ، لِئَلَّا يُؤَدِّيَهُ ذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْمَفَاسِدِ أَوْ أَكْثَرِهَا أَوْ بَعْضِهَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ الْمَفْرُطُ بِنَفْسِهِ الْمُعْزِرُ بِهَا، فَإِذَا هَلَكَتْ فَهُوَ الَّذِي أَهْلَكَهَا، فَلَوْ لَا تَكَرُّرُهُ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ مَعْشُوقِهِ وَطَمَعُهُ فِي وَصَالِهِ لَمْ يَتِمَّكَنْ عِشْقُهُ مِنْ قَلْبِهِ، فَإِنَّ أَوَّلَ سَبَابِ الْعِشْقِ الْإِسْتِحْسَانُ سُوءًا تَوَلَّدَ عَنْ نَظَرٍ أَوْ سَمَاعٍ، فَإِنْ لَمْ يُقَارِنْهُ طَمَعٌ فِي الْوَصَالِ وَقَارِنَهُ الْإِيَّاسُ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَخْدُثْ لَهُ الْعِشْقُ، فَإِنْ أَقْتَرَنَ بِهِ الطَّمَعُ فَصَرَفَهُ عَنْ فِكْرِهِ وَلَمْ يَشْغَلْ قَلْبُهُ بِهِ؛ لَمْ يَخْدُثْ لَهُ ذَلِكَ، فَإِنْ أَطَالَ مَعَ ذَلِكَ الْفِكْرُ فِي مَحَاسِنِ الْمَعْشُوقِ وَقَارِنَهُ خَوْفٌ مَا هُوَ أَكْبَرُ عِنْدَهُ مِنْ لَذَّةِ وَصَالِهِ، إِذَا خَوْفٌ دِينِي كَدُحُولِ النَّارِ،

وَعَضِبَ الْجَبَّارِ، وَاحْتَقَابِ الْأَوْزَارِ، وَعَلَبَ هَذَا الْخَوْفُ عَلَى ذَلِكَ الطَّمَعِ وَالْفِكْرِ؛ لَمْ يَحْدُثْ لَهُ ذَلِكَ الْعِشْقُ، فَإِنْ فَاتَهُ هَذَا الْخَوْفُ فَقَارَنَهُ خَوْفُ دُنْيَوِيٍّ كَخَوْفِ إِتْلَافِ نَفْسِهِ، أَوْ مَالِهِ، أَوْ ذَهَابِ جَاهِهِ وَسُقُوطِ مَرْتَبَتِهِ عِنْدَ النَّاسِ، وَسُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِ مَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ، وَعَلَبَ هَذَا الْخَوْفُ لِدَاعِي الْعِشْقِ دَفَعَهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا خَافَ مِنْ فَوَاتِ مَحْبُوبٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ وَانْفَعُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ الْمُعْشُوقِ، وَقَدَّمَ مَحَبَّتَهُ عَلَى مَحَبَّةِ ذَلِكَ الْمُعْشُوقِ؛ أُنْدَفَعَ عَنْهُ الْعِشْقُ، فَإِنْ انْتَفَى ذَلِكَ كُلُّهُ، وَعَلَبَتْ مَحَبَّةُ الْمُعْشُوقِ لِذَلِكَ، أَنْجَذَبَ إِلَيْهِ الْقَلْبَ بِالْكَلْبِيَّةِ، وَمَالَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ كُلَّ الْمِيلِ.

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ ذَكَرْتُمْ آفَاتِ الْعِشْقِ وَمَضَارَّهُ وَمَفَاسِدَهُ، فَهَلَّا ذَكَرْتُمْ مَنَافِعَهُ وَفَوَائِدَهُ الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا: رِقَّةُ الطَّبَعِ، وَتَرْوِيحُ النَّفْسِ وَخَفَّتِهَا، وَزَوَالُ ثِقَلِهَا وَرِيَاضَتُهَا، وَحَمْلُهَا عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، مِنَ الشَّجَاعَةِ، وَالْكَرَمِ، وَالْمُرُوءَةِ، وَرِقَّةِ الْحَاشِيَةِ، وَلُطْفِ الْجَانِبِ.

وَقَدْ قِيلَ لِيَحْيَى بْنِ مُعَاذِ الرَّازِيِّ: إِنَّ ابْنَكَ قَدْ عَشِقَ فَلَانَةً، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَيَّرَهُ إِلَى طَبَعِ الْأَدْمِيِّ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعِشْقُ دَوَاءٌ أَفْتَدَةَ الْكَرَامَ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: الْعِشْقُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِذِي مُرُوءَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَخَلِيقَةٍ طَاهِرَةٍ، أَوْ لِذِي لِسَانٍ فَاضِلٍ، وَإِحْسَانٍ كَامِلٍ، أَوْ لِذِي أَدَبٍ بَارِعٍ، وَحَسَبٍ نَاصِعٍ.

وَقَالَ آخَرُ: الْعِشْقُ يُشْجِعُ جَنَانَ الْجَبَانِ، وَيُصَفِّي ذَهْنَ الْعَبِيِّ، وَيُسَخِّي كَفَّ الْبَخِيلِ، وَيُنْدِلُ عِزَّةَ الْمُلُوكِ، وَيُسَكِّنُ نَوَافِرَ الْأَخْلَاقِ، وَهُوَ أُنَيْسٌ مَنْ لَا أُنَيْسَ لَهُ، وَجَلِيسٌ مَنْ لَا جَلِيسَ لَهُ.

وَقَالَ آخَرُ: الْعِشْقُ يُزِيلُ الْأَثْقَالَ، وَيُلَطِّفُ الرُّوحَ، وَيُصَفِّي كَدَرَ الْقَلْبِ، وَيُوجِبُ الْإِزْتِيَاحَ لِأَفْعَالِ الْكَرَامِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

سَيَهْلِكُ فِي الدُّنْيَا شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ... إِذَا غَالَهُ مِنْ حَادِثِ الْحُبِّ غَائِلُهُ
 كَرِيمٌ يَمِيتُ السَّرَّ حَتَّى كَانَهُ... إِذَا اسْتَفْهَمُوهُ عَنْ حَدِيثِكَ جَاهِلُهُ
 يَوَدُّ بَأْنَ يُمَسِّي سَقِيماً لَعَلَّهَا... إِذَا سَمِعَتْ عَنْهُ بِشَكْوَى تُرَاسِلُهُ
 وَيَهْتَرُ لِلْمَعْرُوفِ فِي طَلَبِ الْعُلَا... لِتُحْمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلَى شَمَائِلُهُ
 فَالْعِشْقُ يَحْمِلُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعِشْقُ يُرَوِّضُ النَّفْسَ، وَيَهْدِبُ الْأَخْلَاقَ، وَإِظْهَارُهُ طَبِيعِيٌّ، وَإِضْمَارُهُ
 تَكْلِيفِيٌّ.

وَقَالَ الْآخَرُ: مَنْ لَمْ يَهَيِّجْ نَفْسَهُ بِالصَّوْتِ الشَّجِيِّ، وَالْوَجْهِ الْبِهِيِّ، فَهُوَ فَاسِدُ الْمِرْجَاجِ، يَخْتَاجُ إِلَى
 عِلَاجٍ، وَأَنْشُدُوا فِي ذَلِكَ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهُوَى... فَمَا لَكَ فِي طَيْبِ الْحَيَاةِ نَصِيبُ

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهُوَى... فَأَنْتَ وَعَيْرٌ فِي الْفَلَاةِ سَوَاءُ

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهُوَى... فَقُمْ فَاعْتَلِفْ تَبِنًا فَأَنْتَ حِمَارُ

وَقَالَ بَعْضُ الْعُشَّاقِ أَوْلُو الْعِفَّةِ وَالصِّيَانَةِ: عَفُوا تَشْرُفُوا، وَاعْشَقُوا تَظْفَرُوا.

وَقِيلَ لِبَعْضِ الْعُشَّاقِ: مَا كُنْتَ تَصْنَعُ لَوْ ظَفَرْتَ بِمَنْ تَهْوَى؟ فَقَالَ: كُنْتُ أُمَّتَعُ طَرْفِي بِوَجْهِهِ،
وَأُرَوِّحُ قَلْبِي بِذِكْرِهِ وَحَدِيثِهِ، وَأَسْتُرُّ مِنْهُ مَا لَا يُحِبُّ كَشْفَهُ، وَلَا أَصِيرُ بِقِيحِ الْفِعْلِ إِلَى مَا يَنْقُضُ عَهْدَهُ،
ثُمَّ أَنْشَدَ:

أَخْلُو بِهِ فَأَعْفُ عَنْهُ تَكْرُمًا ... خَوْفَ الدِّيَانَةِ لَسْتُ مِنْ عُشَّاقِهِ

كَالْمَاءِ فِي يَدِ صَائِمٍ يَلْتَدُهُ ... ظَمًا فَيَصْبِرُ عَنْ لَذِيذِ مَدَاقِهِ

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: أَرْوَاحُ الْعُشَّاقِ عَطِرَةٌ لَطِيفَةٌ، وَأَبْدَانُهُمْ رَقِيقَةٌ خَفِيفَةٌ، نُزْهِتُهُمُ الْمُوَاسَّئَةُ،
وَكَلامُهُمْ يُجِيبِي مَوَاتِ الْقُلُوبِ، وَيَزِيدُ فِي الْعُقُولِ، وَلَوْ لَا الْعِشْقُ وَالْهُوَى لَبَطَلَ نَعِيمُ الدُّنْيَا.
وَقَالَ آخَرُ: الْعِشْقُ لِلْأَرْوَاحِ بِمَنْزِلَةِ الْغِذَاءِ لِلْأَبْدَانِ، إِنْ تَرَكَتَهُ ضَرَّكَ، وَإِنْ أَكْثَرْتَ مِنْهُ قَتَلَكَ، وَفِي
ذَلِكَ قِيلَ:

خَلِيلِي إِنْ الْحُبَّ فِيهِ لَدَاذَةٌ ... وَفِيهِ شَقَاءٌ دَائِمٌ وَكُرُوبٌ

عَلَى ذَلِكَ مَا عَيْشٌ يَطِيبُ بَعْدَهُ ... وَلَا عَيْشٌ إِلَّا بِالْحَيْبِ يَطِيبُ

وَلَا خَيْرٌ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ صَبَابَةٍ ... وَلَا فِي نَعِيمٍ لَيْسَ فِيهِ حَيْبٌ

وَذَكَرَ الْحَرَاثِيُّ عَنْ أَبِي غَسَّانَ قَالَ: مَرَّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بِجَارِيَةٍ وَهِيَ تَقُولُ:

وَهَوَيْتُهُ مِنْ قَبْلِ قَطْعِ تَمَائِمِي ... مُتَمَّيلاً مِثْلَ الْقَضِيبِ النَّاعِمِ

سَأَلَهَا: أَحْرَةً أَنْتِ أَمْ مَمْلُوكَةٌ؟ قَالَتْ: بَلْ مَمْلُوكَةٌ، فَقَالَ: مَنْ هُوَاكَ؟ فَتَلَكَّأَتْ، فَأَقْسَمَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ:

وَأَنَا الَّتِي لَعِبَ الْهُوَى بِفُؤَادِهَا ... قَتَلْتُ بِحُبِّ مُحَمَّدِ بْنِ الْقَاسِمِ

فَاشْتَرَاهَا مِنْ مَوْلَاهَا، وَبَعَثَ بِهَا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: هُوَ لِأَيِّ اللَّهِ فَتَنَ الرَّجَالِ، وَكَمْ وَاللَّهِ مَاتَ بِهِنَّ كَرِيمٌ، وَعَطِبَ بِهِنَّ سَلِيمٌ.

وَجَاءَتْ جَارِيَةٌ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ تَسْتَعِدِّي عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ لَهَا عُثْمَانُ: مَا قِصَّتِكَ؟ فَقَالَتْ: كَلَّفْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِابْنِ أَخِيهِ، فَمَا أَنْفَكُ أُرَاعِيهِ، فَقَالَ عُثْمَانُ: إِمَّا أَنْ تَهَبَهَا لِي ابْنَ أَخِيكَ، أَوْ أُعْطِيكَ ثَمَنَهَا مِنْ مَالِي، فَقَالَ: أَشْهَدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا لَهُ.

وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ فِسَادَ الْعِشْقِ الَّذِي مُتَعَلِّقُهُ فِعْلُ الْفَاحِشَةِ بِالْمَعْشُوقِ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي الْعِشْقِ الْعَفِيفِ مِنَ الرَّجُلِ الظَّرِيفِ، الَّذِي يَأْبَى لَهُ دِينُهُ وَعِفَّتُهُ وَمُرُوَّتُهُ أَنْ يُفْسِدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْشُوقِهِ بِالْحَرَامِ، وَهَذَا عِشْقُ السَّلَفِ الْكِرَامِ وَالْأَيْمَةِ الْأَعْلَامِ، فَهَذَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَحَدُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ، عَشِقَ حَتَّى اشْتَهَرَ أَمْرُهُ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ، وَعَدَّ ظَالِمًا مَنْ لَامَهُ، وَمِنْ شِعْرِهِ:

كَنَمْتَ الْهُوَى حَتَّى أَضْرَبَكَ الْكُتْمَ... وَلَا مَكَ أَقْوَامٌ وَلَوْ مَهْمُ ظَلَمَ

فَنَمَّ عَلَيْكَ الْكَاشِحُونَ، وَقَبْلَهُمْ... عَلَيْكَ الْهُوَى قَدْ نَمَّ لَوْ يَنْفَعُ الْكُتْمُ

فَأَصْبَحْتَ كَالْهِنْدِيِّ إِذْ مَاتَ حَسْرَةً... عَلَى إِثْرِ هِنْدٍ أَوْ كَمَنْ شَفَّهُ سَقْمُ

تُحِبُّتَ إِتْيَانَ الْحَبِيبِ تَأْتِمًا... أَلَا إِنَّ هُجْرَانَ الْحَبِيبِ هُوَ الْإِثْمُ

فَدُقْ هَجْرَهَا قَدْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّهُ... رَشَادٌ أَلَا يَا رَبِّمَا كَذَبَ الزَّعْمُ

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعَشِقُهُ مَشْهُورٌ لِجَارِيَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَكَانَتْ جَارِيَةً بَارِعَةً الْجَمَالِ، وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا، وَكَانَ يَطْلُبُهَا مِنْ أُمَّرَاتِهِ، وَيَجْرِصُ عَلَى أَنْ تَهَبَهَا لَهُ، فَتَأْبَى، وَلَمْ تَزَلِ الْجَارِيَةُ فِي نَفْسِ عُمَرَ، فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ، أَمَرَتْ فَاطِمَةَ بِالْجَارِيَةِ فَأُصْلِحَتْ، وَكَانَتْ مَثَلًا فِي حُسْنِهَا وَجَمَالِهَا، ثُمَّ دَخَلَتْ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكَ كُنْتَ مُعْجَبًا بِجَارِيَتِي فَلَانَةَ، وَسَأَلْتَهَا، فَأَيُّتُ عَلَيْكَ،

وَالآنَ قَدْ طَابَتْ نَفْسِي لَكَ بِهَا، فَلَمَّا قَالَتْ لَهُ ذَلِكَ؛ اسْتَبَانَ الْفَرْحُ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ عَجَلِي عَلَيَّ بِهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ بِهَا عَلَيْهِ، أَزْدَادَ بِهَا عَجَبًا، وَقَالَ لَهَا: أَلْقِي ثِيَابِكَ، فَفَعَلَتْ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: عَلَى رِسْلِكَ، أَخْبِرْنِي لِمَنْ كُنْتِ؟ وَمَنْ أَيْنَ صِرْتِ لِفَاطِمَةَ؟ فَقَالَتْ: أَغْرَمَ الْحَجَّاجُ عَامِلًا لَهُ بِالْكَوْفَةِ مَالًا، وَكُنْتُ فِي رَقِيقِ ذَلِكَ الْعَامِلِ، قَالَتْ: فَأَخَذَنِي وَبَعَثَ بِي إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، فَوَهَبَنِي لِفَاطِمَةَ، قَالَ: وَمَا فَعَلَ ذَلِكَ الْعَامِلُ؟ قَالَتْ: هَلْكَ، قَالَ: وَهَلْ تَرَكَ وَكَلَدًا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا حَاطَهُمْ؟ قَالَتْ: سَيِّئَةٌ، فَقَالَ: شُدِّي عَلَيْكَ ثِيَابِكَ، وَادْهَبِي إِلَى مَكَانِكَ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ عَلَى الْعِرَاقِ: أَنْ أِبْعَثَ إِلَيَّ فُلَانَ بْنِ فُلَانٍ عَلَى الْبَرِيدِ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ لَهُ: أَرْفَعُ إِلَيَّ جَمِيعَ مَا أَغْرَمَهُ الْحَجَّاجُ لِأَيِّكَ، فَلَمْ يَرْفَعْ إِلَيْهِ شَيْئًا إِلَّا دَفَعَهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْجَارِيَةِ فَدَفَعَتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا، فَلَعَلَّ أَبَاكَ قَدْ أَلَمَّ بِهَا، فَقَالَ الْغُلَامُ: هِيَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِهَا، قَالَ: فَابْتَعَهَا مِنِّي، قَالَ: لَسْتُ إِذَا مَنَّ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهُوَى، فَلَمَّا عَزَمَ الْفَتَى عَلَى الْإِنْصِرَافِ بِهَا، قَالَتْ: أَيْنَ وَجَدَكَ بِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: عَلَى حَالِهِ، وَلَقَدْ زَادَ، وَلَمْ تَزَلِ الْجَارِيَةُ فِي نَفْسِ عُمَرَ، حَتَّى مَاتَ.

وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ دَاوُدَ الظَّاهِرِيُّ الْعَالِمُ الْمُشْهُورُ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ: مِنَ الْفِقْهِ، وَالْحَدِيثِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَالْأَدَبِ، وَلَهُ قَوْلُهُ فِي الْفِقْهِ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْعُلَمَاءِ، وَعَشِيقُهُ مَشْهُورٌ.

قَالَ نِفْطَوِيهِ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ فَقَالَ: حُبٌّ مَنْ تَعْلَمُ أَوْرَثِي مَا تَرَى، فَقُلْتُ: وَمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْتِمْتَاعِ بِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ:

الْإِسْتِمْتَاعُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: النَّظَرُ الْمُبَاحُ، وَالْآخَرُ: اللَّذَّةُ الْمُحْظُورَةُ، فَأَمَّا النَّظَرُ الْمُبَاحُ فَهُوَ الَّذِي أَوْرَثِي مَا تَرَى، وَأَمَّا اللَّذَّةُ الْمُحْظُورَةُ فَيَمْنَعُنِي مِنْهَا مَا حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا سُؤَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ

مُسْهِرٍ عَنْ أَبِي يَحْيَى الْقَتَّابِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ لِيَرْفَعَهُ: «مَنْ عَشِقَ وَكْتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

ثُمَّ أَشَدَّ:

أَنْظُرْ لِي السَّحْرِ يَجْرِي مِنْ لَوْ أَحْظِهِ... وَأَنْظُرْ لِي دَعَجٍ فِي طَرْفِهِ السَّاجِي

وَأَنْظُرْ لِي شَعْرَاتٍ فَوْقَ عَارِضِهِ... كَأَنَّهَا تَمَالُ دَبَّ فِي عَاجِ

ثُمَّ أَشَدَّ:

مَا هُمْ أَنْكُرُوا سَوَادًا بِخَدَّيْهِ... وَلَا يُنْكِرُونَ وَرَدَ الْغُصُونِ؟

إِنْ يَكُنْ عَيْبُ خَلْدِهِ بَرْدُ الشَّعْرِ... فَعَيْبُ الْعَيْونِ شَعْرُ الْجُفُونِ

فَقُلْتُ لَهُ: نَفَيْتَ الْقِيَّاسَ فِي الْفِقْهِ، وَأَثَبْتَهُ فِي الشَّرِّ؟ فَقَالَ: غَلَبَةُ الْوَجْدِ وَمَلَكَتُ النَّفْسِ دَعَتْ إِلَيْهِ، ثُمَّ

مَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ، وَبَسَبَبَ مَعْشُوقِهِ صَنَّفَ كِتَابَ الزَّهْرَةِ.

وَمِنْ كَلَامِهِ فِيهِ: مَنْ يَيْسَ مِمَّنْ يَهْوَاهُ، وَلَمْ يَمُتْ مِنْ وَقْتِهِ سَلَاهُ، وَذَلِكَ أَوَّلُ رُوعَاتِ الْيَأْسِ تَأْتِي الْقَلْبَ

وَهُوَ غَيْرُ مُسْتَعِدٍّ لَهَا، فَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَتَأْتِي الْقَلْبَ وَقَدْ وَطَّأَتْهَا الرَّوْعَةُ الْأُولَى.

(١) أخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٤٣ / ١٩٥) وابن الجوزي في ذم الهوى (١٠١). وأخرجه الخطيب في تاريخ

بغداد (٥ / ٣٦٤) و(٦ / ٤٨) و(١١ / ٢٩٥) و(١٣ / ٨٥) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٢٨٦، ١٢٨٧)

وفي ذم الهوى (٢٥٦ - ٢٥٨) من طريق جماعة عن سويد بن سعيد به. وحكم عليه الألباني بالوضع في الضعيفة

(٤٠٩).

والتقى هو وأبو العباس بن سريج في مجلس أبي الحسن علي بن عيسى الوزير، فتناظرا في مسألة من الإيلاء، فقال له ابن سريج: أنت بأن تقول: من دامت لحظاته؛ كثرت حسراته، أصدق منك بالكلام على الفقه، فقال: لئن كان ذلك فإني أقول:

أنزه في روض المحاسن مقلتي... وأمنع نفسي أن تنال محرما

وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه... يصب على الصخر الأصم تهدما

ويطلق طر في عن مترجم خاطري... فلو لا اختلاسي وده لتكلما

رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم... فلست أرى ودا صحيحا مسلما

فقال له أبو العباس بن سريج: بم تفخر علي؟ ولو شئت لقلت:

ومطاعمه كالشهد في نعماته... قد بت أمنعه لذيذ سناته

بصباية وبحسنة وحديثه... وأنزه اللحظات عن وجناته

حتى إذا ما الصبح راح عموده... ولي بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر: يحفظ عليه الوزير ما أقرب به حتى يقيم شاهدا على أنه ولي بخاتم ربه وبرائه، فقال ابن

سريج: يلزميني في هذا ما يلزمك في قولك:

أنزه في روض المحاسن مقلتي... وأمنع نفسي أن تنال محرما

فضحك الوزير، وقال: لقد جمعنا لطفًا وظرفًا، ذكر ذلك أبو بكر الخطيب في تاريخه.

وجاءته يوما فتيا مضمونها:

يا ابن داود يا فقيه العراق... أفتنا في قوائل الأحداق

هَلْ عَلَيْهَا بِمَا أَتَتْ مِنْ جُنَاحٍ ... أَمْ حَلَالٌ لَهَا دَمُ الْعُشَّاقِ

فَكُتِبَ بِخَطِّهِ تَحْتَ الْبَيْتَيْنِ:

عِنْدِي جَوَابُ مَسَائِلِ الْعُشَّاقِ ... فَاسْمَعُهُ مِنْ قَرِحِ الْحَشَا مُشْتَاقِ

لَمَّا سَأَلْتَ عَنِ الْهُوَى هَيَّجَتْنِي ... وَأَرَقْتَ دَمْعًا لَمْ يَكُنْ بِمُرَاقِ

إِنْ كَانَ مَعْشُوقًا يُعَذِّبُ عَاشِقًا ... كَانَ الْمُعَذِّبُ أَنْعَمَ الْعُشَّاقِ

قَالَ صَاحِبُ كِتَابِ " مَنَازِلِ الْأَحْبَابِ " ، شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ فَهْدٍ صَاحِبُ كِتَابِ

الْإِنِّشَاءِ: وَقُلْتُ فِي جَوَابِ الْبَيْتَيْنِ عَلَى قَافِيَتَيْهِمَا مُجِيبًا لِلْمَسَائِلِ:

قُلْ لِمَنْ جَاءَ سَائِلًا عَنْ لِحَاطِ ... هُنَّ يَلْعَبْنَ فِي دَمِ الْعُشَّاقِ

مَا عَلَى السَّيْفِ فِي الْوَرَى مِنْ جُنَاحٍ ... إِنْ ثَنَى الْحَدَّ عَنْ دَمِ مُهْرَاقِ

وَسُيُوفُ اللَّحَاطِ أَوْلَى بِأَنْ تَضَّ ... فَحَ عَمَّا جَنَّتْ عَلَى الْعُشَّاقِ

إِنَّمَا كُلُّ مَنْ قَتَلَ شَهِيدٌ ... وَهَذَا يَقْنِي ضَنِّي وَهُوَ بَاقِ

وَنَظِيرُ ذَلِكَ فَتَوَى وَرَدَتْ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي الْحَطَّابِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْكُوْدَانِيِّ شَيْخِ الْحَنَابِلَةِ فِي وَقْتِهِ:

قُلْ لِلْإِمَامِ أَبِي الْحَطَّابِ: مَسْأَلَةٌ ... جَاءَتْ إِلَيْكَ وَمَا خَلِقَ سِوَاكَ لَهَا

مَاذَا عَلَى رَجُلٍ رَامَ الصَّلَاةَ فَمُذُّ ... لَاحَتْ لِحَاطِرُهُ ذَاتُ الْجَمَالِ لَهَا

فَأَجَابَهُ تَحْتَ السُّؤَالِ:

قُلْ لِلْأَدِيبِ الَّذِي وَافَى بِمَسْأَلَةٍ ... سَرَّتْ فُؤَادِي لَمَّا أَنْ أَصَحْتُ لَهَا

إِنَّ التِّي فَتَتَّهُ عَنْ عِبَادَتِهِ ... خَرِيدَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ فَانْتَنَى وَهَلَا

إِنْ تَابَ ثُمَّ قَضَى عَنْهُ عِبَادَتَهُ... فَرَحِمَهُ اللهُ تَغَشَى مِنْ عَصَى وَهَلَا

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَعْمَرٍ الْقَيْسِيُّ: حَجَجْتُ سَنَةً، ثُمَّ دَخَلْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ لِزِيَارَةِ قَبْرِ رَسُولِ
الله ﷺ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ، إِذْ سَمِعْتُ أُنِينًا فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ:

أَشْجَاكَ نَوْحُ حَمَائِمِ السِّدْرِ... فَأَهْجَنَ مِنْكَ بَلَابِلَ الصِّدْرِ

أَمْ عَزَّ نَوْمَكَ ذِكْرُ غَانِيَةٍ... أَهَدَتْ إِلَيْكَ وَسَاوِسَ الْفِكْرِ

يَا لَيْلَةً طَالَتْ عَلَى دَنْفٍ... يَشْكُو السُّهَادَ وَقَلَّةَ الصَّبْرِ

أَسَلَّمْتَ مِنْ تَهْوَى لِحْرِّ جَوَى... مُتَوَقِّدٌ كَتَوَقُّدِ الْجُمْرِ

فَالْبَدْرُ يَشْهَدُ أَنِّي كَلِفٌ... مُعْرِىٌ بِحُبِّ شَيْبَةِ الْبَدْرِ

مَا كُنْتُ أَحْسَنِي أَهِيمٌ بِحُبِّهَا... حَتَّى بُلَيْتُ وَكُنْتُ لَا أَدْرِي

ثُمَّ انْقَطَعَ الصَّوْتُ، فَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَيْنَ جَاءَ، وَإِذَا بِهِ قَدْ عَادَ الْبُكَاءُ وَالْأَيْنُ، ثُمَّ أَشَدَّ:

أَشْجَاكَ مِنْ رِيًّا خِيَالِ زَائِرٍ... وَاللَّيْلُ مُسَوِّدُ الدَّوَابِّ عَاكِرُ

وَإِغْتَالَ مُهْجَتَكَ الْهُوَى بِرِسِيَسَةٍ... وَاهْتَجَّ مُقْلَتَكَ الْخِيَالُ الزَّائِرُ

نَادَيْتَ رِيًّا وَالظَّلَامُ كَانَهُ... يَمُّ تَلَاطَمٍ فِيهِ مَوْجُ زَاخِرُ

وَالْبَدْرُ يَسْرِي فِي السَّمَاءِ كَانَهُ... مَلِكٌ تَرَجَّلَ وَالنُّجُومُ عَسَاكِرُ

وَتَرَى بِهِ الْجُوزَاءَ تَرْقُصُ فِي الدُّجَى... رَقِصَ الْحَبِيبِ عَلَاهُ سُكْرٌ ظَاهِرُ

يَا لَيْلُ طُلْتَ عَلَى مُحِبِّ مَالِهِ... إِلَّا الصَّبَاحُ مُسَاعِدٌ وَمُؤَاذِرُ

فَأَجَابَنِي مُتَّ حَتْفَ أَنْفِكَ وَأَعْلَمَنْ... أَنَّ الْهُوَى هُوَ الْهُوَانُ الْحَاضِرُ

قَالَ: وَكُنْتُ ذَهَبْتُ عِنْدَ ابْتِدَائِهِ بِالْأَيَّاتِ فَلَمْ يَتَّبِعْهُ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ، فَرَأَيْتُ شَابًا مُقْتَبِلًا شَبَابُهُ قَدْ خَرَقَ الدَّمْعُ فِي خَدَيْهِ خَرْقَيْنِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اجْلِسْ، مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَعْمَرِ الْقَيْسِيِّ، قَالَ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ كُنْتُ جَالِسًا فِي الرَّوْضَةِ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا صَوْتُكَ، فَبِنَفْسِي أَفْدِيكَ فَمَا الَّذِي نَجِدُهُ؟ فَقَالَ أَنَا عُتْبَةُ بْنُ الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجُمُوحِ الْأَنْصَارِيِّ، غَدَوْتُ يَوْمًا إِلَى مَسْجِدِ الْأَحْزَابِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ اعْتَرَلْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَإِذَا بِنِسْوَةٍ قَدْ أَقْبَلْنَ يَتَهَادَيْنِ مِثْلَ الْقَطَا، وَإِذَا فِي وَسْطِهِنَّ جَارِيَةٌ بَدِيعَةُ الْجَمَالِ، كَامِلَةٌ الْمَلَاخَةِ، فَوَقَفَتْ عَلَيَّ، فَقَالَتْ: يَا عُتْبَةُ، مَا تَقُولُ فِي وَصْلِ مَنْ يَطْلُبُ وَصْلَكَ؟ ثُمَّ تَرَكْتَنِي وَذَهَبَتْ، فَلَمْ أَسْمَعْ لَهَا خَبْرًا، وَلَا تَقْفُوتُ لَهَا أَثْرًا، وَأَنَا حَيْرَانٌ أَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، ثُمَّ صَرَخَ وَأَكْبَّ مَغْشِيًا عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، كَأَنَّمَا صُبِغَتْ وَجَتَاهُ بَوْرُسٍ، ثُمَّ أَنْشَدَ:

أَرَاكُمْ بِقَلْبِي مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ... فَيَا هَلْ تَرُونِي بِالْفُؤَادِ عَلَى بَعْدِي

فُؤَادِي وَطَرَفِي يَا سَفَانَ عَلَيْكُمْ... وَعِنْدَكُمْ رُوحِي وَذِكْرُكُمْ عِنْدِي

وَلَسْتُ أَلِدُّ الْعَيْشَ حَتَّى أَرَاكُمْ... وَلَوْ كُنْتُ فِي الْفِرْدَوْسِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ

فَقُلْتُ: يَا ابْنَ أَخِي، تُبِّ إِلَى رَبِّكَ وَاسْتَعْفِرُهُ مِنْ ذَنْبِكَ، فَبَيْنَ يَدَيْكَ هَوْلُ الْمُطَّلَعِ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِسَالٍ حَتَّى يَتُوبَ الْقَارِظَانِ، وَلَمْ أَزَلْ مَعَهُ إِلَى أَنْ طَلَعَ الصُّبْحُ، فَقُلْتُ: قُمْ بِنَا إِلَى مَسْجِدِ الْأَحْزَابِ، فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ كُرْبَتَكَ، فَقَالَ: أَرْجُو ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِبَرَكَتِكَ طَاعَتِكَ، فَذَهَبْنَا حَتَّى أَتَيْنَا مَسْجِدَ الْأَحْزَابِ، فَسَمِعْتَهُ يَقُولُ:

يَا لَلرَّجَالِ لِيَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ أَمَا... يَنْفُكُ يُحْدِثُ لِي بَعْدَ النُّهْيِ طَرَبًا

مَا إِنْ يَزَالُ غَزَالٌ مِنْهُ يَقْتُلُنِي... يَأْتِي إِلَى مَسْجِدِ الْأَحْزَابِ مُسْتَقْبًا

يُخْبِرُ النَّاسَ أَنَّ الْأَجْرَ هَمَّتْهُ... وَمَا أَتَى طَالِبًا لِلْأَجْرِ مُحْتَسِبًا

لَوْ كَانَ يَبْغِي ثَوَابًا مَا أَتَى صَلَفًا... مُضْمَخًا بِفَيْتِ الْمِسْكِ مُخْتَضِبًا

ثُمَّ جَلَسْنَا حَتَّى صَلَّيْنَا الظُّهْرَ، فَإِذَا بِالنُّسُورَةِ قَدْ أَقْبَلْنَ وَكَيْسَتْ الْجَارِيَةُ فِيهِنَّ، فَوَقَفْنَ عَلَيْهِ، وَقُلْنَ لَهُ: يَا عُبْتَةَ مَا ظَنُّكَ بِطَالِبَةِ وَصْلِكَ، وَكَاسِفَةِ بَالِكَ؟ قَالَ: وَمَا بَالُهَا، قُلْنَ: أَخَذَهَا أَبُوهَا وَارْتَحَلَ بِهَا إِلَى أَرْضِ السَّمَاءِ، فَسَأَلْتُهُنَّ عَنِ الْجَارِيَةِ، فَقُلْنَ: هِيَ رِيًّا بِنْتُ الغَطْرِيفِ السَّلْمِيِّ، فَرَفَعَ عُبْتَةَ رَأْسَهُ إِلَيْهِنَّ وَقَالَ:

خَلِيلِي رِيًّا قَدْ أُجِدَّ بِكُورِهَا... وَسَارَتْ لِي أَرْضِ السَّمَاءِ غَيْرُهَا

خَلِيلِي إِنِّي قَدْ عَشَيْتُ مِنَ البُكَاءِ... فَهَلْ عِنْدَ غَيْرِي مُقَلَّةٌ أَسْتَعِيرُهَا

فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي قَدْ وَرَدْتُ بِبَالٍ جَزِيلٍ أُرِيدُ بِهِ أَهْلَ السَّرِّ، وَوَاللَّهِ لَأَبْذُلَنَّهُ أَمَامَكَ حَتَّى تَبْلُغَ رِضَاكَ وَفَوْقَ الرِّضَا، فُقِمْنَا بِنَا إِلَى مَسْجِدِ الْأَنْصَارِ، فُقِمْنَا وَسِرْنَا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى مَلَأٍ مِنْهُمْ، فَسَلَّمْتُ، فَأَحْسَنُوا الرَّدَّ، فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلَأُ، مَا تَقُولُونَ فِي عُبْتَةَ وَأَبِيهِ؟ قَالُوا: مِنْ سَادَاتِ الْعَرَبِ، قُلْتُ: فَإِنَّهُ قَدْ رُمِيَ بِدَاهِيَةِ مَنْ الْهُوَى وَمَا أُرِيدُ مِنْكُمْ إِلَّا الْمُسَاعَدَةَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالُوا: سَمِعْنَا وَطَاعَةٌ، فَرَكِبْنَا وَرَكِبَ الْقَوْمُ مَعَنَا حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى مَنَازِلِ بَنِي سُلَيْمٍ، فَأَعْلَمَ الغَطْرِيفُ بِنَا، فَخَرَجَ مُبَادِرًا فَاسْتَقْبَلَنَا، وَقَالَ: حَيْثُمْ يَا كِرَامَ، فَقُلْنَا: وَأَنْتَ فَحِيَّاكَ إِنَّا لَكَ أَضْيَافٌ، فَقَالَ: نَزَلْتُمْ أَكْرَمَ مَنَزِلٍ، ثُمَّ نَادَى: يَا مَعْشَرَ الْعَبِيدِ، أَنْزِلُوا الْقَوْمَ، فَفَرِشْتِ الْأَنْطَاعَ وَالتَّمَارِقَ، وَذُبِحَتِ الذَّبَائِحُ، فَقُلْنَا: لَسْنَا بِذَائِقِي طَعَامِكَ حَتَّى تَقْضِيَ حَاجَتَنَا، فَقَالَ: وَمَا حَاجَتُكُمْ؟ قُلْنَا: نَخْطُبُ عَقِيلَتَكَ الْكَرِيمَةَ لِعُبْتَةَ بِنِ الْحَبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ، فَقَالَ: إِنَّ الَّتِي تَخْطُبُونَهَا أَمْرُهَا إِلَى نَفْسِهَا، وَأَنَا أَدْخُلُ أُخْبِرُهَا، ثُمَّ دَخَلَ مُغْضَبًا عَلَى ابْنَتِهِ، فَقَالَتْ: يَا أَبَتِ مَا لِي أَرَى الْغَضَبَ فِي وَجْهِكَ؟، فَقَالَ: قَدْ وَرَدَ الْأَنْصَارُ يَخْطُبُونَكَ مِنِّي، فَقَالَتْ: سَادَاتُ كِرَامَ، اسْتَغْفَرَ هُمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَلِمَنِ الْخُطْبَةُ مِنْهُمْ؟ فَقَالَ: لِعُبْتَةَ بِنِ الْحَبَابِ، قَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ عُبْتَةَ هَذَا: إِنَّهُ يَفِي بِمَا وَعَدَ، وَيُدْرِكُ إِذَا قَصِدَ، فَقَالَ: أَفَسَمْتِ لَا أُرِوْجَنَّاكَ بِهِ أَبَدًا، وَلَقَدْ نَمَى إِلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِكَ مَعَهُ، فَقَالَتْ: مَا كَانَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِذْ أَفَسَمْتِ، فَإِنَّ الْأَنْصَارَ لَا يُرَدُّونَ رَدًّا قَبِيحًا، حَسَنَ هُمُ الرَّدِّ، فَقَالَ: بِأَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: أَعْلِظُ

عَلَيْهِمُ الْمَهْرُ، فَأَيُّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا يُجِيبُونَ، فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ مَا قُلْتِ، فَخَرَجَ مُبَادِرًا عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: إِنَّ فَتَاةَ الْحَيِّ قَدْ أَجَابَتْ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ لَهَا مَهْرَ مِثْلِهَا، فَمَنْ الْقَائِمُ بِهِ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرٍ: أَنَا، فَقُلْ مَا شِئْتَ، فَقَالَ: أَلْفٌ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَمِائَةٌ ثَوْبٍ مِنَ الْأَبْرَادِ، وَخَمْسَةٌ أَكْرَشَةٍ مِنْ عَنبرٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَكَ ذَلِكَ كُلُّهُ، فَهَلْ أَجَبْتَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَأَنْفَذْتُ نَفْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَتُوا بِجَمِيعِ مَا طَلَبَ، ثُمَّ صُنِعَتِ الْوَلِيمَةُ، وَأَقْمْنَا عَلَى ذَلِكَ أَيَّامًا، ثُمَّ قَالَ: خُذُوا فَتَاتِكُمْ وَأَنْصِرُوا مُصَاحِبِينَ، ثُمَّ حَمَلَهَا فِي هَوْدَجٍ، وَجَهَّزَهَا بِثَلَاثِينَ رَاحِلَةً مِنَ الْمَتَاعِ وَالتَّحْفِ، فَوَدَّعْنَاهُ وَسَرْنَا، حَتَّى إِذَا بَقِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ مَرَّحَلَةٌ وَاحِدَةٌ، خَرَجَتْ عَلَيْنَا خَيْلٌ تُرِيدُ الْغَارَةَ أَحْسَبُهَا مِنْ سُلَيْمٍ، فَحَمَلَ عَلَيْهَا عُبَيْةُ بْنُ الْحُبَابِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ رَجَالًا، وَجَرَحَ آخَرِينَ، ثُمَّ رَجَعَ وَبِهِ طَعْنَةٌ تَفُورُ دَمًا، فَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَنْشَى بِخَدِّهِ، فَطُرِدَتْ عَنَّا الْخَيْلُ وَقَدْ قَضَى عُبَيْةُ نَحْبَهُ، فَقُلْنَا: وَاعْتَبْتَاهُ، فَسَمِعْتَنَا الْجَارِيَّةُ، فَأَلْقَتْ نَفْسَهَا مِنَ الْبَعِيرِ، وَجَعَلَتْ تَصِيحُ بِحُرْقَةٍ، وَأَنْشَدَتْ:

تَصَبَّرْتُ لَا أَنِّي صَبَرْتُ وَإِنَّمَا... أَعْلَلُ نَفْسِي أَنِّي بَكَ لَا حِقَّةَ

فَلَوْ أَنْصَفْتُ رُوحِي لَكَانَتْ لِي الرَّدَى... أَمَامَكَ مِنْ دُونِ الْبَرِيَّةِ سَابِقَهُ

فَمَا أَحَدٌ بَعْدِي وَبَعْدَكَ مُنْصِفٌ... خَلِيلًا وَلَا نَفْسٌ لِنَفْسٍ مُوَافِقَهُ

ثُمَّ شَهِقَتْ وَقَضَّتْ نَحْبَهَا، فَاحْتَفَرْنَا لَهَا قَبْرًا وَاحِدًا وَدَفَنَّا هُمَا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَقَمْتُ سَبْعَ سِنِينَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى الْحِجَازِ وَوَرَدْتُ الْمَدِينَةَ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا يَنْبَغُ قَبْرَ عُبَيْةَ أَزُورُهُ، فَأَتَيْتُ الْقَبْرَ، فَإِذَا عَلَيْهِ شَجْرَةٌ عَلَيْهَا عَصَائِبُ حُمْرٍ وَصُفْرٍ، فَقُلْتُ: لِأَرْبَابِ الْمَنْزِلِ مَا يُقَالُ لِهَذِهِ الشَّجْرَةِ؟ قَالُوا: شَجْرَةُ الْعُرُوسِينَ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْعِشْقِ مِنَ الرُّحْصَةِ الْمُخَالَفَةِ لِلتَّشْدِيدِ إِلَّا الْحَدِيثُ الْوَارِدُ بِالْحَسَنِ مِنَ الْأَسَانِيدِ، وَهُوَ حَدِيثُ سُؤَيْدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُسَهَّرٍ عَنْ أَبِي يَحْيَى الْقَتَّاتِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَرْفَعُهُ: (أَمِنْ

عَشِقَ وَعَفَّ، وَكَتَمَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(١) وَرَوَاهُ سُؤَيْدٌ أَيْضًا عَنِ ابْنِ مُسَهَّرٍ عَنِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ مَرْفُوعًا، وَرَوَاهُ الْخَطِيبُ عَنِ الْأَزْهَرِيِّ عَنِ الْمُعَاوِيِّ بْنِ زَكَرِيَّا عَنْ قُطَيْبَةَ عَنِ ابْنِ الْفَضْلِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مَسْرُوقٍ عَنْهُ، وَرَوَاهُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَاجِشُونِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَهَذَا سَيِّدُ الْأَوْلِينَ وَالْآخِرِينَ وَرَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﷺ نَظَرَ إِلَى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَقَالَتْ: سُبْحَانَ مُقَلَّبِ الْقُلُوبِ، وَكَانَتْ تَحْتَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ مَوْلَاهُ، فَلَمَّا هَمَّ بِطَلَاقِهَا، قَالَ لَهَا: اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، فَلَمَّا طَلَّقَهَا، زَوَّجَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، فَكَانَ هُوَ وَلِيِّهَا وَوَلِيَّ تَزْوِيجِهَا مِنْ رَسُولِهِ ﷺ، وَعَقَدَ نِكَاحَهَا مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [سُورَةُ الْأَحْزَابِ: ٣٧].

وَهَذَا دَاوُدُ نَبِيِّ اللَّهِ، لَمَّا كَانَ تَحْتَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، ثُمَّ أَحَبَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ فَتَزَوَّجَهَا وَكَمَّلَ بِهَا الْمِائَةَ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: أَوَّلُ حُبِّ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ، حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ عَائِشَةَ، وَكَانَ مَسْرُوقٌ يُسَمِّيهَا حَبِيبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَقَالَ أَبُو فَيْسٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أُرْسَلَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ؛ أَسْأَلُهَا: أَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْبَلُ أَهْلَهُ وَهُوَ صَائِمٌ؟ فَقَالَتْ: لَا، فَقَالَ: إِنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْبَلُهَا وَهُوَ صَائِمٌ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى عَائِشَةَ لَا يَتِمُّ لُكَّ عَنْهَا»^(٢).

(١) تقدّم.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٠٧٢) وأحمد ٦ / ٢٩٦ (٢٦٥٣٣) وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٣٠٣٠) والطحاوي في شرح المعاني (٩٣ / ٢) والطبراني في الكبير (٢٣ / رقم ٣٨٩) وغيرهم من طريق موسى بن علي

وَذَكَرَ سَعِيدُ بْنُ إِبرَاهِيمَ عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ إِبرَاهِيمُ الْخَلِيلُ يَزُورُ هَاجِرَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنَ الشَّامِ عَلَى الْبُرَاقِ مِنْ شَغَفِهِ بِهَا، وَقَلَّةِ صَبْرِهِ عَنْهَا.

وَذَكَرَ الْخُرَائِطِيُّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ اشْتَرَى جَارِيَةً رُومِيَّةً، فَكَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا، فَوَقَعَتْ ذَاتَ يَوْمٍ عَنْ بَغْلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهَا وَيُقَبِّلُهَا، وَكَانَتْ تُكْثِرُ مِنْ أَنْ تَقُولَ: يَا بَطْرُونُ أَنْتَ قَالُونَ، تَعْنِي: يَا مَوْلَايَ أَنْتَ جَيِّدٌ، ثُمَّ إِنَّمَا هَرَبَتْ مِنْهُ، فَوَجَدَ عَلَيْهَا وَجْدًا شَدِيدًا، وَقَالَ:

قَدْ كُنْتُ أَحْسَنِي قَالُونَ فَانصرفت ... فاليوم أعلم أنني غيرُ قَالُونَ

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ: وَقَدْ أَحَبَّ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْأَيْمَّةِ الْمُهَدِيِّينَ كَثِيرٌ، وَقَالَ رَجُلٌ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، رَأَيْتُ امْرَأَةً فَعَشَقْتُهَا، فَقَالَ: ذَلِكَ مَا لَا تَمْلِكُ.

فَالْجَوَابُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ: أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْبَابِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَالْجَائِزِ، وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالذَّمِّ وَالْإِنْكَارِ، وَلَا بِالْمَدْحِ وَالْقَبُولِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ، وَإِنَّمَا يَبِينُ حُكْمَهُ، وَيُنْكَشِفُ أَمْرَهُ بِذِكْرِ مُتَعَلِّقِهِ، وَإِلَّا فَالْعِشْقُ مِنْ حَيْثُ هُوَ لَا يُحْمَدُ وَلَا يُذَمُّ، وَنَحْنُ نَذَكُرُ النَّافِعَ مِنَ الْحُبِّ وَالضَّارِّ، وَالْجَائِزَ وَالْحَرَامَ.

اعْلَمْ أَنَّ أَنْفَعَ الْمُحِبَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَأَوْجَبَهَا وَأَعْلَاهَا وَأَجَلَّهَا مَحَبَّةُ مَنْ جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، وَفُطِرَتْ الْخَلِيقَةُ عَلَى تَأْلِيهِهِ، وَبِهَا قَامَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَعَلَيْهَا فُطِرَتِ الْمَخْلُوقَاتُ، وَهِيَ سِرُّ

بن رباح عن أبيه عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن أم سلمة. قال ابن عبد البر في التمهيد (٥ / ١٢٥): "هذا حديث متصل، لكنه ليس يجيء إلا بهذا الإسناد، وليس بالقوي. وهو منكر على أصل ما ذكرنا عن أم سلمة. وقد رواه عن موسى بن علي: عبد الرحمن بن مهدي و...، وما انفرد به موسى بن علي فليس بحجة، والأحاديث المذكورة عن أم سلمة معارضة له، وهي أحسن مجيئاً وأظهر تواتراً، وأثبت نقلاً منه". وأشار الألباني إلى نكارتها في الإرواء (٤ / ٨٤).

شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الَّذِي تَأَلَّى الْقُلُوبَ بِالْمَحَبَّةِ وَالْإِجْلَالِ، وَالتَّعْظِيمِ وَالذُّلَّ لَهُ وَالْخُضُوعِ وَالتَّعْبُدِ، وَالْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَالْعِبَادَةُ هِيَ: كَمَا أَلِ الْحُبُّ مَعَ كَمَا أَلِ الْخُضُوعِ وَالذُّلَّ، وَالشَّرْكَ فِي هَذِهِ الْعِبُودِيَّةِ مِنْ أَظْلَمِ الظُّلْمِ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ لِذَاتِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَمَا سِوَاهُ فَإِنَّمَا يُحِبُّ تَبَعًا لِمَحَبَّتِهِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى وُجُوبِ مَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ جَمِيعُ كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ، وَدَعْوَةُ جَمِيعِ رُسُلِهِ، وَفَطْرَتُهُ الَّتِي فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَيْهَا، وَمَا رَكَّبَ فِيهِمْ مِنَ الْعُقُوقِ، وَمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ مَفْطُورَةٌ مَجْبُولَةٌ عَلَى مَحَبَّةِ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهَا، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ الْإِحْسَانُ مِنْهُ؟ وَمَا بِخَلْقِهِ جَمِيعِهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ﴾ [سُورَةُ النِّحْلِ: ٥٣].

وَمَا تَعَرَّفَ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آثَارُ مَصْنُوعَاتِهِ مِنْ كَمَا إِلِهِ وَنَهَايَةِ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

وَالْمُحَبَّةُ لَهَا دَاعِيَانِ: الْجَمَالُ، وَالْجَلَالُ وَالرَّبُّ تَعَالَى لَهُ الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، بَلِ الْجَمَالَ كُلَّهُ لَهُ، وَالْإِجْلَالُ كُلُّهُ مِنْهُ، فَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُحِبَّ لِذَاتِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ سِوَاهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ * [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥٤ - ٥٦].

فَالْوَلَايَةُ أَصْلُهَا الْحُبُّ، فَلَا مَوْلَاةَ إِلَّا بِحُبٍّ، كَمَا أَنَّ الْعَدَاوَةَ أَصْلُهَا الْبُغْضُ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ، فَهُمْ يُوَلُّونَهُ بِمَحَبَّتِهِمْ لَهُ، وَهُوَ يُوَلِّيهِمْ بِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ، فَاللَّهُ يُوَلِّي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِحَسَبِ مَحَبَّتِهِ لَهُ.

وَلِهَذَا أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، بِخِلَافِ مَنْ وُلِيَ أَوْلِيَاءَهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْهُمْ مِنْ دُونِهِ، بَلْ مَوْلَاةُ لَهُمْ مِنْ تَمَامِ مَوْلَاةِ تِهِ.

وَقَدْ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ سَوَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي الْمَحَبَّةِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أُنْدَادًا يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٦٥].

وَأَخْبَرَ عَمَّنْ سَوَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْدَادِ فِي الْحُبِّ، أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي النَّارِ لِمَعْبُودِيهِمْ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ - إِذْ نُسُوبِكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٩٧ - ٩٨].

وَهَذَا التَّوْحِيدُ فِي الْحُبِّ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَمِيعَ رُسُلِهِ، وَأَنْزَلَ جَمِيعَ كُتُبِهِ، وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ مِنْ أَوْلَاهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَلَا جِلَّةَ خُلِقَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَجَعَلَ الْجَنَّةَ لِأَهْلِهَا، وَالنَّارَ لِلْمُشْرِكِينَ بِه فِيهِ.

وَقَدْ أَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ: لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يَكُونَ هُوَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَكَيْفَ بِمَحَبَّةِ الرَّبِّ ﷻ؟

وَقَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: «لَا، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»^(١) أَي لَا تُؤْمِنُ حَتَّى تَصِلَ مَحَبَّتَكَ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ.

(١) تقدم.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلِي بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا فِي الْمَحَبَّةِ وَلَوَازِمِهَا أَفَلَيْسَ الرَّبُّ ﷻ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ أَوَّلِي بِمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَكُلُّ مَا مِنْهُ إِلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ يَدْعُو إِلَى مَحَبَّتِهِ، مِمَّا يُحِبُّ الْعَبْدُ وَيَكْرَهُ - فَعَطَاؤُهُ وَمَنْعُهُ، وَمُعَافَاتُهُ وَإِتْبَالُؤُهُ، وَقَبْضُهُ وَبَسْطُهُ، وَعَدْلُهُ وَفَضْلُهُ، وَإِمَاتَتُهُ وَإِحْيَاؤُهُ، وَلُطْفُهُ وَبِرُّهُ، وَرَحْمَتُهُ وَإِحْسَانُهُ، وَسِتْرُهُ وَعَفْوُهُ، وَحِلْمُهُ وَصَبْرُهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَإِجَابَتُهُ لِدُعَائِهِ، وَكَشْفُ كَرْبِهِ، وَإِغَاثَةُ هَلْفَتِهِ، وَتَفْرِيجُ كُرْبَتِهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِ، بَلْ مَعَ غِنَاهُ التَّامِّ عَنْهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، كُلُّ ذَلِكَ دَاعٍ لِلْقُلُوبِ إِلَى تَأْلِيهِهِ وَمَحَبَّتِهِ، بَلْ تَمْكِينُهُ عَبْدَهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَإِعَانَتِهِ عَلَيْهَا، وَسِتْرُهُ حَتَّى يَقْضِي وَطْرَهُ مِنْهَا، وَكَلَاءَتُهُ وَحِرَاسَتُهُ لَهُ، وَيَقْضِي وَطْرَهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، يُعِينُهُ وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهَا بِنِعْمِهِ - مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي إِلَى مَحَبَّتِهِ، فَلَوْ أَنَّ مَخْلُوقًا فَعَلَ بِمَخْلُوقٍ أَذْنَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَمْ تَمْلِكْ قَلْبَهُ عَنْ مَحَبَّتِهِ، فَكَيْفَ لَا يُحِبُّ الْعَبْدُ بِكُلِّ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِ عَلَى الدَّوَامِ بَعْدَ الْأَنْفَاسِ، مَعَ إِسَاءَتِهِ؟ فَخَيْرُهُ إِلَيْهِ نَازِلٌ، وَشَرُّهُ إِلَيْهِ صَاعِدٌ، يَتَحَبَّبُ إِلَيْهِ بِنِعْمِهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَالْعَبْدُ يَتَبَغَّضُ إِلَيْهِ بِالْمَعْاصِي وَهُوَ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، فَلَا إِحْسَانَهُ وَبِرُّهُ وَإِنْعَامَهُ إِلَيْهِ يَصُدُّهُ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَلَا مَعْصِيَةَ الْعَبْدِ وَلَوْ مُمَةً يَقْطَعُ إِحْسَانَ رَبِّهِ عَنْهُ.

فَالْأَمُّ اللَّوْمُ تَخَلُّفُ الْقُلُوبِ عَنْ مَحَبَّةٍ مِنْ هَذَا شَأْنُهُ، وَتَعَلُّقُهَا بِمَحَبَّةٍ سِوَاهُ.

وَأَيْضًا فَكُلُّ مَنْ تُحِبُّهُ مِنَ الْخَلْقِ أَوْ يُحِبُّكَ إِنَّمَا يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ وَغَرَضِهِ مِنْكَ، وَاللَّهُ يُرِيدُكَ لَكَ، كَمَا فِي الْأَثَرِ الْإِلَهِيِّ: «عَبْدِي كُلٌّ يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنَا أُرِيدُكَ لَكَ»، فَكَيْفَ لَا يَسْتَحِي الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ رَبُّهُ لَهُ بِهِذِهِ الْمُنْتَزِلَةِ، وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْهُ، مَشْغُولٌ بِحُبِّ غَيْرِهِ، قَدْ اسْتَعْرَقَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّةٍ سِوَاهُ؟

وَأَيْضًا، فَكُلُّ مَنْ تَعَامَلُهُ مِنَ الْخَلْقِ إِنْ لَمْ يَرَبِحْ عَلَيْكَ لَمْ يُعَامِلْكَ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّبْحِ، وَالرَّبُّ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَامِلُكَ لِتَرْبِحَ أَنْتَ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الرِّبْحِ وَأَعْلَاهُ، فَالذَّرْهُمُ بَعْشَرَةَ أَمْثَالِهِ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ وَهِيَ أَسْرَعُ شَيْءٍ مَحْوًا.

وَأَيْضًا هُوَ سُبْحَانَهُ خَلَقَكَ لِنَفْسِهِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ أَوْلَىٰ مِنْهُ بِاسْتِغْرَافِ
الْوَسْعِ فِي مَحْتَتِهِ، وَبَدَلِ الْجُهْدِ فِي مَرْضَاتِهِ؟

وَأَيْضًا فَطَالِبُكَ - بَلْ مَطَالِبُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ جَمِيعًا - لَدَيْهِ، وَهُوَ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ،
أَعْطَىٰ عَبْدَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ فَوْقَ مَا يُؤَمِّلُهُ، يَشْكُرُ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ وَيَنْمِيهِ، وَيَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ
وَيَمْحُوهُ، ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَلَا
تُغْلِطُهُ كَثْرَةُ الْمَسْأَلِ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِالْحَاحِ الْمَلْحِينِ، بَلْ يُحِبُّ الْمَلْحِينَ فِي الدَّعَاءِ، وَيُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَيَغْضَبُ
إِذَا لَمْ يُسْأَلَ، يَسْتَجِي مِنْ عَبْدِهِ حَيْثُ لَا يَسْتَجِي الْعَبْدُ مِنْهُ، وَيَسْتُرُهُ حَيْثُ لَا يَسْتُرُ نَفْسَهُ، وَيَرْحَمُهُ حَيْثُ
لَا يَرْحَمُ نَفْسَهُ، دَعَاهُ بِنِعْمِهِ وَإِحْسَانِهِ وَأَيَادِيهِ إِلَىٰ كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، فَأَبَىٰ، فَأَرْسَلَ رُسُلَهُ فِي طَلْبِهِ، وَبَعَثَ
إِلَيْهِ مَعَهُمْ عَهْدَهُ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ، وَقَالَ: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرْ لَهُ؟» (١) كَمَا
قِيلَ:

أَدْعُوكَ وَلِلْوَضْلِ تَأْتِي، أَبْعَثَ رَسُولِي فِي الطَّلَبِ

أَنْزَلَ إِلَيْكَ بِنَفْسِي، أَلْقَاكَ فِي النَّوْمِ

وَكَيفَ لَا تُحِبُّ الْقُلُوبُ مَنْ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُجِيبُ
الدَّعَوَاتِ، وَيُقْبِلُ الْعَثْرَاتِ، وَيَغْفِرُ الْخَطِيئَاتِ، وَيَسْتُرُ الْعُورَاتِ، وَيَكْشِفُ الْكُرْبَاتِ، وَيَغِيثُ اللَّهْفَاتِ،
وَيُنِيلُ الطَّلَبَاتِ سِوَاهُ؟

فَهُوَ أَحَقُّ مِنْ ذِكْرٍ، وَأَحَقُّ مِنْ شُكْرِ، وَأَحَقُّ مِنْ عُبْدٍ، وَأَحَقُّ مِنْ حَمْدٍ، وَأَنْصَرُ مَنْ ابْتِغَىٰ، وَأَرَأْفُ مَنْ
مَلَكَ، وَأَجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَىٰ، وَأَرْحَمُ مَنْ اسْتَرْحَمَ، وَأَكْرَمُ مَنْ قُصِدَ، وَأَعَزُّ مِنَ التَّجِيءِ

(١) أخرجه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب
الترغيب في الدعاء... (٧٥٨).

إِلَيْهِ وَأَكْفَى مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوَلَدِهَا، وَأَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ التَّائِبِ مِنَ الْفَاقِدِ لِرَاحِلَتِهِ
الَّتِي عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فِي الْأَرْضِ الْمُهْلِكَةِ إِذَا تَيْسَسَ مِنَ الْحَيَاةِ ثُمَّ وَجَدَهَا.

وَهُوَ الْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْفَرْدُ فَلَا نِدَّ لَهُ، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَنْ يُطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَنْ يُعْصَى
إِلَّا بِعِلْمِهِ، يُطَاعُ فَيَشْكُرُ، وَبِتَوْفِيقِهِ وَنِعْمَتِهِ أُطِيعَ، وَيُعْصَى فَيَغْفِرُ وَيَعْتَمُو، وَحَقُّهُ أَضْيَعُ، فَهُوَ أَقْرَبُ شَهِيدٍ،
وَأَجَلُ حَفِيظٍ، وَأَوْفَى بِالْعَهْدِ، وَأَعْدَلُ قَائِمٍ بِالْقِسْطِ، حَالَ دُونَ النَّفْسِ، وَأَخَذَ بِالنَّوَاصِي وَكَتَبَ الْأَثَارَ،
وَنَسَخَ الْأَجَالَ، فَالْقُلُوبُ لَهُ مُفْضِيَةٌ، وَالسَّرُّ عِنْدَهُ عَلَانِيَةٌ، وَالْغَيْبُ لَدَيْهِ مَكْشُوفٌ، وَكُلُّ أَحَدٍ إِلَيْهِ
مَلْهُوفٌ، وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِنُورِ وَجْهِهِ، وَعَجَزَتِ الْقُلُوبُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ، وَدَلَّتِ الْفِطْرُ وَالْأَدِلَّةُ كُلُّهَا
عَلَى امْتِنَاعِ مِثْلِهِ وَشَبْهِهِ، أَشْرَفَتْ لِنُورِ وَجْهِهِ الظُّلُمَاتُ، وَاسْتَنَارَتْ لَهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَصَلَحَتْ
عَلَيْهِ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يُخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ
عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، وَلَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى
إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ:

مَا اعْتَاَضَ بِأَذَلِّ حَبِيٍّ لِسِوَاهُ مِنْ... عِوَضٍ وَلَوْ مَلَكَ الْوُجُودَ بِأَسْرِهِ

فَصَلِّ

وَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ يَجِبُ عَلَى اللَّيْبِ الْإِعْتِنَاءُ بِهِ، وَهُوَ أَنَّ كَمَالَ اللَّذَّةِ وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ
وَإِنْتِهَاجِ الرُّوحِ تَابِعٌ لِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: كَمَالُ الْمُحْبُوبِ فِي نَفْسِهِ وَجَمَالِهِ، وَأَنَّهُ أَوْلَى بِإِيثَارِ الْمُحِبَّةِ مِنْ كُلِّ مَا
سِوَاهُ.

وَالْأَمْرُ الثَّانِي: كَمَالُ مُحِبَّتِهِ، وَاسْتِفْرَاحُ الْوُسْعِ فِي حَبِيٍّ، وَإِيثَارُ قُرْبِهِ وَالْوُضُوءُ إِلَيْهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَكُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّذَّةَ بِحُصُولِ الْمُحْبُوبِ بِحَسَبِ قُوَّةِ مَحَبَّتِهِ، فَكَلَّمَا كَانَتِ الْمُحَبَّةُ أَقْوَى كَانَتْ لَذَّةُ الْمُحِبِّ أَكْمَلَ، فَلَذَّةُ الْعَبْدِ مَنْ اشْتَدَّ ظَمْؤُهُ بِإِدْرَاكِ الْمَاءِ الزُّلَالِ، وَمَنْ اشْتَدَّ جُوعُهُ بِأَكْلِ الطَّعَامِ الشَّهِيِّ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ شَوْقِهِ وَشِدَّةِ إِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ.

وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَاللَّذَّةُ وَالسُّرُورُ وَالْفَرَحُ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ فِي نَفْسِهِ، بَلْ هُوَ مَقْصُودٌ كُلِّ حَيٍّ وَعَاقِلٍ، إِذَا كَانَتِ اللَّذَّةُ مَطْلُوبَةً لِنَفْسِهَا فَهِيَ تُدْمُ إِذَا أَعْقَبَتْ أَلْمًا أَعْظَمَ مِنْهَا، أَوْ مَنَعَتْ لَذَّةً خَيْرًا مِنْهَا وَأَجَلَ، فَكَيْفَ إِذَا أَعْقَبَتْ أَعْظَمَ الْحَسْرَاتِ، وَفَوَّتَتْ أَعْظَمَ اللَّذَاتِ وَالْمُسْرَاتِ؟ وَتُحَمَّدُ إِذَا أَعَانَتْ عَلَى لَذَّةٍ عَظِيمَةٍ دَائِمَةٍ مُسْتَقَرَّةٍ لَا تَنْغِيصَ فِيهَا وَلَا نَكَدَ بوجهِ مَا، وَهِيَ لَذَّةُ الْآخِرَةِ وَنَعِيمُهَا وَطِيبُ الْعَيْشِ فِيهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا - وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [سُورَةُ الْأَعْلَى: ١٦ - ١٧].

وَقَالَ السَّحْرَةُ لِفِرْعَوْنَ لَمَّا آمَنُوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [سُورَةُ طه: ٧٢ - ٧٣].

وَاللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ لِنَيْلِهِمْ هَذِهِ اللَّذَّةَ الدَّائِمَةَ فِي دَارِ الْخُلْدِ، وَأَمَّا الدُّنْيَا فَمُنْقَطِعَةٌ، وَلذَاتُهَا لَا تَصْفُو أَبَدًا وَلَا تَدُومُ، بِخِلَافِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ لذَاتِهَا دَائِمَةٌ، وَنَعِيمُهَا خَالِصٌ مِنْ كُلِّ كَدْرٍ وَأَلْمٍ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلذُّ الْأَعْيُنُ مَعَ الْخُلُودِ أَبَدًا، وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِيهَا مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، بَلْ فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي فَصَدَهُ النَّاصِحُ لِقَوْمِهِ: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ - يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: ٣٨ - ٣٩]، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الدُّنْيَا يُسْتَمْتَعُ بِهَا إِلَى غَيْرِهَا، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ الْمُسْتَقَرُّ.

وَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ لذَاتِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا مَتَاعٌ، وَوَسِيلَةٌ إِلَى لذَاتِ الْآخِرَةِ، وَلذَلِكَ خُلِقَتِ الدُّنْيَا وَلذَاتُهَا، فَكُلُّ لَذَّةٍ أَعَانَتْ عَلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ وَأَوْصَلَتْ إِلَيْهَا لَمْ يُذَمَّ تَنَاوُلُهَا، بَلْ يُحَمَّدُ بِحَسَبِ إِيصَالِهَا إِلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ.

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَأَعْظَمُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَلذَاتِهَا: هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجهِ الرَّبِّ ﷻ، وَسَمَاعُ كَلَامِهِ مِنْهُ، وَالقُرْبُ مِنْهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ فِي حَدِيثِ الرَّؤْيَةِ: «فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»^(١)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّهُ إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ وَرَأَوْهُ؛ نَسُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ»^(٢).

وَفِي النَّسَائِيِّ وَمُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي دُعَائِهِ: «وَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَيَّ وَجْهَكَ الْكَرِيمِ، وَالشُّوقَ إِلَيَّ لِقَائِكَ»^(٣) وَفِي كِتَابِ السُّنَنِ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مَرْفُوعًا: «كَانَ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَسْمَعُوا الْقُرْآنَ، إِذَا سَمِعُوهُ مِنَ الرَّحْمَنِ فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا قَبْلَ ذَلِكَ»^(٤).

وَإِذَا عُرِفَ هَذَا، فَأَعْظَمُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُحْصَلُ هَذِهِ اللَّذَّةُ هُوَ أَعْظَمُ لذَاتِ الدُّنْيَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَهِيَ لَذَّةُ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَذَّةُ مَحَبَّتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ جَنَّةُ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا الْعَالِي، وَنَسْبَةُ لذَاتِهَا الْفَانِيَةِ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ فِي بَحْرِ، فَإِنَّ الرُّوحَ وَالْقَلْبَ وَالْبَدْنَ إِنَّمَا خُلِقَ لِذَلِكَ، فَطَاطِبُ مَا فِي الدُّنْيَا مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَأَلذُّ مَا فِي الْجَنَّةِ رُؤْيَتُهُ وَمُشَاهَدَتُهُ، فَمَحَبَّتُهُ وَمَعْرِفَتُهُ قُرَّةُ الْعَيْونِ، وَلَذَّةُ الْأَرْوَاحِ، وَبَهْجَةُ الْقُلُوبِ، وَنَعِيمُ الدُّنْيَا وَسُرُورُهَا، بَلْ لذَاتِ الدُّنْيَا الْقَاطِعَةُ عَنْ ذَلِكَ تَقَلُّبُ الْأَمَّا وَعَدَابًا، وَيَقَى صَاحِبُهَا فِي الْمَعِيشَةِ الضَّنْكَ، فَلَيْسَتْ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ إِلَّا بِاللَّهِ.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان "باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم" (١٨١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٧٤ - ٢٧٥) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٩٨) وغيرهم

بنحوه. فيه الفضل بن عيسى الرقاشي متروك الحديث. والحديث تكلم فيه العقيلي وابن عدي وابن الجوزي وابن

كثير والبوصيري.

(٣) تقدم.

(٤) أخرجه الرافعي في التدوين (٢/ ٤٠٣) وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٢٨٢).

وَكَانَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ تَمَرُّهُ أَوْقَاتٌ فَيَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ مِثْلِ هَذَا إِيَّاهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ،
وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ، وَكَانَ غَيْرُهُ يَقُولُ: لَوْ يَعْلَمُ الْمَلُوكُ وَأَبْنَاؤُ الْمَلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالِدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ.

وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ الْمُحِبَّةِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي هِيَ عَذَابٌ عَلَى قَلْبِ الْمُحِبِّ، يَقُولُ فِي حَالِهِ:
وَمَا النَّاسُ إِلَّا الْعَاشِقُونَ ذُوو الْهَوَى ... فَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُحِبُّ وَيَعَشَقُ
وَيَقُولُ غَيْرُهُ:

أَفْ لِلدُّنْيَا إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ ... صَاحِبُ الدُّنْيَا مُجَبًّا أَوْ حَبِيبًا

وَيَقُولُ آخَرُ:

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي نَعِيمِهَا ... وَأَنْتَ وَحِيدٌ مُفْرَدٌ غَيْرُ عَاشِقٍ

وَيَقُولُ الْآخَرُ:

اسْكُنْ لِي سَكَنٍ تَلدُّ بِحُجَّتِهِ ... ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدٌ

وَيَقُولُ الْآخَرُ:

تَشَكَّى الْمُحِبُّونَ الصَّبَابَةَ لِيَتِّي ... تَحَمَّلْتُ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحَدِي

فَكَانَتْ لِقَلْبِي لَذَّةُ الْحُبِّ كُلِّهَا ... فَلَمْ يَلْقَهَا قَلْبِي مُحِبُّ وَلَا بَعْدِي

فَكَيْفَ بِالْمُحِبَّةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَغِدَاءُ الْأَرْوَاحِ، وَلَيْسَ لِلْقَلْبِ لَذَّةٌ، وَلَا نَعِيمٌ، وَلَا فَلَاحٌ،
وَلَا حَيَاةٌ إِلَّا بِهَا، وَإِذَا فَقَدَهَا الْقَلْبُ كَانَ أَلْمُ أَعْظَمَ مِنْ أَلْمِ الْعَيْنِ إِذَا فَقَدَتْ نُورَهَا، وَالْأُذُنُ إِذَا فَقَدَتْ
سَمْعَهَا، وَالْأَنْفُ إِذَا فَقَدَتْ شَمَّهُ، وَاللِّسَانُ إِذَا فَقَدَ نُطْقَهُ، بَلْ فَسَادُ الْقَلْبِ إِذَا خَلَا مِنْ مَحَبَّةِ فَاطِرِهِ وَبَارِيهِ

وَالِهِيَ الْحَقُّ أَعْظَمُ مِنْ فَسَادِ الْبَدَنِ إِذَا خَلَا مِنْهُ الرُّوحُ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يُصَدَّقُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِيهِ حَيَاةٌ، وَمَا جَرَحَ مَيِّتٍ إِيْلَامٌ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ أَعْظَمَ لَذَاتِ الدُّنْيَا هُوَ السَّبَبُ الْمَوْصَلُ إِلَى أَعْظَمِ لَذَّةٍ فِي الْآخِرَةِ، وَلَذَاتُ الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ:

فَأَعْظَمُهَا وَأَكْمَلُهَا: مَا أَوْصَلَ لَذَّةَ الْآخِرَةِ، وَيَثَابُ الْإِنْسَانُ عَلَى هَذِهِ اللَّذَّةِ أَتَمَّ ثَوَابٍ، وَهَذَا كَانَ الْمُؤْمِنُ يُثَابُ عَلَى مَا يَقْصِدُ بِهِ وَجَهَ اللَّهِ، مِنْ أَكْلِهِ، وَشُرْبِهِ، وَلِبَاسِهِ، وَنِكَاحِهِ، وَشَفَاءِ غَيْظِهِ بِقَهْرِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِ، فَكَيْفَ بِلَذَّةِ إِيْمَانِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِاللَّهِ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، وَشَوْقِهِ إِلَى لِقَائِهِ، وَطَمَعِهِ فِي رُؤْيَا وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؟

النَّوْعُ الثَّانِي: لَذَّةٌ تَمْتَعُ لَذَّةَ الْآخِرَةِ، وَتُعَقَّبُ أَلَا مَا أَعْظَمَ مِنْهَا، كَلَذَّةِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آوْتَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، وَيَسْتَمْتَعُونَ بِبَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، كَمَا يَقُولُونَ فِي الْآخِرَةِ إِذَا لَقُوا رَبَّهُمْ: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٢٨-١٢٩].

وَلَذَّةُ أَصْحَابِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ فِي الْأَرْضِ وَالْعُلُوِّ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

وَهَذِهِ اللَّذَاتُ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هِيَ اسْتِدْرَاجٌ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ لِيُذَيِّقَهُمْ بِهَا أَعْظَمَ الْأَلَامِ، وَيَجْرِمُهُمْ بِهَا أَكْمَلَ اللَّذَاتِ، بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَدَّمَ لِعَيْرِهِ طَعَامًا لَذِيذًا مَسْمُومًا؛ يَسْتَدْرِجُهُ بِهِ إِلَى هَلَاكِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ - وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: ١٨٢-١٨٣].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهَا: كُلَّمَا أَحَدَثُوا ذَنْبًا أَحَدَثْنَا لَهُمْ نِعْمَةً: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَحَدْنَاهُمْ بَعْتَهُ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ * فَقَطَعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ٤٤ - ٤٥﴾.

وَقَالَ تَعَالَى لِأَصْحَابِ هَذِهِ اللَّذَّةِ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ٥٥ - ٥٦﴾.

وَقَالَ فِي حَقِّهِمْ: ﴿فَلَا تُعْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٥٥﴾.

وَهَذِهِ اللَّذَّةُ تَنْقَلِبُ آخِرًا أَلَامًا مِنْ أَعْظَمِ الْأَلَامِ، كَمَا قِيلَ:

مَارَبُ كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ لِأَهْلِهَا ... عَذَابًا فَصَارَتْ فِي الْمَعَادِ عَذَابًا

النَّوْعُ الثَّلَاثُ: لَذَّةٌ لَا تُعْقَبُ لَذَّةً فِي دَارِ الْقَرَارِ وَلَا أَلْمًا، وَلَا تَمْتَعُ أَصْلَ لَذَّةِ دَارِ الْقَرَارِ، وَإِنْ مَنَعَتْ كَمَا هِيَ، وَهَذِهِ اللَّذَّةُ الْمُبَاحَةُ الَّتِي لَا يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ، فَهَذِهِ زَمَانُهَا يَسِيرٌ، لَيْسَ لِيَتَمَتَّعَ النَّفْسُ بِهَا قَدْرًا، وَلَا بُدَّ أَنْ تَشْتَغَلَ عَمَّا هُوَ خَيْرٌ وَأَنْفَعُ مِنْهَا.

وَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الَّذِي عَنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «كُلُّهُ هُوَ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبُهُ فَرَسُهُ، وَمَلَاعِبَتُهُ أَمْرَاتُهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ»^(١).

فَمَا أَعَانَ عَلَى اللَّذَّةِ الْمُطْلُوبَةِ لِذَاتِهَا فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا لَمْ يَعْنِ عَلَيْهَا فَهُوَ بَاطِلٌ.

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١٣) والترمذي (١٦٣٧) والنسائي (٣٥٨٠) وابن ماجه (٢٨١١) وأحمد في المسند (٤/

١٤٤) والحاكم في المستدرک (٢٤٦٧). من حديث عقبة بن عامر الجهني. قال الترمذي: "هذا حديث حسن".

وفي نسخة: "هذا حديث حسن صحيح". وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

فَصْلٌ

فَهَذَا الْحُبُّ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُدْمُ، بَلْ هُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْحُبِّ، وَكَذَلِكَ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّمَا نَعْنِي
 الْمَحَبَّةَ الْخَاصَّةَ، الَّتِي تَشْغُلُ قَلْبَ الْمُحِبِّ وَفِكْرَهُ وَذِكْرَهُ بِمَحْبُوبِهِ، وَإِلَّا فَكُلُّ مُسْلِمٍ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةُ اللَّهِ
 وَرَسُولِهِ، لَا يَدْخُلُ الْإِسْلَامَ إِلَّا بِهَا، وَالنَّاسُ مُتَّفَاوِتُونَ فِي دَرَجَاتِ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ تَفَاوُتًا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ،
 فَيَنْ مَحَبَّةَ الْخَلِيلَيْنِ وَمَحَبَّةَ غَيْرِهِمَا مَا بَيْنَهُمَا، فَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ الَّتِي تُلَطِّفُ وَتُخَفِّفُ أَثْقَالَ التَّكَالِيفِ، وَتُسَخِّي
 الْبُخِيلَ، وَتَشْجَعُ الْجَبَانَ، وَتُصَفِّي الذُّهْنَ، وَتُرْوِّضُ النَّفْسَ، وَتُطَيِّبُ الْحَيَاةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، لَا مَحَبَّةَ الصُّورِ
 الْمُحَرَّمَةِ، وَإِذَا بَلَّيْتَ السَّرَائِرُ يَوْمَ اللَّقَاءِ، وَكَانَتْ سَرِيرَةٌ صَاحِبِهَا مِنْ خَيْرِ سَرَائِرِ الْعِبَادِ، كَمَا قِيلَ:

سَيَقِي لَكُمْ فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا... سَرِيرَةٌ حُبِّ يَوْمِ تُبَلَى السَّرَائِرُ

وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ الَّتِي تُنَوِّرُ الْوَجْهَ، وَتَشْرَحُ الصَّدْرَ، وَتُحْيِي الْقَلْبَ، وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ كَلَامِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ مِنْ
 عَلَامَةِ حُبِّ اللَّهِ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مَا عِنْدَكَ وَعِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، فَانظُرْ مَحَبَّةَ الْقُرْآنِ مِنْ قَلْبِكَ،
 وَالتَّذَاذَكَ بِسَمَاعِهِ أَعْظَمَ مِنَ التَّذَاذِ أَصْحَابِ الْمَلَاهِي وَالْعِنَاءِ الْمُطْرَبِ بِسَمَاعِهِمْ، فَإِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ
 أَحَبَّ مَحْبُوبًا كَانَ كَلَامُهُ وَحَدِيثُهُ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَيْهِ كَمَا قِيلَ:

إِنْ كُنْتَ تَرَعُمُ حُبِّي فَلِمَ هَجَرْتَ كِتَابِي؟ ... أَمَا تَأَمَّلْتَ مَا فِيهِ مِنْ لَذِيذِ خَطَابِي

وَقَالَ عُمَرَانُ بْنُ عَفَّانَ: لَوْ طَهَّرْتُ قُلُوبَنَا لَمَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَشْبَعُ الْمُحِبُّ مِنْ كَلَامِ
 مَحْبُوبِهِ وَهُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِ؟ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**» فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ
 أَنْزَلَ؟ فَقَالَ: «**إِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ النَّسَاءِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا**

جَنَّتْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجَنَّتْنَا بِكَ عَلَى هَوْلَاءِ شَهِيدًا ﴿[سُورَةُ النَّسَاءِ: ٤١]﴾، قَالَ: «حَسْبُكَ الْآنَ»، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذَرِفَانِ مِنَ الْبُكَاءِ»^(١).

وَكَانَ الصَّحَابَةُ إِذَا اجْتَمَعُوا وَفِيهِمْ أَبُو مُوسَى يَقُولُونَ: يَا أَبَا مُوسَى ذَكَّرْنَا رَبَّنَا، فَيَقْرَأُ، وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ، فَلِمُحِبِّي الْقُرْآنِ - مِنَ الْوَجْدِ، وَالذُّوقِ، وَاللَّذَّةِ، وَالْحَلَاوَةِ، وَالسُّرُورِ - أَضْعَافٌ مَا لِمُحِبِّي السَّمَاعِ الشَّيْطَانِيِّ، فَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ، ذَوْقَهُ، وَوَجْدَهُ، وَطَرَبَهُ، وَتَشَوُّقَهُ لِلسَّمَاعِ الْأَيْبَاتِ دُونَ سَمَاعِ الْأَيْبَاتِ، وَسَمَاعِ الْأَلْحَانِ دُونَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، كَمَا قِيلَ:

تُقْرَأُ عَلَيْكَ الْحُتْمَةُ وَأَنْتَ جَامِدٌ كَالْحُجْرِ

وَيَبْتُ مِنَ الشَّعْرِ يُنْشَدُ تَمِيلُ كَالنَّشْوَانِ.

فَهَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَدَلَّةِ عَلَى فَرَاغِ قَلْبِهِ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ، وَتَعَلُّقِهِ بِمَحَبَّةِ سَمَاعِ الشَّيْطَانِ، وَالْمُغْرُورِ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَى شَيْءٍ.

فَفِي مَحَبَّةِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ أَضْعَافٌ أَضْعَافٍ مَا ذَكَرَ السَّائِلُ مِنْ فَوَائِدِ الْعِشْقِ وَمَنَافِعِهِ، بَلْ لَا حُبَّ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَنْفَعَ مِنْهُ، وَكُلُّ حُبِّ سِوَى ذَلِكَ بَاطِلٌ إِنْ لَمْ يُعْنِ عَلَيْهِ وَيَسْتَقِ الْمَحَبَّ إِلَيْهِ.

فَصَلِّ

وَأَمَّا مَحَبَّةُ الزَّوْجَاتِ: فَلَا لَوْمَ عَلَى الْمُحِبِّ فِيهَا بَلْ هِيَ مِنْ كَمَالِهِ، وَقَدْ أَمَنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ فَقَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سُورَةُ الرُّومِ: ٢١].

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن (٥٠٥٥)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن (٨٠٥).

فَجَعَلَ الْمَرْأَةَ سَكَنًا لِلرَّجُلِ، يَسْكُنُ قَلْبُهُ إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا خَالِصَ الْحُبِّ، وَهُوَ الْمُوَدَّةُ الْمُقْتَرِنَةُ بِالرَّحْمَةِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى عَقِيبَ ذِكْرِهِ مَا أَحَلَّ لَنَا مِنَ النِّسَاءِ وَمَا حَرَّمَ مِنْهُنَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: ٢٦ - ٢٨].

ذَكَرَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنِ أَبِيهِ: كَانَ إِذَا نَظَرَ إِلَى النِّسَاءِ لَمْ يَصْبِرْ. وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ رَأَى امْرَأَةً، فَأَتَى زَيْنَبَ فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا، وَقَالَ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبَلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبَرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبْتَهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُرَدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»^(١)، فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ عِدَّةُ فَوَائِدَ:

مِنْهَا: الْإِرْشَادُ إِلَى التَّسْلِيِّ عَنِ الْمَطْلُوبِ بِجَنَسِهِ، كَمَا يَقُومُ الطَّعَامُ مَكَانَ الطَّعَامِ، وَالتَّوْبُ مَقَامَ التَّوْبِ. وَمِنْهَا: الْأَمْرُ بِمُدَاوَاةِ الْإِعْجَابِ بِالْمَرْأَةِ الْمُورِثِ لِشَهْوَتِهَا بِأَنْفَعِ الْأَدْوِيَةِ، وَهُوَ قَضَاءُ وَطَرِهِ مِنْ أَهْلِهِ، وَذَلِكَ يَنْقُضُ شَهْوَتَهُ لَهَا، وَهَذَا كَمَا أُرْشِدُ الْمُتَحَائِنِينَ إِلَى النِّكَاحِ، كَمَا فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ مَرْفُوعًا: «لَمْ يُرِ لِلْمُتَحَائِنِينَ مِثْلَ النِّكَاحِ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم في النكاح، باب ندب من رأى امرأة (١٤٠٣).

(٢) (١٨٤٧). وأخرجه ابن أبي حاتم في العلل (٢٢٥٢) والعقيلي في الضعفاء (٤ / ١٣٤) والطبراني (١١ / رقم ١١٠٠٩) وتمام في فوائده (الروض البسام: ٧٣٢ - ٧٣٤) وغيرهم من طريق محمد بن مسلم الطائفي عن إبراهيم بن ميسرة عن طاووس عن ابن عباس فذكره. ورواه سفیان بن عيينة وعبد الملك بن جريج ومعمربن راشد كلهم عن إبراهيم بن ميسرة عن طاووس عن النبي ﷺ مرسلًا. أخرجه العقيلي (٤ / ١٣٤) وعبد الرزاق (٦ / ١٥١)، (١٦٨) وغيرهما. قال العقيلي: "هذا أولى". وصححه الألباني في الصحيحة (٦٢٤).

فِنِكَاحِ الْمُعْشُوقَةِ هُوَ دَوَاءُ الْعِشْقِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ دَوَاءً شَرْعًا، وَقَدْ تَدَاوَى بِهِ دَاوُدُ وَلَمْ يَرْتَكِبْ نَبِيٌّ
اللَّهُ مُحْرَمًا، وَإِنَّمَا تَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ وَصَمَّهَا إِلَى نِسَائِهِ لِمَحَبَّتِهِ لَهَا، وَكَانَتْ تَوْبَتُهُ بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَعَلَوُّ
مَرَاتِبِهِ، وَلَا يَلِيقُ بِنَا الْمَزِيدِ عَلَى هَذَا.

وَأَمَّا قِصَّةُ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ: فَزَيْدٌ كَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى طَلَاقِهَا وَلَمْ تُوَافِقْهُ، وَكَانَ يَسْتَشِيرُ رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ فِي فِرَاقِهَا، وَهُوَ يَأْمُرُهُ بِإِمْسَاكِهَا، فَعَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ مُفَارِقُهَا لِأَبَدٍ، فَأَخْفَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يَتَرَوَّجُهَا
إِذَا فَارَقَهَا زَيْدًا، وَخَشِيَ مَقَالََةَ النَّاسِ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَ زَوْجَةَ ابْنِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ تَبَنَّى زَيْدًا قَبْلَ
النُّبُوَّةِ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يَشْرَعَ شَرْعًا عَامًّا فِيهِ مَصَالِحُ عِبَادِهِ، فَلَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدًا، وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا مِنْهُ،
أَرْسَلَهُ إِلَيْهَا يُخْطِبُهَا لِنَفْسِهِ، فَجَاءَ زَيْدٌ وَاسْتَدْبَرَ الْبَابَ بظَهْرِهِ، وَعَظُمَتْ فِي صَدْرِهِ لَمَّا ذَكَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ فَنَادَاهَا مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ: يَا زَيْنَبُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُخْطِبُكَ، فَقَالَتْ: مَا أَنَا بِبَصَائِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُؤَامَرَ
رَبِّي، وَقَامَتْ إِلَى مِحْرَابِهَا فَصَلَّتْ، فَتَوَلَّى اللَّهُ نِكَاحَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِنَفْسِهِ، وَعَقَدَ النِّكَاحَ لَهُ فَوْقَ
عَرْشِهِ، وَجَاءَ الْوَحْيُ بِذَلِكَ: ﴿فَلَمَّا فَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَا زَوْجَانِهَا﴾ [سُورَةُ الْأَحْزَابِ: ٣٧].

فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَوْفَتِهِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَكَانَتْ تَفْخَرُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ، وَتَقُولُ: أَنْتَنَ
زَوْجَكُنَّ أَهْلِيكُنَّ، وَزَوْجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، فَهَذِهِ قِصَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَ زَيْنَبَ (١).

وَلَا رَيْبَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ قَدْ حُبَّ إِلَيْهِ النِّسَاءِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ عَنْهُ ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ
دُنْيَاكُمُ النِّسَاءَ وَالطَّيِّبُ، وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (٢) هَذَا لَفْظُ الْحَدِيثِ، لَا مَا يَرَوِيهِ بَعْضُهُمْ:

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد (٧٤٢٠، ٧٤٢١) من حديث أنس .

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٣٩، ٣٩٤٠) وأحمد (١٢٨ / ٣) (١٢٣١٥) والعقيلي (١٦٠ / ٢) والحاكم (١٧٤ / ٢) (٢٦٧٦)

وابن أبي عاصم في الزهد (٢٣٥) وغيرهم من طريق سلام أبي المنذر وجعفر بن سليمان الضبعي وسلام بن أبي

الصهباء كلهم عن ثابت عن أنس فذكره. وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣٦٨٠).

«حُبَّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ»، زَادَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «أَصْبِرْ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا أَصْبِرْ عَنْهُنَّ»^(١)، وَقَدْ حَسَدَهُ أَعْدَاءُ اللَّهِ الْيَهُودُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا: مَا هَمَّهُ إِلَّا النِّكَاحُ، فَرَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ وَنَافَحَ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: ٥٤].

وَهَذَا خَلِيلُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عِنْدَهُ سَارَّةٌ أَجْمَلُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَأَحَبُّ هَا جَرَّ وَتَسَرَّى بِهَا. وَهَذَا دَاوُدُ كَانَ عِنْدَهُ تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ امْرَأَةً، فَأَحَبَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ وَتَزَوَّجَهَا فَكَمَلَتْ الْمِائَةَ، وَهَذَا سُلَيْمَانُ ابْنُهُ كَانَ يَطُوفُ فِي اللَّيْلَةِ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً.

وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «عَائِشَةُ»^(٢)، وَقَالَ عَنْ خَدِيجَةَ: «إِنِّي رُزِقْتُ حُبَّهَا»^(٣).

فَمَحَبَّةُ النَّسَاءِ مِنْ كَمَالِ الْإِنْسَانِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً، وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ وَقَعَ فِي سَهْمِهِ يَوْمَ جُلُودَاءَ جَارِيَةً كَانَتْ عُنُقَهَا يُرِيْقُ مِنْ فِضَّةٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَمَا صَبَرْتُ عَنْهَا أَنْ قَبَّلْتُهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ، وَبِهَذَا احْتَجَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَلَى جَوَازِ الْإِسْتِمْتَاعِ مِنَ الْمُسَيِّبَةِ قَبْلَ الْإِسْتِبْرَاءِ بِغَيْرِ الْوَطْءِ، بِخِلَافِ الْأُمَّةِ الْمُشْتَرَاةِ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ أَنْفَسَاخَ الْمَلِكِ لَا يَتَوَهَّمُ فِي الْمُسَيِّبَةِ بِخِلَافِ الْمُشْتَرَاةِ، فَقَدْ يَنْفَسِخُ فِيهَا الْمَلِكُ، فَيَكُونُ مُسْتَمْتَعًا بِأَمَةٍ غَيْرِهِ.

(١) تقدم الكلام عليها.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) كلاهما في فضائل الصحابة.

(٣) أخرجه مسلم في "فضائل الصحابة" باب فضائل خديجة (٢٤٣٥).

وَقَدْ شَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَاشِقٍ أَنْ تُوَاصِلَهُ مَعْشُوقَتُهُ بِأَنْ تَتَزَوَّجَ بِهِ فَأَبَتْ، وَذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُعَيْثٍ وَبَرِيرَةَ لَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَمْشِي حَلْفَهَا وَدُمُوعُهُ تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهِ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِيهِ؟» فَقَالَتْ: أَتَأْمُرُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «لَا، إِنَّمَا أَشْفَعُ»، فَقَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، فَقَالَ لِعَمَّةِ: «يَا عَبَّاسُ أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُعَيْثٍ بِرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِهَا لَهٗ»^(١)، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ حُبَّهَا، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ بَانَتْ مِنْهُ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُسَاوِي بَيْنَ نِسَائِهِ فِي الْقَسَمِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا لَا أَمْلِكُ» يَعْنِي فِي الْحُبِّ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ: ١٢٩]، يَعْنِي فِي الْحُبِّ وَالْجَمَاعِ.

وَلَمْ يَزَلِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَالرُّحَمَاءُ مِنَ النَّاسِ يَشْفَعُونَ لِلْعَشَاقِ إِلَى مَعْشُوقِهِمُ الْجَائِزِ وَصَلُّهُنَّ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانَ، وَكَذَلِكَ عَلِيٌّ أَيْ بَغْلَامٍ مِنَ الْعَرَبِ وَجِدَ فِي دَارِ قَوْمٍ بِاللَّيْلِ، فَقَالَ لَهُ: مَا قَصَبْتِكَ؟ قَالَ: لَسْتُ بِسَارِقٍ، وَلَكِنِّي أَصْدُقُكَ:

تَعَلَّقْتُ فِي دَارِ الرِّيَاحِيِّ خُودَةً... يَذُلُّ لَهَا مِنْ حُسْنِ مَنْظَرِهَا الْبَدْرُ

لَهَا فِي بَنَاتِ الرُّومِ حُسْنٌ وَمَنْظَرٌ... إِذَا افْتَخَرَتْ بِالْحُسْنِ خَافَتْهَا الْفَخْرُ

فَلَمَّا طَرَقْتُ الدَّارَ مِنْ حَرِّ مُهَجَّتِي... أُبَيْتُ وَفِيهَا مِنْ تَوْقِدِهَا الْجُمُرُ

تَبَادَرَ أَهْلُ الدَّارِ بِي ثُمَّ صَيَّحُوا... هُوَ اللَّصُّ مَحْتَمًا لَهُ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ

فَلَمَّا سَمِعَ عَلِيٌّ بِنُ أَبِي طَالِبٍ شِعْرَهُ، رَقَّ لَهُ، وَقَالَ لِلْمُهَلَّبِ بْنِ رَبَاحٍ: اسْمَحْ لَهُ بِهَا، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، سَلُهُ مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ: النَّهَّاسُ بْنُ عَيْبَةَ، فَقَالَ: خُذْهَا فَهِيَ لَكَ.

وَاشْتَرَى مُعَاوِيَةُ جَارِيَةً فَأَعْجَبَ بِهَا إِعْجَابًا شَدِيدًا، فَسَمِعَهَا يَوْمًا تُشَدُّ أَيْبَاتًا مِنْهَا:

(١) أخرجه البخاري في الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة (٥٢٨٣).

وَفَارَقْتُهُ كَالْغُصْنِ يَهْتَرُ فِي الثَّرَى ... طَرِيرًا وَسِيمًا بَعْدَ مَا طَرَّ شَارِبُهُ

فَسَأَلَهَا، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا تُحِبُّ سَيِّدَهَا، فَرَدَّهَا إِلَيْهِ وَفِي قَلْبِهِ مِنْهَا.

وَذَكَرَ الزَّخْمَشَرِيُّ فِي رِبْعَةٍ أَنَّ زُبَيْدَةَ قَرَأَتْ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ عَلَى حَائِطٍ:

أَمَا فِي عِبَادِ اللَّهِ أَوْ فِي إِمَائِهِ ... كَرِيمٌ يُجْلِي الْهَمَّ عَنْ ذَاهِبِ الْعَقْلِ

لَهُ مُقَلَّةٌ أَمَا الْأَمَاقِي قَرِيحَةٌ ... وَأَمَّا الْحُشَا فَالنَّارُ مِنْهُ عَلَى رِجْلِ

فَنَدَرْتُ أَنْ تَحْتَالَ لِقَائِهَا إِنْ عَرَفْتَهُ حَتَّى تَجْمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُحِبُّهُ، فَبَيْنَا هِيَ بِالْمَزْدَلِفَةِ، إِذْ سَمِعَتْ مَنْ يُشَدُّهُمَا، فَطَلَبْتُهُ، فَرَعَمَ أَنَّهُ قَالَهُمَا فِي ابْنَةِ عَمٍّ لَهُ نَدَرَ أَهْلُهَا أَنْ لَا يُزَوِّجُوهَا مِنْهُ، فَوَجَّهَتْ إِلَى الْحَيِّ، وَمَا زَالَتْ تَبْدُلُ لَهُمُ الْمَالَ حَتَّى زَوِّجُوهَا مِنْهُ، وَإِذَا الْمَرْأَةُ أَعْشَقَ لَهُ مِنْهُ لَهَا، فَكَانَتْ تَعُدُّهُ مِنْ أَعْظَمِ حَسَنَاتِهَا، وَتَقُولُ: مَا أَنَا بِشَيْءٍ أَسْرَرَ مِنِّي مِنْ جَمْعِي بَيْنَ ذَلِكَ الْفَتَى وَالْفَتَاةِ.

وَقَالَ الْحَرَائِطِيُّ: وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ غُلَامٌ وَجَارِيَةٌ يَتَحَابَّانِ، فَكَتَبَ الْغُلَامُ إِلَيْهَا يَوْمًا:

وَلَقَدْ رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّمَا ... عَاطَيْتَنِي مِنْ رِيْقِ فَيْكِ الْبَارِدِ

وَكَأَنَّ كَفِّكَ فِي يَدِي وَكَأَنَّمَا ... بَتْنَا جَمِيعًا فِي فِرَاشٍ وَاحِدِ

فَطَفَفْتُ يَوْمِي كُلَّهُ مُتَرَاقِدًا ... لِأَرَاكَ فِي نَوْمِي وَلَسْتُ بِرَاقِدِ

فَأَجَابَتْهُ الْجَارِيَةُ:

خَيْرًا رَأَيْتَ وَكُلُّ مَا أَبْصَرْتَهُ ... سَتَنَالُهُ مِنِّي بِرَغْمِ الْحَاسِدِ

إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مُعَانِقِي ... فَتَبِيتُ مِنِّي فَوْقَ ثَدْيِي نَاهِدِ

وَأَرَاكَ بَيْنَ خَلَائِجِي وَدِمَاجِي ... وَأَرَاكَ فَوْقَ تَرَائِجِي وَمَجَاسِدِي

فَبَلَغَ سُلَيْمَانَ ذَلِكَ فَانْكَحَهَا الْغُلَامَ وَأَحْسَنَ حَالَهُمَا عَلَى فَرَطٍ غَيْرَتِهِ.

وَقَالَ جَامِعُ بْنُ بُرْحِيَّةَ: سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيْبِ مُفْتِيَ الْمَدِينَةِ: هَلْ فِي حُبِّ دَهْمَانَ مِنْ وَزْرِ؟

فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّمَا تُتْلَمُ عَلَى مَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْأَمْرِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: وَاللَّهِ مَا سَأَلَنِي أَحَدٌ عَنْ هَذَا، وَلَوْ سَأَلَنِي مَا كُنْتُ أُجِيبُ إِلَّا بِهِ.

فَعِشْقُ النِّسَاءِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ هُوَ قُرْبَةٌ وَطَاعَةٌ، وَهُوَ عِشْقُ امْرَأَتِهِ وَجَارِيَتِهِ، وَهَذَا الْعِشْقُ نَافِعٌ؛ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى الْمَقَاصِدِ الَّتِي شَرَعَ اللَّهُ لَهَا النِّكَاحَ، وَأَكْفَى لِلْبَصْرِ وَالْقَلْبِ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، وَهَذَا يُحْمَدُ هَذَا الْعَاشِقُ عِنْدَ اللَّهِ، وَعِنْدَ النَّاسِ.

وَعِشْقٌ: هُوَ مَقْتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَيَعُدُّ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَهُوَ أَضْرُّ شَيْءٍ عَلَى الْعَبْدِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَهُوَ عِشْقُ الْمُرْدَانِ، فَمَا أُبْتَلِيَ بِهِ إِلَّا مَنْ سَقَطَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ، وَطُرِدَ عَنْ بَابِهِ، وَأُبْعِدَ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْحُجُبِ الْقَاطِعَةِ عَنِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا سَقَطَ الْعَبْدُ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ، ابْتَلَاهُ بِمَحَبَّةِ الْمُرْدَانِ، وَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ هِيَ الَّتِي جَلَبَتْ عَلَى قَوْمٍ لَوْطٍ مَا جَلَبَتْ، فَمَا اتُّوا إِلَّا مِنْ هَذَا الْعِشْقِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سُورَةُ الْحَجَرِ: ٧٢].

وَدَوَاءُ هَذَا الدَّاءِ: الْإِسْتِعَانَةُ بِمَقَلْبِ الْقُلُوبِ، وَصِدْقُ اللَّجَأِ إِلَيْهِ، وَالِإِسْتِغَالُ بِذِكْرِهِ، وَالتَّعْوِضُ بِحُبِّهِ وَقُرْبِهِ، وَالتَّفَكُّرُ فِي الْأَلَمِ الَّذِي يُعْقِبُهُ هَذَا الْعِشْقُ، وَاللَّذَّةُ الَّتِي تُفُوْتُهُ بِهِ، فَيَرْتَبُّ عَلَيْهِ فَوَاتُ أَعْظَمِ مَحَبُوبٍ، وَحُصُولُ أَعْظَمِ مَكْرُوهٍ، فَإِذَا أَقْدَمَتْ نَفْسُهُ عَلَى هَذَا وَآثَرْتُهُ، فَلْيُكَبِّرْ عَلَى نَفْسِهِ تَكْبِيرَ الْجِنَازَةِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْبَلَاءَ قَدْ أَحَاطَ بِهِ.

وَالْقِسْمُ الثَّلَاثُ: الْعِشْقُ الْمُبَاحُ، وَهُوَ الْوَاقِعُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، كَعِشْقٍ مَنْ وُصِفَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ، أَوْ رَأَاهَا فَجَاءَهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَتَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهَا، وَلَمْ يُحَدِّثْ لَهُ ذَلِكَ الْعِشْقُ مَعْصِيَةً، فَهَذَا لَا يُمْلِكُ وَلَا يُعَاقَبُ،

وَالْأَنْفَعُ لَهُ مَدَافَعَتُهُ، وَالْإِشْتِعَالُ بِهَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ مِنْهُ، وَيَجِبُ الْكَتْمُ وَالْعِنْفَةُ وَالصَّبْرُ فِيهِ عَلَى الْبُلْوَى، فَيُشْبِهُهُ
اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَعْوِضُهُ عَلَى صَبْرِهِ لِلَّهِ وَعِقَّتِهِ، وَتَرْكِهِ طَاعَةَ هَوَاهُ، وَإِثَارِ مَرَضَاتِهِ اللَّهُ وَمَا عِنْدَهُ.

فصل

وَالنَّاسُ فِي الْعِشْقِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ:

مِنْهُمْ: مَنْ يَعِشُقُ الْجَمَالَ الْمُطْلَقَ، وَقَلْبُهُ يَهِيْمُ فِي كُلِّ وَادٍ، لَهُ فِي كُلِّ صُورَةٍ جَمِيلَةٍ مُرَادٌ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ يَعِشُقُ الْجَمَالَ الْمُقَيَّدَ، سَوَاءً طَمَعُ فِي وَصَالِهِ أَوْ لَا.

وَمِنْهُمْ: مَنْ لَا يَعِشُقُ إِلَّا مَنْ يَطْمَعُ فِي وَصَالِهِ.

وَيَبِينُ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ الثَّلَاثَةَ تَفَاوُتٌ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ.

فَعَاشِقُ الْجَمَالِ الْمُطْلَقِ، يَهِيْمُ قَلْبُهُ فِي كُلِّ وَادٍ، وَهُوَ فِي كُلِّ صُورَةٍ جَمِيلَةٍ مُرَادٌ:

فَيَوْمًا بِحَزْوَى، وَيَوْمًا بِالْعَقِيْقِ وَيَال... عَذِيْبِ يَوْمًا وَيَوْمًا بِالْحُلَيْصَاءِ

وَتَارَةً يَتَّحِي نَجْدًا وَأَوْنَةَ شَعْبِ الْعَقِيْقِ وَطَوْرًا قَصْرَ تَيْمَاءِ

فَهَذَا عِشْقُهُ أَوْسَعُ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ ثَابِتٍ كَثِيرُ التَّنَقُّلِ:

يَهِيْمُ بِهَذَا ثُمَّ يَعِشُقُ غَيْرَهُ... وَيَسْلَاهُمْ مِنْ وَقْتِهِ حِينَ يُصْبِحُ

وَعَاشِقُ الْجَمَالِ الْمُقَيَّدِ أَثْبَتُ عَلَى مَعْشُوقِهِ، وَأَدْوَمُ مَحَبَّةً لَهُ، وَمَحَبَّتُهُ أَقْوَى مِنْ مَحَبَّةِ الْأَوَّلِ، لِاجْتِمَاعِهِمَا

فِي وَاحِدٍ، وَلَكِنْ يُضْعِفُهُمَا عَدَمُ الطَّمَعِ فِي الْوِصَالِ.

وَعَاشِقُ الْجَمَالِ الَّذِي يُطْمَعُ فِي وَصَالِهِ أَعْقَلُ الْعِشَّاقِ وَأَعْرِفُهُمْ، وَحُبُّهُ أَقْوَى لِأَنَّ الطَّمَعَ يَمُدُّهُ

وَيَقْوِيهِ.

فصل

وَأَمَّا حَدِيثُ: «مَنْ عَشَقَ فَعَفَّ» فَهَذَا يَرْوِيهِ سُؤَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ، وَقَدْ أَنْكَرَهُ حُقَاطُ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ.
 قَالَ ابْنُ عَدِيِّ فِي كَامِلِهِ: هَذَا الْحَدِيثُ أَحَدُ مَا أَنْكَرَ عَلَى سُؤَيْدٍ، وَكَذَلِكَ ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ وَابْنُ طَاهِرٍ فِي
 الذَّخِيرَةِ وَالتَّذَكُّرَةِ، وَأَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجُوزِيِّ وَعَدَّهُ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ، وَأَنْكَرَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ عَلَى
 تَسَاهُلِهِ، وَقَالَ أَنَا أَتَعَجَّبُ مِنْهُ.

قُلْتُ: وَالصَّوَابُ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ، فَغَلَطَ سُؤَيْدٌ فِي رَفْعِهِ.
 قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ خَلْفِ بْنِ الْمُرْزَبَانِ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ الْأَزْرَقِ عَنْ سُؤَيْدِ بْنِ سَعِيدٍ، فَعَابَتْهُ عَلَى ذَلِكَ،
 فَأَسْقَطَ ذِكْرَ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يُسْأَلُ عَنْهُ فَلَا يَرْفَعُهُ، وَلَا يُشْبِهُ هَذَا كَلَامَ النَّبِيِّ.

وَأَمَّا رِوَايَةُ الْخَطِيبِ لَهُ عَنِ الْأَزْهَرِيِّ: حَدَّثَنَا الْمُعَاوِيُّ بْنُ زَكْرِيَّا، حَدَّثَنَا قُطَيْبَةُ بْنُ الْفَضْلِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ
 مُحَمَّدِ بْنِ مَسْرُوقٍ، حَدَّثَنَا سُؤَيْدُ بْنُ مُسَهَّرٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ مَرْفُوعًا، فَمِنْ أَيْبِنِ الْخَطِيبِ
 وَلَا يَحْمِلُ هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ مِثْلَ هَذَا عِنْدَ مَنْ شَمَّ أَدْنَى رَائِحَةٍ مِنَ الْحَدِيثِ، وَنَحْنُ نَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّ
 عَائِشَةَ مَا حَدَّثَتْ بِهَذَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَطُّ، وَلَا حَدَّثَتْ بِهِ عُرْوَةَ عَنْهَا، وَلَا حَدَّثَتْ بِهِ هِشَامٌ قَطُّ.

وَأَمَّا حَدِيثُ ابْنِ الْمَاجِشُونِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
 مَرْفُوعًا، فَكَذِبٌ عَلَى ابْنِ الْمَاجِشُونِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُحَدِّثْ بِهَذَا، وَلَا حَدَّثَ بِهِ عَنْهُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ، وَإِنَّمَا هَذَا مِنْ
 تَرْكِيبِ بَعْضِ الْوَضَّاعِينَ، وَيَا سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَحْتَمِلُ هَذَا الْإِسْنَادُ مِثْلَ هَذَا الْمُتَنِ؟ فَتَبَّحَ اللَّهُ
 الْوَضَّاعِينَ.

وَقَدْ ذَكَرَهُ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجُوزِيِّ، مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ سَهْلٍ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عِيسَى،
 مِنْ وَلَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ مَرْفُوعًا، وَهَذَا غَلَطٌ قَبِيحٌ، فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ

جَعْفَرٍ هَذَا هُوَ الْخَرَائِطِيُّ، وَوَفَاتَهُ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِينَ، فَمُحَالٌ أَنْ يُدْرِكَ شَيْخَهُ يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي نَجِيحٍ، لَا سِيَّما وَقَدَّرَ وَاهُ فِي كِتَابِ الْإِعْتِدَالِ، عَنْ يَعْقُوبَ هَذَا عَنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، وَالْخَرَائِطِيُّ هَذَا مَشْهُورٌ بِالضَّعْفِ فِي الرَّوَايَةِ، ذَكَرَهُ أَبُو الْفَرَجِ فِي كِتَابِ الضُّعْفَاءِ.

وَكَلامٌ حُفَاطِ الْإِسْلَامِ فِي إِنْكَارِ هَذَا الْحَدِيثِ هُوَ الْمِيزَانُ، وَإِلَيْهِمْ يُرْجَعُ فِي هَذَا الشَّانِ، وَلَا صَحَّحَهُ وَلَا حَسَّنَهُ أَحَدٌ يَعُولُ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ عَلَيْهِ، وَيُرْجَعُ فِي التَّصْحِيحِ إِلَيْهِ، وَلَا مَنْ عَادَنَهُ التَّسَامُحُ وَالتَّسَاهُلُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَطْنَفْ نَفْسَهُ لَهُ، وَيَكْفِي أَنْ ابْنَ طَاهِرٍ الَّذِي يَتَسَاهَلُ فِي أَحَادِيثِ التَّصَوُّفِ، وَيُرْوَى مِنْهَا الْغَثَّ وَالسَّمِينِ، قَدْ أَنْكَرَهُ وَشَهِدَ بِطُلَانِهِ.

نَعَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَا يُنْكَرُ ذَلِكَ عَنْهُ، وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ عَنْهُ: أَنَّهُ سِئِلَ عَنِ الْمَيْتِ عَشَقًا، فَقَالَ: قَتِيلُ الْهُوَى لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا قَوْدَ.

وَرَفَعَ إِلَيْهِ بَعْرَفَاتٍ شَابٌّ قَدْ صَارَ كَالْفَرْخِ، فَقَالَ: مَا شَأْنُهُ؟ قَالُوا: الْعِشْقُ، فَجَعَلَ عَامَّةَ يَوْمِهِ يَسْتَعِيدُ مِنَ الْعِشْقِ وَقَدْ تَقَدَّمَ.

فَهَذَا نَفْسُ مَا رَوَى عَنْهُ ذَلِكَ.

وَمَا يُوضِّحُ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَدَّ الشُّهَدَاءَ فِي الصَّحِيحِ، فَذَكَرَ الْمُقْتُولَ فِي الْجِهَادِ، وَالْمُبْطُونَ، وَالْحَرِيقَ، وَالنِّسَاءَ يَقْتُلُهَا وَلَدَهَا، وَالْغَرِيقَ، وَصَاحِبَ ذَاتِ الْجَنْبِ^(١)، وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهُمْ مَنْ يَقْتُلُهُ الْعِشْقُ.

وَحَسْبُ قَتِيلِ الْعِشْقِ أَنْ يَصِحَّ لَهُ هَذَا الْأَثَرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَتَّى يَصْبِرَ لِلَّهِ، وَيَعْفَ لِلَّهِ، وَيَكْتُمَ لِلَّهِ، لَكِنَّ الْعَاشِقَ إِذَا صَبَرَ وَعَفَّ وَكْتَمَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مَعْشُوقِهِ، وَآثَرَ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَخَوْفَهُ

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الجنائز، باب النهي عن البكاء على الميت (٥٥٥) وأحمد (٢٣٧٥٢) وأبوداود (٣١١١) والنسائي (١٨٤٦) من حديث جابر بن عتيك، قال الألباني في أحكام الجنائز (٣٩-٤٠): «قال الحاكم:

"صحيح الاسناد!" ووافقه الذهبي! ولست أشك في صحة متنه، لان له شواهد كثيرة».

وَرِضَاهُ، هَذَا أَحَقُّ مَنْ دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَيَإِنِّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ٤٠ - ٤١].

وَتَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِئَانًا﴾ [سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٤٦].
فَنَسَأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ آثَرَ حُبَّهُ عَلَىٰ هَوَاهُ، وَابْتَغَىٰ بِذَلِكَ قُرْبَهُ
وَرِضَاهُ.

انتهى الكتاب^(١)

(١) تنبيه: كل التخريج في هذه النسخة مأخوذ من طبعة عطاءات العلم بتخريج زائد النشيري . نقلتها
كما هي بلا مراجعة. وزدت عليها للفائدة أحكام الشيخ الألباني رحمه الله.

عصارة الجواب الكافي^(١)

مرر المؤشر على سطر الفائدة ليظهر الرابط. ويمكنك الرجوع من موضع الفائدة لمكانها في الفهرس بالضغط عليها. وقد ميزنا الرابط فيها باللون الرمادي.

ع الأذكار والآيات والأدعية التي يُستشفى بها ويُرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المتفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء.

ع للدعاء مع البلاء ثلاث مقامات: أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه. الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفا. الثالث: أن يتقوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

ع كثيرا ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابته دعوته شكرا لحسنته، أو صادف وقت إجابته، ونحو ذلك، فأجبت دعوته، فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء فيأخذه مجردا عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي... الخ

ع سؤال مشهور وهو: أن المدعو به إن كان قد قدر لم يكن بد من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قد قدر لم يقع، سواء سأل العبد أو لم يسأله... الخ

(١) الفائدة القصيرة أنقلها بتمامها والطويلة أنقل أزلها وأحيل إلى الباقي.

ع رَتَّبَ اللهُ سُبْحَانَهُ حُصُولَ الْخَيْرَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحُصُولَ الشُّرُورِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْأَعْمَالِ، تُرْتَّبَ الْجَزَاءُ عَلَى الشَّرْطِ، وَالْمَعْلُولُ عَلَى الْعِلَّةِ، وَالْمُسَبَّبُ عَلَى السَّبَبِ، وَهَذَا فِي الْقُرْآنِ يَزِيدُ عَلَى أَلْفِ مَوْضِعٍ ... الخ

ع الْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ الَّذِي يَرُدُّ الْقَدَرَ بِالْقَدْرِ، وَيَدْفَعُ الْقَدَرَ بِالْقَدْرِ، وَيُعَارِضُ الْقَدَرَ بِالْقَدْرِ، بَلْ لَا يُمَكِّنُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَعِيشَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَإِنَّ الْجُوعَ وَالْعَطَشَ وَالْبَرْدَ وَأَنْوَاعَ الْمُخَاوِفِ وَالْمُحَاذِرِ هِيَ مِنْ الْقَدْرِ. وَهَكَذَا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ وَأَهَمَّهُ رُشْدَهُ يَدْفَعُ قَدَرَ الْعُقُوبَةِ الْآخِرَةِ بِقَدْرِ التَّوْبَةِ وَالْإِيْمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ... الخ

ع جَعَلَ الشَّيْءَ سَبَبًا لِلتَّكْفِيرِ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَتَسَاعَدَ هُوَ وَسَبَبٌ آخَرٌ عَلَى التَّكْفِيرِ، وَيَكُونُ التَّكْفِيرُ مَعَ اجْتِمَاعِ السَّبَبَيْنِ أَقْوَى وَأَتَمُّ مِنْهُ مَعَ انْفِرَادِ أَحَدِهِمَا، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ أَسْبَابُ التَّكْفِيرِ كَانَ أَقْوَى وَأَتَمُّ وَأَشْمَلٌ.

ع مِنَ الْمَحَالِ الْمُمْتَنِعِ عِنْدَ كُلِّ ذِي فِطْرَةٍ سَلِيمَةٍ، أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ الْحَقُّ عَاجِزًا أَوْ جَاهِلًا، لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا يَأْمُرُ وَلَا يَنْهَى، وَلَا يُشِيبُ وَلَا يُعَاقِبُ، وَلَا يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُدِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُرْسِلُ رُسُلَهُ إِلَى أَطْرَافِ مَمْلَكَتِهِ وَنَوَاحِيهَا، وَلَا يَعْتَنِي بِأَحْوَالِ رَعِيَّتِهِ، بَلْ يَتْرُكُهُمْ سُدىً وَيُخْلِئُهُمْ هَمَلًا، وَهَذَا يَقْدَحُ فِي مُلْكِ أَحَادِ مُلُوكِ الْبَشَرِ وَلَا يَلِيْقُ بِهِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ نَسْبَةُ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ إِلَيْهِ؟

ع قَوْلُهُ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سُورَةُ الدَّارِيَاتِ: ٢١]. الْإِنْسَانُ دَلِيلٌ نَفْسِهِ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَإِثْبَاتِ صِفَاتِ كَمَالِهِ.

ع كَيْفَ يَجْتَمِعُ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ بِالْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَيَتَخَلَّفُ الْعَمَلُ؟

ع مَنْ رَجَا شَيْئًا اسْتَلْزَمَ رَجَاؤُهُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: أَحَدُهَا: مَحَبَّةُ مَا يَرْجُوهُ. الثَّانِي: خَوْفُهُ مِنْ فَوَاتِهِ. الثَّلَاثُ: سَعْيُهُ فِي تَحْصِيلِهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ.

ع وَهُوَ سُبْحَانَهُ كَمَا جَعَلَ الرَّجَاءَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَكَذَلِكَ جَعَلَ الْخَوْفَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَعَلِمَ أَنَّ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ النَّافِعَ مَا اقْتَرَنَ بِهِ الْعَمَلُ.

ع الْمُعَاصِي تُلْسِدُ الْعَقْلَ، فَإِنَّ لِلْعَقْلِ نُورًا، وَالْمُعْصِيَةَ تُطْفِئُ نُورَ الْعَقْلِ وَلَا بُدَّ، وَإِذَا طَفِيَ نُورُهُ ضَعُفَ وَنَقَصَ.

ع شَيَاطِينِ الْإِنْسِ، يُخْرِجُونَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي قَالِبِ كَثْرَةِ الْفُضُولِ، وَتَبَّعَ عَثْرَاتِ النَّاسِ، وَالتَّعَرُّضِ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ، وَإِلْقَاءِ الْفِتَنِ بَيْنَ النَّاسِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ... الْخَوَاكِرُ النَّاسِ ضِعْفَاءُ الْعُقُولِ يَقْبَلُونَ الشَّيْءَ بِلَفْظٍ وَيَرُدُّونَهُ بَعَيْنِهِ بِلَفْظٍ آخَرَ.

ع أَعْظَمَ الْقِسْطِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ رَأْسُ الْعَدْلِ وَقَوَامُهُ.

ع مَسْأَلَةٌ: الْمُشْرِكُ إِنَّمَا قَصَدَهُ تَعْظِيمُ جَنَابِ الرَّبِّ، وَأَنَّهُ لِعَظَمَتِهِ لَا يَنْبَغِي الدُّخُولُ عَلَيْهِ إِلَّا بِالْوَسَائِطِ وَالشُّفَعَاءِ كَحَالِ الْمُلُوكِ، فَالْمُشْرِكُ لَمْ يَقْصِدِ الْإِسْتِهَانَةَ بِجَنَابِ الرَّبُّوبِيَّةِ، وَإِنَّمَا قَصَدَ تَعْظِيمَهُ، وَقَالَ: إِنَّمَا أَعْبُدُ هَذِهِ الْوَسَائِطَ لِتَقَرُّبِي إِلَيْهِ وَتَدَلُّنِي وَتُدْخِلَنِي عَلَيْهِ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ وَهَذِهِ وَسَائِلُ وَشُفَعَاءُ، فَلِمَ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مُوجِبًا لِسُخْطِهِ وَغَضَبِهِ، وَمُحْلَدًا فِي النَّارِ، وَمُوجِبًا لِسَفْكِ دِمَائِهِ أَصْحَابِهِ، وَاسْتِبَاحَةِ حَرِيمِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؟

ع الشِّرْكَ شَرِكَانٌ: شِرْكٌ يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ الْمَعْبُودِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ. وَشِرْكٌ فِي عِبَادَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ.

ع الشُّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا الشُّرْكِ فِي الرَّبُوبِيَّةِ، وَأَخْفُّ أَمْرًا (١).

ع الشُّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ يُبْطِلُ ثَوَابَ الْعَمَلِ، وَقَدْ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ الْعَمَلُ وَاجِبًا.

ع الشُّرْكُ فِي الْأَلُوْهِيَّةِ يَنْقَسِمُ إِلَى مَغْفُورٍ وَغَيْرِ مَغْفُورٍ، وَأَكْبَرَ وَأَصْغَرَ، وَالشُّرْكُ الْمُتَعَلِّقُ بِذَاتِ الْمُعْبُودِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ يَنْقَسِمُ إِلَى كَبِيرٍ وَأَكْبَرَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ مَغْفُورٌ.

ع أَصْلُ الشُّرْكِ وَقَاعِدَتُهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا، هُوَ التَّعْطِيلُ، وَهُوَ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ: تَعْطِيلُ الْمُصْنُوعِ عَنِ صَانِعِهِ وَخَالِقِهِ. وَتَعْطِيلُ الصَّانِعِ سُبْحَانَهُ عَنِ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، بِتَعْطِيلِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ. وَتَعْطِيلُ مُعَامَلَتِهِ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ مِنَ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ.

ع حَقِيقَةُ الشُّرْكِ: هُوَ التَّشْبَهُ بِالْخَالِقِ وَتَشْبِيهِهُ الْمَخْلُوقِ بِهِ.

ع الْعُبُودِيَّةُ قَامَتْ عَلَى سَاقَيْنِ لَا قِوَامَ لَهَا بَدُونَهُمَا: غَايَةُ الْحُبِّ، مَعَ غَايَةِ الذُّلِّ. هَذَا تَمَامُ الْعُبُودِيَّةِ، وَتَفَاوُتُ مَنَازِلِ الْخَلْقِ فِيهَا بِحَسَبِ تَفَاوُتِهِمْ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ.

ع أَعْظَمَ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللَّهِ إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِهِ، فَإِنَّ الْمُسِيءَ بِهِ الظَّنَّ قَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ، وَظَنَّ بِهِ مَا يُنَاقِضُ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَهَذَا تَوَعَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الظَّانِّينَ بِهِ ظَنَّ السَّوِّءِ بِمَا لَمْ يَتَوَعَّدْ بِهِ غَيْرَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سُورَةُ الْفَتْحِ: ٦].

ع الْعَابِدَ مُعْظَمٌ لِمُعْبُودِهِ، مُتَّالٍ خَاضِعٌ ذَلِيلٌ لَهُ، وَالرَّبُّ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ كَمَالَ التَّعْظِيمِ وَالْجَلَالِ وَالتَّأَلُّهِ وَالْحُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَهَذَا خَالِصُ حَقِّهِ.

(١) يعني أنه يسهل وقوع الناس فيها لا كونه أسهل في الشرع.

ع قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ: ٦٧]، فَمَا قَدَرَ مَنْ هَذَا شَأْنَهُ وَعَظَمَتُهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ مَنْ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ، بَلْ هُوَ أَعْجَزُ شَيْءٍ وَأَضْعَفُهُ، فَمَا قَدَرَ الْقَوِيَّ الْعَزِيزَ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ الضَّعِيفَ الدَّلِيلَ.. الخ

ع مشابهة الرافضة لليهود: مَنْ قَالَ: إِنَّهُ رَفَعَ أَعْدَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَأَعْلَى ذِكْرَهُمْ، وَجَعَلَ فِيهِمُ الْمُلْكَ وَالْخِلَافَةَ وَالْعِزَّ، وَوَضَعَ أَوْلِيَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَأَهَائِهِمْ وَأَذَنَّهُمْ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّ أَيُّمَا تُقْفُوا، وَهَذَا يَنْصَمِنُ غَايَةَ الْقَدْحِ فِي جَنَابِ الرَّبِّ. تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الرَّافِضَةِ عُلُوًّا كَبِيرًا.

ع إنكار الحكمة: لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ قَالَ أَنَّهُ يُجُوزُ أَنْ يُعَذِّبَ أَوْلِيَاءَهُ، وَمَنْ لَمْ يَعِصِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيُدْخِلَهُمْ دَارَ الْجَحِيمِ، وَيَنْعَمَ أَعْدَاءَهُ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَيُدْخِلَهُمْ دَارَ النَّعِيمِ، وَأَنَّ كِلَا الْأَمْرَيْنِ بِالنُّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاءٌ، وَإِنَّهَا الْخَبْرُ الْمُحْضُ جَاءَ عَنْهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَمَعْنَاهُ لِلْخَيْرِ لَا لِالْمُخَالَفَةِ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ.

ع مَا عَبَدَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ غَيْرَ اللَّهِ كَاتِبًا مَنْ كَانَ إِلَّا وَقَعَتْ عِبَادَتُهُ لِلشَّيْطَانِ... فَإِنَّهُ مَا عَبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا الشَّيْطَانَ.

ع السِّرُّ الَّذِي لِأَجْلِهِ كَانَ الشَّرُّ أَكْبَرَ الْكِبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ بِغَيْرِ التَّوْبَةِ مِنْهُ، وَأَنَّهُ يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي الْعَذَابِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ تَحْرِيمُهُ وَقُبْحُهُ بِمَجْرَدِ النَّهْيِ عَنْهُ... فَلَمَّا كَانَ الشَّرُّ أَكْبَرَ شَيْءٍ مُنَافَاةً لِلْأَمْرِ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْخَلْقَ، وَأَمَرَ لِأَجْلِهِ بِالْأَمْرِ، كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ.

ع الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَوَصْفُهُ بِضِدِّ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصْفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، ﷺ أَشَدُّ شَيْءٍ مُنَافِضَةً وَمُنَافَاةً لِكَمَالِ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ.

ع القول على الله بلا علم والشرك متلازمان.

ع المذنب إنما صرره على نفسه، وأما المبتدع فصرره على النوع، وفتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصددهم عنه، والمذنب ليس كذلك، والمبتدع قاذح في أوصاف الرب وكماله، والمذنب ليس كذلك. والمبتدع يقطع على الناس طريق الأخرى، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه.

ع حقيقة التعبد: الذل والخضوع للمحبوب، ومنه قوتهم: طريق معبد أي مدلل، قد ذلته الأقدام، فالعبد هو الذي ذلله الحب والخضوع لمحبوبه، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته في العبودية، فلا منزل له أشرف منها.

ع أصل الشرك بالله، الإشراف به في المحبة.

ع حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراف بالله في المحبة، بخلاف المحبة لله، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها، فإن محبة الرسول - بل تقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء - لا يتم إلا بها، إذ محبته من محبة الله، وكذلك كل حب في الله والله، فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله تعالى وموجباتها، وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك.

ع أربعة أنواع من المحبة يجب التفريق بينها، وإثما ضل من ضل بعدم التمييز بينها.

أحدها: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله. الثاني: محبة ما يحب الله، وهذه هي التي تدخل في الإسلام، وتخرج من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها. الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله. الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة

السُّرِّيَّةُ، وَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مَعَ اللَّهِ لَا لِلَّهِ، وَلَا مِنْ أَجْلِهِ، وَلَا فِيهِ، فَقَدْ اتَّخَذَهُ نِدًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهَذِهِ مَحَبَّةُ الْمُشْرِكِينَ.

ع إِذَا كَانَ الْحُبُّ أَصْلَ كُلِّ عَمَلٍ مِنْ حَقِّ وَبَاطِلٍ، فَأَصْلُ الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا أَصْلُ الْأَقْوَالِ الدِّينِيَّةِ تَصْدِيقُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَكُلُّ إِرَادَةٍ تَمْنَعُ كَمَالَ الْحُبِّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُرَاحِمُ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ أَوْ تُشَبِّهُهَا تَمْنَعُ كَمَالَ التَّصْدِيقِ، فَهِيَ مُعَارِضَةٌ لِأَصْلِ الْإِيمَانِ أَوْ مُضَعِفَةٌ لَهُ. فَإِنْ قَوِيَتْ حَتَّى عَارَضَتْ أَصْلَ الْحُبِّ وَالتَّصْدِيقِ كَانَتْ كُفْرًا أَوْ شُرْكًَا أَكْبَرَ، وَإِنْ لَمْ تُعَارِضْهُ قَدَحَتْ فِي كَمَالِهِ، وَأَثَرَتْ فِيهِ ضَعْفًا وَفُتُورًا فِي الْعَزِيمَةِ وَالطَّلَبِ، وَهِيَ تَحْجُبُ الْوَاصِلَ، وَتَقْطَعُ الطَّالِبَ، وَتُنْكَسُ الرَّائِبَ.

ع كُلُّ حَرَكَةٍ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفِيِّ فَأَصْلُهَا الْمَحَبَّةُ، فَهِيَ عَلَيْهَا الْفَاعِلِيَّةُ وَالْعَائِيَّةُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَرَكَاتِ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ: حَرَكَةٌ اخْتِيَارِيَّةٌ إِرَادِيَّةٌ، وَحَرَكَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، وَحَرَكَةٌ قَسْرِيَّةٌ ... الخ

ع من تمام الإيذان بالملائكة: ما في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلاكِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ وَالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَحَرَكَاتِ الْأَجْنَةِ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهَا، فَإِنَّمَا هِيَ بِوَأَسْطَةِ الْمَلَائِكَةِ ... الخ

ع الدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ وَالْحُلُقُ، فَهُوَ الطَّاعَةُ اللَّازِمَةُ الدَّائِمَةُ الَّتِي صَارَتْ خُلُقًا وَعَادَةً، وَهَذَا فُسِّرَ الْحُلُقُ بِالدِّينِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سُورَةُ الْقَلَمِ: ٤] ... الخ

ع الدِّينُ دِينَانِ: دِينٌ شَرْعِيٌّ أَمْرِيٌّ، وَدِينٌ حِسَابِيٌّ جَزَائِيٌّ ... الخ

ح ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»... وَهَذَا يَعُمُّ أَدْوَاءَ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالْبَدَنِ وَأَدْوِيَتَهَا.

ح جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْجَهْلَ دَاءً، وَجَعَلَ دَوَاءَهُ سُؤَالَ الْعُلَمَاءِ. فَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ». فَأَخْبَرَ أَنَّ الْجَهْلَ دَاءٌ، وَأَنَّ شِفَاءَهُ السُّؤَالُ.

ح أَكَلَ الْحَرَامَ مِنْ مَوَاعِدِ الْاسْتِجَابَةِ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»... الخ

ح قَوْلُهُ ﷺ حَاكِيًا عَنْ رَبِّهِ: «أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيُظَنَّ بِي مَا شَاءَ» يَعْنِي مَا كَانَ فِي ظَنِّهِ فَإِنِّي فَاعِلُهُ بِهِ، وَلَا رَبِّبَ أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْإِحْسَانِ، فَإِنَّ الْمُحْسِنَ حَسَنُ الظَّنِّ بِرَبِّهِ أَنْ يُجَازِيَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ وَلَا يُخْلِفَ وَعْدَهُ... الخ

ح مَعْنَى قَوْلِ حَدِيثِهِ: «لَا، وَلَا أَزْكِي بَعْدَكَ أَحَدًا»، فَسَمِعْتُ شَيْخَنَا يَقُولُ: لَيْسَ مُرَادُهُ لَا أُبْرِيءُ غَيْرَكَ مِنَ النِّفَاقِ، بَلِ الْمُرَادُ لَا أَفْتَحُ عَلَى نَفْسِي هَذَا الْبَابَ، فَكُلُّ مَنْ سَأَلَنِي هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَازْكِيهِ.

ح قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لِلَّذِي سَأَلَهُ أَنْ يَدْعُو لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةٌ»، وَلَمْ يَرِدْ أَنَّ عَكَاشَةَ وَحْدَهُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِمَّنْ عَدَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ لَوْ دَعَا لَقَامَ آخَرَ وَآخَرَ وَانْفَتَحَ الْبَابُ، وَرَبَّهَا قَامَ مَنْ لَمْ يَسْتَحِقَّ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ، فَكَانَ الْإِمْسَاكُ أَوْلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ح قَالَ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعِ مَا شِئْتَ» وَفِيهِ تَفْسِيرَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَلَى التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، وَالثَّانِي: أَنَّ الْفِعْلَ إِذَا لَمْ تَسْتَحِ مِنْهُ مِنَ اللَّهِ فَافْعَلْهُ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَنْبَغِي تَرْكُهُ هُوَ مَا يُسْتَحَى مِنْهُ مِنَ اللَّهِ، وَهَذَا تَفْسِيرُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ هَانِيٍّ. فَعَلَى الْأَوَّلِ: يَكُونُ تَهْدِيدًا،

كَقَوْلِهِ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [سُورَةُ فَصَّلَتْ: ٤٠]. وَعَلَى الثَّانِي: يَكُونُ إِذْنًا وَإِبَاحَةً. فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى حَمَلِهِ عَلَى الْمُعَيَّنِينَ؟ قُلْتُ: لَا، وَلَا عَلَى قَوْلٍ مَنْ يَحْمِلُ الْمُشْتَرَكَ عَلَى جَمِيعِ مَعَانِيهِ، لِمَا بَيَّنَّ الْإِبَاحَةَ وَالتَّهْدِيدَ مِنَ الْمُنَافَاةِ، وَلَكِنَّ عَتَبَارَ أَحَدِ الْمُعَيَّنِينَ يُوجِبُ عَتَبَارَ الْآخَرَ.

ح
الذَّنْبُ إِذَا يَمِيتُ الْقَلْبَ، أَوْ يَمِرُّ بِهِ مَرَضًا مُخَوِّفًا، أَوْ يُضْعِفُ قُوَّتَهُ وَلَا بُدَّ، حَتَّى يَتَّهِيَ ضَعْفُهُ إِلَى الْأَشْيَاءِ الثَّمَانِيَةِ الَّتِي اسْتَعَاذَ مِنْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ: الْهَمُّ، وَالْحَزَنُ، وَالْعَجْزُ، وَالْكَسَلُ، وَالْجُبْنُ، وَالْبُخْلُ، وَصَلَعُ الدِّينِ، وَغَلَبَةُ الرِّجَالِ، وَكُلُّ اثْنَيْنِ مِنْهَا قَرِينَانِ. فَالْهَمُّ وَالْحَزَنُ قَرِينَانِ: فَإِنَّ الْمَكْرُوهَ الْوَارِدَ عَلَى الْقَلْبِ إِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مُسْتَقْبَلٍ يَتَوَقَّعُهُ أَحَدَثَ الْهَمُّ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مَاضٍ قَدْ وَقَعَ أَحَدَثَ الْحَزَنُ. وَالْعَجْزُ وَالْكَسَلُ قَرِينَانِ: فَإِنَّ تَخَلَّفَ الْعَبْدُ عَنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ، إِنْ كَانَ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ فَهُوَ الْعَجْزُ، وَإِنْ كَانَ لِعَدَمِ إِرَادَتِهِ فَهُوَ الْكَسَلُ. وَالْجُبْنُ وَالْبُخْلُ قَرِينَانِ: فَإِنَّ عَدَمَ النَّفْعِ مِنْهُ إِنْ كَانَ بِيَدِنِهِ فَهُوَ الْجُبْنُ، وَإِنْ كَانَ بِمَالِهِ فَهُوَ الْبُخْلُ. وَصَلَعُ الدِّينِ وَفَهْرُ الرِّجَالِ قَرِينَانِ: فَإِنَّ اسْتِعْلَاءَ الْغَيْرِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ بِحَقِّ فَهُوَ مِنْ صَلَعِ الدِّينِ، وَإِنْ كَانَ بِبَاطِلٍ فَهُوَ مِنْ فَهْرِ الرِّجَالِ.

ح
حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقَكَ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَافَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهَا ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ ٦٨]... الخ

ح
كَيْسَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرٌّ إِلَّا الذُّنُوبَ وَعُقُوبَاتِهَا، فَالشَّرُّ اسْمٌ لِذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَصْلُهُ مِنْ شَرِّ النَّفْسِ وَسَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ، وَهُمَا الْأَصْلَانِ اللَّذَانِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَعِيدُ مِنْهُمَا فِي خُطْبَتِهِ بِقَوْلِهِ: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا». وَسَيِّئَاتُ الْأَعْمَالِ مِنْ شُرُورِ النَّفْسِ، فَعَادَ الشَّرُّ كُلَّهُ إِلَى شَرِّ النَّفْسِ، فَإِنَّ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ مِنْ فُرُوعِهِ وَثَمَرَاتِهِ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَمَنْ سَيِّئَاتٍ أَعْمَلْنَا» ... الخ .

ح قَالَ ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ». وَ (لَا يَنْبَغِي) فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ لِلَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الْإِمْتِنَاعِ شَرَعًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٩٢] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [سُورَةُ يَسَ: ٦٩]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ - وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٢١٠ - ٢١١]. وَقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ١٨].

ح وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ»، أَي: مَعَ الْعِشَاءِ كَمَا جَاءَ فِي لَفْظِ آخَرَ، وَأَصْرَحَ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَاتَّبَعَهُ بِسِتٍّ مِنْ سُؤَالٍ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ»، وَقَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ثَوَابَ فَاعِلِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَمْ يَبْلُغْ ثَوَابَ الْمُشَبَّهِ بِهِ، فَيَكُونُ قَدْرُهُمَا سَوَاءً، وَلَوْ كَانَ قَدْرُ الثَّوَابِ سَوَاءً لَمْ يَكُنْ لِمُصَلِّيِ الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ جَمَاعَةً فِي قِيَامِ اللَّيْلِ مَنَفَعَةٌ غَيْرُ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ، وَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ - بَعْدَ الْإِيمَانِ - أَفْضَلَ مِنَ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ. وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. فإِنْ قِيلَ: فَفِي أَيِّ شَيْءٍ وَقَعَ التَّشْبِيهُ بَيْنَ قَاتِلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَقَاتِلِ النَّاسِ جَمِيعًا؟ ... الخ .

ح قَوْلُهُ ﷺ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَا أَحَدًا غَيْرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزِنِي عَبْدُهُ أَوْ تَزِنِي أُمَّتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟» وَفِي ذِكْرِ هَذِهِ الْكَبِيرَةِ بِخُصُوصِهَا عَقِبَ صَلَاةِ الْكُسُوفِ سِرٌّ يَدِيعُ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ ... الخ .

ح ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمَلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمَلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمَلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ» وَلَمْ يَجِئْ عَنْهُ لَعْنَةُ الزَّانِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ لَعَنَ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْكِبَايَرِ، فَلَمْ يَنْجَاوِزْ بِهِمْ فِي اللَّعْنِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَكَرَّرَ لَعْنَ اللُّوطِيَّةِ، وَأَكَّدَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

ح حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ أَتَى بِهِمَةً فَاقْتُلُوهُ، وَاقْتُلُوهَا مَعَهُ»، قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ سَعِيدِ الشَّالَنْجِي: سَأَلْتُ أَحْمَدَ عَنِ الَّذِي يَأْتِي الْبِهِمَةَ، فَوَقَفَ عِنْدَهَا، وَلَمْ يَثْبُتْ حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو فِي ذَلِكَ. وَقَالَ الطَّحَاوِيُّ: الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ، وَأَيْضًا فَرَاوِيهِ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَدْ أَفْتَى بِأَنَّهُ لَا حَدَّ عَلَيْهِ، قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَهَذَا يُضَعَّفُ الْحَدِيثَ.

ح فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ ﷺ فِيمَا يَرُوي عَنْ رَبِّهِ، أَنَّهُ قَالَ: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ آدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَمْشِي، وَلَكِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، كَتَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ». فَتَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ الْإِلَهِيُّ - الَّذِي حَرَّمَ عَلَى غَلِيظِ الطَّبَعِ كَسِيفِ الْقَلْبِ فَهَمُّ مَعْنَاهُ وَالْمُرَادُ بِهِ - حَضَرَ أَسْبَابِ مَحَبَّتِهِ فِي أَمْرَيْنِ: آدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ... الخ.

ح قَوْلُهُ وَقَدْ سَأَلُوهُ عَنْ وَصَالِهِ فِي الصَّوْمِ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي». فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ مَا يَحْضُلُ لَهُ مِنَ الْعِذَاءِ عِنْدَ رَبِّهِ يَقُومُ مَقَامَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الْحَسِيِّ، وَأَنَّ مَا يَحْضُلُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ يَخْتَصُّ بِهِ وَلَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، فَإِذَا أَمْسَكَ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَلَهُ عَنْهُ عَوْضٌ يَقُومُ مَقَامَهُ وَيَنْوِبُ مَنَابَهُ، وَيُعِينِي عَنْهُ.

ح فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أُمَّتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ

الْعَظِيمَ رَبِّعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَتَعَلَّمُهُنَّ؟ قَالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ» .

وَهَذَا يَتَنَاوَلُ حُكْمَ الرَّبِّ الْكُونِيِّ وَالْأَمْرِيِّ وَقَضَاءَهُ الَّذِي يَكُونُ بِاخْتِيَارِ الْعَبْدِ وَغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، وَكِلَا الْحُكْمَيْنِ مَاضٍ فِي عِبْدِهِ، وَكِلَا الْقَضَائَيْنِ عَدْلٌ فِيهِ، فَهَذَا الْحَدِيثُ مُشْتَقٌّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، بَيْنَهُمَا أَقْرَبُ نَسَبٍ.

ح معنى قوله ﷺ: «كُلُّهُ يُلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيئَهُ فَرَسَهُ، وَمَلَاعِبَتَهُ أَمْرَانَهُ، فَأَيُّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ» ... الخ .

ح قوله ﷺ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تَقْبَلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبْتَهُ فَلَيَاتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»، فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ عِدَّةٌ فَوَائِدَ ... الخ .

ح ضعف حديث: «مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ» ... الخ .

ح فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَحَدٌ أَعْيُرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُدْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرَّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمُدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَتْنَى عَلَى نَفْسِهِ» فَجَمَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيْنَ الْغَيْبَةِ الَّتِي أَصْلُهَا كَرَاهَةُ الْقَبَائِحِ وَبُغْضُهَا، وَبَيْنَ مَحَبَّةِ الْعُدْرِ الَّذِي يُوجِبُ كَمَالَ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةَ وَالْإِحْسَانَ ... الخ .

ت ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ٨٢] . وَ " مِنْ " هُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ شِفَاءٌ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَهُوَ شِفَاءٌ لِّلْقُلُوبِ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ.

ت التاريخُ تفصيلُ جزئيات ما عرفنا الله ورَسُولُهُ من الأسبابِ الكُليَّةِ للخَيْرِ وَالشَّرِّ... الخ.

ت قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر: ٥٣] لا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين، فإنه يغفر ذنب كل تائب من أي ذنب كان، ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها. وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة، فإنه سبحانه هاهنا عمم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين، وفي سورة النساء خصص وقيد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨]، فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره.

ت قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار: ٦٦] فيقول: كرمه، وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجتته، وهذا جهل قبيح، وإنما عره بربه العرور، وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهوأه.

ت يغتر بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى - الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [سورة الليل: ١٥ - ١٦]، وقوله: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤]. ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها بل قال: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ولا يلزم من عدم صليها، عدم دخولها، فإن الصلي أخص من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

ت قوله في النار: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، فقد قال في الجنة: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣] ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة، ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان، ولم يعمل خيرا قط.

ت قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] فَجَعَلَ هُوَ لِأَهْلِ الرَّجَاءِ، لَا الْبَطَالِينَ وَالْفَاسِقِينَ.

ت قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلْتُمْ جَاهِدُوا وَصَبْرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة النحل: ١١٠] فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ بَعْدَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ فَعَلَهَا، فَالْعَالِمُ يَضَعُ الرَّجَاءَ مَوَاضِعَهُ وَالْجَاهِلُ الْمُغْتَرُّ يَضَعُهُ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهِ.

ت قَدْ سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ الْحَلِيلُ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى عَيَانًا بَعْدَ عِلْمِهِ بِقُدْرَةِ الرَّبِّ عَلَى ذَلِكَ، لِيَزِدَّادَ طُمَأْنِينَةً، وَيَصِيرَ الْمَعْلُومُ غَيْبًا شَهَادَةً.

ت قَالَ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الروم: ٤١]. قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا وَلِيَ الظَّالِمُ سَعَى بِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ فَيَحْبِسُ اللهُ بِذَلِكَ الْقَطْرَ، فَيَهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ ... الخ.

ت نَسِيَانَ اللهُ لِعِبْدِهِ، وَتَرَكَهُ وَتَحْلِيَّتَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَشَيْطَانِهِ، وَهُنَالِكَ الْهَلَاكُ الَّذِي لَا يُرْجَى مَعَهُ نَجَاةٌ، قَالَ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة الحشر: ١٨-١٩].

فَأَمَرَ بِتَقْوَاهُ وَنَهَى أَنْ يَتَشَبَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَنْ نَسِيَهُ بِتَرْكِ تَقْوَاهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ عَاقَبَ مَنْ تَرَكَ التَّقْوَى بِأَنْ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ، أَيَّ أَنْسَاهُ مَصَاحِحَهَا، وَمَا يُنْجِيهَا مِنْ عَذَابِهِ، وَمَا يُوجِبُ لَهُ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ، وَكَمَالَ لَدَّتِهَا وَسُرُورَهَا وَنَعِيمِهَا، فَأَنْسَاهُ اللهُ ذَلِكَ كُلَّهُ جَزَاءً لِمَا نَسِيَهُ مِنْ عَظَمَتِهِ وَخَوْفِهِ، وَالْقِيَامَ بِأَمْرِهِ ... الخ.

ت وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سُورَةُ الْأَنْفَالِ: ٥٣]. فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا يُعَيِّرُ نِعْمَةً الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَىٰ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُعَيِّرُ مَا بِنَفْسِهِ ... الخ.

ت لَا تَحْسَبُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [سُورَةُ الْإِنْشَارِ: ١٣ - ١٤] مَقْصُورٌ عَلَىٰ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَجَحِيمِهَا فَقَطْ بَلْ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةُ كَذَلِكَ - أَعْنِي دَارَ الدُّنْيَا، وَدَارَ الْبَرْزَخِ، وَدَارَ الْقَرَارِ - فَهَؤُلَاءِ فِي نَعِيمٍ، وَهَؤُلَاءِ فِي جَحِيمٍ ... الخ.

ت قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [سُورَةُ الشَّمْسِ: ٩ - ١٠]، وَالْمَعْنَىٰ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَبَّرَهَا وَأَعْلَاهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَأَظْهَرَهَا، وَقَدْ خَسِرَ مَنْ أَخْفَاهَا وَحَقَّرَهَا وَصَغَّرَهَا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ ... الخ.

ت قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ - إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ﴾ [سُورَةُ ص: ٤٥ - ٤٦]. أَيْ: خَصَّصْنَاهُمْ بِخَصِيصَةٍ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ الَّذِي يُذَكَّرُونَ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَهُوَ لِسَانُ الصِّدْقِ الَّذِي سَأَلَهُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [سُورَةُ الشُّعْرَاءِ: ٨٤]. وَقَالَ عَنْهُ وَعَنْ بَيْنِهِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٥٠]. وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [سُورَةُ الشَّرْحِ: ٤]

ت خِطَابَ الْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ مَعَ أُولِي الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٩٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١٠٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٦٩]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

ت قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ: ٥٠]. يَقُولُ

سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ: أَنَا أَكْرَمْتُ أَبَاكُمْ، وَرَفَعْتُ قَدْرَهُ، وَفَضَّلْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَأَمَرْتُ مَلَائِكَتِي كُلَّهُمْ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ، تَكْرِيماً لَهُ وَتَشْرِيفاً، فَطَاعُونِي، وَأَبَى عَدُوِّي وَعَدُوَّهُ، فَعَصَى أَمْرِي، وَخَرَجَ عَن طَاعَتِي، فَكَيْفَ يَحْسُنُ بِكُمْ بَعْدَ هَذَا أَنْ تَتَّخِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، فَتَطِيعُونَهُ فِي مَعْصِيَتِي، وَتُؤَلُّونَهُ فِي خِلَافِ مَرْضَاتِي وَهُمْ أَعْدَى عَدُوِّكُمْ؟

ت قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ: ٤١]. فَتَأَمَّلْ خَتَمَ هَذِهِ الْآيَةِ بِاسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَهُمَا: " الْحَلِيمُ، وَالْغَفُورُ " كَيْفَ تَجِدُ تَحْتَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا حِلْمُهُ عَنِ الْجَنَاحَةِ وَمَغْفِرَتُهُ لِلْعَصَاةِ لَمَا اسْتَقَرَّتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَن كُفْرِ بَعْضِ عِبَادِهِ أَنَّهُ: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ: ٩٠].

ت الكَمَالُ الْإِنْسَانِيَّ مَدَارُهُ عَلَى أَصْلَيْنِ: مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَإِثَارِهِ عَلَيْهِ. وَمَا تَفَاوَتَتْ مَنَازِلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِقَدْرِ تَفَاوَتِ مَنَازِلِهِمْ فِي هَدْيِ الْأَمْرَيْنِ، وَهُمَا اللَّذَانِ أَثْنَى اللَّهُ بِهِمَا سُبْحَانَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ بِهِمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَا عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [سُورَةُ ص: ٤٥]... الخ.

ت قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَةِ: ٢٤]. فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ نَالُوا الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ اسْتَشْنَاهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْخَاسِرِينَ، وَأَقْسَمَ بِالْعَصْرِ - الَّذِي هُوَ مَنْ سَعِيَ الْخَاسِرِينَ وَالرَّابِحِينَ - عَلَى أَنَّ مَنْ عَدَاهُمْ فَهُوَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [الْعَصْرِ: ١ - ٣]. وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ، حَتَّى يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَيُرْشِدَهُ إِلَيْهِ وَيُحْضَهُ عَلَيْهِ.

ت قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ: ٣٦ - ٣٩] فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ عَشِيَ عَنْ ذِكْرِهِ، وَهُوَ كِتَابُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَعَمِيَ عَنْهُ، وَعَشَتْ بَصِيرَتُهُ عَنْ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَمَعْرِفَةِ مُرَادِ اللَّهِ مِنْهُ - قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ شَيْطَانًا عُقُوبَةً لَهُ بِإِعْرَاضِهِ عَنْ كِتَابِهِ، فَهُوَ قَرِينُهُ الَّذِي لَا يَفَارِقُهُ فِي الْإِقَامَةِ وَلَا فِي الْمَسِيرِ، وَمَوْلَاهُ وَعَشِيرُهُ الَّذِي هُوَ بئسَ المولى وبئسَ العشير... الخ.

ت عَلَّمَ عِبَادَهُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ، فَجَمَعَهَا هُمْ فِي أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٢٠٠] وَلَا يَتِمُّ أَمْرُ هَذَا الْجِهَادِ إِلَّا بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ... الخ.

ت قَالَ تَعَالَى: ﴿سُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٦٧] فَعَاقَبَ سُبْحَانَهُ مَنْ نَسِيَهُ عُقُوبَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُ. وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ... الخ.

ت قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ: ١٠ - ١٢] أَيْ اسْتَحْيُوا مِنْ هَؤُلَاءِ الْحَافِظِينَ الْكِرَامِ وَأَكْرِمُوهُمْ، وَأَجْلُوهُمْ أَنْ يَرَوْا مِنْكُمْ مَا تَسْتَحْيُونَ أَنْ يَرَاكُمْ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ مِثْلُكُمْ، وَالْمَلَائِكَةُ تَتَأَدَّى مِمَّا يَتَأَدَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ، وَإِذَا كَانَ ابْنُ آدَمَ يَتَأَدَّى مِمَّنْ يَفْجُرُ وَيَعْصِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَإِنْ كَانَ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَمَا الظَّنُّ بِأَدَى الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ؟ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

ت قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ تَأَمَّلْ مَا تَصَمَّنُهُ هَذَا الْخَبْرُ عَنْ الْمَلَائِكَةِ مِنْ مَدْحِهِمْ بِالْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ... الخ.

ت الْعَمَى وَالصَّمَمَ وَالْبُكْمَ لِلْقَلْبِ بِالذَّاتِ: الْحَقِيقَةُ، وَلِلْجَوَارِحِ بِالْعَرَضِ وَالتَّبَعِيَّةِ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سُورَةُ الْحَجِّ: ٤٦]. وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ الْعَمَى الْحَسِّيِّ

عَنِ الْبَصْرِ، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ﴾ [سُورَةُ التَّوْرَةِ: ٦١]. وَقَالَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [سُورَةُ عَبَسَ: ١ - ٢]. وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْعَمَى التَّامُّ فِي الْحَقِيقَةِ: عَمَى الْقَلْبِ، حَتَّى إِنَّ عَمَى الْبَصْرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَلَا عَمَى، حَتَّى إِنَّهُ يَصِحُّ نَفْيُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ.

ت تَأْوِيلُ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ٣٨].

ت قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [سُورَةُ طه: ١٢٤]. فَسَرَّتِ الْمَعِيشَةُ الضَّنْكَ بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَلَا رَبِّبَ أَنَّهُ مِنَ الْمَعِيشَةِ الضَّنْكَ، وَالآيَةُ تَتَنَاوَلُ مَا هُوَ أَعْمٌ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَتْ نَكْرَةً فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ، فَإِنَّ عُمُومَهَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى... الخ.

ت لَا تَظُنَّ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ: ١٣ - ١٤] مُحْتَضٌ يَوْمِ الْمَعَادِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ لَاءٌ فِي نَعِيمٍ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ، وَهُوَ لَاءٌ فِي جَحِيمٍ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ، وَأَيُّ لَذَّةٍ وَنَعِيمٍ فِي الدُّنْيَا أَطْيَبُ مِنْ بَرِّ الْقَلْبِ، وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ، وَمَعْرِفَةِ الرَّبِّ وَمَحَبَّتِهِ، وَالْعَمَلِ عَلَى مُوَافَقَتِهِ؟ وَهَلِ الْعَيْشُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا عَيْشُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ؟

ت أَتَى اللَّهُ عَلَى خَلِيلِهِ بِسَلَامَةٍ قَلْبِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٨٣ - ٨٤]. وَقَالَ حَاكِيًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سُورَةُ الشُّعْرَاءِ: ٨٨ - ٨٩] وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الشُّرْكِ وَالْغُلِّ وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشُّحِّ وَالْكِبْرِ وَحُبِّ الدُّنْيَا وَالرِّيَاسَةِ... الخ.

ت قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٣٢].

وَقَدْ أَشْكَلَ فَهْمُ هَذَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَقَالَ: مَعْلُومٌ أَنَّ إِثْمَ قَاتِلِ مِائَةِ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ إِثْمِ قَاتِلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّمَا أَتَوْهُ مِنْ ظَنِّهِمْ أَنَّ التَّشْبِيهَ فِي مِقْدَارِ الإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ، وَاللَّفْظُ لَمْ يَدُلَّ عَلَى هَذَا ... الخ.

ت تَأْمَلْ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ٣٢]. وَقَوْلُهُ فِي اللُّوَاطِ: ﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٨٠]. تَبَيَّنَ لَهُ تَفَاوُتُ مَا بَيْنَهُمَا، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَكَرَ الفَاحِشَةَ فِي الزَّنى، أَيْ هُوَ فَاحِشَةٌ مِنَ الفَوَاحِشِ، وَعَرَفَهَا فِي اللُّوَاطِ ... الخ.

ت قَوْلَ بَعْضِ أَهْلِ البَصَائِرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [سُورَةُ العَنكَبُوتِ: ٥]: «لَمَّا عَلِمَ سُبْحَانَهُ شِدَّةَ شَوْقِ أَوْلِيَائِهِ إِلَى لِقَائِهِ، وَأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَهْتَدِي دُونَ لِقَائِهِ، ضَرَبَ لَهُمْ أَجَلًا وَمَوْعِدًا لِلِقَائِهِ ... الخ.

ت قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ: ١٦٥]. فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُشْرِكُ بِهِ نِدًّا يُحِبُّهُ كَمَا يُحِبُّ اللَّهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنْ أَصْحَابِ الأَنْدَادِ لِأَنْدَادِهِمْ.

وَقِيلَ: بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ أَحَبُّوا اللَّهَ، لَكِنْ لَمَّا شَرِكُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْدَادِهِمْ فِي المَحَبَّةِ ضَعَفَتْ مَحَبَّتُهُمْ لِلَّهِ، وَالْمُوحِدُونَ لِلَّهِ لَمَّا خَلَصَتْ مَحَبَّتُهُمْ لَهُ كَانَتْ أَشَدَّ مِنْ مَحَبَّةِ أَوْلِيائِكَ، وَالْعَدْلُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالتَّسْوِيَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَنْدَادِ هُوَ فِي هَذِهِ المَحَبَّةِ.

ت قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سُورَةُ الأنبياءِ: ٢٢] وَلَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ: لَمَّا وَجَدْتَا وَلَكِنَّا مَعْدُومَتَيْنِ، وَلَا قَالَ: لَعْدِمَتَا، إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُقَيِّمَهُمَا عَلَى وَجْهِ الفَسَادِ، لَكِنْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَا عَلَى وَجْهِ الصَّلَاحِ وَالإِسْتِقَامَةِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ مَعْبُودُهُمَا، وَمَعْبُودَ مَا حَوَاتَاهُ وَسَكَنَ فِيهَا ... الخ.

ت قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٤٢] فقيل: لا بتعوا السبيل إليه بالمعالية والفهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

قال شيخنا: والصحيح أن المعنى: لا بتعوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته، فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له، قال: ويدل على هذا وجوه... الخ.

ت كل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة، وكل ما تولد عن المعصية فهو خسران لصاحبه ويعد، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيهِمْ ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٠ - ١٢١].

فأخبر الله سبحانه في الآية الأولى: أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب به عمل صالح، وأخبر في الثانية: أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسهم، والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح، والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم.

ت قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة الواقعة: ٨٦ - ٨٧]. أي هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مذبذبين مقهورين ولا مجزيين، وهذه الآية محتاج إلى تفسير، فإنها سبقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب... الخ.

ف الدعاء، من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه، إما لضعفه في نفسه - بأن يكون دعاء لا يجبه الله، لما فيه من العدوان - وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله

وَجَمَعِيَّتِهِ عَلَيْهِ وَقَتِ الدُّعَاءِ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ القَوْسِ الرَّخْوِ جِدًّا، فَإِنَّ السَّهْمَ يَخْرُجُ مِنْهُ خُرُوجًا ضَعِيفًا، وَإِنَّمَا لِحُصُولِ المَانِعِ مِنَ الإِجَابَةِ: مِنْ أَكْلِ الحُرَامِ، وَالظُّلْمِ، وَرَيْنِ الدُّنُوبِ عَلَى القُلُوبِ، وَاسْتِيْلَاءِ العَقْلَةِ وَالشَّهْوَةِ وَاللَّهْوِ، وَغَلَّتِهَا عَلَيْهَا.

ف ادع الله كأنك في لجة البحر : وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال: قال مورق: ما وجدتُ للمؤمن مثلاً إلا رجل في البحر على خشية، فهو يدعو: يَا رَبِّ يَا رَبِّ لَعَلَّ اللهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ.

ف مِنَ الآفَاتِ الَّتِي تَمْتَعُ تَرْتُبُ أَثَرِ الدُّعَاءِ عَلَيْهِ: أَنْ يَسْتَعِجَلَ العَبْدُ، وَيَسْتَبْطِئَ الإِجَابَةَ، فَيَسْتَحْسِرُ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ بَذَرَ بَذْرًا أَوْ غَرَسَ غَرْسًا، فَجَعَلَ يَتَعَاهَدُهُ وَيَسْقِيهِ، فَلَمَّا اسْتَبْطَأَ كَمَالَهُ وَإِدْرَاكَهُ تَرَكَهُ وَأَهْمَلَهُ ... الخ.

ف دعاء لا يرد : إِذَا جَمَعَ مَعَ الدُّعَاءِ حُضُورَ القَلْبِ وَجَمْعِيَّتَهُ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى المَطْلُوبِ، وَصَادَفَ وَقْتًا مِنْ أَوْقَاتِ الإِجَابَةِ السَّنَةِ ... الخ.

ف الأَدْعِيَةُ وَالتَّعَوُّذَاتُ بِمَنْزِلَةِ السَّلَاحِ، وَالسَّلَاحُ بِضَارِيهِ، لَا بِحَدِّهِ فَقَطْ، فَمَتَى كَانَ السَّلَاحُ سِلَاحًا تَامًّا لَا أَقَّةَ بِهِ، وَالسَّاعِدُ سَاعِدٌ قَوِيٌّ، وَالمَانِعُ مَفْقُودٌ؛ حَصَلَتْ بِهِ النِّكَايَةُ فِي العَدُوِّ، وَمَتَى تَخَلَّفَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ تَخَلَّفَ التَّأثيرُ.

ف مِنْ أُلْهِمَ الدُّعَاءَ فَقَدْ أُرِيدَ بِهِ الإِجَابَةُ: كَانَ عَمْرٍو يَقُولُ: «إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الإِجَابَةِ، وَلَكِنْ هَمَّ الدُّعَاءِ، فَإِذَا أُهِمَّتُمْ الدُّعَاءَ، فَإِنَّ الإِجَابَةَ مَعَهُ.» فَمَنْ أُهِمَّ الدُّعَاءَ فَقَدْ أُرِيدَ بِهِ الإِجَابَةُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ: ٦٠].

ف مَا كَانَ الْوَأَزُعُ عَنْهُ طَبِيعِيًّا وَمَا لَيْسَ فِي الطَّبَاعِ دَاعٍ إِلَيْهِ اكْتِفِي بِالْتَّحْرِيمِ مَعَ التَّغْزِيرِ، وَلَمْ يَرْتَبْ عَلَيْهِ حَدًّا، كَأَكْلِ الرَّجِيعِ، وَشُرْبِ الدَّمِ، وَأَكْلِ الْمَيْتَةِ. وَمَا كَانَ فِي الطَّبَاعِ دَاعٍ إِلَيْهِ رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ بِقَدْرِ مَفْسَدَتِهِ، وَيَقْدِرُ دَاعِي الطَّبَعِ إِلَيْهِ... الخ.

ف تَأْمَلُ حِكْمَتَهُ فِي إِفْسَادِ الْعُضْوِ الَّذِي بَاشَرَ بِهِ الْجِنَايَةَ... الخ.

ف الْعُقُوبَةُ الشَّرْعِيَّةُ شَرَعَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ مَفْسَدَةِ الذَّنْبِ وَتَقَاضِي الطَّبَعِ لَهَا، وَجَعَلَهَا سُبْحَانَهُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ: الْقَتْلَ وَالْقَطْعَ وَالْجُلْدَ، وَجَعَلَ الْقَتْلَ بِإِزَاءِ الْكُفْرِ وَمَا يَلِيهِ وَيَقْرُبُ مِنْهُ، وَهُوَ الزُّنَا وَاللَّوْاطُ، فَإِنَّ هَذَا يُفْسِدُ الْأَدْيَانَ، وَهَذَا يُفْسِدُ الْأَنْسَابَ وَنَوْعَ الْإِنْسَانَ.

ف جَعَلَ سُبْحَانَهُ الْقَطْعَ بِإِزَاءِ فَسَادِ الْأَمْوَالِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ الْإِحْتِرَازُ مِنْهُ، لِأَنَّهُ يَأْخُذُ الْأَمْوَالَ فِي الْإِحْتِفَاءِ، وَيُنْقِبُ الدُّورَ، وَيَتَسَوَّرُ مِنْ غَيْرِ الْأَبْوَابِ، فَهُوَ كَالسَّنُورِ وَالْحَيَّةِ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُ، فَلَمْ تَرْتَفِعْ مَفْسَدَةُ سِرْقَتِهِ إِلَى الْقَتْلِ، وَلَا تَتَدَفَّعُ بِالْجُلْدِ، فَأَحْسَنُ مَا دُفِعَتْ بِهِ مَفْسَدَتُهُ إِبَانَةُ الْعُضْوِ الَّذِي يَتَسَلَّطُ بِهِ عَلَى الْجِنَايَةِ.

ف جَعَلَ اللَّهُ الذُّنُوبَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: قَسَمًا فِيهِ الْحُدُّ، فَهَذَا لَمْ يُشْرَعْ فِيهِ كَفَّارَةٌ اكْتِفَاءً بِالْحُدِّ.

وَقَسَمًا لَمْ يَرْتَبْ عَلَيْهِ حَدًّا، فَشُرِعَ فِيهِ الْكَفَّارَةُ، كَالْوَطْءِ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ، وَالْوَطْءِ فِي الْإِحْرَامِ، وَالظُّهَارِ، وَقَتْلِ الْخَطَا، وَالْحِنْثِ فِي الْيَمِينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَسَمًا لَمْ يَرْتَبْ عَلَيْهِ حَدًّا وَلَا كَفَّارَةً، وَهُوَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: مَا كَانَ الْوَأَزُعُ عَنْهُ طَبِيعِيًّا، كَأَكْلِ الْعِدْرَةِ، وَشُرْبِ الْبَوْلِ وَالدَّمِ. وَالثَّانِي: مَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَدْنَى مِنْ مَفْسَدَةِ مَا رَتَّبَ عَلَيْهِ الْحُدُّ، كَالنَّظَرِ وَالْقُبْلَةَ وَاللَّمْسَ وَالْمِحَادَثَةَ، وَسَرِقَةَ فَلْسٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

ف شرع الله الكفارات في ثلاثة أنواع من الذنوب: أحدها: ما كان مباح الأصل، ثم عرّض تحريمه فباشره في الحالة التي عرّض فيها التحريم. النوع الثاني: ما عقده الله من نذر أو بالله من يمين، أو حرّمه الله ثم أراد حله. النوع الثالث: ما تكون فيه جابرة لمافات.

ف لا يجتمع الحد والتعزير في معصية، بل إن كان فيها حد اكتفي به وإلا اكتفي بالتعزير، ولا يجتمع الحد والكفارة في معصية، بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها، وما فيه كفارة فلا حد فيه، وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها؟

فيه وجهان: وهذا كالوطء في الإحرام والصيام، ووطء الحائض، وإذا أوجبنا فيه الكفارة، فقيل: يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجنائية، وقيل: لا تعزير في ذلك، اكتفاء بالكفارة لأنها جابرة وماحية.

ف لا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل طوعاً واختياراً مانع من نفوذ ذلك الجزاء، وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه؟ قولان للسلف والخلف، وهما روايتان عن الإمام أحمد... الخ.

ف خصّ سبحانه حد الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتعزيره عن وطنه سنة... الخ.

ف حد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة، وذلك لأشتراك الزنا واللواط في الفحش، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره، فإن في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى، فإنه يفسد فساداً لا يرجى له بعده

صَلَاحٌ أَبَدًا، وَيَذْهَبُ خَيْرُهُ كُلُّهُ، وَمَخَّصُ الْأَرْضِ مَاءَ الْحَيَاءِ مِنْ وَجْهِهِ، فَلَا يَسْتَحِي بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ وَلَا مِنْ خَلْقِهِ، وَتَعْمَلُ فِي قَلْبِهِ وَرُوحِهِ نُطْفَةُ الْفَاعِلِ مَا يَعْمَلُ السُّمُّ فِي الْبَدَنِ.

ف اختلَفَ النَّاسُ هَلْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَفْعُولٌ بِهِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ يُحْكِيهِمَا... الخ.

ف اختلَفَ النَّاسُ فِي اللُّوِاطِ: هَلْ هُوَ أَغْلَظُ عُقُوبَةً مِنَ الزَّانِي، أَوِ الزَّانِي أَغْلَظُ عُقُوبَةً مِنْهُ، أَوْ عُقُوبَتُهُمَا سَوَاءٌ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: ... الخ.

ف أَطْبَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلِ اللُّوِاطِيِّ، لَمْ يَخْتَلَفْ مِنْهُمْ فِيهِ رَجُلَانِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتْ أَقْوَاهُمْ فِي صِفَةِ قَتْلِهِ، فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ اخْتِلَافًا مِنْهُمْ فِي قَتْلِهِ، فَحَكَاهَا مَسْأَلَةَ نِزَاعٍ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَهِيَ بَيْنَهُمْ مَسْأَلَةُ إِجْمَاعٍ لَا مَسْأَلَةَ نِزَاعٍ.

ف فِي الْأَجُوبَةِ عَمَّا احْتَجَّ بِهِ مَنْ جَعَلَ عُقُوبَةَ هَذِهِ الْفَاحِشَةِ دُونَ عُقُوبَةِ الزَّانِي... الخ.

ف أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ حُكْمَ التَّلَوُّطِ مَعَ الْمَمْلُوكِ كَحُكْمِهِ مَعَ غَيْرِهِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ تَلَوُّطَ الْإِنْسَانِ بِمَمْلُوكِهِ جَائِزٌ، وَاحْتَجَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [سُورَةُ الْمَعَارِجِ: ٣٠] وَقَاسَ ذَلِكَ عَلَىٰ أُمَّتِهِ الْمَمْلُوكَةَ فَهُوَ كَافِرٌ، يُسْتَتَابُ كَمَا يُسْتَتَابُ الْمُرْتَدُّ، فَإِنَّ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ، وَتَلَوُّطُ الْإِنْسَانِ بِمَمْلُوكِهِ كَتَلَوُّطِهِ بِمَمْلُوكٍ غَيْرِهِ فِي الْإِثْمِ وَالْحُكْمِ.

ف الرَّبُّ تَعَالَىٰ مَا أَمَرَ بِشَيْءٍ، ثُمَّ أَبْطَلَهُ رَأْسًا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُبْقِيَ بَعْضَهُ أَوْ بَدَلَهُ، كَمَا أَبْقَى شَرِيعةَ الْفِدَاءِ، وَكَمَا أَبْقَى اسْتِحْبَابَ الصَّدَقَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْمُنَاجَاةِ، وَكَمَا أَبْقَى الْخُمْسَ الصَّلَوَاتِ بَعْدَ رَفْعِ الْخُمْسِينَ وَأَبْقَى ثَوَابَهَا، وَقَالَ: «وَلَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ، هِيَ خُمْسٌ فِي الْفِعْلِ، وَهِيَ خُمْسُونَ فِي الْأَجْرِ».

ف ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ وَقَعَ فِي سَهْمِهِ يَوْمَ جُلُولَاءَ جَارِيَةً كَانَتْ عُنُقَهَا يُرْبِقُ مِنْ فِصَّةٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَمَا صَبَرْتُ عَنْهَا أَنْ قَبَّلْتُهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ، وَبِهَذَا احْتَجَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَلَىٰ جَوَازِ الْإِسْتِمْنَاعِ مِنَ

المُسَيِّبَةَ قَبْلَ الإِسْتِبْرَاءِ بِغَيْرِ الوَطْءِ، بِخِلَافِ الأُمَّةِ المُشْتَرَاةِ. وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ انْفِسَاخَ المَلِكِ لَا يُتَوَهَّمُ فِي المُسَيِّبَةِ بِخِلَافِ المُشْتَرَاةِ، فَقَدْ يَنْفَسِخُ فِيهَا المَلِكُ، فَيَكُونُ مُسْتَمْتَعًا بِأُمَّةٍ غَيْرِهِ.

ط لَوْ أَحْسَنَ العَبْدُ التَّدَاوِيَّ بِالفَاتِحَةِ، لَرَأَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا فِي الشِّفَاءِ. وَمَكَثَتْ بِمَكَّةَ مُدَّةً يَعْتَرِينِي أَدْوَاءٌ وَلَا أَجْدُ طِيبًا وَلَا دَوَاءً، فَكُنْتُ أُعَالِجُ نَفْسِي بِالفَاتِحَةِ، فَأَرَى لَهَا تَأْثِيرًا عَجِيبًا، فَكُنْتُ أَصِفُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشْتَكِي أَلْمًا، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْرَأُ سَرِيعًا.

ط الأَدْوِيَّةُ وَالْأَدْوَاءُ الحَسِيَّةُ، عَدَمُ تَأْثِيرِهَا قَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ قَبُولِ الطَّبِيعَةِ لِذَلِكَ الدَّوَاءِ، وَقَدْ يَكُونُ لِمَانِعٍ قَوِيٍّ يَمْنَعُ مِنْ اقْتِضَائِهِ أَثَرَهُ، فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ إِذَا أَخَذَتِ الدَّوَاءَ بِقَبُولٍ تَامٍّ كَانَ انْتِفَاعُ البَدَنِ بِهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ القَبُولِ، فَكَذَلِكَ القَلْبُ إِذَا أَخَذَ الرُّقَى وَالتَّعَاوِيذَ بِقَبُولٍ تَامٍّ، وَكَانَ لِلرَّاقِي نَفْسٌ فَعَّالَةٌ وَهَمَّةٌ مُؤَثَّرَةٌ فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ.

ط الدُّعَاءُ مِنْ أَنْفَعِ الأَدْوِيَّةِ، وَهُوَ عَدُوُّ البَلَاءِ، يَدْفَعُهُ، وَيُعَاجِزُهُ، وَيَمْنَعُ نَزْوَلَهُ، وَيَرْفَعُهُ، أَوْ يُخَفِّفُهُ إِذَا نَزَلَ، وَهُوَ سِلَاحُ المُؤْمِنِ.

ل وَالْحَيَاءُ مُشْتَقٌّ مِنَ الحَيَاةِ، وَالغَيْثُ يُسَمَّى حَيَاً - بِالْقَصْرِ - لِأَنَّ بِهِ حَيَاةَ الأَرْضِ وَالنَّبَاتِ وَالدَّوَابِّ، وَكَذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالْحَيَاءِ حَيَاةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ لَا حَيَاءَ فِيهِ فَهُوَ مَيِّتٌ فِي الدُّنْيَا شَقِيٌّ فِي الآخِرَةِ.

أ التَّحْقِيقُ أَنَّ التَّرْكَ قِسْمَانِ: فَالتَّرْكَ المُضَافُ إِلَى عَدَمِ السَّبَبِ المُقْتَضِي عَدَمِيَّ، وَالمُضَافُ إِلَى السَّبَبِ المُبَاعِ مِنَ الفِعْلِ وَجُودِيَّ.

ر التَّقَرُّبُ إِلَى رَبِّ العَالَمِينَ، وَطَلَبُ مَرْضَاتِهِ، وَالبِرُّ وَالإِحْسَانُ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ الجَالِيَةِ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَأَضْدَادَهَا مِنْ أَكْبَرِ الأَسْبَابِ الجَالِيَةِ لِكُلِّ شَرٍّ، فَمَا اسْتُجِلِبَتْ نِعْمَ اللهُ، وَاسْتُدْفِعَتْ نِقْمَتُهُ، بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَالإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ.

ر أَمْرَانِ بِهِمَا تَتِمُّ سَعَادَةُ العَبْدِ وَفَلَاحُهُ، أَحَدُهُمَا: أَنْ يَعْرِفَ تَفَاصِيلَ أَسْبَابِ الشَّرِّ وَالحَيْرِ، وَيَكُونَ لَهُ بَصِيرَةٌ فِي ذَلِكَ بِنَيْشَاهِدِهِ فِي العَالَمِ، وَمَا جَرَّبَهُ فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَمَا سَمِعَهُ مِنْ أَخْبَارِ الأُمَّمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا. الأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ يَحْذَرَ مُغَالَطَةَ نَفْسِهِ عَلَى هَذِهِ الأَسْبَابِ.

ر الفقيه يَكْفِيهِ الوحي: تُدَبَّرُ القُرْآنَ وَفِيهِ أَسْبَابُ الحَيْرِ وَالشَّرِّ جَمِيعًا مُفَصَّلَةً مَبِينَةً، ثُمَّ السُّنَّةُ، فَإِنَّهَا شَقِيقَةُ القُرْآنِ، وَهِيَ الوحي الثَّانِي، وَمَنْ صَرَفَ إِلَيْهِمَا عِنَايَتَهُ اكْتَفَى بِهِمَا مِنْ غَيْرِهِمَا، وَهُمَا يُرِيَانِكَ الحَيْرَ وَالشَّرَّ وَأَسْبَابَهُمَا، حَتَّى كَأَنَّكَ تُعَايِنُ ذَلِكَ عِيَانًا.

ر مغالطات النفس: العَبْدُ يَعْرِفُ أَنَّ المُعْصِيَةَ وَالعَفْلَةَ مِنْ الأَسْبَابِ المُضِرَّةِ لَهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَلا بُدَّ، وَلَكِنْ تُغَالِطُهُ نَفْسُهُ ١ بِالإِتْكَالِ عَلَى عَفْوِ اللهِ وَمَغْفِرَتِهِ تَارَةً، وَ ٢ بِالتَّسْوِيفِ بِالتَّوْبَةِ ٣ وَالإِسْتِغْفَارِ بِاللِّسَانِ تَارَةً، وَ ٤ بِفِعْلِ المُنْدُوبَاتِ تَارَةً، وَ ٥ بِالعِلْمِ تَارَةً، وَ ٦ بِالإِحْتِجَاجِ بِالقَدْرِ تَارَةً، وَ ٧ بِالإِحْتِجَاجِ بِالأَشْبَاهِ وَالنُّظَرَاءِ تَارَةً، وَ ٨ بِالإِقْتِدَاءِ بِالأَكْبَرِ تَارَةً أُخْرَى.

ر يَقُولُ بَعْضُهُمْ: يَوْمَ عَاشُورَاءَ يُكْفَرُ ذُنُوبَ العَامِ كُلِّهَا، وَيَبْقَى صَوْمُ عَرَفَةَ زِيَادَةً فِي الأَجْرِ، وَلَمْ يَدْرِ هَذَا المُعْتَرِ، أَنَّ صَوْمَ رَمَضَانَ، وَالصَّلَوَاتِ الحَمْسِ، أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ صِيَامِ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَيَوْمِ عَاشُورَاءَ، وَهِيَ إِثْمًا تُكْفَرُ مَا بَيْنَهَا إِذَا اجْتَنِبْتَ الكِبَائِرَ. وَلا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ صَوْمُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَيَوْمِ عَاشُورَاءَ مُكْفِّرًا لِجَمِيعِ

ذُنُوبِ الْعَامِ عَلَى عُمُومِهِ، وَيَكُونُ مِنْ نُصُوصِ الْوَعْدِ الَّتِي لَهَا شُرُوطٌ وَمَوَانِعٌ، وَيَكُونُ إِضْرَارُهُ عَلَى الْكِبَائِرِ مَا نَعَا مِنَ التَّكْفِيرِ.

ر سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ يَقُولُ: كَمَا أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ الْأَنْبِيَاءُ فَشَرُّ النَّاسِ مَنْ تَشَبَهَ بِهِمْ يَوْمَهُمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَخَيْرُ النَّاسِ بَعْدَهُمُ الْعُلَمَاءُ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّادِقُونَ، وَالْمُخْلِصُونَ، وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ تَشَبَهَ بِهِمْ يَوْمَهُمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ.

ر وَفِي الْحَلِيَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ عَنِ حُدَيْفَةَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ تَرَكْتُ بَنُو إِسْرَائِيلَ دِينَهُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أُمِرُوا بِشَيْءٍ تَرَكُوهُ، وَإِذَا نُهِوا عَنْ شَيْءٍ رَكِبُوهُ، حَتَّى انْسَلَخُوا مِنْ دِينِهِمْ كَمَا يَنْسَلِخُ الرَّجُلُ مَنْ قَمِيصِهِ. وَمَنْ هَاهُنَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْقُبْلَةَ بَرِيدُ الْجَمَاعِ، وَالْغِنَاءُ بَرِيدُ الزُّنَا، وَالنَّظْرُ بَرِيدُ الْعَشَقِ، وَالْمَرُضُ بَرِيدُ الْمَوْتِ.

ر هُنَا نُكْتَةٌ دَقِيقَةٌ يَغْلُطُ فِيهَا النَّاسُ فِي أَمْرِ الذَّنْبِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يَرُونَ تَأْثِيرَهُ فِي الْحَالِ، وَقَدْ يَتَأَخَّرُ تَأْثِيرُهُ فَيُنْسَى، وَيَطْنُ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَا يُعْبَرُ بَعْدَ ذَلِكَ ... الخ.

ر الْمَعَاصِي تُوهِنُ الْقَلْبَ وَالْبَدْنَ، أَمَا وَهْنُهَا لِلْقَلْبِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ، بَلْ لَا تَزَالُ تُوهِنُهُ حَتَّى تُزِيلَ حَيَاتَهُ بِالْكُلِّيَّةِ. وَأَمَا وَهْنُهَا لِلْبَدَنِ فَإِنَّ الْمُرَّ مِنْ قُوَّتِهِ مِنْ قَلْبِهِ، وَكُلَّمَا قَوِيَ قَلْبُهُ قَوِيَ بَدَنُهُ، وَأَمَا الْفَاجِرُ فَإِنَّهُ - وَإِنْ كَانَ قَوِيَ الْبَدَنِ - فَهُوَ أضعفُ شَيْءٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ، فَتُخَوِّنُهُ قُوَّتُهُ عِنْدَ أَحْوَجِ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ فَتَأْمَلُ قُوَّةَ أَبْدَانِ فَارِسَ وَالرُّومِ، كَيْفَ خَانَتْهُمْ، أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، وَقَهَرَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِقُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ؟
ر قد: تَصِيرَ الطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي هَيْئَاتٍ رَاسِخَةً، وَصِفَاتٍ لَازِمَةً ... الخ.

ر الْمَعْصِيَةِ: تُضعِفُ الْقَلْبَ عَنْ إِرَادَتِهِ، فَتَقْوِي إِرَادَةَ الْمَعْصِيَةِ، وَتُضعِفُ إِرَادَةَ التَّوْبَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا، إِلَى أَنْ تَنْسَلِخَ مِنْ قَلْبِهِ إِرَادَةُ التَّوْبَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَوْ مَاتَ نِصْفُهُ لَمَا تَابَ إِلَى اللَّهِ، فَيَأْتِي بِالِاسْتِغْفَارِ وَتَوْبَةِ الْكَذَّابِينَ

بِاللِّسَانِ بَشِيءٍ كَثِيرٍ، وَقَلْبُهُ مَعْتُودٌ بِالْمَعْصِيَةِ، مُصِرٌّ عَلَيْهَا، عَازِمٌ عَلَى مُوَاقَعَتِهَا مَتَى أَمَكَّنَهُ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَمْرَاضِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى الْهَلَاكِ.

ر كُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عَذَّبَ بِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ ... الخ.

ر وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّمَا تُعْمِي بِصِيرَةِ الْقَلْبِ، وَتَطْمِسُ نُورَهُ، وَتَسُدُّ طُرُقَ الْعِلْمِ، وَتَحْجُبُ مَوَادَّ الْهُدَايَةِ لَا يَزَالُ هَذَا النُّورُ يَضَعُفُ وَيَضْمَحِلُّ، وَظِلَامُ الْمَعْصِيَةِ يَقْوَى حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ فِي مِثْلِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ ... الخ.

ر الْبُعْدُ مِنَ اللَّهِ مَرَاتِبٌ، بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، فَالْغَفْلَةُ تَبْعِدُ الْقَلْبَ عَنِ اللَّهِ، وَبُعْدُ الْمَعْصِيَةِ أَعْظَمُ مِنْ بُعْدِ الْغَفْلَةِ، وَبُعْدُ الْبِدْعَةِ أَعْظَمُ مِنْ بُعْدِ الْمَعْصِيَةِ، وَبُعْدُ النِّفَاقِ وَالشَّرِكِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

ر إِذَا وَقَعَتِ الْقَطِيعَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ ... الخ.

ر إِنَّمَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ اللَّهِ سَبَبًا لِمَحَقِّ بَرَكَاتِ الرِّزْقِ وَالْأَجَلِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ مُوَكَّلٌ بِهَا وَبِأَصْحَابِهَا، فَسُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ، وَحَوَالَتُهُ عَلَى هَذَا الدِّيْوَانِ وَأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِهِ الشَّيْطَانُ وَيُقَارِنُهُ، فَبَرَكَتُهُ مَمْحُوقَةٌ، ... الخ.

ر فَكُلَّمَا عَمِلَ الْعَبْدُ مَعْصِيَةً نَزَلَ إِلَى أَسْفَلٍ، دَرَجَةً، وَلَا يَزَالُ فِي نَزْوِلٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْأَسْفَلِينَ، وَكُلَّمَا عَمِلَ طَاعَةً اِرْتَفَعَ بِهَا دَرَجَةً، وَلَا يَزَالُ فِي اِرْتِفَاعٍ حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْأَعْلَى ... الخ.

ر التَّزْوِيلُ أَمْرٌ لَا زِمَّ لِلْإِنْسَانِ، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى غَفْلَةٍ، فَهَذَا مَتَى اسْتَيْقَظَ مِنْ غَفْلَتِهِ عَادَ إِلَى دَرَجَتِهِ، أَوْ إِلَى أَرْفَعِ مِنْهَا بِحَسَبِ يَقِظَتِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى مَبَاحٍ لَا يَنْبُوِي بِهِ الْإِسْتِعَانَةَ عَلَى الطَّاعَةِ، فَهَذَا مَتَى رَجَعَ إِلَى الطَّاعَةِ فَقَدْ يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ، وَقَدْ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا، وَقَدْ يَرْتَفِعُ عَنْهَا، فَإِنَّهُ قَدْ

يَعُودُ أَعْلَى هِمَّةٍ مِمَّا كَانَ، وَقَدْ يَكُونُ أَضْعَفَ هِمَّةً، وَقَدْ تَعُودُ هِمَّتُهُ كَمَا كَانَتْ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نُزُولُهُ إِلَى مَعْصِيَةٍ، إِمَّا صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ، فَهَذَا يَحْتَاجُ فِي عَوْدِهِ إِلَى دَرَجَتِهِ إِلَى تَوْبَةٍ نَصُوحٍ، وَإِنَابَةٍ صَادِقَةٍ.

ر اختَلَفَ النَّاسُ هَلْ يَعُودُ بَعْدَ التَّوْبَةِ إِلَى دَرَجَتِهِ الَّتِي كَانَ فِيهَا، بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَمْحُو أَثَرَ الذَّنْبِ، وَتَجْعَلُ وَجُودَهُ كَعَدَمِهِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، أَوْ لَا يَعُودُ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَأْثِيرُهَا فِي اسْتِقْطِ الْعُقُوبَةِ، وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الَّتِي فَاتَتْهُ فَإِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا... الخ.

ر مُوجِبَ السَّيِّئَاتِ وَالْحَسَنَاتِ تَدَافِعُ وَيَكُونُ الْحُكْمُ لِلْغَالِبِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَكُلَّمَا قَوِيَ جَانِبُ الْحَسَنَاتِ كَانَ الرَّدُّ أَقْوَى، فَإِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، فَبِحَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ يَكُونُ الدَّفْعُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

ر يقول إبليس: وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ فِي بَنِي آدَمَ سِلَاحٌ أَبْلَغُ مِنْ هَذَيْنِ السَّلَاحَيْنِ، وَإِنَّمَا أَخْرَجْتُ أَبْوِيَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بِالشَّهْوَةِ، وَإِنَّمَا أَلْقَيْتُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ أَوْلَادِهِمْ بِالْغَضَبِ، فِيهِ قَطَعْتُ أَرْحَامَهُمْ، وَسَفَكْتُ دِمَاءَهُمْ، وَيَهُ قَتَلَ أَحَدُ ابْنَيْ آدَمَ أَخَاهُ.

ر الذُّنُوبَ هِيَ أَمْرَاضٌ، مَتَى اسْتَحْكَمَتْ قَتَلَتْ وَلَا بَدَّ... الخ.

ر عُقُوبَاتُ الذُّنُوبِ نَوْعَانِ: شَرْعِيَّةٌ، وَقَدْرِيَّةٌ، فَإِذَا أُفِيِمَتِ الشَّرْعِيَّةُ رُفِعَتِ الْعُقُوبَةُ الْقَدْرِيَّةُ وَخَفَّتْهَا، وَلَا يَكَادُ الرَّبُّ تَعَالَى يَجْمَعُ عَلَى الْعَبِيدِ بَيْنَ الْعُقُوبَتَيْنِ إِلَّا إِذَا لَمْ يَفِ أَحَدُهُمَا بِرَفْعِ مَوْجِبِ الذَّنْبِ، وَلَمْ يَكْفِ فِي زَوَالِ دَائِهِ... الخ.

ر الْعُقُوبَاتُ الْقَدْرِيَّةُ نَوْعَانِ: نَوْعٌ عَلَى الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ، وَنَوْعٌ عَلَى الْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ... الخ.

ر عُقُوبَاتِ السَّيِّئَاتِ تَنْوَعُ إِلَى عُقُوبَاتِ شَرِّعِيَّةٍ، وَعُقُوبَاتِ قَدَرِيَّةٍ، وَهِيَ إِمَّا فِي الْقَلْبِ، وَإِمَّا فِي الْبَدَنِ، وَإِمَّا فِيهَا، وَعُقُوبَاتِ فِي دَارِ الْبَرْزَخِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَعُقُوبَاتِ يَوْمِ عَوْدِ الْأَجْسَادِ. فَالذَّنْبُ لَا يُخْلُو مِنْ عُقُوبَةٍ أَلْبَتَّةَ... الخ.

ر عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ أَنَّهُ قَالَ: الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: فَالْقَلْبُ أَجْرُدٌ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، وَقَلْبٌ أَعْلَفٌ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ، وَقَلْبٌ مَنكُوسٌ: فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ، وَقَلْبٌ مَمْدَّةٌ مَادَّتَانِ: مَادَّةٌ إِيَّانٍ وَمَادَّةٌ نِفَاقٍ، وَهُوَ لَمَّا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهَا.

ر سُبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ مِنْ قَلْبٍ مَنكُوسٍ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ؟ وَقَلْبٍ مَمْسُوحٍ وَقَلْبٍ مَحْسُوفٍ بِهِ؟ وَكَمْ مِنْ مَقْتُونٍ بِنِئَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَمَعْرُورٍ بِسِتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ وَمُسْتَدْرَجٍ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ وَكُلُّ هَذِهِ عُقُوبَاتٌ وَإِهَانَاتٌ وَيُظَنُّ الْجَاهِلُ أَنَّهَا كَرَامَةٌ.

ر اشْتَدَّتْ حَاجَةُ الْعَبْدِ بَلْ صُرُورَتُهُ، إِلَى أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحْوَجَ مِنْهُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا. ف.... الخ.

ر الذُّنُوبُ مُتَفَاوِتَةٌ فِي دَرَجَاتِهَا وَمَفَاسِدِهَا فَتَفَاوَتَتْ عُقُوبَاتُهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ تَفَاوُتِهَا... الخ.

ر الْأَعْمَالُ الْمُكْفِرَةُ لَهَا ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ: إِحْدَاهَا: أَنْ تَقْصُرَ عَنْ تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ لِضَعْفِهَا وَضَعْفِ الْإِخْلَاصِ فِيهَا وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا، بِمَنْزِلَةِ الدَّوَاءِ الضَّعِيفِ الَّذِي يَنْقُصُ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدَّاءِ كَمِيَّةً وَكَيْفِيَّةً. الثَّانِيَّةُ: أَنْ تُقَاوِمَ الصَّغَائِرَ وَلَا تَرْتَقِيَ إِلَى تَكْفِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْكِبَائِرِ. الثَّلَاثَةُ: أَنْ تَقْوَى عَلَى تَكْفِيرِ الصَّغَائِرِ وَتَبْقَى فِيهَا قُوَّةٌ تُكْفِّرُ بِهَا بَعْضَ الْكِبَائِرِ.

ر مَفْسَدَةُ الذُّنُوبِ إِنَّمَا هِيَ تَابِعَةٌ لِلْجِرَاءَةِ وَالتَّوْبُ عَلَى حَقِّ الرَّبِّ، وَهَذَا لَوْ شَرِبَ رَجُلٌ خُمْرًا، أَوْ وَطِئَ فَرْجًا حَرَامًا، وَهُوَ لَا يَعْتَقِدُ مُحْرِمَهُ، لَكَانَ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْجَهْلِ وَبَيْنَ مَفْسَدَةِ ارْتِكَابِ الْحَرَامِ، وَلَوْ فَعَلَ

ذَلِكَ مَنْ يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ، لَكَانَ آتِيًا بِإِحْدَى الْمَفْسَدَيْنِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ دُونَ الْأَوَّلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَفْسَدَةَ الذَّنْبِ تَابِعَةٌ لِلْجَرَاءَةِ وَالتَّوْبِ.

ر مَنْ حَفِظَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ أَحْرَزَ دِينَهُ: اللَّحَظَاتِ، وَالْحَطَرَاتِ، وَاللَّفْظَاتِ، وَالْحُطُوتِ... الخ.

ر أَحْسَسِ النَّاسِ هِمَّةً وَأَوْضِعْهُمْ نَفْسًا، مَنْ رَضِيَ مِنَ الْحَقَائِقِ بِالْأَمَانِي الْكَادِيَةِ، وَاسْتَجَلَبَهَا لِنَفْسِهِ وَتَجَلَّى بِهَا، وَهِيَ لَعْمُرُ اللَّهِ رُءُوسُ أَمْوَالِ الْمُفْلِسِينَ، وَمَتَاجِرُ الْبَطَّالِينَ، وَهِيَ قُوَّةُ النَّفْسِ الْفَارِغَةِ، الَّتِي قَدْ قَنَعَتْ مِنَ الْوَصْلِ بِزُورَةِ الْخِيَالِ، وَمِنَ الْحَقَائِقِ بِكَوَاذِبِ الْأَمَالِ، وَهِيَ أَضْرُّ شَيْءٍ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَيَتَوْلَدُ مِنْهَا الْعَجْزُ وَالْكَسَلُ، وَتَوْلَدُ التَّفْرِيطَ وَالْحُسْرَةَ وَالنَّدَمَ.

ر الْحَطَرَاتُ أَفْسَامٌ تَدُورُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصُولٍ: خَطَرَاتٌ يَسْتَجَلِبُ بِهَا الْعَبْدُ مَنَافِعَ دُنْيَاهُ. وَخَطَرَاتٌ يَسْتَدْفِعُ بِهَا مَضَارَّ دُنْيَاهُ. وَخَطَرَاتٌ يَسْتَجَلِبُ بِهَا مَصَالِحَ آخِرَتِهِ. وَخَطَرَاتٌ يَسْتَدْفِعُ بِهَا مَضَارَّ آخِرَتِهِ... الخ.

ر أَعْلَى الْفِكْرِ وَأَجْلَهَا وَأَنْفَعُهَا: مَا كَانَ لِلَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ، فَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ أَنْوَعٌ... الخ.

ر وَرُودَ الْخَاطِرِ لَا يُضُرُّ، وَإِنَّمَا يُضُرُّ اسْتِدْعَاؤُهُ وَمُحَادَثَتُهُ، فَالْخَاطِرُ كَالْمَارِّ عَلَى الطَّرِيقِ، فَإِنْ تَرَكْتَهُ مَرًّا وَانصَرَفَ عَنْكَ، وَإِنْ اسْتَدْعَيْتَهُ سَحَرَكَ بِحَدِيثِهِ وَعُرُورِهِ، وَهُوَ أَخْفُّ شَيْءٍ عَلَى النَّفْسِ الْفَارِغَةِ الْبَاطِلَةِ، وَأَثْقَلُ شَيْءٍ عَلَى الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ الشَّرِيفَةِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُطْمَئِنَّةِ.

ر الْقَلْبُ لَوْحٌ فَارِغٌ، وَالْحَوَاطِرُ نُقُوشٌ تُنْقَشُ فِيهِ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ نُقُوشٌ لَوْحِهِ مَا بَيْنَ كَذِبٍ وَعُرُورٍ وَخُدَعٍ، وَأَمَانِيٍّ بَاطِلَةٍ، وَسَرَابٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ؟ فَأَيُّ حِكْمَةٍ وَعِلْمٍ وَهُدًى يَتَّقِشُ مَعَ هَذِهِ النُّقُوشِ؟ وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَّقِشَ ذَلِكَ فِي لَوْحِ قَلْبِهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ كِتَابَةِ الْعِلْمِ النَّافِعِ فِي مَحَلٍّ مَشْغُولٍ بِكِتَابَةِ مَا لَا مَنَفْعَةَ فِيهِ، فَإِنْ لَمْ يُفْرِغِ الْقَلْبَ مِنَ الْحَوَاطِرِ الرَّدِيَّةِ، لَمْ تَسْتَقِرَّ فِيهِ الْحَوَاطِرُ النَّافِعَةُ، فَإِنَّهَا لَا تَسْتَقِرُّ إِلَّا فِي مَحَلٍّ فَارِغٍ.

ر كثيرٌ من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر، وأن لا يمكّنوا خاطرًا يدخل قلوبهم حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها، وهو لاء حفظوا شيئًا وغابت عنهم أشياء، فإتهمم أخلوا القلوب من أن يطرّقها خاطرٌ فبقيت فارغة لا شيء فيها، فصادفها الشيطان خالية، فبذّر فيها الباطل في قوالب أوهمهم أنّها أعلى الأشياء وأشرفها... الخ.

ر الكمال في امتلاء القلب من الخواطر والإرادات والفكر في تحصيل مراضي الرب تعالى من العبد ومن الناس، والفكر في طرق ذلك والتوصل إليه، فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكرًا وإرادات لذلك، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكرًا وإرادات لحظوظه وهو أهين كانت... الخ.

ر إذا أردت أن تستدل على ما في القلب، فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلعك على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى. قال يحيى بن معاذ: القلوب كالقدور تعلي بما فيها، وألستها مغارفها... الخ.

ر من العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والإحترار من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقه وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويضعب عليه التحفظ من حركة لسانه... الخ.

ر أيسر حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد. واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط؟ على قولين أظهرهما الأول.

ر في اللسان أفتان عظيمتان، إن خلص العبد من إحداهما لم يخلص من الأخرى: أفة الكلام، وأفة السكوت... الخ.

ر اعلم أن سوء الحاتمة - أعادنا الله تعالى منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به والله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في العقد، أو إصرار على الكبائر، وإفدام على العظائم،

فَرَبَّمَا غَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْزِلَ بِهِ الْمَوْتُ قَبْلَ التَّوْبَةِ، فَيَأْخُذُهُ قَبْلَ إِصْلَاحِ الطَّوْبَةِ، وَيَصْطَلِمُهُ قَبْلَ الْإِنَابَةِ فَيُظْفِرُ بِهِ الشَّيْطَانُ عِنْدَ تِلْكَ الصَّدْمَةِ، وَيَخْتَطِفُهُ عِنْدَ تِلْكَ الدَّهْشَةِ، وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ... الخ.

ر دَوَاءِ دَاءٍ تَعَلَّقَ الْقَلْبُ بِالْمَحَبَّةِ الْهُوَائِيَّةِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: أَحَدُهُمَا: حَسْمُ مَادَّتِهِ قَبْلَ حُصُولِهَا. وَالثَّانِي: قَلْعُهَا بَعْدَ نَزْوِهَا، وَكِلَاهُمَا يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَتَعَدِّرٌ عَلَى مَنْ لَمْ يُعِنِّهِ اللَّهُ، فَإِنَّ أَرْزَمَةَ الْأُمُورِ بِيَدَيْهِ... الخ.

ر بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ مَنْفَذٌ وَطَرِيقٌ يُوجِبُ انْتِقَالَ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، وَأَنْ يَصْلِحَ بِصَلَاحِهِ، وَيُفْسِدَ بِفَسَادِهِ، فَإِذَا فَسَدَ الْقَلْبُ؛ فَسَدَ النَّظَرُ، وَإِذَا فَسَدَ النَّظَرُ؛ فَسَدَ الْقَلْبُ، وَكَذَلِكَ فِي جَانِبِ الصَّلَاحِ، فَإِذَا خَرِبَتِ الْعَيْنُ وَفَسَدَتْ؛ خَرِبَ الْقَلْبُ وَفَسَدَ، وَصَارَ كَالْمُزْبَلَةِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ النَّجَاسَاتِ وَالْقَادُورَاتِ وَالْأَوْسَاحِ، فَلَا يَصْلُحُ لِسُكْنَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالْأَنْسِ بِهِ وَالسُّرُورِ بِقُرْبِهِ فِيهِ، وَإِنَّمَا يَسْكُنُ فِيهِ أَضْدَادُ ذَلِكَ.

ر النَّفْسُ لَا تَتْرُكُ مَحْبُوبًا إِلَّا لِمَحْبُوبٍ أَعْلَى مِنْهُ، أَوْ خَشِيَّةٍ مَكْرُوهٍ حُصُولُهُ أَضُرَّ عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْمَحْبُوبِ، وَهَذَا يَحْتَاجُ صَاحِبَهُ إِلَى أَمْرَيْنِ إِنْ فَقَدَهُمَا أَوْ أَحَدَهُمَا لَمْ يَتَنَفَعْ بِنَفْسِهِ. أَحَدُهُمَا: بَصِيرَةٌ صَاحِبَةٌ يُفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ دَرَجَاتِ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ. الثَّانِي: قُوَّةٌ عَزِيمٌ وَصَبْرٌ يَتِمَكَّنُ بِهِ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ... الخ.

ر لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجْتَمَعَ فِي الْقَلْبِ حُبُّ الْمَحْبُوبِ الْأَعْلَى وَعَشْقُ الصُّورِ أَبَدًا، بَلْ هُمَا ضِدَّانِ لَا يَتَلَقَّانِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ... الخ.

ر خَاصِيَّةُ التَّعَبُّدِ: الْحُبُّ مَعَ الْخُضُوعِ، وَالذَّلُّ لِلْمَحْبُوبِ، فَمَنْ أَحَبَّ مَحْبُوبًا وَخَضَعَ لَهُ فَقَدْ تَعَبَّدَ قَلْبُهُ لَهُ، بَلِ التَّعَبُّدُ آخِرُ مَرَاتِبِ الْحُبِّ.

ر مرَاتِبِ الحُبِّ ... الخ.

ر لَمَّا سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ الْوَالِدَ فَأَعْطِيَهُ، وَتَعَلَّقَ حُبَّهُ بِقَلْبِهِ، فَأَخَذَ مِنْهُ شُعْبَةً، غَارَ الْحَبِيبُ عَلَى خَلِيلِهِ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ لِعَیْرِهِ، فَأَمَرَهُ بِذَبْحِهِ، وَكَانَ الْأَمْرُ فِي الْمَنَامِ لِيَكُونَ تَنْفِيزُ الْمَأْمُورِ بِهِ أَعْظَمَ ائْتِلَاءً وَامْتِحَانًا، وَلَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ ذَبْحَ الْوَالِدِ، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ ذَبْحَهُ مِنْ قَلْبِهِ؛ لِيَخْلُصَ الْقَلْبُ لِلرَّبِّ، فَلَمَّا بَادَرَ الْخَلِيلُ إِلَى الْاِمْتِحَالِ، وَقَدَّمَ مَحَبَّةَ اللَّهِ عَلَى مَحَبَّةِ وَلَدِهِ، حَصَلَ الْمَقْصُودُ فَرَفَعَ الذَّبْحَ، وَفَدَى بِذَبْحٍ عَظِيمٍ.

ر ظَنَّ بَعْضُ الْغَالِطِينَ - أَنَّ الْمَحَبَّةَ أَكْمَلَ مِنَ الْخُلَّةِ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ، وَمُحَمَّدًا حَبِيبُ اللَّهِ - وَهَذَا مِنْ جَهْلِهِ، فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ عَامَّةً، وَالْخُلَّةَ خَاصَّةً، وَالْخُلَّةَ نَهَايَةَ الْمَحَبَّةِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ خَلِيلٌ غَيْرُ رَبِّهِ مَعَ إِخْبَارِهِ بِحُبِّهِ لِعَائِشَةَ وَلَا بِبِهَا وَلِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَغَيْرِهِمْ.

ر الْعَبْدُ لَا يَتْرُكُ مَا يُحِبُّهُ وَيَهْوَاهُ، وَلَكِنْ يَتْرُكُ أَضْعَفَهَا مَحَبَّةً لِأَقْوَاهُمَا مَحَبَّةً، كَمَا أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَكْرَهُهُ؛ حِصُولِ مَا مَحَبَّتُهُ أَقْوَى عِنْدَهُ مِنْ كَرَاهَتِهِ مَا يَفْعَلُهُ، أَوْ لِخِلَاصِهِ مِنْ مَكْرُوهٍ ... الخ.

ر أَصْلُ الشَّرِّ مِنْ ضَعْفِ الْإِدْرَاكِ وَضَعْفِ النَّفْسِ وَدَنَاءَتِهَا، وَأَصْلُ الْخَيْرِ مِنْ كَمَالِ الْإِدْرَاكِ وَقُوَّةِ النَّفْسِ وَشَرَفِهَا وَشَجَاعَتِهَا ... الخ

ر الْحُبُّ وَالْإِرَادَةُ أَصْلُ كُلِّ فِعْلٍ وَمَبْدُؤُهُ، وَالْبُغْضُ وَالْكَرَاهَةُ أَصْلُ كُلِّ تَرْكِ وَمَبْدُؤُهُ، وَهَاتَانِ الْقَوَاتَانِ فِي الْقَلْبِ، أَصْلُ سَعَادَةِ الْعَبْدِ وَشَقَاوَتِهِ. وَوُجُودُ الْفِعْلِ الْاِخْتِيَارِيِّ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوُجُودِ سَبَبِهِ مِنَ الْحُبِّ وَالْإِرَادَةِ ... الخ.

ر قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: فَكَّرْتُ فِيمَا يَسْعَى فِيهِ الْعُقَلَاءُ، فَرَأَيْتُ سَعِيَهُمْ كُلَّهُمْ فِي مَطْلُوبٍ وَاحِدٍ وَإِنْ اِخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَحْصِيلِهِ ... الخ (١).

ر الْمُحِبُّ قَسَمَانِ: مُحِبٌّ لِنَفْسِهِ، وَمُحِبُّ لِعَیْرِهِ، وَالْمُحِبُّ لِعَیْرِهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْمُحِبُّوبِ لِنَفْسِهِ، دَفْعًا لِلتَّسْلُسْلِ الْمَحَالِ، وَكُلُّ مَا سِوَى الْمُحِبُّوبِ الْحَقِّ فَهُوَ مُحِبُّوبٌ لِعَیْرِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُحِبُّ لِدَاتِهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، ... الخ.

ر الْمُحِبُّوبُ لِعَیْرِهِ قَسَمَانِ: أَحَدُهُمَا: مَا يَلْتَدُّ الْمُحِبُّ بِإِدْرَاكِهِ وَحُصُولِهِ. وَالثَّانِي: مَا يَتَأَلَّمُ بِهِ وَلَكِنْ يَحْتَمِلُهُ لِإِفْضَائِهِ إِلَى الْمُحِبُّوبِ، كَثَرَبِ الدَّوَاءِ الْكَرِيهِ ... الخ.

ر الْأُمُورُ أَرْبَعَةٌ: مَكْرُوهٌ يُوصَلُّ إِلَى مَكْرُوهٍ، وَمَكْرُوهٌ يُوصَلُّ إِلَى مُحِبٍّ، وَمُحِبُّوبٌ يُوصَلُّ إِلَى مُحِبٍّ، وَمُحِبُّوبٌ يُوصَلُّ إِلَى مَكْرُوهٍ ... الخ.

ر لَا تَصِحُّ الْمُوَالَاةُ إِلَّا بِالْمَعَادَاةِ ... الخ.

ر حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَقِيقَةَ الشَّهَادَةِ، ... الخ.

ر كَلَّمَا كَانَ وُجُودُ الشَّيْءِ أَنْفَعًا لِلْعَبْدِ وَهُوَ إِلَيْهِ أَحْوَجُ، كَانَ تَأَلُّمُهُ بِفَقْدِهِ أَشَدَّ، وَكَلَّمَا كَانَ عَدَمُهُ أَنْفَعًا لَهُ كَانَ تَأَلُّمُهُ بِوُجُودِهِ أَشَدَّ، ... الخ.

ر لَمَّا كَانَتِ الْمُحِبَّةُ جِنْسًا تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْقَدْرِ وَالْوَصْفِ، كَانَ أَغْلَبَ مَا يُذَكَّرُ فِيهَا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُخْتَصُّ بِهِ وَيَلِيْقُ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِهَا، وَمَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ ... الخ.

ر كُلُّ حَيٍّ لَهُ إِرَادَةٌ وَمُحِبَّةٌ وَعَمَلٌ بِحَسَبِهِ، وَكُلُّ مُتَحَرِّكٍ فَأَصْلُ حَرَكَتِهِ الْمُحِبَّةُ وَالْإِرَادَةُ، وَلَا صَلَاحَ لِلْمَوْجُودَاتِ إِلَّا بِأَنْ تَكُونَ حَرَكَاتِهَا وَمُحِبَّتِهَا لِطَائِرِهَا وَبَارِئِهَا وَحْدَهُ، كَمَا لَا وُجُودَ لَهَا إِلَّا بِإِبْدَاعِهِ وَحْدَهُ.

(١) كلام ابن حزم.

ر الحَيِّ الْعَاقِلِ لَا يَخْتَارُ مَحَبَّةَ مَا يَضُرُّهُ وَيُشْقِيهِ، وَإِنَّمَا يَصُدِّرُ ذَلِكَ عَنْ جَهْلٍ وَظُلْمٍ ... الخ.

ر أخبرنا الله عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي أتى به أمر لا يضرب عليه إلا من صبره الله، فإن موقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، وذلك من وجوه: ... الخ.

ر دواء العشق الشركي: أن يعرف أن ما أتى به من هذا الداء المضاد للتوحيد، إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله تعالى، ... الخ.

ر عشق الصور يشغل العبد عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور، أما مصالح الدين فإتباعها منوط بلم شعث القلب وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شيء تشعياً وتشتيتاً له. وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

ر أبعُد القلوب من الله قلوب عشاق الصور، وإذا بعد القلب من الله طرفته الآفات، وتولاه الشيطان من كل ناحية، واستولى عليه لم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيبه وفساده، وبعد منه وليه، ومن لا سعادة له ولا فرح ولا سرور إلا بقربه وولايته؟

ر العاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء. فأما مقام ابتدائه: قالوا: يجب عليه مدافعتة بكل ما يقدر عليه، إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذراً قدرًا وشرعًا، فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه - وهذا مقام التوسط والابتداء - فعليه كتمان ذلك، وأن لا يفشيئه إلى الخلق، ولا يشمت بمحبوبه ويهينكه بين الناس، فيجمع بين الشرك والظلم.

ر عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يُحْكَمَ عَلَى نَفْسِهِ عَشَقَ الصُّورِ، لِئَلَّا يُؤَدِّيَهُ ذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْمَفَاسِدِ أَوْ أَكْثَرِهَا أَوْ بَعْضِهَا،
... الخ.

ر الْمَحَبَّةُ لَهَا دَاعِيَانِ: الْجَمَالُ، وَالْجَلَالُ وَالرَّبُّ تَعَالَى لَهُ الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، بَلِ
الْجَمَالَ كُلَّهُ لَهُ، وَالْإِجْلَالُ كُلُّهُ مِنْهُ، فَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُحِبَّ لِدَاتِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ سِوَاهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ
إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣١].

ر كَيْفَ لَا يُحِبُّ الْقُلُوبُ مَنْ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُجِيبُ
الدَّعَوَاتِ، وَيُقِيلُ الْعَثَرَاتِ، وَيَغْفِرُ الْخَطِيئَاتِ، وَيَسْتُرُ الْعَوْرَاتِ، وَيَكْشِفُ الْكُرْبَاتِ، وَيُغِيثُ اللَّهْفَاتِ،
وَيُنِيلُ الطَّلَبَاتِ سِوَاهُ؟ ... الخ.

ر كَمَالَ اللَّذَّةِ وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَنَعِيمِ الْقَلْبِ وَاتِّهَاجِ الرُّوحِ تَابِعٌ لِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: كَمَالُ الْمُحْبُوبِ فِي
نَفْسِهِ وَجَمَالِهِ، وَأَنَّهُ أَوْلَى بِإِثَارِ الْمُحِبَّةِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ. وَالْأَمْرُ الثَّانِي: كَمَالُ مُحِبَّتِهِ، وَاسْتِنْفَاعِ الْوَسْعِ فِي حُبِّهِ،
وَإِثَارِ قُرْبِهِ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ... الخ.

ر أَعْظَمُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَلِدَاتِهَا: هُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الرَّبِّ ﷻ، وَسَمَاعُ كَلَامِهِ مِنْهُ ... الخ.

ر لَدَاتُ الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ ... الخ.

ر إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مَا عِنْدَكَ وَعِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، فَانظُرْ مَحَبَّةَ الْقُرْآنِ مِنْ قَلْبِكَ، ... الخ.

ر مَحَبَّةُ النِّسَاءِ مِنْ كَمَالِ الْإِنْسَانِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً.

ر عَشَقَ النِّسَاءَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ ... الخ.

ر النَّاسُ فِي الْعَشَقِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ ... الخ.

ر
 وَحَسْبُ قَبِيلِ الْعَشِقِ أَنْ يَصِحَّ لَهُ هَذَا الْأَثَرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَتَّى يَصْبِرَ لِلَّهِ،
 وَيَعْفَ لِلَّهِ، وَيَكْتُمَ لِلَّهِ، لَكِنَّ الْعَاشِقَ إِذَا صَبَرَ وَعَفَّ وَكْتَمَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مَعْشُوقِهِ، وَآثَرَ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَخَوْفِهِ
 وَرِضَاهُ، هَذَا أَحَقُّ مَنْ دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَيَأْتِي
 الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ٤٠ - ٤١]. وَتَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَمْتًا﴾
 [سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٤٦].

.... آخر الفوائد المتقاة